أرض الذكريات

٣٠٠ لوحة رائعة من القرن الماضي

سوريا ـ لبنان ـ فلسطين ـ الاردن

رحلة الدكتور لورتيت عميد كلية الطب في ليون (فرنسا)

١٨٧٥ ـ ١٨٨٠

لوحات فريدة لا مثيل لها ، مع نص تفصيلي مشوّق للمدن والقرى والناس

أرض الذكريات

شركة المطبوعات



للتوزيع والنشر

بناية الوهاد - شارع جان - دارك
ص.ب. ٨٣٧٥
بيروت - لبنان

هاتف : ٣٤٤٢٣٦ - ٣٤٥٤٦٠ / ٢ - ٣٥٠٧٢١
فاكس : ٥٢٢١٠٧ - ٩ - ٣٥٧ / ٦٠٢٠٢٩ - ٩٦١١
تلكس : ٢٢٦٦١

الطبعة الثانية ١٩٩٥

المقدمة

هذا الكتاب سجلّ فريد لرحلة ممتعة ومميّزة قام بها الدكتور «لورتية» عميد كلية الطب في جامعة ليون في فرنسا عام ١٨٧٥م ، إلى المنطقة التي كانت تعرف باسم سوريا ، والتي أضحت تشمل في المفهوم «الجيو - بوليتيكي» الحديث أطراف تركيا فسوريا ولبنان وفلسطين والاردن .

رحلة دامت ما يقارب خمسة أعوام انطلقت بحراً من مرفأ مرسيليا الفرنسي عبر الطرق البحرية المألوفة مروراً بالجزر والمضائق المختلفة المجاورة للشواطىء الايطالية فاليونانية وصولاً إلى محاذاة الشواطىء التركية فميناء اللاذقية السوري ومنه إلى ميناء طرابلس فمرفأ بيروت . وقد تخلّل كل ذلك محطات متفاوتة الأهمية والطول تبعاً لتفاوت المواقع والموانيء في أهميتها التاريخية والجغرافية .

في بيروت يترك د . «لورتية» وصحبه البحر ليصبح الترحال براً بواسطة قافلة كبيرة من الخيل والبعير محمّلة بمختلف أنواع العدّة والعتاد ، ومعها المرافقون والحرس و «المكاريّة» والدليل ، وكل ما يمكن أن يلزم لرحلة برية طويلة عبر السواحل والجبال والسهول والوديان .

من بيروت تنطلق القافلة جنوباً باتجاه صيدا وصور ، ثم عكا وحيفا والناصرة والسامرة ، فالقدس والخليل وبيت لحم ويافا ، فالبحر الميت ووادي الاردن وأريحا ، ثم جبل الطور وبحيرة طبريا واربد وصفد وبانياس وحاصبيا . ومن هناك إلى دمشق فبعلبك صعوداً عبر جبال لبنان وقمم السلسلة الغربية ، والعودة أخيراً إلى الساحل عبر جبيل وصولاً إلى بيروت من جديد .

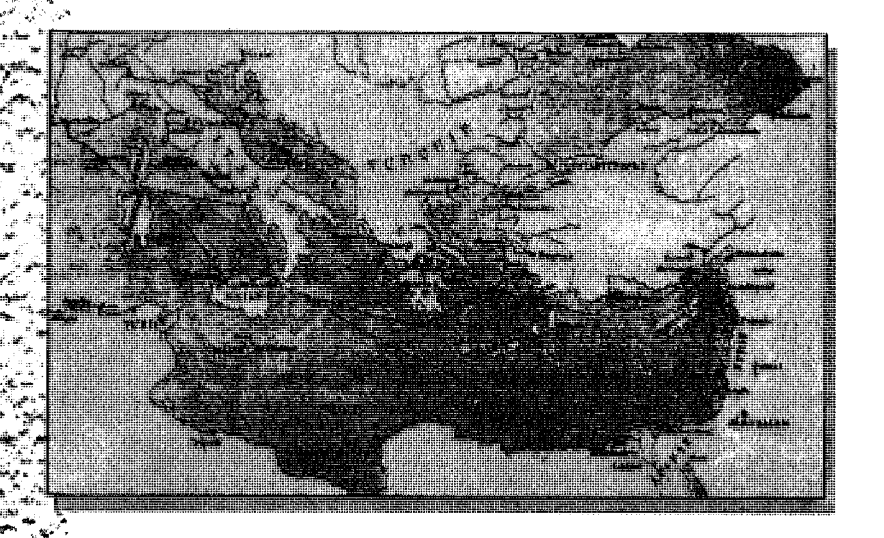
تخلّلت هذه الرحلة الطويلة محطات كثيرة ومختلفة في شتى المدن والقرى والمواقع التي عبرت فيها القافلة . وفي كل محطة كان الكاتب يسهب أحياناً ويوجز أحياناً أخرى في وصفه للمواقع والآثار ، والتاريخ والسكان وطبائعهم وتقاليدهم ، والنبات والحيوان والطيور . كل ذلك إضافة إلى أحداث الرحلة ومسارها وكل ما يعترضها من ظروف مختلفة .

هذا الكتاب سجل حافل وغني حول كل تلك المواضيع ، وإن كان الزمن قد تجاوز بعضها وأسقطت الأيام والاكتشافات اللاحقة بعضاً آخر منها . ولكن يبقى أن من أهم ما في هذا الكتاب ، إن لم يكن أهمه على الاطلاق ، تلك الصور والرسوم التي تزين صفحاته وتملأ طياته لتجعل منه ما يشبه الموسوعة المصورة . وأجمل ما في هذه الناحية التصويرية أن الكاتب لم يستعمل الصور الفوتوغرافية التي التقطها أثناء الرحلة ، بل دفع بها إثر عودته إلى مجموعة من الرسامين المهرة ، كما نفّذ بعضها بنفسه ، ليخرج الكتاب من كل ذلك بمجموعة نفيسة وفريدة من اللوحات الفنية المختلفة الأنواع والمواضيع ، مما يجعل منه مؤلفاً فريداً فيه فائدة التاريخ ومتعة المغامرة وذاك الشعور الراقي الذي تحركه الأعمال الفنية المتقنة .

من متن هذا الكتاب ونصه الكامل نكتفي بما يخدم غايتنا من هذه النسخة الجديدة ، في إبراز الاطار التاريخي والجغرافي لمسار الرحلة مجسداً بتلك اللوحات الفنية الرائعة ، كل ذلك في أجواء عابقة بلذة الترحال ونشوة الإقامة في أحضان الطبيعة ، ومتعة التعرّف إلى طبائع البشر وصفات بعض أنواع الحيوان والنبات ، ورهبة الوقوف أمام الصروح والهياكل والآثار التاريخية العظيمة .

حميد شلق

الفصل الاول

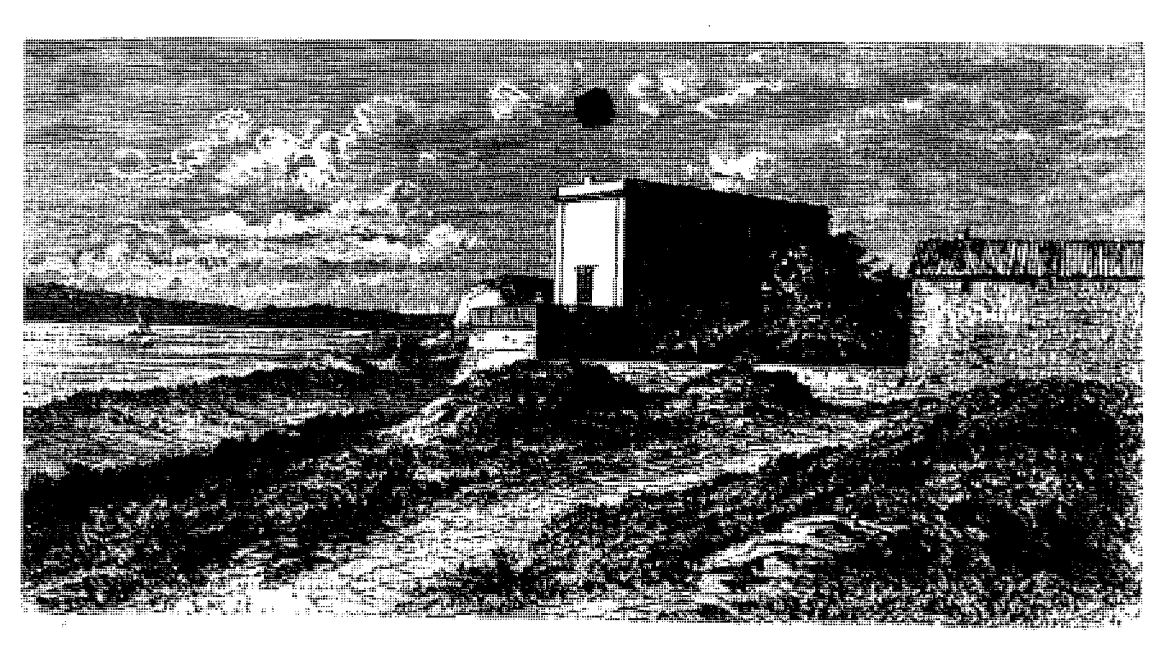


من مرسيليا إلى اسكندرونة

في الطريق البحرية بين مرسيليا والاسكندرونة ، وقريباً من شواطىء كورسيكا ، يقع مضيق «بونيفاشيو» المثير للاعجاب والذي يعتبر المرور فيه محفوفاً بالخطر الشديد ، لا سيما في الليل وخلال العواصف البحرية نظراً لكثرة ما يعترضه من جزر وصخور . الجبال المحيطة بالمضيق تكاد تكون مهجورة إلاّ من بعض رعاة قطعان الماعز . نعبر قناة الدب ما بين شاطىء سردينا من جهة وشواطىء أرخبيل صغير مكوّن من جزيرة «مادلين» وجزيرة «كابريرا» .

جزيرة «كابريرا» هذه تتمتع بأهمية خاصة بعدما أضحت مقراً لأحد أشهر قادة العصر «غاريبالدي» . البيت الأبيض الذي نشاهده في الصورة ، والواقع في خليج الجزيرة هو القصر المتواضع الذي اختاره بطل الاستقلال الايطالي ليمضي فيه أيامه الأخيرة محاطاً بمحبة أبنائه وعماله ، إضافة إلى بعض الصيادين المتبقين في الجزيرة .

دَرَجَ رعاة الماعز في العديد من الجزر الصغيرة في المتوسط على إضرام النيران



جزيرة «كابريرا» (منزل غاريبالدي)
رسم د . لنسولو ـ عن صورة فوتوغرافية

في النباتات والأعشاب كل عام ليفسحوا المجال أمام نموّ أعشاب جديدة تكفي قطعانهم في العام التالي . عمل الرعاة هذا مضافاً إليه اهمال السكان ، حوّل تلك الجزر إلى كتل صخرية عارية تكتسحها السيول مع كل شتاء ، جارفة الأتربة وما تبقى من نبات . ونشاهد هنا جزيرة «سريجو» القاحلة والواقعة عند طرف مضيق «سرثي» ، والتي كانت في الماضي مكسوة بالخضرة والأشجار .

وسط دائرة متعرجة من الجزر تقع جزيرة «سيرا» بين جزيرة «سيفانوس» جنوباً وجزيرة «سرفوس» شمالاً . إنها عبارة عن صخرة ضخمة مثلثة الشكل ويبلغ محيطها ثلاثة وعشرين كيلومتراً ، من دلائل أهميتها في التاريخ القديم أن «هوميروس» ذكرها قائلاً إنها موطن «أومية» خادم الاله «أوليس» وابن «ستثيوس» ملك «سيرا» . ما يزال مرفأ هذه الجزيرة من أكثر المرافىء حركة في البحر المتوسط فهو محطة للمراكب والسفن ومخزن للبضائع بالنسبة لحركة التجارة ما بين الشرق ومرسيليا والبحر الأسود . وخلال حرب الاستقلال اليونانية ازدادت الجزيرة شهرة لأنها أضحت ملجأ للكثير من اليونانيين الهاربين من الأتراك لا سيما وأنها كانت تحت الحماية الفرنسية .

جزيرة «سيرا» المعروفة أيضاً باسم «هرموبوليس» ذات تكوين يشبه المدرّج ، وهي عبارة عن هضبتين مخروطيتين بينهما واد عميق . أجمل ما يميّزها منازلها المبنية من الحجارة البيضاء وشوارعها الضيقة ذات العقود والقناطر ، والسلالم الرخامية التي تصعد نحو المدينة القديمة التي ترتفع عند قمتها كنيسة القديس

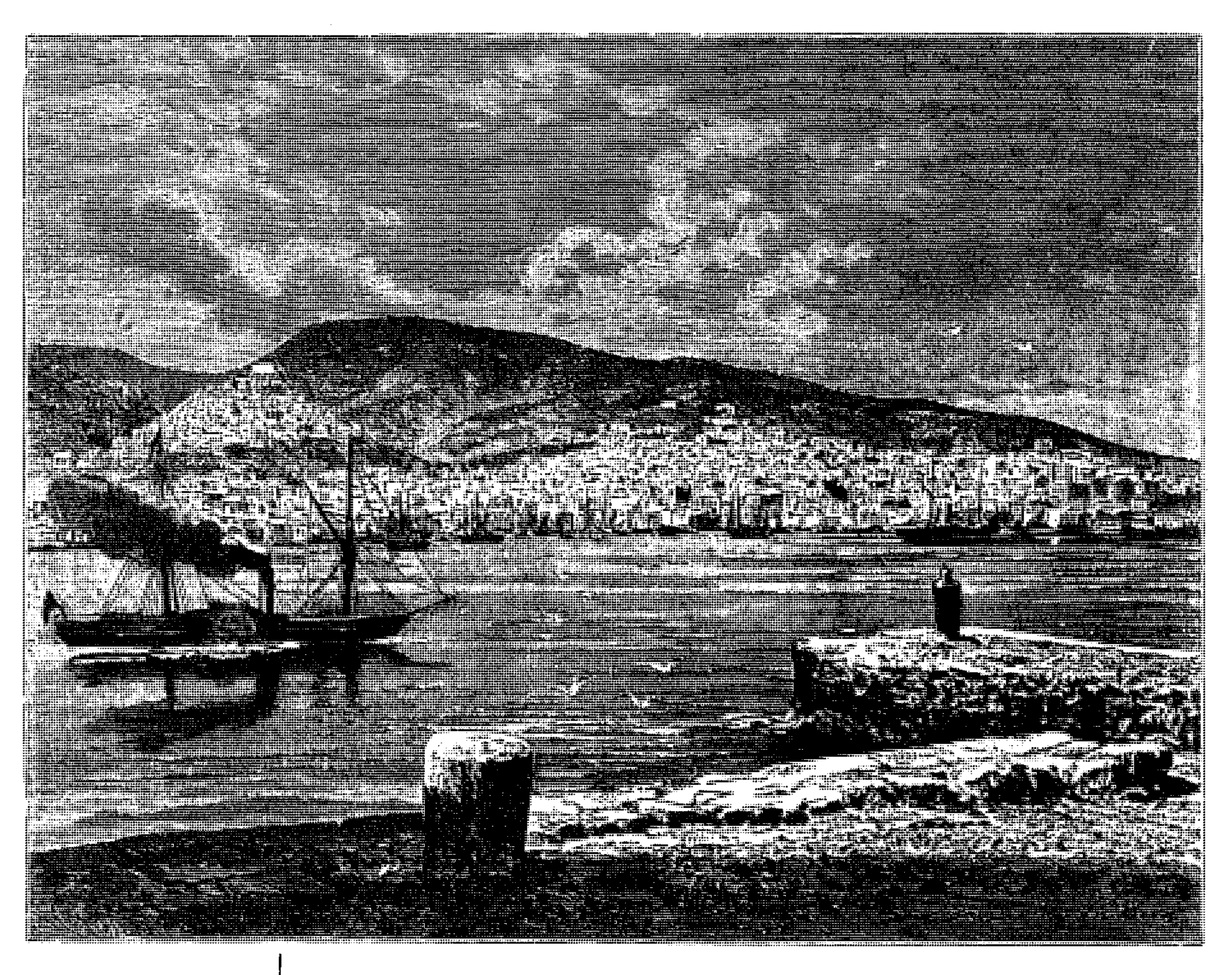


جزيرة «سريجو»
رسم ج . فويلييه
عن صورة فوتوغرافيا

جرجس والتي أضحت اليوم كاتدرائية لاتينية . تطل تلك القمة على منظر رائع . فبعد المدينة وشوارعها المتداخلة نجد المرفأ وما فيه من مراكب ، ثم تلك الجزر المنثورة قريباً وبعيداً : شمالاً هناك جزر «جيورا» و «اندروس» ، وشرقاً «زيا» ، «ترما» و «سرفوس» ، وجنوباً «باروس» «انتيباروس» «ناكسوس» و «سيفانوس» ، وإذا صفا الطقس أمكن رؤية جزر «سانتورين» «أنافي» وجزيرة «ميكانوس» غرباً .

باستثناء الأشجار المزروعة في الحدائق المحيطة بالمرفأ نجد جزيرة سيرا جرداء من الأشجار . أما المياه العذبة فيجري الحصول عليها من نبع عند سفح المدينة حيث نجد النساء والأطفال ينقلون المياه في الجرار من أسفل الهضبة إلى أعلاها حيث المدينة والمنازل .

يعتبر خليج «سميرنه» من أجمل خلجان المتوسط وأكثرها أماناً ، وهو يقع على شاطىء آسيا الصغرى ويحتضن مدينة «سميرنه» القديمة التي أصبحت مزيجا من التراث القديم والطراز الأوروبي الحديث . من مظاهر الحداثة مثلاً مرفأ



جزيرة «سيرا»
رسم ج . فويلييه
عن صورة فوتوغرافية

المدينة الذي فقد طابعه القديم بعدما صار يضم الأرصفة الحديثة والمخازن والمستودعات والمقاهي . يُضاف إلى ذلك سكة القطار الحديدي التي تخترق المدينة وتصل إلى آسيا الوسطى . أمّا التراث القديم فيتجسّد بداخل المدينة بما يحويه من شوارع ضيقة وأبنية قديمة وأسواق لا جديد فيها سوى أنها أضحت تضمّ ، إضافة إلى السلع القديمة ، البضائع الآتية من الشرق كما من الغرب . فإلى جانب الأصباغ والسجاد والأسلحة القديمة والتوابل هناك عطور فرنسا وكافيار روسيا ومربّيات (confiture) سيرا والمجوهرات المصنوعة بدقة وجمال فائقين .

ومن المشاهدات الملفتة في شوارع «سيمرنه» وأزقّتها قوافل الجمال المربوطة إلى بعضها بأذيالها ، وعلى رأس كل قافلة حمار صغير يقودها إلى الخان أو السوق (البازار) . تأتي هذه القوافل من وسط أسيا الصغرى محملة بالبضائع ، وقد تكون آتية من أماكن أكثر بعداً ، كوادي الفرات مثلاً عبر حلب ، أو من بلاد فارس أو من أرمينيا .

إنها جمال ضخمة وهي أشد قوة وعزماً من تلك الموجودة في سوريا والجزائر ، كما أن أجسادها مكسوة بوبر كثيف وطويل . والأرجح أن هضاب آسيا الوسطى هي الموطن الأصلي لهذا الجمل .

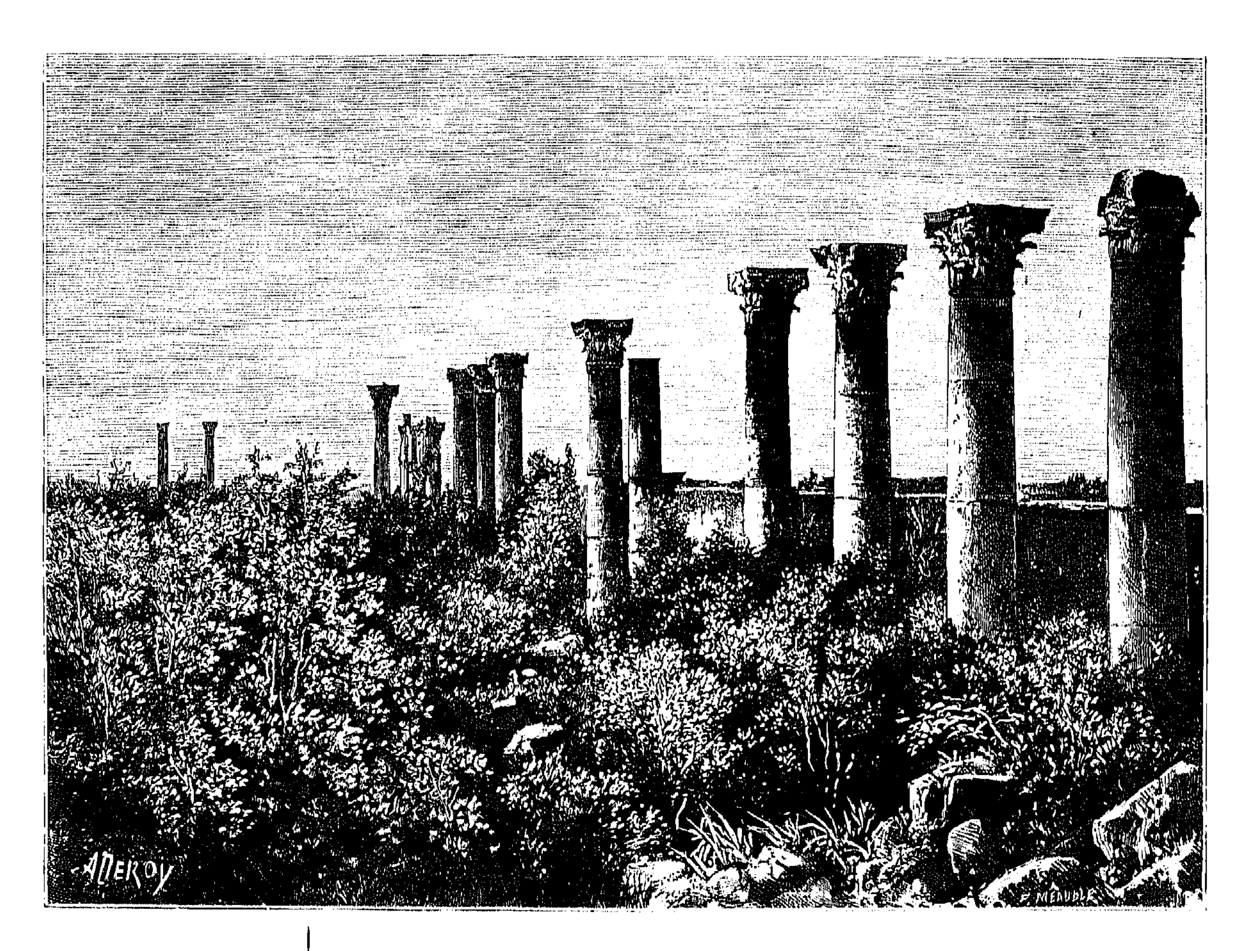
ميناء جزيرة رودس صغير . قليل العمق ، وتحيط به الصخور . لذلك تبقى السفن الكبيرة خارجه وترسو في عرض البحر عرضة للأمواج والعواصف البحرية .

رودس جزيرة هادئة وعريقة . تحيط بها أسوار مزدوجة ومرتفعة يتوسطها برج عال مربع الجدران وهي ما تزال تحمي المدينة على الرغم من تصدّعها وتآكلها بفعل البحر والزلازل والحروب . تقوم المدينة على جوانب هضبة تزيّنها المآذن وتحيط بها حقول الزيتون وبساتين البرتقال والليمون . وفي وسط الجزيرة ترتفع قمة جبل الياس (٢٦٢٠ قدماً) . الشارع الرئيسي فيها هو شارع الفرسان ، حيث ما تزال المباني والفنادق الأثرية الضخمة ؛ ومن أهمّها كاتدرائية القديس حنّا وقصر كبار السادة . وفي أسفل المدينة ، وسط الحدائق والبساتين يقوم مسجد صغير جميل البناء وذلك حول نبع ماء متدفق .

من المشاهدات الطريفة في مياه الميناء الزرقاء الصافية تلك الكرات الرخامية الضخمة والتي ليست سوى قذائف مدفعية كان السلطان سليمان العثماني قد قصف بها جدران رودس حين هاجمها عام ١٥٢٢م .

تقع مدينة مرسينا على شاطىء خليج جميل من خلجان آسيا الصغرى المتوسطية . انها عبارة عن مدينة صغيرة لا يتجاوز عدد منازلها الثلاثين وهي تستخدم كمخازن للبضائع التي تحملها القوافل من أواسط آسيا الصغرى . ليس

في مرسينا مرفأ حقيقي ، بل تبقى المراكب بعيداً عن الشاطىء حيث بُني رصيفان عائمان على أوتاد وأعمدة مما يسهّل عملية تفريغ البضائع وتحميلها . خلف المنازل تمتد بساتين خضراء ترتفع فيها أشجار المشمش والاجاص التي تنتج ثماراً رائعة وبكميات تكفي لتصديرها إلى أماكن بعيدة مثل رودس وبيروت . من هذا المرفأ أيضاً يجري تصدير الأصواف والقطن إلى أسواق فرنسا وانكلترا . نحو الغرب ، وعلى مرتفع صغير تبدو آثار سور قديم ، ووراءه بقليل يجري نهر ضيّق يبرز مجراه



آثار «بومبايبوليس» قرب مرسينا
رسم أ . ديروي
عن صورة فوتوغرافية

في السهل بما يحيط به من عشب أخضر . أمّا السكان فهم مزيج غريب من الأتراك والعرب و «السوريين» والزنوج وغيرهم .

على مسافة ستة كيلومترات من مرسينا ، وفي أرض شبيهة بالمستنقعات ، نجد نصباً ضخماً فريداً من نوعه . إنه عبارة عن صخرة ضخمة منتصبة بارتفاع يبلغ سبعة أمتار ، فيما يبلغ عرض بعض جوانبها أربعة أمتار وبعضها الآخر مترين . إنها معروفة هناك باسم «ديرلكي تاش» أي الصخرة المنتصبة .

قريباً من مرسينا ، على مسافة ساعة منها تقريباً تقع الآثار المتبقية من مدينة

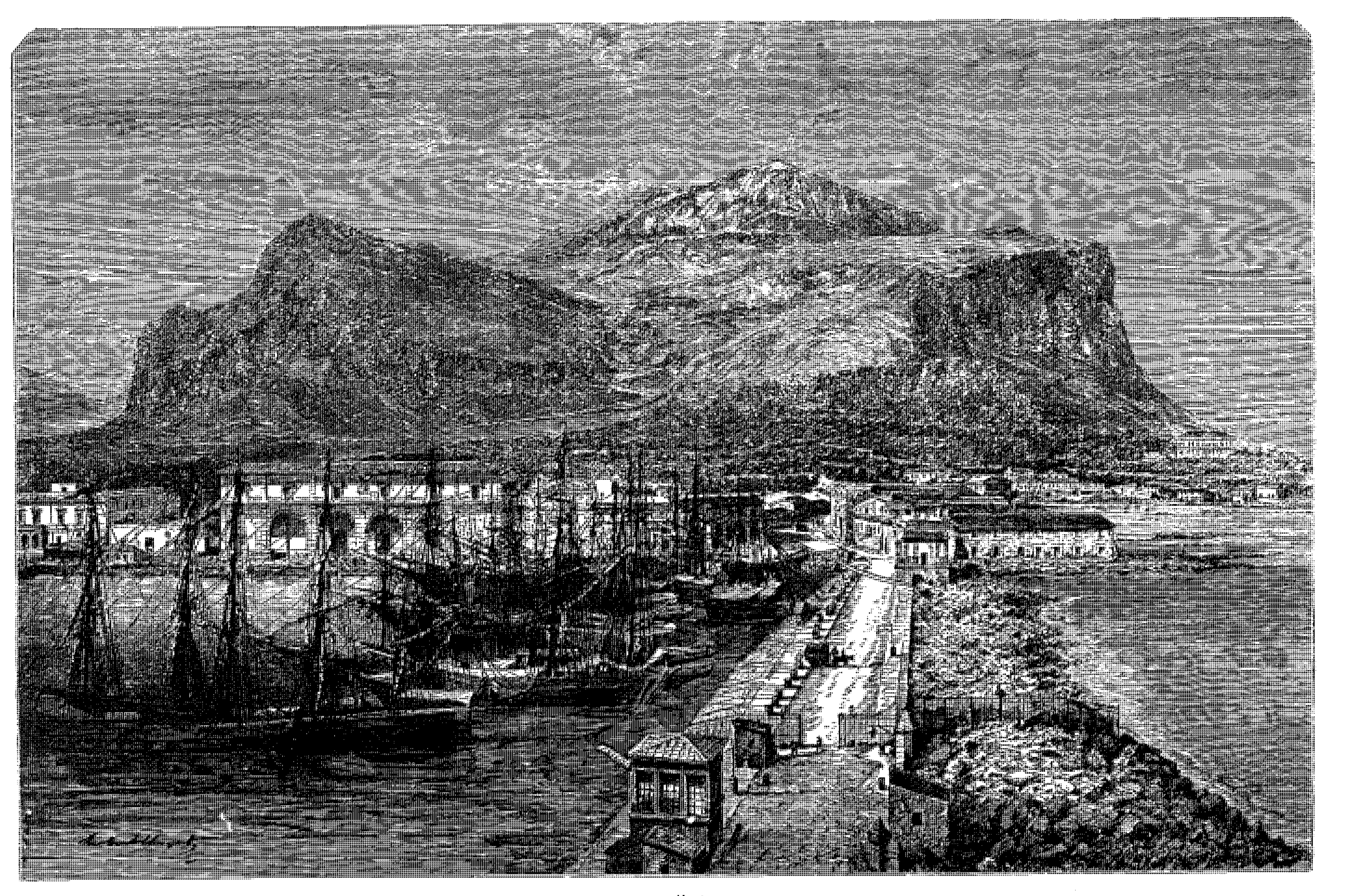
«بومبايبيوليس» . إنها عبارة عن رواق طويل يحيط به خمسون عموداً ، وكان قديماً يصل المدينة بشاطىء البحر . ضخامة تلك الأعمدة تسمح بمشاهدتها من البحر محاطة بالقصب والخيزران . لدى الوصول إلى آثار «بومبايبيوليس» يبدو واضحاً أنّ جادة عريضة كانت تخترق المدينة في الماضي ، ولكن وبفعل عوامل الطبيعة والزلازل والحروب لم يبق من عمرانها سوى مجموعة الأعمدة .

تدين اسكندرون باسمها إلى الاسكندر المقدوني الكبير الذي طالما جعلها مقرّاً له لموقعها الاستراتيجي المهم . انها تقوم على مستنقع بحدة السهل الضيق الممتد ما بين البحر وسفوح جبل الأمانوس . وهي ليست سوى قرية مخيفة تكاد تغمرها مياه المستنقعات الموبوءة . كثير من جدران منازلها غارق في الماء ، والعديد من شوارعها لايمكن عبوره في فصل المطر ، ولا بد من اعتلاء مطيّة ما أو الغوص في الوحول حتى الركب . هذه البيئة الملوثة نجدها تنعكس أوبئة وأمراضاً مختلفة على السكان ، كباراً وصغاراً . أمّا قناصل الدول ووكلاء الشركات الأوروبية فنجد منازلهم تقوم عند ناحية أخرى من الشاطىء ضمن شروط ومواصفات أفضل وأرقى .

أغرب ما في الأمر أنه كان يكفي حفر أقنية بسيطة تذهب بمياه المستنقعات الراكدة إلى البحر كي تصبح البيئة ملائمة للسكن الصحي .

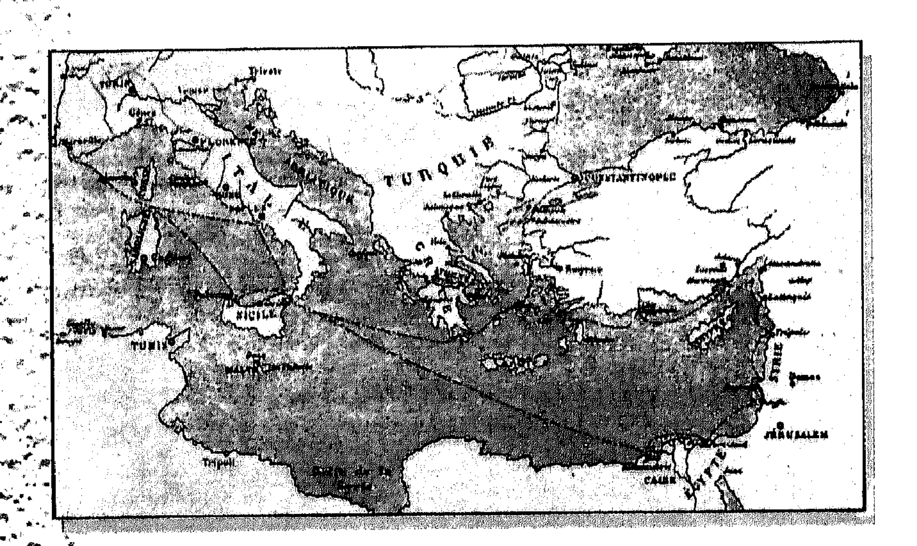


الاسكندرون
رسم تيلور
عن صورة فوتوغرافيا

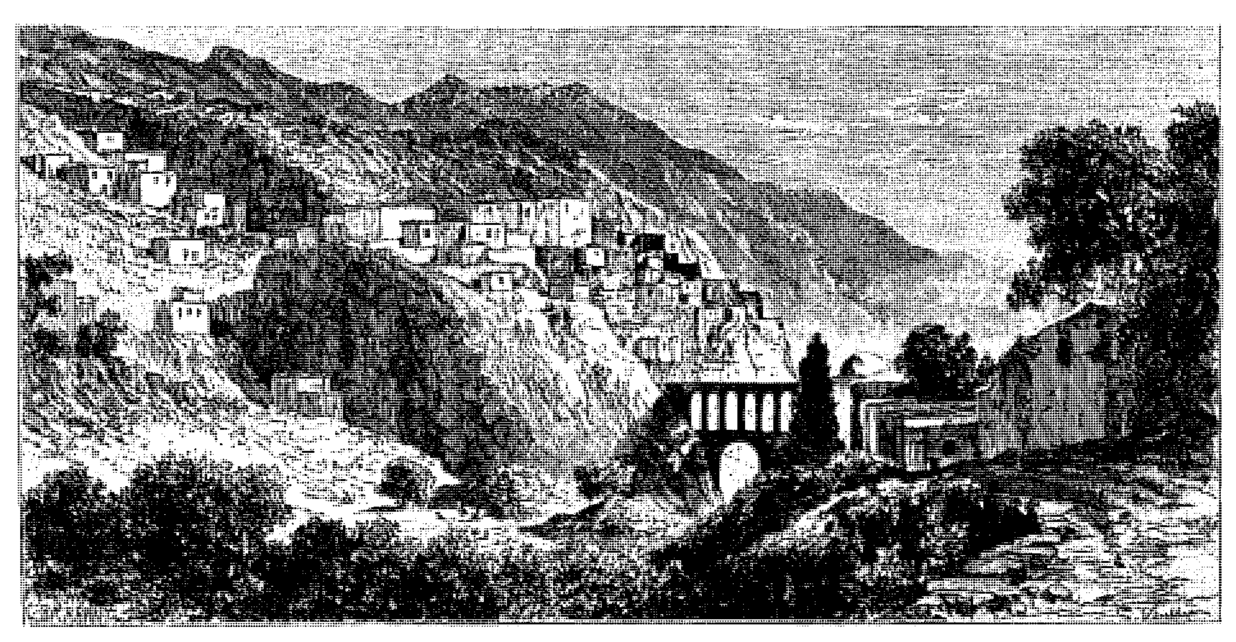


جبل بلليغرينو

الفصل الثاني



من بيلان إلى طرابلس

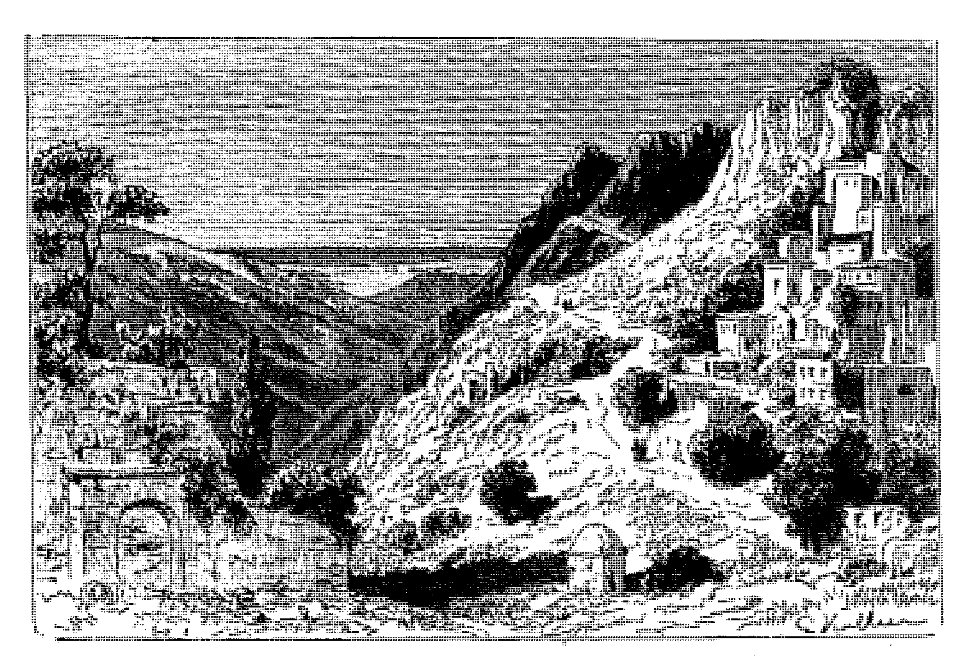


قرية بيلان .
رسم من ج . فوريليه
عن مسودة من المؤلف .

على مسافة ساعتين أو ثلاث جنوبي اسكندرون ، وعلى ارتفاع خمسماية متر عن سطح البحر تقع قرية بيلان القائمة على ضفتي نهر ينحدر في أعماق الوادي . المنازل هناك مبنية على الطراز التركي ، سطوحها من تراب وجدرانها من الحجارة البيضاء أو القرميد المجفف بأشعة الشمس والممزوج بالقش ؛ هذه المنازل المتعددة النوافذ ذات طابع فرح قلّما نجده في تركيا . إلى جانبها نجد منازل أخرى أوروبية الطراز وهي في غالبها تعود إلى فرنسيّي اسكندرون . عند أسفل القرية نجد آثار خزانات كانت تستخدم في الماضي للريّ . الجبال المحيطة بالقرية من الحوارى البيضاء ، وهي عارية شديدة الجفاف . على الرغم من ذلك نجد الكثير من أشجار الجوز والتوت تكسو ضفتي النهر الذي ينحدر ليصب في البحر بعد مسيرة تبلغ ثمانية كيلومترات . يتراوح عدد السكان ما بين ألفين وألفين وخمسماية نسمة ، وهم من الأتراك واليونان والأرمن ، يضاف إليهم ما قد يطرأ على القرية مع القوافل التي تعبر ذاك المضيق الموحش . الطريق الصخرية الضيقة الممتدة عبر الصخور تصعد إلى أعلى وصولاً إلى قمة تشرف على واد سحيق . هناك نجد بعض قبائل

البدو الرحّل المقيمين في خيم سوداء اللون ، حيث لا نجد غالباً سوى النساء والأطفال لأن الرجال يكونون مع قطعانهم في أنحاء الجبل .

على مسافة قريبة من اسكندرون ، بين الشاطىء وسفوح جبال الأمانوس ، يمتد سهل ضيق في أوله ثم يتسع شمالاً حيث توجد آثار مدينة «ايسوس» . قرب هذه المدينة وقعت المعركة التاريخية



ممر بيلان .
رسم من فويلييه
عن صورة فوتوغرافية .

ساحة معركة «إيسوس»
رسم تيلور ـ حسب بارتلت

خليج الاسكندرون وجبل «كاسيوس» ـ رسم لتيلور ـ حسب مسودة من المؤلف

عام ٣٣٣ ق .م ما بين الاسكندر المقدوني وداريوس الفارسي ، والتي تمكن فيها القائد اليوناني من ايقاع هزيمة كبيرة بالجيش الفارسي .

سهل «ايسوس» جميل والعبور فيه ممتع ومفيد . انه غني بنباتاته ومزروعاته الخضراء وترويه مجار مائية كثيرة . وهو محاط بهضاب الأمانوس الوعرة والمكسوة بالغابات الخضراء .

إلى الجنوب من اسكندرون وبعد تجاوز رأس الخنزير ، نرى من البحر وعلى

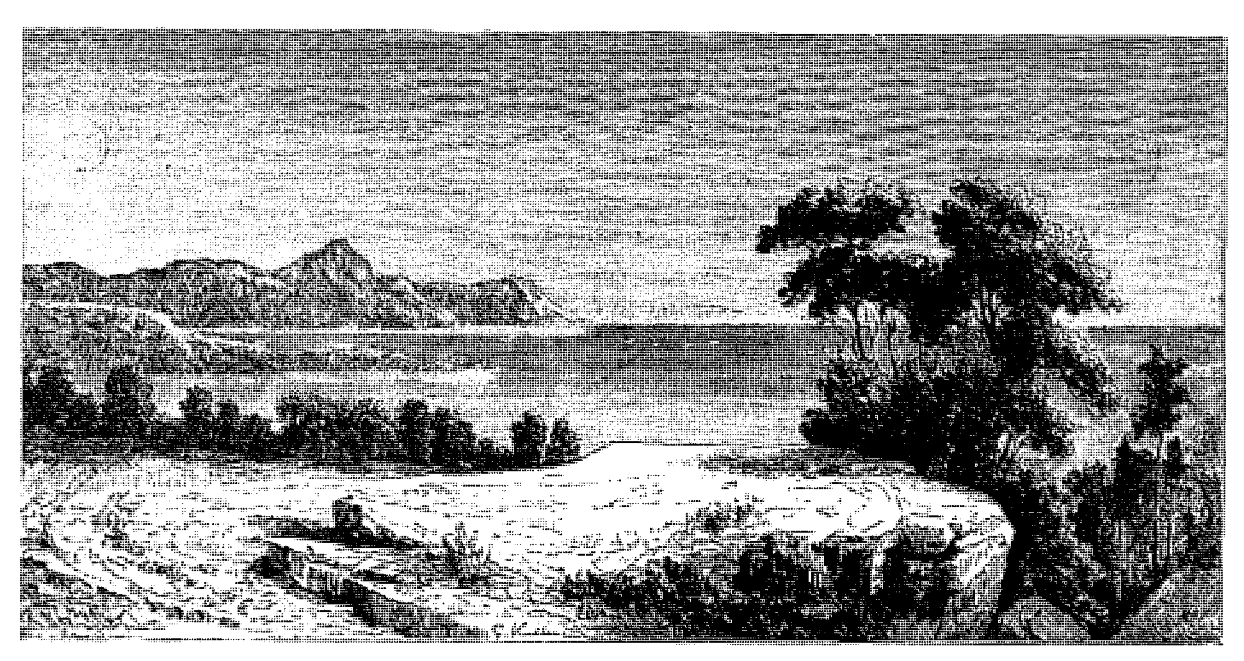


قبور محفورة في الصخر في محيط اللاذقية .

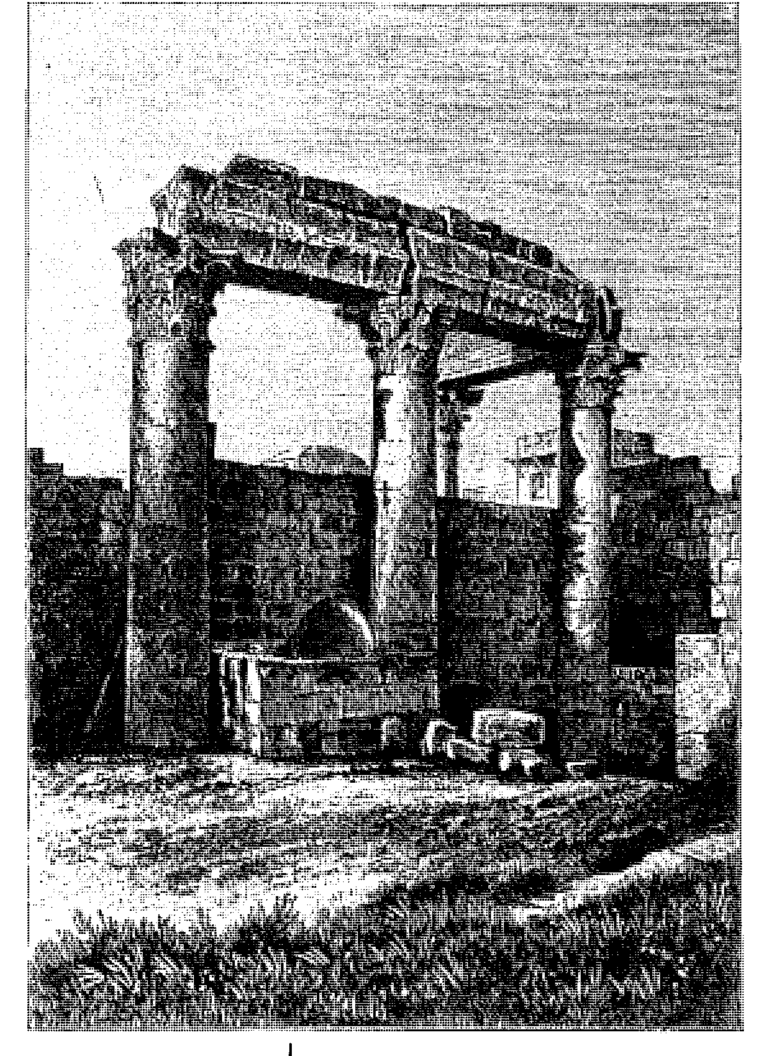
رسم من تيلور - عن صورة فوتوغرافية .

مقربة من مصب نهر العاصي جبل «كاسيوس» الذي يبلغ ارتفاعه ١٩٠٠ متر . إنه ذو شكل مميّز فهو وعر ومشقّق ، قمته عارية تماماً في حين أن سفوحه مكسوة بالغابات الخضراء الكثيفة . موقع هذا الجبل وشكله المميّز جذبا اهتمام قدامى الفينيقيين الذين كانوا يقصدونه في مراحل معينة من السنة للاحتفال ببعض شعائرهم الغامضة . عند أسفل الجبل ، وعلى ارتفاع ١٢٠ متراً كان يوجد هيكل لجوبيتير ، وكان الامبراطور «ادريانوس» يحجّ إليه خلال وجوده في سوريا .

أيام الفينيقيين كانت اللاذقية تعرف باسم «راميتا» أو «رامنتا» ، وهي تسمية مشتقة من «بعل - رام» ، الاله الفينيقي الذي نجد له مذبحاً على قمة جبل



جبل «كاسيوس» ـ رسم من ج . فويلييه حسب مسودة من المؤلف



هيكل باخوس في اللاذقية
رسم أ . روا
عن صورة فوتوغرافية .

«كاسيوس» المقدس غير البعيد من مدينة اللاذقية . وفي مراحل لاحقة أطلق عليها سلوقس الاول اسم «لاؤديسة» تخليداً لذكر أمه .

تقوم المدينة قرب شاطىء البحر ، على مسافة قصيرة من مينائها الصغير الدائري ، والذي تحميه أرصفة صخرية من أمواج البحر وعواصفه . عند مدخل الميناء برج قديم ضخم ، ما تزال قاعدته تحمل بقايا حلقات كانت تستخدم لربط السلاسل الحديدية عند إقفال الميناء

منازل اللاذقية جميلة الهندسة ومبنية من حجارة متناسقة النحت ، تكثر

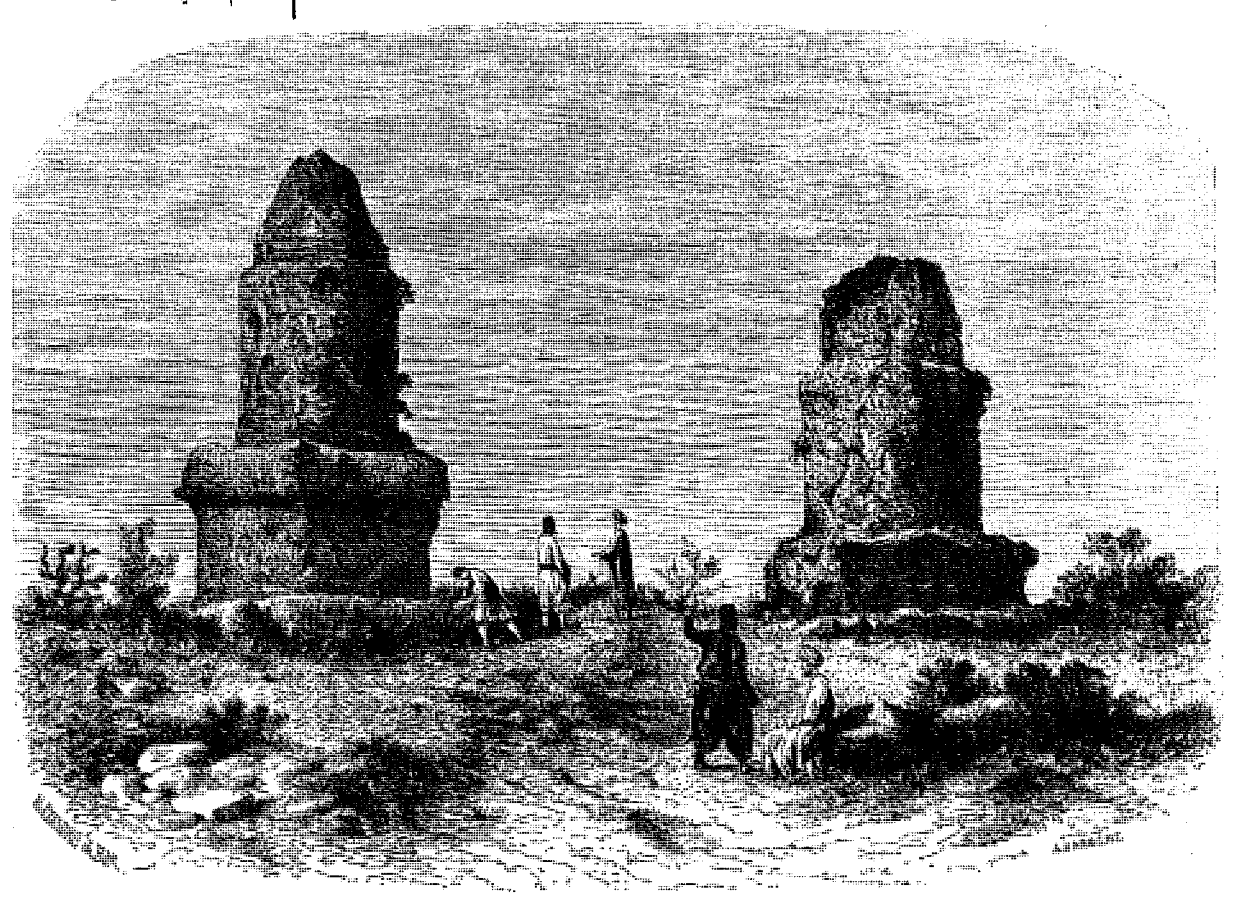
فيها العقود والقناطر التي كثيراً ما نجدها تمتد فوق الشوارع فتزينها وتكسبها رونقاً مميزاً .

إلى الشمال والشرق من المدينة ، نجد العديد من الآثار التاريخية القديمة . من أهمها القبور والمدافن المحفورة في الصخر ، والنواويس المتعددة الأحجام والمزدانة بنقوش مختلفة . في تلك الأقبية نجد مدافنَ يتسع بعضها لدفن أجيال عديدة من العائلة الواحدة . هذه الآثار الهامة ، تدلّ بوضوح على أنّ سكان اللاذقية كانوا في الماضي أكثر عدداً مما هم عليه الآن .

في ساحة وسط المدينة نجد بقايا قوس نصر جميل ولكن طغت عليه المنازل الحديثة البنيان ، وكان قد بني تخليداً لذكر الامبراطور «سرفوس» . وفي مكان قريب من القوس ، نقع على أربعة أعمدة هي كل ما تبقى من هيكل قديم كان قد أقيم للاله «باخوس» .

بعد الخروج من مرفأ اللاذقية نبحر جنوباً بمحاذاة الشاطىء فنمر أولاً أمام مصب النهر الكبير ، ثم نطل على شاطىء واسع الانحناء حيث تقع قرية جبلة التاريخية أو «جبالا» ، لنصل بعد ذلك إلى طرطوس التي كانت تعرف باسم

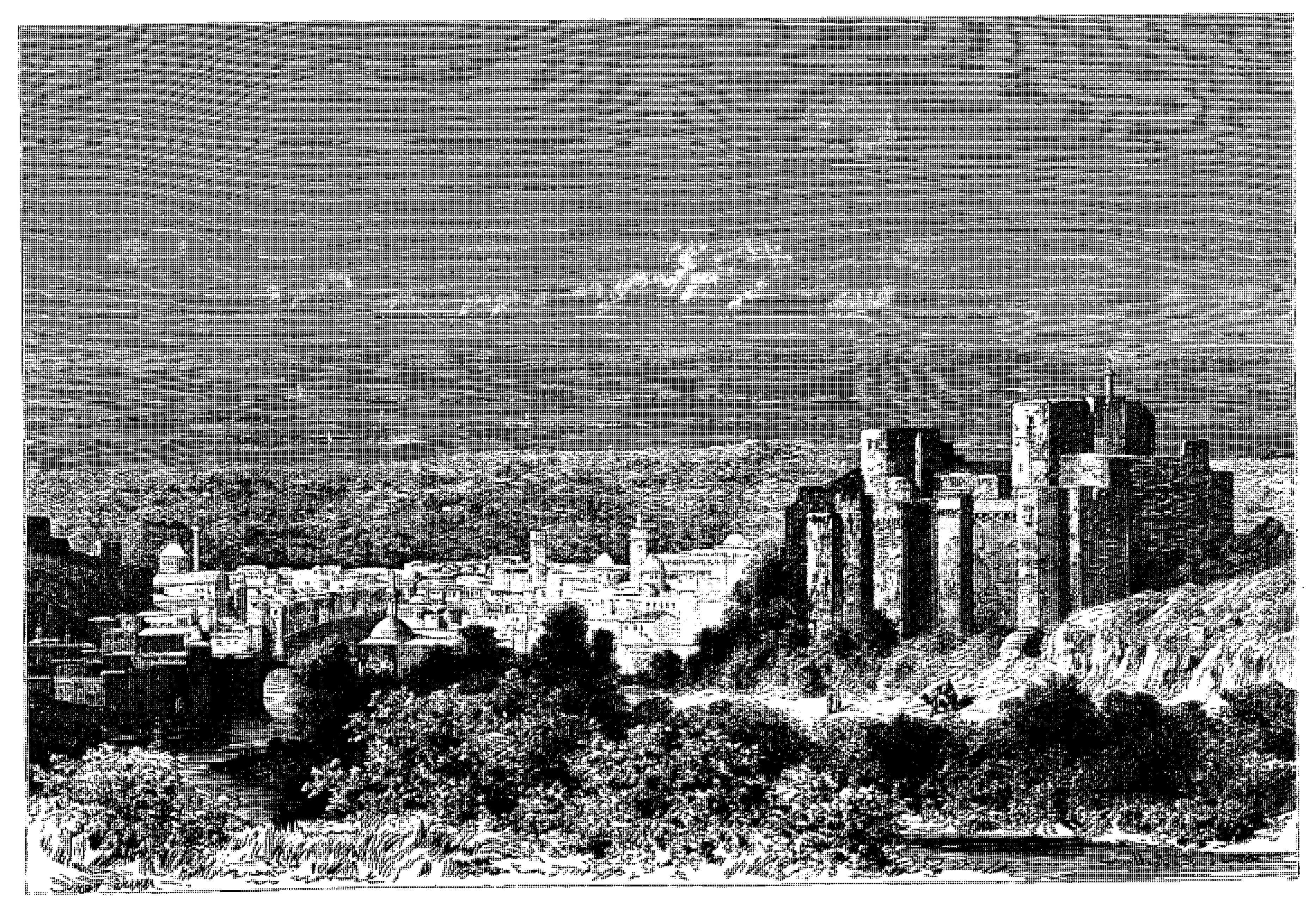
هياكل لقبور فينيقية في طرطوس .
رسم أ . دي بار ـ عن صورة فوتوغرافية .





نساء من اللاذقية

رسم زيير ـ عن صورة فوتوغرافية .



منظر في طرابلس - رسم ج. فوليير - عن صورة فوتوغرافية.

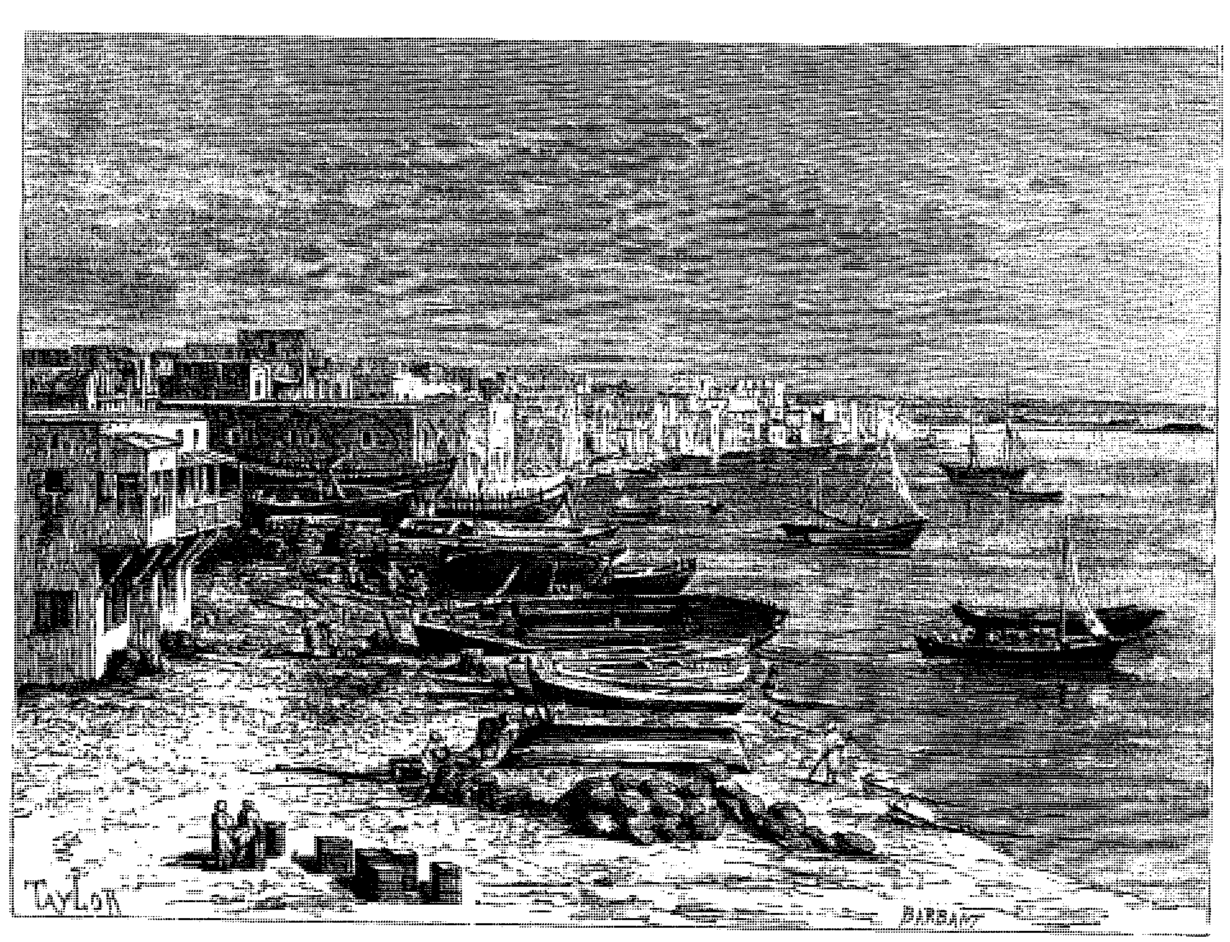
«انتارادوس» والتي نجد في مدافنها قبوراً وأضرحة أثرية فريدة . وقريباً من طرطوس نجد جزيرة أرواد ، أو «أرادوس» التي أضحت مهجورة اليوم بسبب الجفاف بعدما كانت في الماضي مستعمرة فينيقية هامة تنطلق سفنها نحو جميع مرافىء المتوسط .

جميع تلك المواقع التاريخية الهامة حظيت بدراسات دقيقة وعميقة قام بها البحّاثة «رينان» وبعثة فينيقيا العلمية الفرنسية .

عند الوصول إلى طرابلس نرسو في خليج نصف مغلق بواسطة سلسلة من الصخور تزيد من امتداد الرأس البحري الذي تقوم عليه الميناء ، مرفأ طرابلس .

تقوم هذه المدينة على هضبة جميلة عند مدخل وادي نهر قاديشا ، ويشرف عليها حصن أو قلعة «ريمون ، كونت تولوز» .

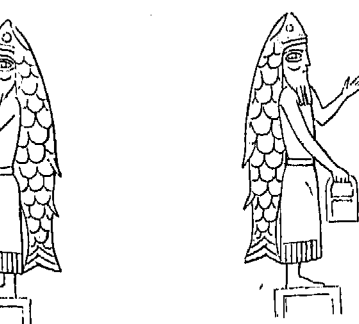
طرابلس عبارة عن سهل مثلث الشكل يمتد من سفح الجبل وحتى شاطىء البحر ، وتغطيه البساتين والحدائق والأشجار المثمرة ، ويجري فيها نهر قاديشا



الميناء ، مرفأ طرابلس

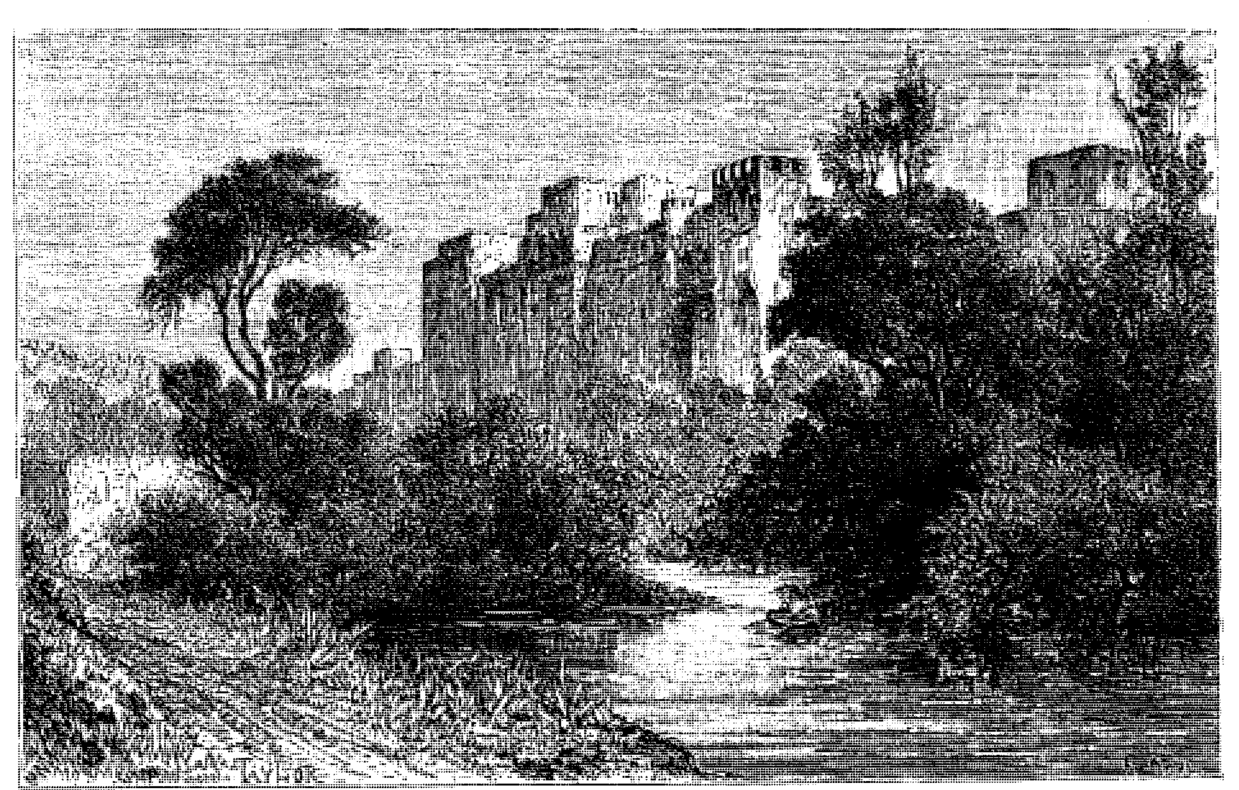
رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية .

فيجعلها قسمين . ويبدو أن هذا النهر كان مقدساً في بعض المراحل ويعرف أيضاً باسم نهر «أبو علي» . تأسست طرابلس على ما يبدو قبل الميلاد بسبعماية عام على الأقل . وإذا كانت التسمية الفينيقية ما تزال مجهولة فالمعروف أن اسم طرابلس أو «تريبوليس» نابع من كون المدينة نشأت في الأصل سوقاً تجارية مثل صيدا وصور وأرواد ، وما تزال آثار الجدران القديمة الفاصلة بين الأجزاء الثلاثة تدل على ذلك .



اسطوانات عمودية منقوشة
تمثل إله السمك في طرابلس
رسم للمؤلف

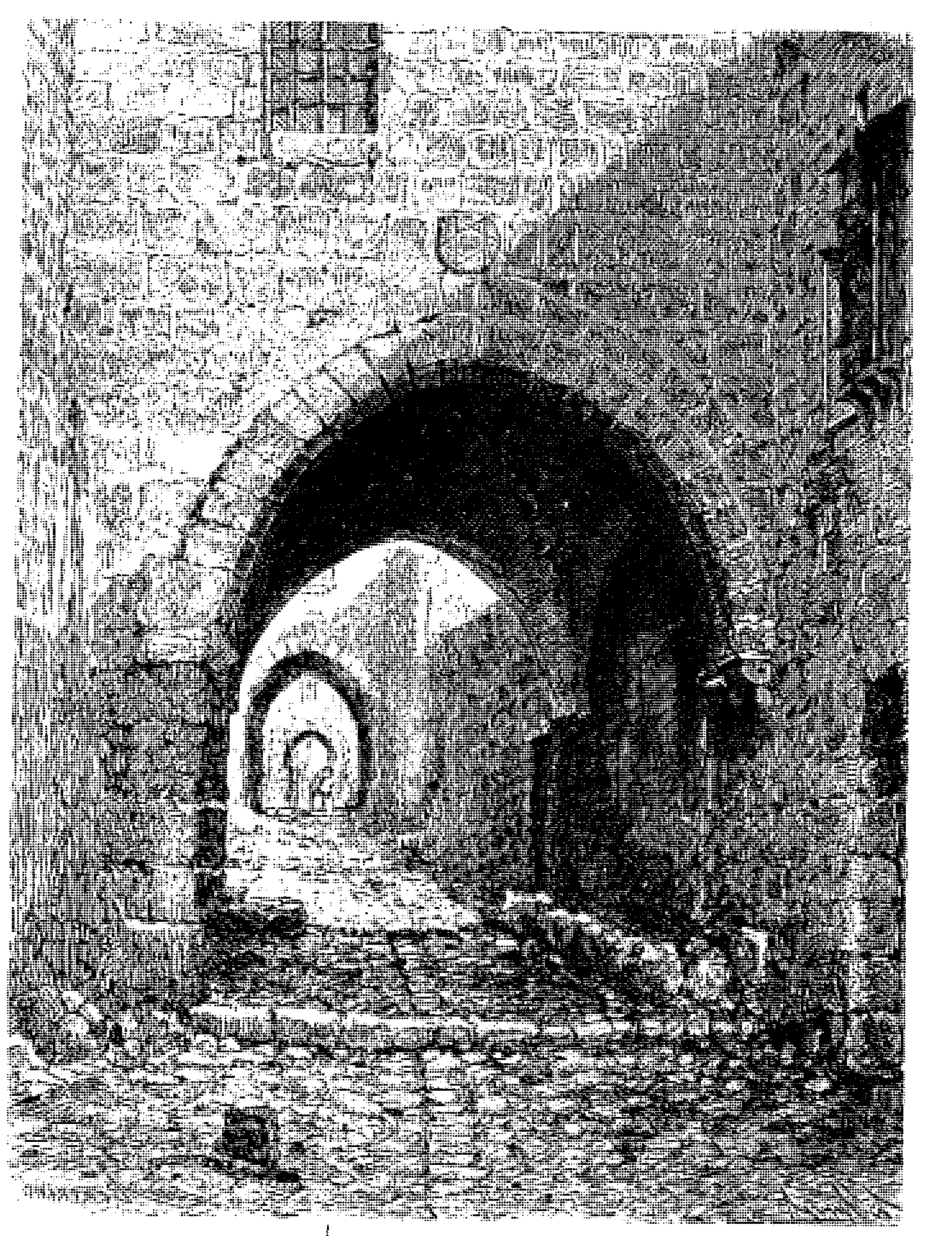
من ميناء طرابلس يمكن مشاهدة مجموعة من ستة أبراج قديمة بناها الصليبيون للدفاع عن المرفأ ، ويبعد الواحد منها عن الآخر مسافة كيلو متر تقريباً ، ولكل منها اسم . فأولها الواقع شمالاً قرب قاديشا اسمه برج رأس النهر ، ويأتي جنوباً برج التكيّة ثم برج السبعة أو برج الأسود . والأبراج الأخرى هي برج القناطر وبرج الديون وبرج المغاربة .



قلعة ريمون دي سان جيل في طرابلس .
رسم تيلور .
حسب صورة فوتوغرافية

مدينة الميناء هي مرفأ طرابلس وتقوم عند نهاية رأس بريّ ممتد في البحر ، يحيط بها آثار تاريخية هامة وتتصل بطرابلس عبر طريق تتلوى وتتعرج بين البساتين الخضراء .

مرفأ الميناء الصغير محمي من جهة الجنوب بواسطة سلسلة من الصخور الممتدة في البحر مسافة ميلين ، مما يبقيه عرضة لخطر رياح الشمال ، وإلى الشمال الغربي منه تقع مجموعة من الجزر الصغيرة .



شارع في طرابلس .
رسم كليرجيه
عن صورة فوتوغرافية

معظم سكان الميناء من الصيادين والبحارة إضافة إلى النجارين العاملين في بناء السفن . ونجد فيها العديد من الخانات والأسواق والمتاجر والوكالات البحرية المختلفة .

والبحر في طرابلس غني بالأسماك كما في سائر شواطىء سوريا . ولكن الأنواع هي نفسها التي نجدها في الحوض الغربي من المتوسط . أما الصيد فيجري بواسطة شباك مختلفة ، إضافة إلى استعمال سلال أو أقفاص مصنوعة من الخيزران .

إلى الشمال من المدينة ، وقرب الطريق السائرة بمحاذاة الشاطىء نصل إلى آثار قديمة هامة منها قبر الشيخ البدوي الواقع قرب نبع جميل تصبّ مياهه في حوض مربع أضحى مرتعاً لعدد كبير من

الأسماك الفضية التي طالما اعتبرها العرب والأتراك مقدسة واسمها العلميCapoeta (Fratercula) لذلك يمنع صيدها منعاً باتاً ويقدم إليها الغذاء بعناية ومواظبة . انها أسماك نهرية نجدها بكثافة في مياه نهر قاديشا حيث يصبح صيدها عادياً وشائعاً .

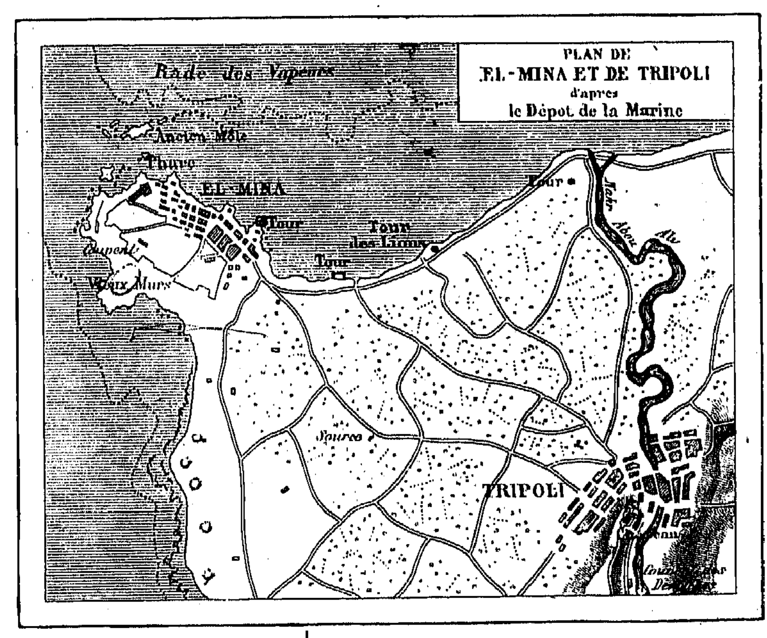
هذه القدسية لبعض الأسماك كانت شائعة في سوريا ، وهي من بقايا ديانة قديمة كانت تعبد الإله المزعوم «داجون» الأشوري ، وهذا ما تؤكده بقايا اسطوانات عمودية منقوشة ، وجدت في طرابلس ، وفي مدن أخرى من سوريا ، وتمثل اله السمك المزعوم .

عام ١١٩٣م حاصر الكونت «ريمون دي سان جيل» أحد أوائل قادة الحملات الصليبية ، مدينة طرابلس . وبعد فشله في اسقاطها قرر بناء حصن قربها فاختار هضبة تشرف عليها وعلى وادي نهر قاديشا .

وهكذا كان ، وما زال ذاك الحصن قائماً حتى اليوم ويعرف باسم قلعة «سان جيل» أو قلعة طرابلس . ولكن الكونت توفي قبل أن يستطيع دخول المدينة .

للوصول إلى القلعة يجب المرور في أحياء المدينة القديمة وشوارعها الضيقة المحاطة بالمباني والمظللة بالعقود والقناطر المختلفة . كما يجب تكبد عناء تسلق منحدرات وعرة .

الحصن بمجمله يشبه إلى حدّ كبير قصر البابوات في «افينيون» . من الناحية الشمالية نجد السور يصل إلى عمق وادي نهر قاديشا . ومن أعلى الحصن تشرف على منظر رائع للبحر والسهل وسلسلة جبال لبنان . أمّا البناء الداخلي والقاعات الكبيرة فآثار باقية حتى الآن لخصائص عمارة القرن الثاني عشر .

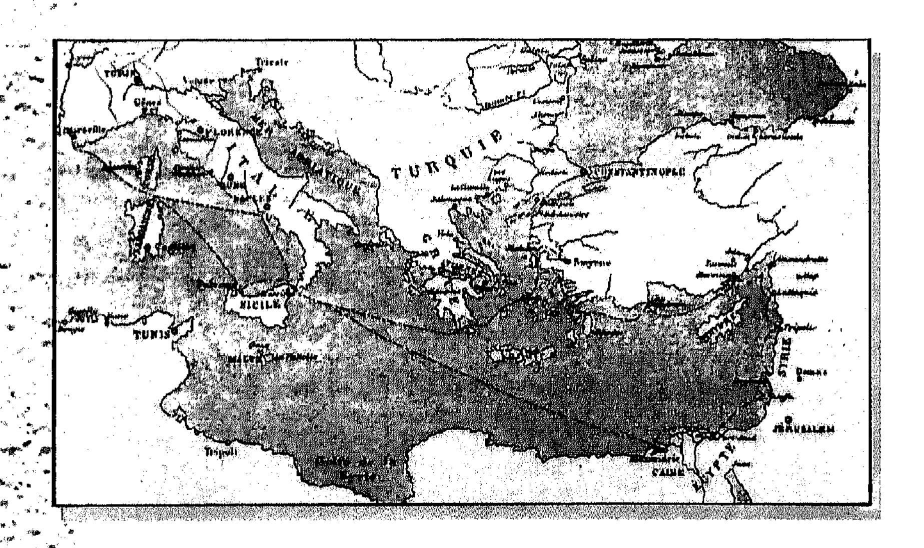


الميناو طرابلس .



نساء من طرابلس .رسم رونجيه ـ عن صورة فوتوغرافية

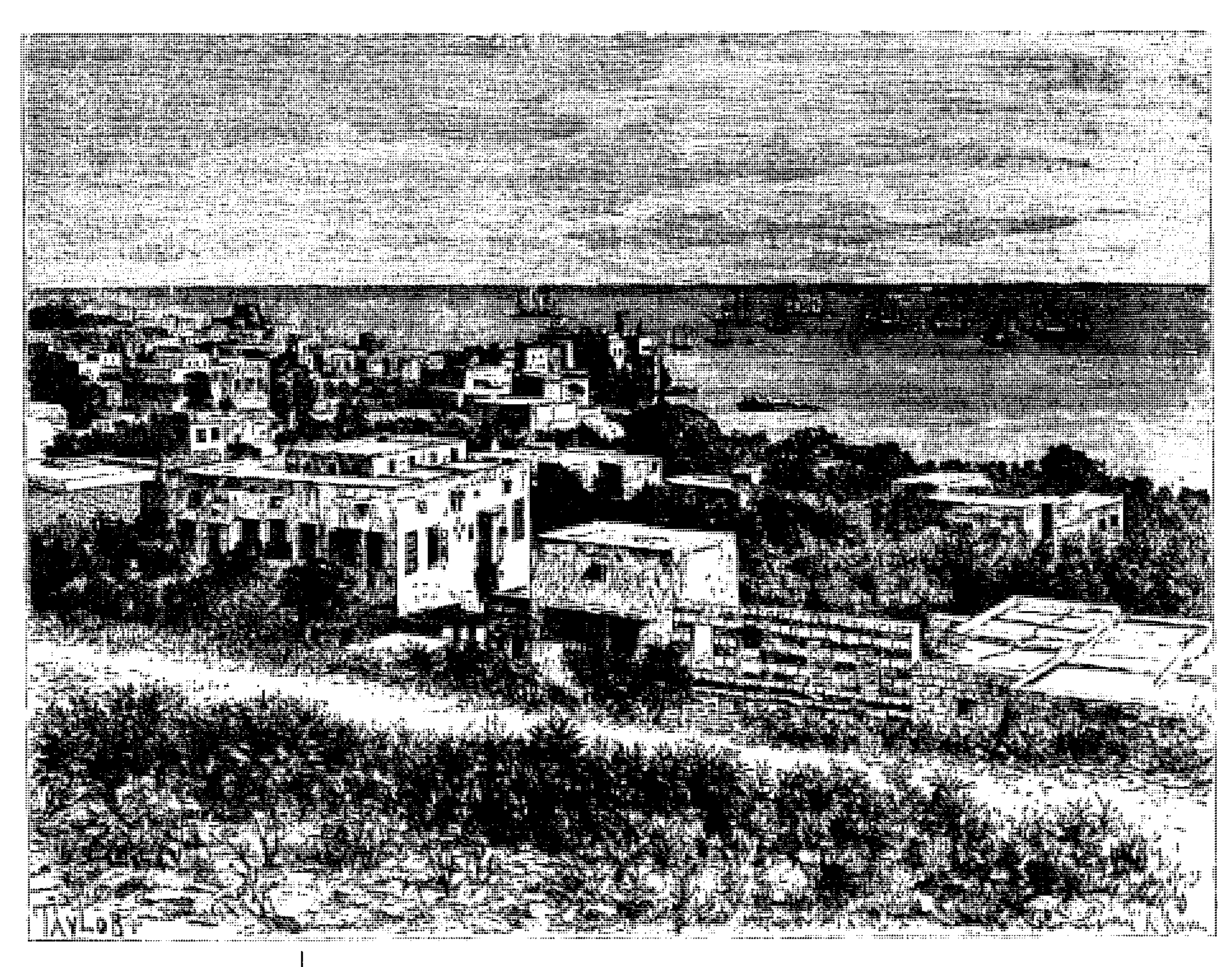
الفصل الثالث





بيروت الموقع والتاريخ

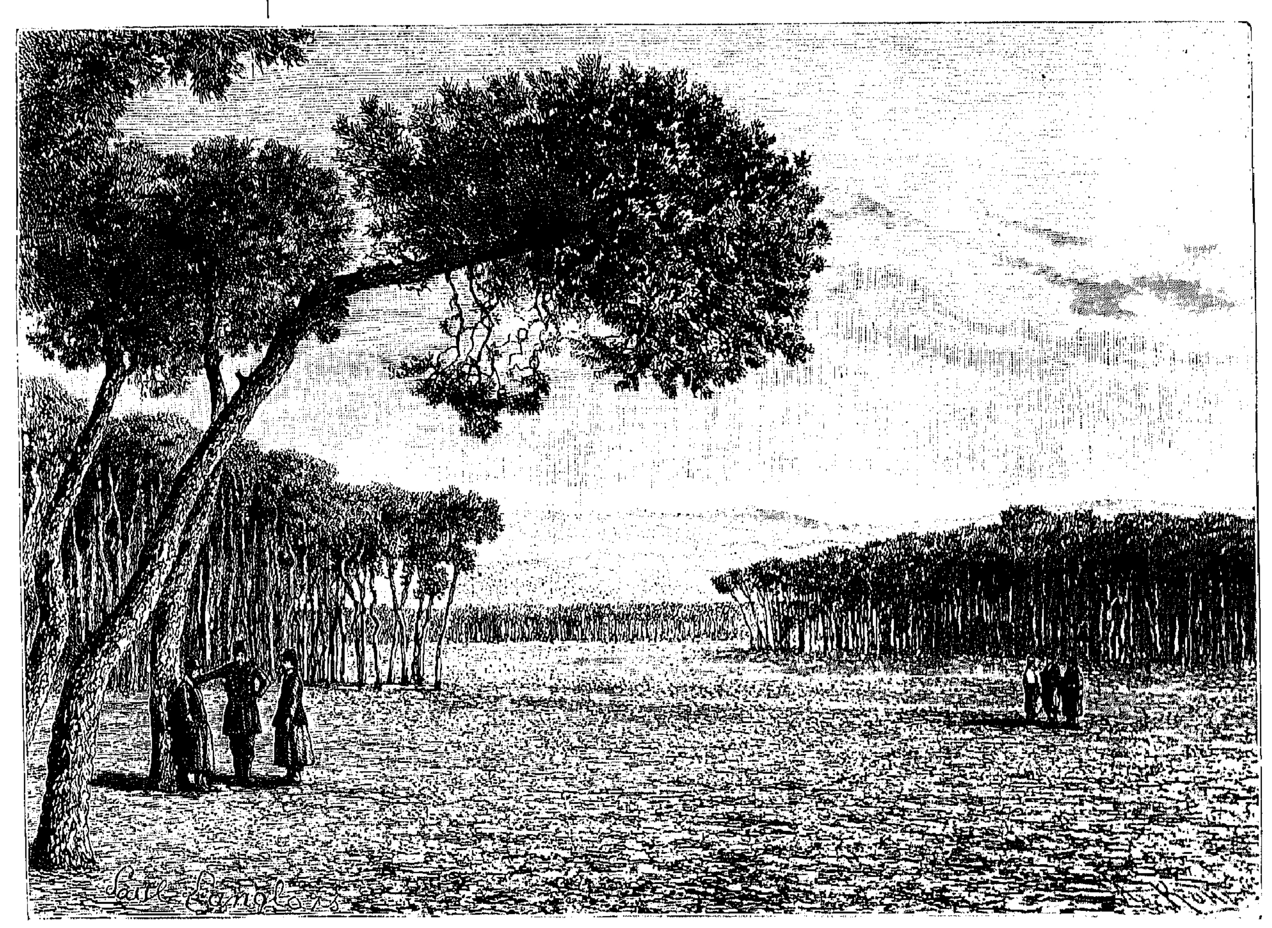
عُرفت بيروت في الماضي باسم «بريتوس» و «بروتوس» و «بروي» وذلك تكريماً لبيروت رفيقة الاله المزعوم «إلجون» أو «إيلس» الذي أضحى لاحقاً «أدونيس» إله بيبلوس المزعوم ، وهو أقوى الآلهة القديمة المزعومة ، وأكثرها انتشاراً في فينيقيا القديمة . بعد ثورتها عام ١٤٠ ق . م ، دُمرت المدينة باكملها على يدي الملك السوري «تريفون» . وبعد عدة قرون من البؤس حلّ فيها الرومان بجيوشهم



مرسى بيروت .
رسم لتايلور .
عن صورة فوتوغرافية

وأطلقوا عليها اسم «جوليا أوغوستا فيليكس» تكريماً «لأوغست» أو «أغسطس» . وازدهر عمران المدينة فقامت فيها الحمامات والأروقة إضافة إلى مدرج كان يضاهي أفضل مدرجات ذاك العصر . كما قام فيها مسرح ، أو حلبة ، اشتهرت بما شهدت من مباريات مصارعي الموت . وبين عامي ٢٢٢ و ٢٣٢م . قامت فيها مدرسة حقوق نافست بجدارة أشهر مدارس العصر كمدرسة أثينا ومدرسة الاسكندرية . في القرن الرابع كانت بيروت تشكل ، مع صيدا وصور ، أهم مدن فينيقيا بما عرفته من تجارة رائجة . وفي عام ٥٢٩م دمّرها عن بكرة أبيها زلزال رهيب ضرب جميع مدن الساحل السوري مخلّفاً مئتين وخمسين ألف ضحية . في عام ١١١٠م ، وبعد وقوع المدينة في أيدي الجيوش المسيحية ، أصبحت المدينة تعرف باسم «بروت» أو «بورن» ، وقد بقيت تحت السيطرة الصليبية حتى عام ١٢٩١م ، حيث انتقلت إلى الحكم الاسلامي بعد هزيمة الصليبيين النهائية في معركة حطين . وفي عام ١٨٤٠م وبعد الحملات العسكرية التي قام بها ابراهيم

غابة الصنوبر في بيروت
رسم پ . لنغلو
عن صورة فوتوغرافية





بيروت من الأعالي - رسم غراندسير

باشا ، تعرّضت بيروت لقصف عنيف من المدافع الانكليزية . وإلى ذاك التاريخ يعود التدمير شبه الكلي لأسوار المدينة .

لم تحل الكوارث الطبيعية والظروف الصعبة دون تنامي مكانة بيروت وأهميتها . فهي محط أنظار الجميع ، بما في ذلك الأوروبيين . والملكيات محفوظة فيها ومحترمة أكثر من أي مدينة أخرى مجاورة مثل عكا وطرابلس وحلب . لذلك أضحت ملجأ ومقراً لمجموعات كثيرة لا سيما خلال الصراعات العسكرية والدينية .

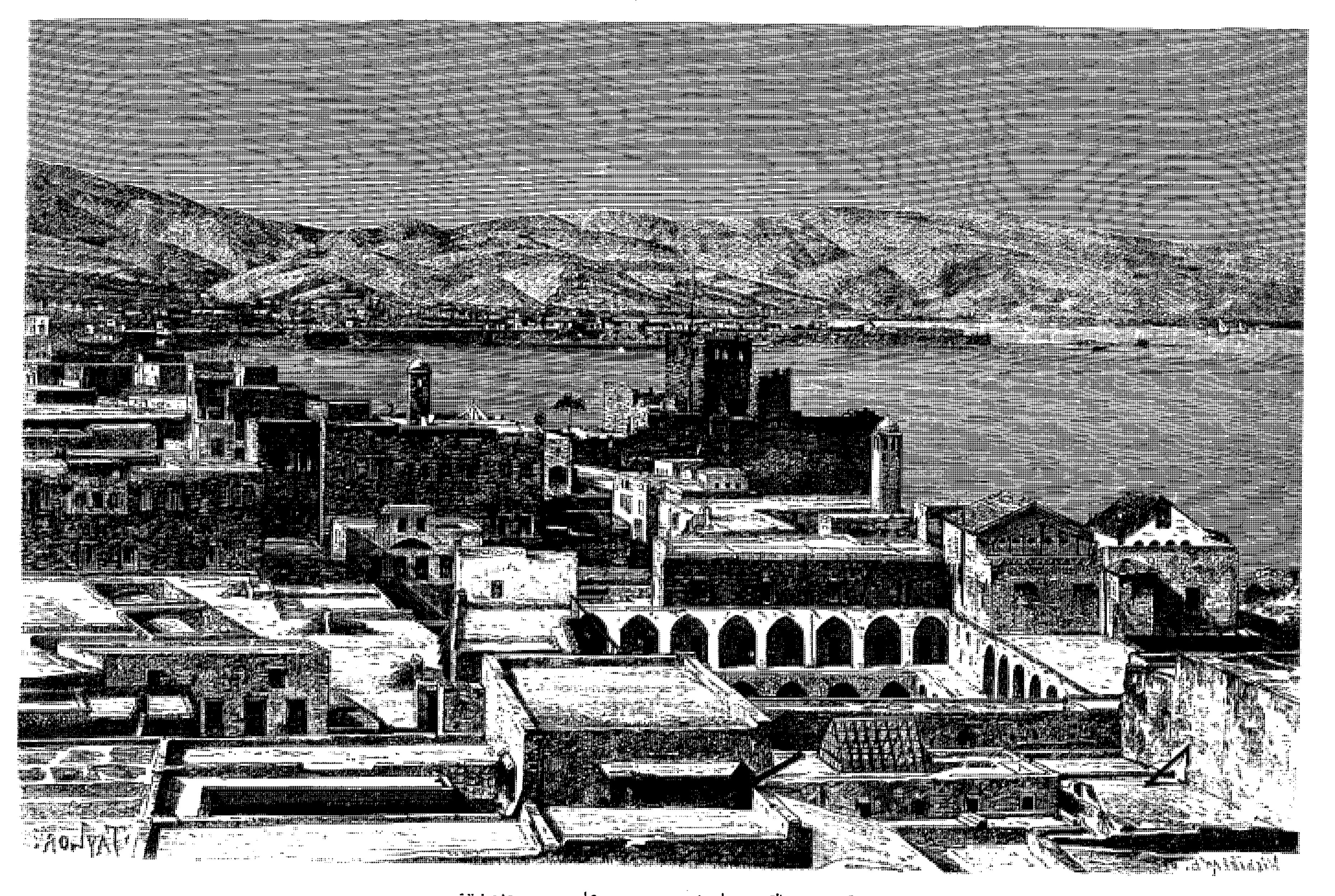
من الأكيد أن هذه المدينة ستلعب دوراً كبيراً في نهضة الشرق وذلك لما تتمتع به من موقع مميّز يزيده قوة المؤسسات التجارية الغنية والمرفأ الهام والبعثات التجارية والدبلوماسية الأوروبية .

إلى الشمال من مدينة بيروت ترتفع عالياً قمم جبل صنين التي تكسوها الثلوج معظم أيام السنة . السفوح عبارة عن جلول وحقول خضراء غنية الزراعة . ومن بعيد تبرز قرى كثيرة بمنازلها البيضاء المنثورة بين غابات السنديان والصنوبر . أما من الغرب والجنوب الغربي فنجد المدينة محاطة بحزام أحمر اللون . إنها التلال والكثبان الرملية التي لا تنفك تزحف نحو بيروت وقد تطمرها يوماً ما إن لم تتخذ الاحتياطات الرادعة لذلك . ما بين عامي ١٥٩٥ و١٦٣٤م زرع الأمير فخر الدين غابات صنوبر لمواجهة الغزو الرملي للمدينة .

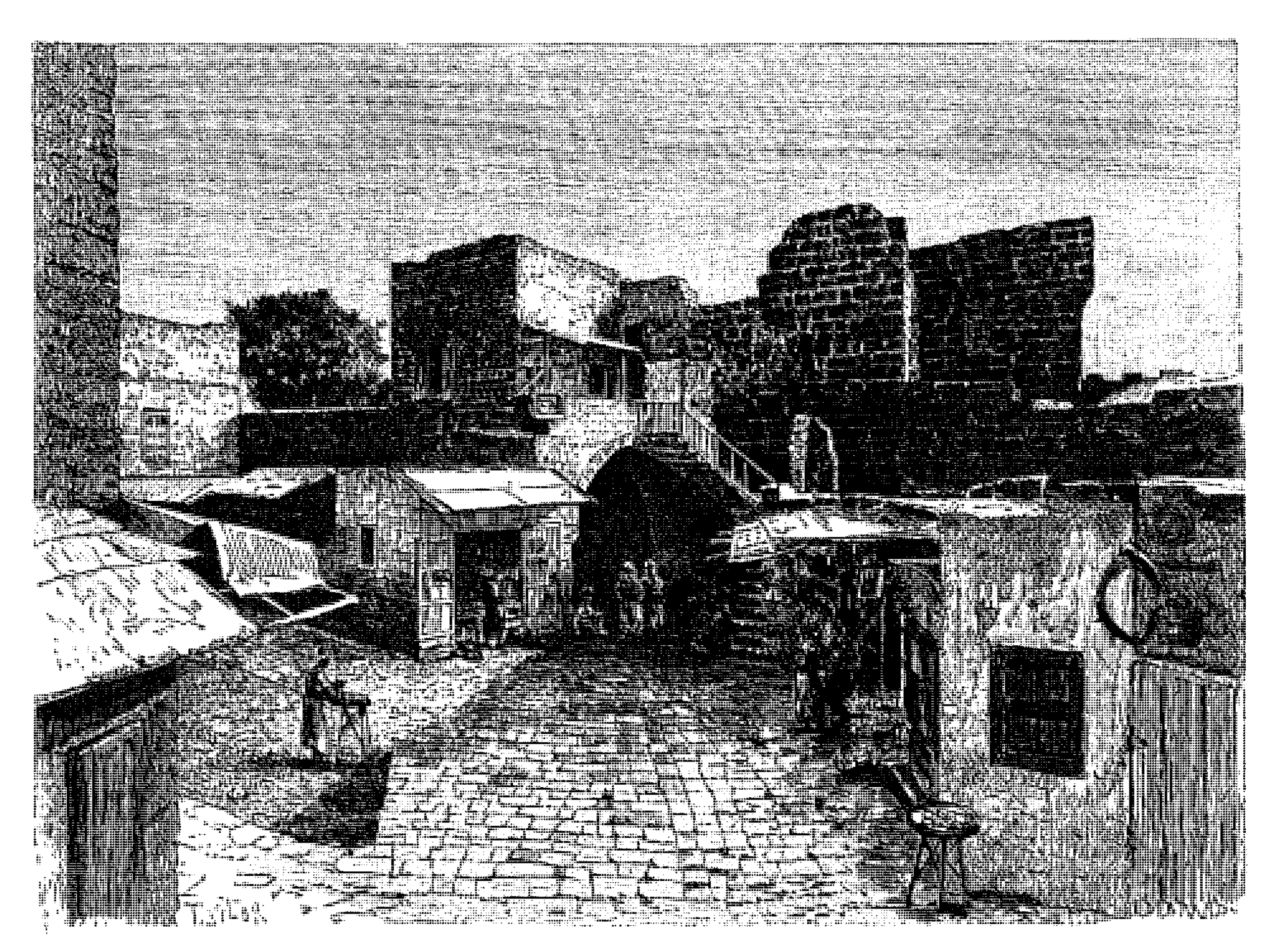
مرفأ بيروت صغير وقليل العمق ، وقد أنشأه الأمير فخر الدين أيضاً . البواخر الكبيرة لا تستطيع الرسوّ فيه بل تبقى في عرض البحر عرضة للرياح والعواصف القوية . أما في الشتاء فهي تلجأ إلى خليج شمالي المدينة ، قرب رأس الخضر أو قرب نهر بيروت . وعند مصبّ هذا النهر نجد أكثر أحواض السباحة جمالاً وفي مأمن من أسماك القرش التي تنتشر بكثرة في تلك المياه الدافئة .

إلى الشرق من حوض المرفأ ، قرب الشاطىء نشاهد جسراً حجرياً بسبع قناطر يمتد فوق مجرى نهر بيروت . محيط المرفأ تغطيه الحدائق الخضراء ، وعبرها تمتد طريق ملتوية تحفّ بها من جانبيها أشجار صبّار كبيرة ، وتؤدي إلى الساحة الرئيسة لمدينة بيروت .

مدخل المرفأ الداخلي يحيط به برجان مربعان . يقوم أحدهما على صخرة وسط الماء ، ولم يبق منه سوى آثار جميلة ، والآخر كان متصلاً باليابسة بواسطة رصيف صخري ذهب بمعظمه اعصار عام ١٨٤٩ .



قصر بيروت القديم وخليج نهر بيروت ـ رسم تيلور ـ عن صورة فوتوغرافية



ملتقى طرق في بيروت
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية

عمران بيروت مختلف اليوم عمّا كان عليه منذ سنوات . فوسط حدائقها الجميلة ، وفوق التلال المحيطة ، قامت أحياء حديثة ذات مبان ضخمة وجميلة أنشأها المقيمون الأجانب من شركات ومؤسسات دينية فرنسية وانكليزية وأميركية والمانية ، وهي تضفي على المدينة طابعاً جديداً وبارزاً . أمّا الأحياء القديمة فشبيهة إلى حد كبير بالنموذج التقليدي المنتشر في معظم مدن الشرق ، حيث الصدفة هي المهندس الوحيد المشرف على هندسة المنازل وتخطيط الطرقات . المنازل ، القديمة شديدة البساطة ، لا نوافذ زجاجية فيها بل طاقات وشبابيك ذات مصاريع خشبية أو شعريات . أمّا الأثاث فمجرد سجاد وبسط وأرائك ، لا أكثر . ولكن ، وفي منازل الأثرياء ، قد تقع على أثاث أوروبي حديث ، جنباً إلى جنب مع الأثاث التقليدي ، بتنسيق وذوق يستحقان الاعجاب . شوارع المدينة القديمة عبارة عن أزقة ضيقة ومظلمة ، يحف بها من الجانبين ما يشبه الرصيف الحجري مما يسمح للمشاة بتفادي الوحول والمياه أيام المطر .

وسائل النقل والمواصلات في تلك الأحياء هي الحمر والبغال والجمال . أمّا

العربات ، والسيارات المكشوفة القليلة ، فلا نجدها إلاّ في الشوارع العريضة لبعض الأحياء الحديثة .

السوق ، أو البازار ، وكما في معظم مدن الشرق ، يقوم في الساحات التي تتلاقى فيها الشوارع والأزقة . نجد فيه دكاكين كثيرة متلاصقة وعميقة ، وترتفع عن الأرض حوالي المتر ، يجلس وسطها أصحابها يشربون القهوة ويدخنون السجائر أو النارجيلة . في تلك الدكاكين نقع على أشياء وبضائع جميلة جداً مصنوعة في بيروت كالحرائر والمطرّزات الرفيعة الذوق ، وآنية القهوة والفضيات المختلفة . وكما في شوارع القسطنطينية كذلك في شوارع بيروت ، نجد المقاهي مفتوحة كلياً على الشارع ، ويجلس روادها على أرائك ومقاعد يدخنون النارجيلة ذات التنباك الأشقر المعطر والمزروع في منطقة جبيل ، عند سفح جبل لبنان .

خلال خمسة وعشرين عاماً ازداد سكان بيروت بنسبة أربعة أضعاف ليبلغ عددهم ثمانين ألف نسمة تقريباً ، نصفهم من المسلمين ونصفهم الأخر مسيحيون موارنة وروم ارثوذكس ودروز وغيرهم . . . ولكل طائفة مساجدها وكنائسها ومدارسها ؛ يضاف إليها المدارس والمؤسسات التي أنشأتها الارساليات الأجنبية ، وكل منها يرعى أبناء طائفة معينة .

في بيروت سباق حقيقي بين الطوائف والملل ، إنه صراع

هادىء عرف الفينيقي بعراقته ومهارته كيف يوظّفه في سبيل تميّزه ورقيّه ، فإذا به لا مثيل له في الشرق طبيعة وثقافة .

الأطفال الذين نشاهدهم في شوارع بيروت بهيّو الطلعة ، طوال القامة ، أقوياء البنية ، ومن عيونهم السوداء تشعّ خيوط الرقة والذكاء .

كثيراً ما نشاهدهم مجموعات في الشوارع منطلقين إلى مدارسهم ، فيلقون التحية بالفرنسية أو الانكليزية المعروفتين من الجميع هناك ، إضافة إلى الالمانية لدى بعضهم . على هذا المستوى ، كثير من المدن الفرنسية سيجد في هذه المدينة المميّزة مثالاً يحتذى .

سكان بيروت من أهم النماذج الجديرة بالدراسة العلمية الجادة . نجد منهم نماذج مختلفة متحدرة من تلك السلالات

تاجر عربي من بيروت
رسم أ . فردیناندوس
عن صورة فوتوغرافية

القديمة التي توافدت عبر التاريخ إلى هذا الشاطىء الفينيقي والذي كان له أن يكون ممراً ومستقراً لأقوى شعوب العالم القديم . مهاجرون أوائل كانت تدفعهم الغريزة التي لا تقاوم للتوجه نحو الغرب ، فيتوقفون عند أمواج المتوسط ثم ينتشرون في أنحاء سوريا تاركين آثاراً هامة تدل عليهم .

إنهم مصريون من أيام رمسيس الأكبر وأشوريون وفرس ورومان وعرب من صحراء نجد وتركمان وصليبيون من أوروبا وغيرهم . . كلهم أقاموا في تلك البقاع التي باركتها السماء وأنشأوا مدناً ذكرها التاريخ بإكبار وسعوا في تجارات عادت عليهم بالشهرة والثروة .



نماذج مارونية
رسم إ .زيير
عن صورة فوتوغرافية

وبيروت نموذج مصغر جامع لكل تلك الشعوب . فخلال أقل من ساعة في شوارعها تستطيع مشاهدة نماذج متحدرة من مختلف السلالات . فهذا مصري بأطرافه الرقيقة وعينيه اللوزيتين ، وذاك أشوري بأطرافه الغليظة والقوية ومنكبيه العريضين . وها هو حفيد الفينيقيين القدامى ، انه ناعم الوجه ، مميّز ، أنفه قان (معقوف) شفتاه دقيقتان ، طويل القامة ، رشيق الحركة ، وعيناه السوداوان



إسرائيليون من بيروت
رسم أ . فردينإندوس
عن صورة فوتوغرافية

الجميلتان تشعان بالحماس والذكاء . جلّ اهتمامه بالتجارة والربح ، وفي سبيلها يضحي بالكثير .

أمّا العربي الصريح فهو قوي حازم ، لا يتعب ، أسمر البشرة ، ظاهر العضلات ، رشيق وسريع ، إنه فارس حقيقي يمضي حياته فوق صهوة حصان . جبهته عريضة ، وشفتاه أكثر سماكة من شفتي الفينيقي ، في حين أن أنفه أقل انعقافاً . شعره الأسود غالباً ما يكون مقصباً مفتلاً ، خاصة إذا طال . نظراته مليئة بالذكاء والحماس ، يحب التجارة ويسعى إليها ولكنه لا يستطيع نسيان الجسد فهو يهوى الصيد وركوب الخيل وتمارين القتال ، كما يعشق شعر عنترة وقصص ألف ليلة وليلة والموسيقى . إنه من سلالة قوية ونبيلة ، وهذه لو قُدّر لها حياة سياسيّة جادة فقد تلعب دوراً هاماً وكبيراً في تاريخ العالم .

وهناك نشاهد تركياً ضخم الجثة يسير بتثاقل وبطء . إنه من الأثرياء دون ريب ، ولو كان من عامة الشعب لكان نحيلاً عصبي الحركة . وجنتاه البارزتان



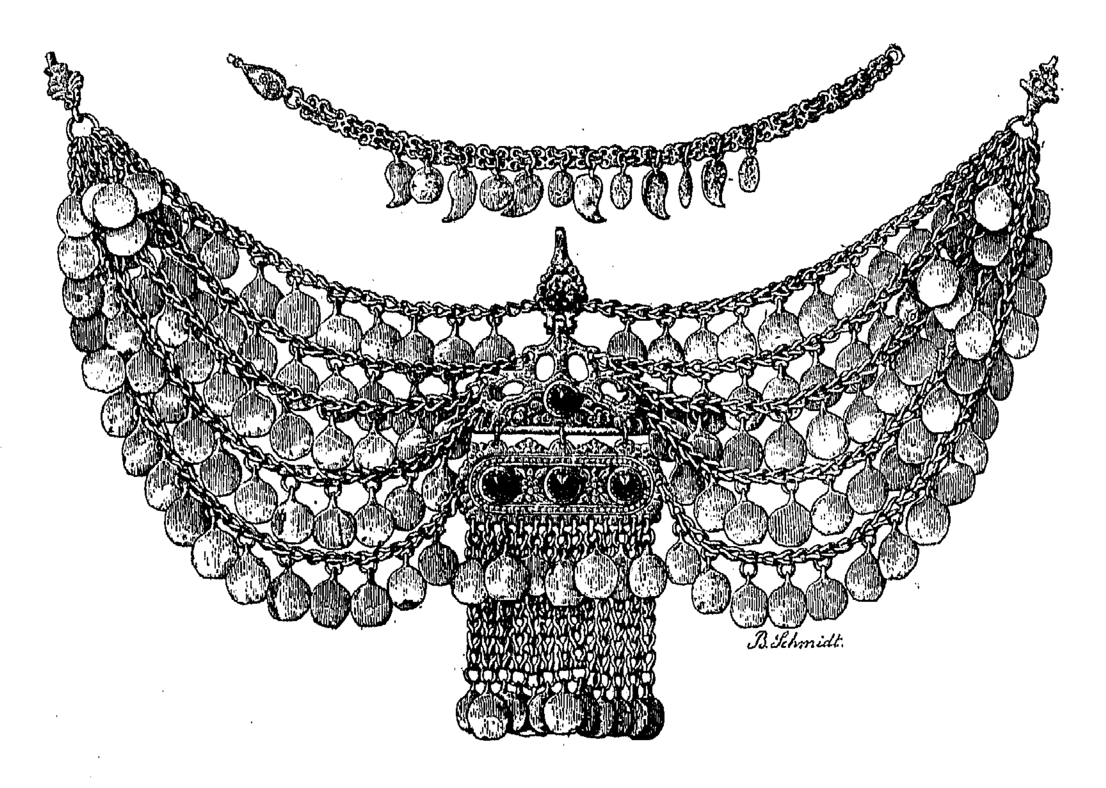
امرأة من بيروت في لباس المدينة
رسم أ . رونجا
عن صورة فوتوغرافية

تدلان على عِرْقه الآسيوي . وللعرق الايراني آثاره أيضا في سوريا . فالمتحدر من أصل فارسي قَصَير القامة ، قوي البنية ، بيضاوي الوجه متقارب العينين ، مستقيم الأنف قصيره مجعد الشعر كثيف اللحية . وأخيراً هناك اليهودي الذي نجده في جميع أنحاء سوريا . إنه لا يختلف كثيراً في تكوينه عن الفينيقي أو العربي ، ولكنه يبقى معروفاً من خلال بعض التفاصيل والمميزات . فهو نحيل طويل القامة قليل العضلات لا يعتدّ بقوته الجسدية . شعره طويل ، وغالباً ما يكون أشقر اللون ، عيناه زرقاوان ، أنفه شديد الانعقاف .

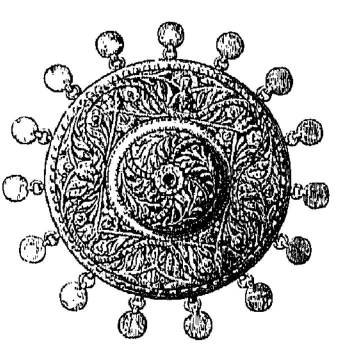


حسّان (ماروني) وهومكاري
رسم برانيشنيكوف .
عن صورة فوتوغرافية

يسكن في محيط بيروت مجموعتان متقاربتان عرقياً ومختلفتان دينياً . إنهما الموارنة والدروز . الأوائل من الكاثوليك الخاضعين لبابا روما ، مع احتفاظهم بنوع من الاستقلال الذاتي ، ويسكنون الوديان الواقعة ما بين نهر الكلب وصور . أمّا الدروز فذوو معتقد فريد ، قد يكون مزيجاً من الاسلام والمسيحية ، وينتشرون على السواحل حتى صيدا صعوداً نحو الجبال فالبقاع وراشيا . وعلى الرغم من التقارب العرقي بين الدروز والموارنة فقد جرت بينهم وعلى مرّ السنين صراعات كثيرة ، بعضها دموي ، ولكنها لم تكن لتتطور وتتعقد لولا التدخل الأوروبي الذي استغلها تحقيقاً

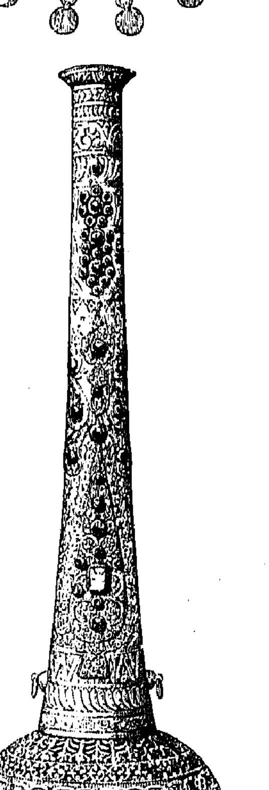


عقود للموازنة في
لبنان
رسم شميد .
عن صورة فوتوغرافية



لمصالحه .

في المناطق القريبة من بيروت كانت تقوم صناعة غزل ونسيج ناشطة وكان انتاجها من الحرير يصل إلى أسواق أوروبا . ولكن هذه الصناعة لم تصمد كثيراً وفقدت بعض جودتها وذلك بسبب الأمراض التي أصابت دود القز وأشجار التوت إضافة إلى بدائية الوسائل المستعملة . وعلى الرغم من كل ذلك نجد أنه ما زال هناك انتاج جميل ينم عن دقة متناهية وذوق رفيع . من ذلك مثلاً تلك المناديل الكبيرة المعروفة باسم «الكفيّة» إضافة إلى الأحزمة الطويلة المميّزة ، وجميعها ذات نسيج وألوان تدعو إلى الاعجاب والتقدير . ولكن ولسوء الحظ نجد أن شيوع استخدام الأصبغة الأوروبية الصناعية قد أفسد بريق الألوان الطبيعية القديمة وأساء إلى تناسقها . «الكفيّة» زيّ شائع جداً في بلاد الشرق ، يستعملها الرجال والنساء فتلقى على الكتفين والعنق كما تلفّ حول الرأس . نجد المرأة تحوّل «الكفيّة» الحرير المذهبة إلى زينة جميلة للرأس ، فتغطي بها شعرها

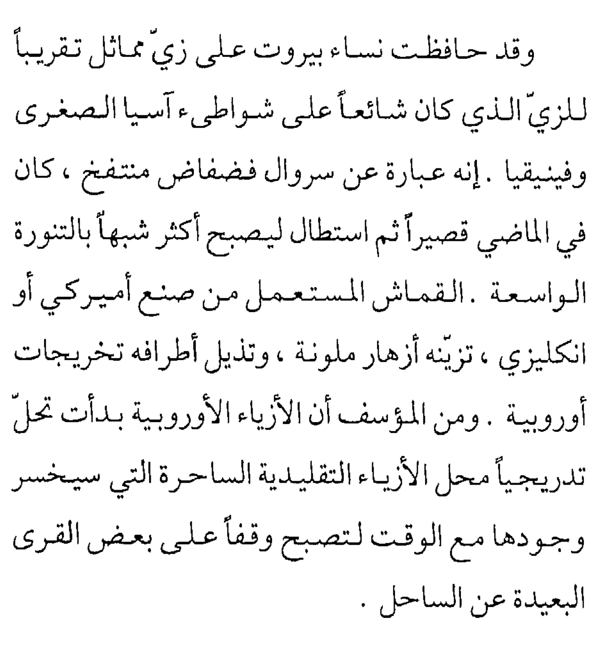


الطرطور
(زينة المرأة الدرزية)
رسم شميد .
عن صورة فوتوغرافية



أميرة درزية ، سيدة من لبنان ، ترتديان الطنطور ـ رسم شميد .عن صورة فوتوغرافية

ذو الضفائر الطويلة السوداء ، جنباً إلى جنب مع السلاسل والحلى الذهبية والفضية . أمّا الرجل فيغطي بطرف من «الكفيّة» رأسه ويلقي الطرف الآخر على عنقه وكتفيه . وبعضهم يضع تحتها قبعة صغيرة تغطي الرأس وقد يعتمر فوقها الطربوش التركي الأحمر . ويختلف نوع «الكفيّة» ما بين ثري وفقير ، فهناك القماش القطني البسيط وهناك الحرير المذهب النفيس ، إضافة إلى سلاسل الذهب والفضة وغيرها . ولا ننسى هنا ذكر الاستعمال التقليدي «للكفيّة» والقاضي بوضعها على الرأس وتثبيتها بواسطة عقال من وبر الجمل .





عقود وأقراط
رسم شميد .
عن صورة فوتوغرافية

وقد حافظت نساء بيروت على زيّ مماثل تقريباً للزيّ الذي كان شائعاً على شواطىء آسيا الصغرى وفينيقيا . إنه عبارة عن سروال فضفاض منتفخ ، كان في الماضي قصيراً ثم استطال ليصبح أكثر شبهاً بالتنورة الواسعة . القماش المستعمل من صنع أميركي أو انكليزي ، تزيّنه أزهار ملونة ، وتذيل أطرافه تخريجات أوروبية . ومن المؤسف أن الأزياء الأوروبية بدأت تحلّ تدريجياً محل الأزياء التقليدية الساحرة التي سيخسر وجودها مع الوقت لتصبح وقفاً على بعض القرى البعيدة عن الساحل .

وكان للنساء الدرزيات أن يحافظن على زينة للرأس يعود تاريخها على ما يبدو إلى عهود بعيدة . إنه الطرطور ، وهو يعتبر من أقدم أشكال الزينة في سوريا والشرق ، وقد يكون هو نفسه الذي كان يعتمره موسى ، عليه السلام والذي طالما ذكر في «العهد القديم» .

إنه عبارة عن قبعة طويلة ذات شكل قرنيّ فارغ ، مصنوع من الفضة وتزينه نقوش نافرة أو محفورة ، إضافة إلى مصوغات ذهبية ومجوهرات على الجهة الأمامية . يبلغ ارتفاع الطرطور عدة أقدام ، ويزداد ارتفاعاً مع ارتفاع الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها

المرأة . انه يرتكز على قاعدة مستديرة من المعدن نفسه ، وقد تكون مذهبة وذات نقوش ناعمة . امّا تثبيته على الرأس فيكون بواسطة أربعة أبازيم ، أو ملاقط ، إضافة إلى عصابة ، أو سلسلة ، للذقن . ومن أعلى الطرطور تتدلى طرحة من الحرير الشفاف فتتهدل بأناقة على العنق والكتفين . ليلة زفافها تعتمر العروس الطرطور ليلازم رأسها طوال حياتها ، ليلاً ونهاراً فلا تنزعه إلاّ لفترات محدودة لتنظيفه وتلميعه . انه عذاب حقيقي للمرأة ، لا سيما في الليل وخلال فصول الحرّ ، لذلك نجده في طريقه نحو الزوال . يكفي أن نذكر أنّ النساء اللواتي يعتمرن



مهد طفل ماروني في لبنان
رسم برانيشنيكوف .
عن صورة فوتوغرافية

الطرطور يستخدمن ليلاً وسائد خشبية تستند إليها زينتهن فلا تسقط ولا يعانين كل صباح من عناء إعادة وضعها . الطرطور الذي نشاهده هنا كان يخص أميرة لبنانية ، يبلغ ارتفاعه ستين سنتيمتراً ويزينه الكثير من القطع الذهبية والمجوهرات .
الحلى والمجوهرات شائعة جداً لا سيما لدى الطبقات الثرية . أجملها تلك القلادات والعقود والخواتم الذهبية أو الفضية ، المزينة بمختلف أشكال المجوهرات والحجارة

القديمة ، وكثير منها جدير بوضعه ، في المتاحف لقيمته الفنية والمادية .

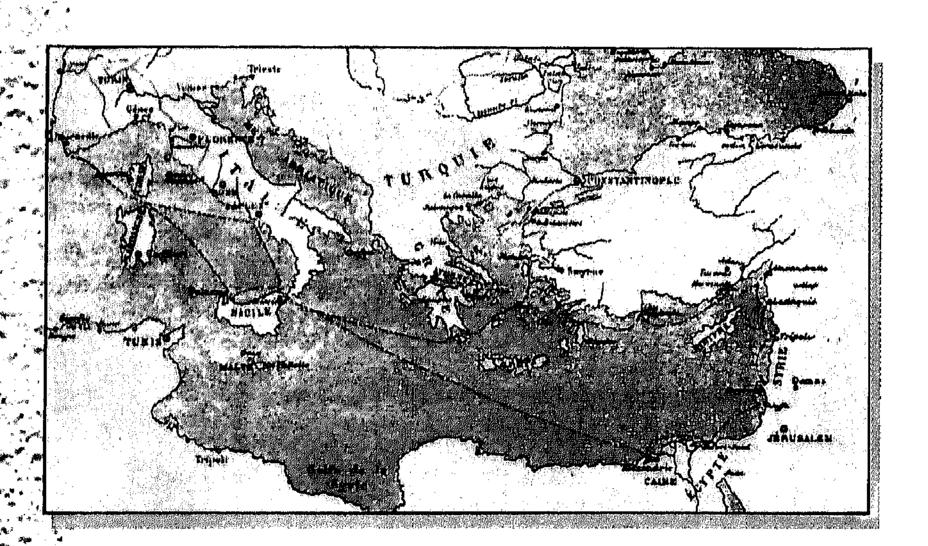
من المشاهدات المميّزة في نواحي بيروت ، والتي يبدو أنها توغل في قدمها إلى عهود بعيدة ، طريقة سكان لبنان في تربية أطفالهم وتغذيتهم . فالأم لا تحمل رضيعها على ذراعها مدثراً بقماطة ، بل تمدده على ظهره ، منذ ولادته في مهد ، أو سرير ذي شكل خاص ومميّز . وعند الرضاعة تجثو قربه وتحنو نحوه بثديها متكئة على خشبة تثبت إلى السرير لهذه الغاية . أمّا البول فيجري التخلص منه بواسطة قناة خاصة تمرّ عبر الفراش وتنتهي إلى دلو من المعدن أو الطين موضوع تحت السرير . والطفل في كل هذا تغطيه ملابس خفيفة ، أو مجرد غطاء بسيط . هذه الطريقة الفريدة والمميّزة نابعة من حرص صحي سليم يحمي الطفل من عناء الحمل والاحتكاك وكثرة الملابس فيبقى هادئاً مرتاحاً في سريره .

يبقى أن ابقاء الطفل ممدداً على ظهره لمدة قد لا تقل عن السنتين قد جعل اللبنانيين يتميزون بتكوين عظمي خاص للرأس . فالعظم الخلفي للجمجمة ، أو القذال ، يتسطح مكوناً مع العظم الجانبي ، أو الجداري ، زوايا قائمة ويصبح الرأس مرتفعاً وعريضاً . هذا التشكل العظمي شائع جداً في سوريا لا سيما في المناطق الجبلية .



شيخ من دير القمر

الفصل الرابع

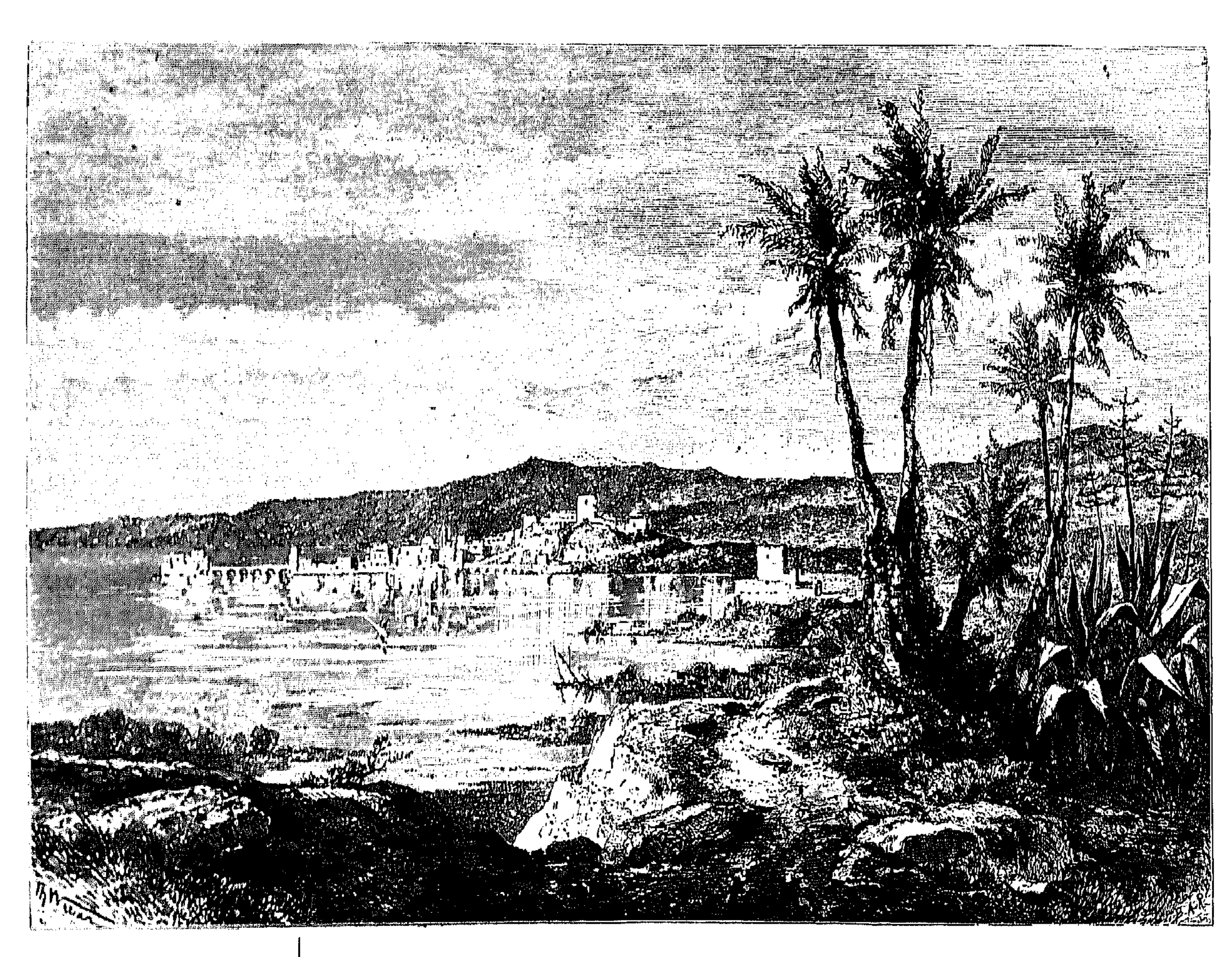


صيدا

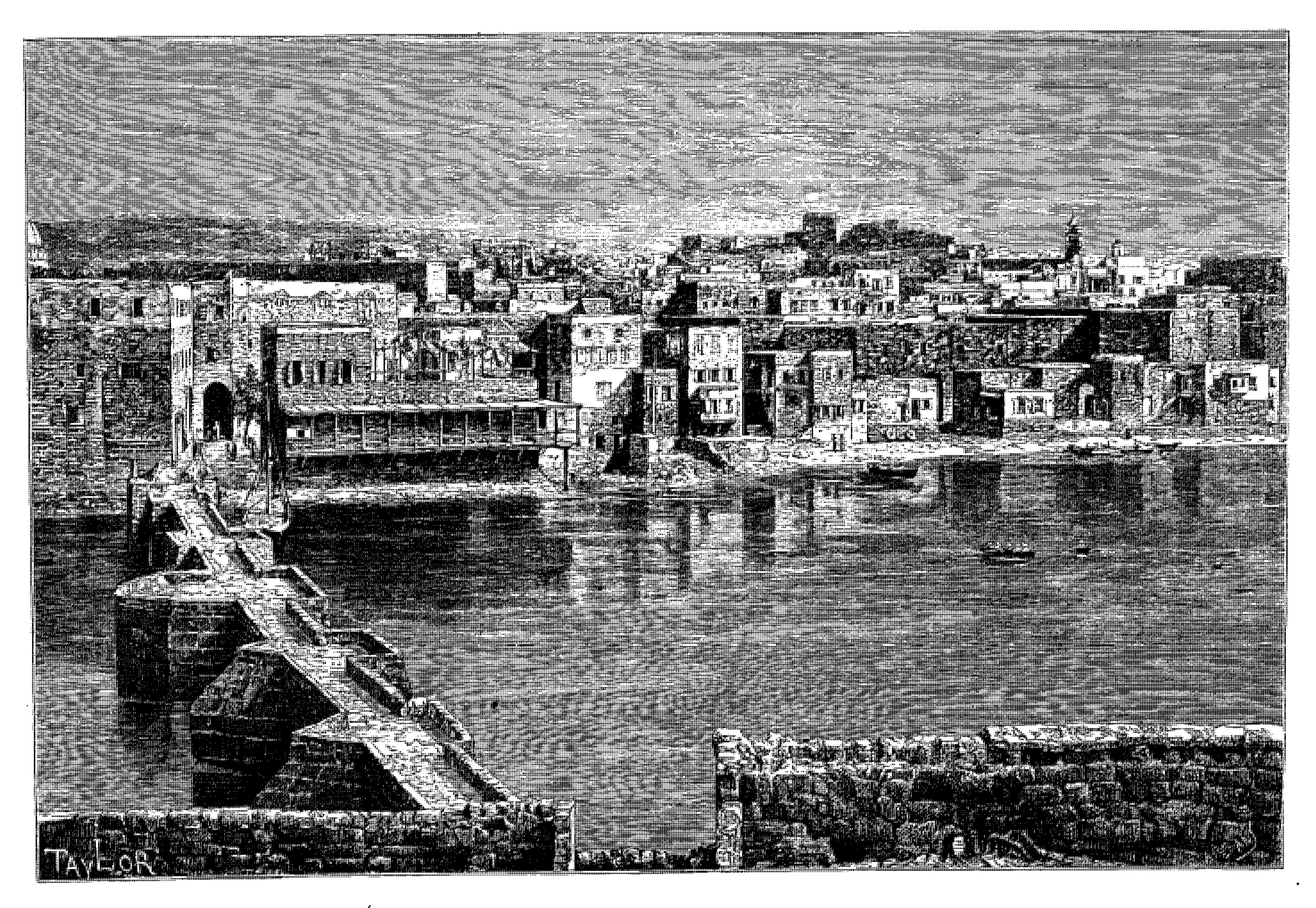
الرحلة البرية : من بيروت إلى صيدا

بعد الرحلة البحرية الطويلة التي حملتنا من مرسيليا إلى بيروت عبر محطات عديدة ، نترك البحر إلى اليابسة لنبدأ رحلتنا البرية الطويلة .

ليس الترحال البريّ في هذه المنطقة من العالم بالأمر السهل ، إذ يرافقه الكثير من المصاعب والمشقات ، لذلك وجب الإعداد له إعداداً كاملاً ، فكان أن تشكّلت



صيدا (منظر من الجهة الجنوبية)
رسم ت . ويبير .
عن مسودة للمؤلف



صيدا المرفأ الشمالي من جهة القلعة - رسم تيلور - عن مصورة فوتوغرافية

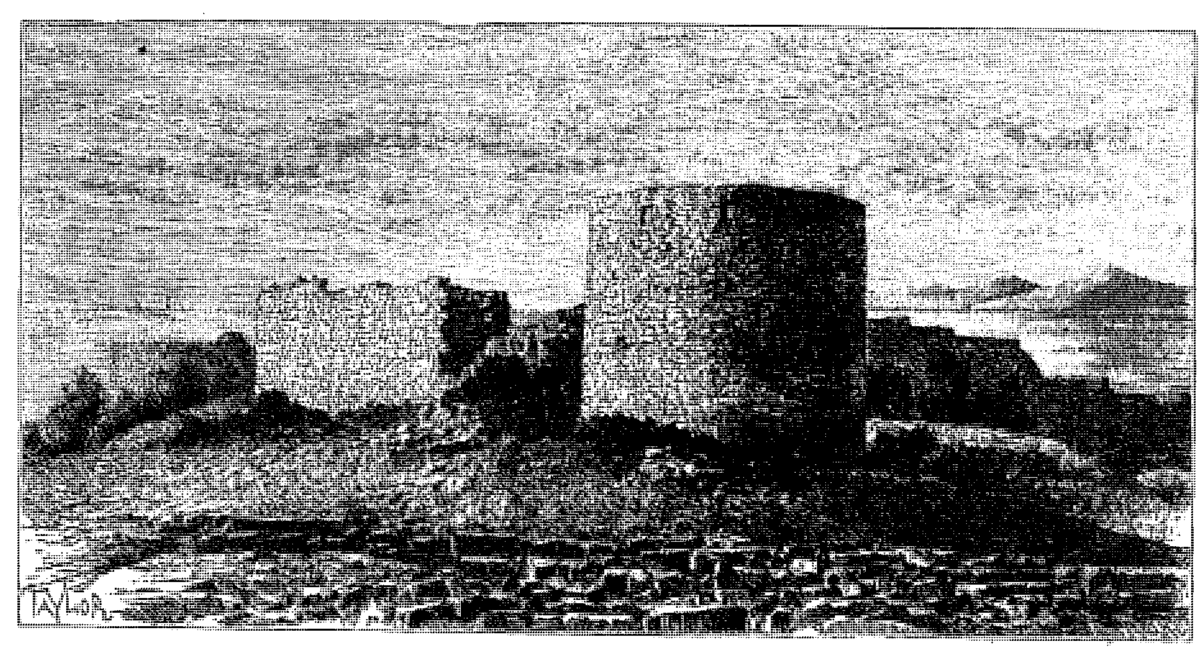
القافلة كما يلي :

هناك أولاً دليل القافلة وقائدها ، وهو شاب قوي يعرف جميع مناطق سوريا وفلسطين ، وله في كل منها أصدقاء ومعارف ، وله إلمام بالفرنسية والانكليزية . وهناك أيضاً الترجمان والطباخ ، وهذا الأخير عنصر مهم واجب الوجود تفادياً لتناول أطعمة يصعب أن تتحملها المعدة الأوروبية . ثم هناك ثمانية من الحمالين ، أو «المكاريّة» ، وهؤلاء عليهم الاعتماد في تحميل المتاع والمعدات ونصب الخيم وجمع الحطب وتأمين الماء والحليب ، إن أمكن ، وغير ذلك من مقتضيات الرحلة ، إضافة إلى قيادة الخيل والبغال والحمير البالغة ثلاثة وعشرين بعيراً .

نغادر بيروت عبر طريق دمشق وصيدا ، فنجتاز أولاً الحدائق و البساتين بين أشجار الزيتون والتوت ، ثم نعبر في غابة من الصنوبر زرعها في الماضي الأمير فخر الدين المعني ، على ما يُروى ، لنصل بعد ذلك إلى مناطق رملية قاحلة أشبه ما تكون بالصحراء . تلك الرمال عبارة عن هضاب متحركة يصل ارتفاع بعضها إلى عشرين أو ثلاثين متراً ، وهي دائمة الامتداد والتحرك مع الرياح نحو المدينة من جهة ، ونحو البحر من جهة أخرى ، بموازاة رأس بيروت .

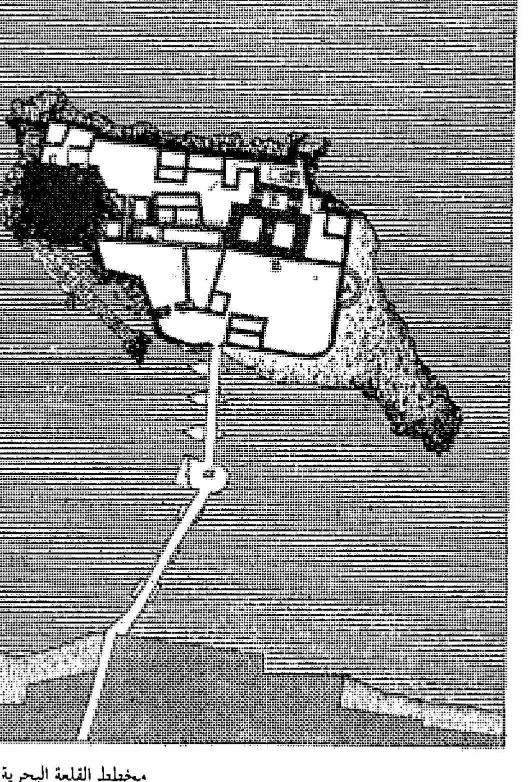
بعد وادي الشويفات ووادي شحرور تأخذ الطريق بالاقتراب من شاطىء البحر حيث ما تزال واضحة آثار الطريق الرومانية القديمة التي كانت تربط ما بين سوريا ومصر . وأثناء عبور خلدة نمرّ ببقايا مدافن وقبور قديمة من الحجر والرخام ، وهذه على ما يبدو استولى على حجارتها سكان المناطق المجاورة لاستخدامها في بناء منازلهم . وبعد ثلاثة وديان نجتاز نهر الدامور ونتابع السير لنصل مساء إلى قرية النبي يونس حيث نضرب خيامنا لقضاء الليل على هضبة خضراء قريبة من

صيدا (قصر سان لويس)
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية



شاطىء البحر .

من النبي يونس إلى صيدا تمرّ الطريق أولاً في أرض سهلية غير مزروعة تقريباً . وبعد قليل نطلّ على صيدا بأبنيتها البيضاء الممتدة داخل البحر ، وتصبح الطبيعة من حولنا أكثر خصباً وخضرة تكثر فيها أشجار رائعة من التوت والتين . ولدى وصولنا إلى نهر الأولي نجتاز مياهه العميقة فوق معبر رملي كوّنه النهر نفسه عند الشاطىء . في أعلى النهر جسر جميل يقوم على قناطر كان قد بناه الأمير فخر الدين ، وبواسطته كان يمكن في الماضي عبور النهر دون بلل حتى في مواسم ارتفاع المياه . ولكن ، ولسوء الحظ ، تهدّمت إحدى دعائم الجسر منذ زمن ولم تتحرك السلطة التركية لاصلاحه وقد يتحوّل كله إلى أنقاض خلال زمن غير بعيد .



مخطط القلعة البحرية في صيدا

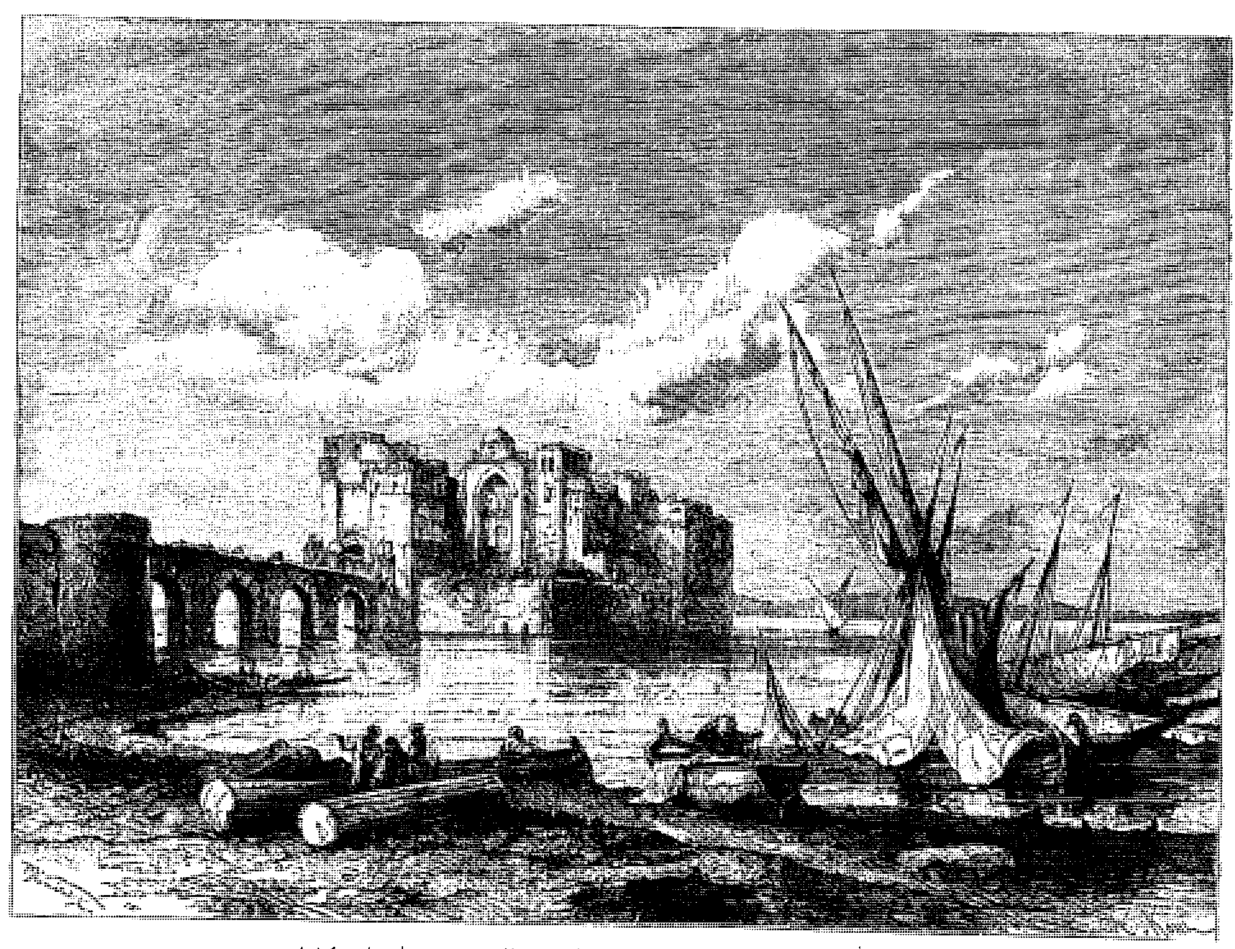
بعد عشر دقائق من اجتيازنا لنهر الأولي ندخل مدينة صيدا المطلة غرباً على قلعتها البحرية ، والمستندة شرقاً إلى هضبة يعلوها برجان وبقايا أسوار هي ما تبقى من قلعة قديمة بناها الملك سان لويس . نجتاز المدينة لنحطّ الرحال في وسط المقابر المصرية إلى الجنوب الشرقي من صيدا .

التاريخ ، الموقع والعمران

بالأمس كانت صيدون ، وهي اليوم صيدا ، المدينة الموغلة في التاريخ القديم ، والتي بدأت قرية لصيد السمك ، كما قد يعني اسمها الفينيقي . إنها من أقدم مدن العالم وأكثرها أهمية في تاريخ الحضارة القديمة . إنها مذكورة في أسفار موسى ، وهوميروس يصفها بالغنى بالمعادن ، كما يصفها بناقلة الفنون ، مما يدل على أن صيدا قد عرفت في تلك الحقبة المتأخرة من التاريخ شهرة واسعة في ميادين التجارة والصناعة ، كما أن أسواقها كانت تغطي سواحل سوريا القديمة من رودس إلى طرابلس وصور وقبرص ، حيث كانت صيدا بمثابة الأم لها جميعاً . ليس هذا فحسب بل كان لها عام ١١٠٣ ق . م مستعمرات على سواحل أفريقيا وأسبانيا ، كما أرست قواعد قرطاجة عند أطراف المتوسط عام ٨٢٦ ق . م . منذ عام ٧٢٠ ق . م . كان لصيدا أن تخضع طويلاً للغزاة الأشوريين والفرس ، فحوصرت مراراً ودمرت تكراراً ، ولكنها كانت دائماً تنهض وتزدهر بفضل تجارتها وثروتها البحرية . في عام ٣٣٢ ق . م . فتحت هذه المدينة أبوابها أمام جيوش الاسكندر

المقدوني تداركاً لعظائم الأمور ، وبعد وفاته خضعت لسلطة حكام سوريا ومصر . وخلال الحكم الروماني بقيت صيدا مدينة تتصف بالكبر والثراء والأهمية لأن الرومان أدركوا أن أهل هذه المدينة بارعون في الفلسفة وعلم الفلك والهندسة والملاحة الليلية والفنون .

الحملة الصليبية الأولى التي توجهت من انطاكية إلى القدس عام ١٠٩٩م مرّت مرور الكرام أمام أسوار بيروت وصيدا وصور وعكا . ولكن ، في عام ١١٠٧م أراد «بودوان» الأول الاستيلاء على صيدا ، فاشترى أهلها استقلالهم منه بالمال . وفي عام ١١٠٨ حنث «بودوان» بوعده وهاجم المدينة ففشل . وفي عام ١١١١م ضرب حولها حصاراً مستمراً وتمكن من دخولها بعد ستة أسابيع . وبقيت صيدا تحت سيطرة الصليبيين حتى عام ١١٨٧ لينسحبوا منها بعد هزيمة حطين فتنتقل إلى حكم صلاح الدين . واعتباراً من عام ١١٩٧ تعرضت صيدا لأحداث وحروب كثيرة ، تارة يدخلها الفرنجة ليخرج العرب وطوراً يخرج منها



القلعة البحرية في صيدا وبناءها الشمالي قبل القصف الذي تعرضت له عام ١٨٤٠
رسم ت . ويبير ـ عن مسودة للمؤلف

الفرنجة ليدخلها العرب ، وذلك حتى عام ١٢٩١ ، حين انسحب الصليبيون نهائياً باتجاه طرطوس ومنها إلى قبرص . وفي تلك المرحلة دمرت صيدا تدميراً شاملاً . وفي القرن السابع عشر عادت مدينة صيدا إلى الأزدهار والعمران على يدي الأمير المعني فخر الدين الذي استطاع بعبقريته أن ينتشل هذه المدينة من الخراب معيداً إليها مجدها وازدهارها ، وقد بنى قصراً رائعاً قرب الخان الكبير الذي كان بمثابة منطقة حرة للبضائع والتجارة . ولكنه ، وبكل أسف ، اضطر إلى طمر المرفأ كيلا يتحول إلى نقطة تجمع للأسطول التركي .

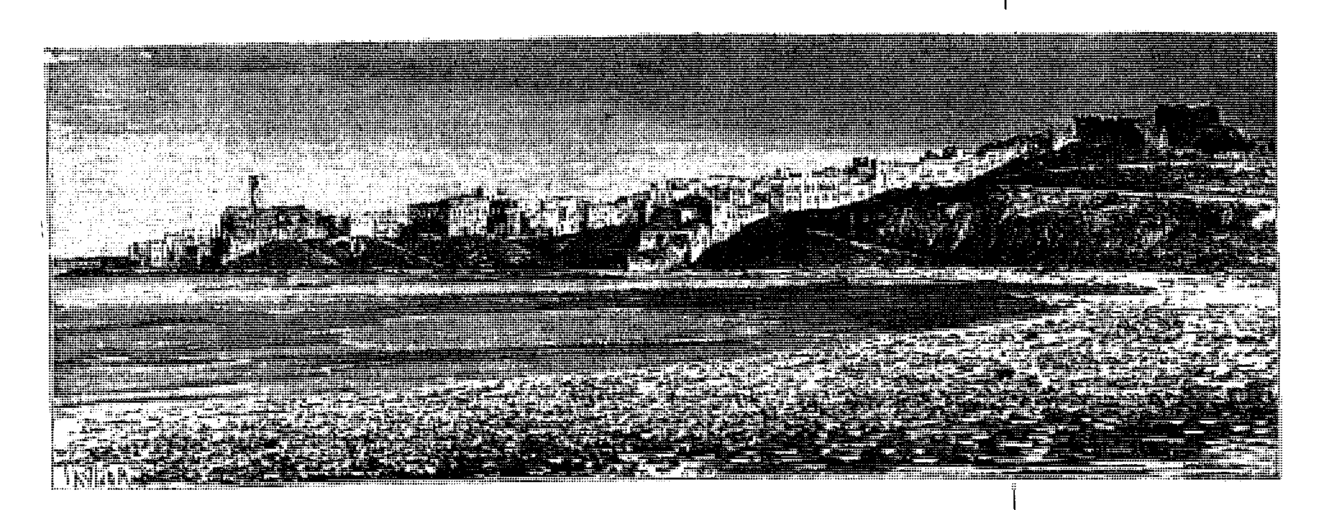
عام ١٧٩١ طرد القائد التركي الجزار باشا التجار الفرنسيين من صيدا . وفي عام ١٨٤٠ قصفت الأساطيل الانكليزية والنمساوية صيدا قصفاً عنيفاً استمر ست ساعات ، فخلّفوا دماراً كبيراً غير مبرر لاسيما في القلعة البحرية .

بعد هذا العرض التاريخي الموجز لن يصعب علينا تصور الأهمية التي تمثلها صيدا ، تلك المدينة القديمة ، ملكة البحار ، بكل ما عرفته من عمران وازدهار وحروب وحصار ودمار . فآثار عمرانها الباقية تقوم فوق آثار عمران سابق ، وصخورها وحجارتها شواهد باقية على كل ما مّر بها من أحداث وجيوش وأجناس وحضارات .

تقوم صيدا اليوم في نفس الموقع تقريباً الذي كانت تقوم عليه صيدا القديمة ، ولكن مع انتقال بسيط نحو الشرق على ما يبدو . وهي تشغل أرضاً داخلة في البحر أمامها جزيرة هي في آن ملجأ للسكان عند الحاجة وحاجز طبيعي يحمي المرفأ من العواصف البحرية .

تمتد المدينة فوق مثلث من الأرض قاعدته نحو اليابسة ، فيما رأسه يفصل ما بين مرفأين بحريين : مرفأ الشمال ومرفأ الجنوب ، أو مرفأ المصريين . الشوارع

مرفأ المصريين في صيدا
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .



ضيقة جداً تغطي معظمها العقود والقناطر ، أو الحصر والقماش ، مما يجعلها مظلمة وباردة في الصيف .

يتوسط الطريق عادة ممرّ منخفض مخصص للبعير ، فيما يسير المشاة على الرصيفين الجانبيين . وفي الأسواق ، أو البازار ، تنتشر محلات كثيرة ومختلفة تضجّ بالحركة والحياة . المنازل في صيدا أكثر ارتفاعاً من تلك القائمة في مدن الساحل ، وليس نادراً فيها أن نجد بيوتاً من عدة طبقات . في وسط ساحة المسجد القائم على أنقاض كنيسة فرسان القديس يوحنا ، كان يقوم القصر الرائع الذي بناه الأمير فخر الدين المعني ، والذي لم يبق من آثاره شيء بعدما قامت محله سراي سليمان باشا . وقريباً من الساحة يقوم الخان الفرنسي الذي بناه الأمير فخر الدين أيضاً . انه بناء ضخم تتوسطه باحة مكشوفة تظللها نباتات استوائية وأشجار موز جميلة ، وفي وسطها حوض من الرخام تنفر فيه مياه نبع دافق . في هذا البناء الضخم توجد وكالة القنصلية الفرنسية والآباء الفرنسيسكان والمدرسة الابتدائية والفندق والمحلات التجارية ومستودعات البضائع والاسطبلات وغيرها .

القلعة البحرية والمرافيء

في صيدا مرفآن أحدهما نحو الشمال وآخر نحو الجنوب ، يفصل بينهما رأس بريّ متصل بجزيرة بحرية يقوم عليها حصن قديم يعرف بالقلعة البحرية :

أ) مرفأ الشمال أو «ميناء الشمال» عبارة عن مربع كبير تحيط به من ناحية القلعة البحرية والجسر الذي يربطها بالشاطىء الرملي ، ومن ناحية أخرى سلسلة من الأرصفة الصخرية التي كان قد أقامها الفينيقيون القدامى لإيواء مراكبهم . أمّا الدخول إلى هذا الميناء فكان يتم عبر ممرّين ، أحدهما غربي وكان يعرف «بالفتحة» وهو اليوم مطمور بالرمال ، وآخر قرب القلعة ما يزال صالحاً حتى اليوم . أجزاء من الحوض أضحت مطمورة بالردم والرمال ، وهو بحاجة إلى بعض أعمال الصيانة والتفريغ كي تصبح الافادة منه كاملة . وهذا في حال حصوله سيكشف عن آثار ودفائن تظهر أهمية ما كان عليه فن البناء لدى الذين عاشوا على هذا الشاطىء الجميل .

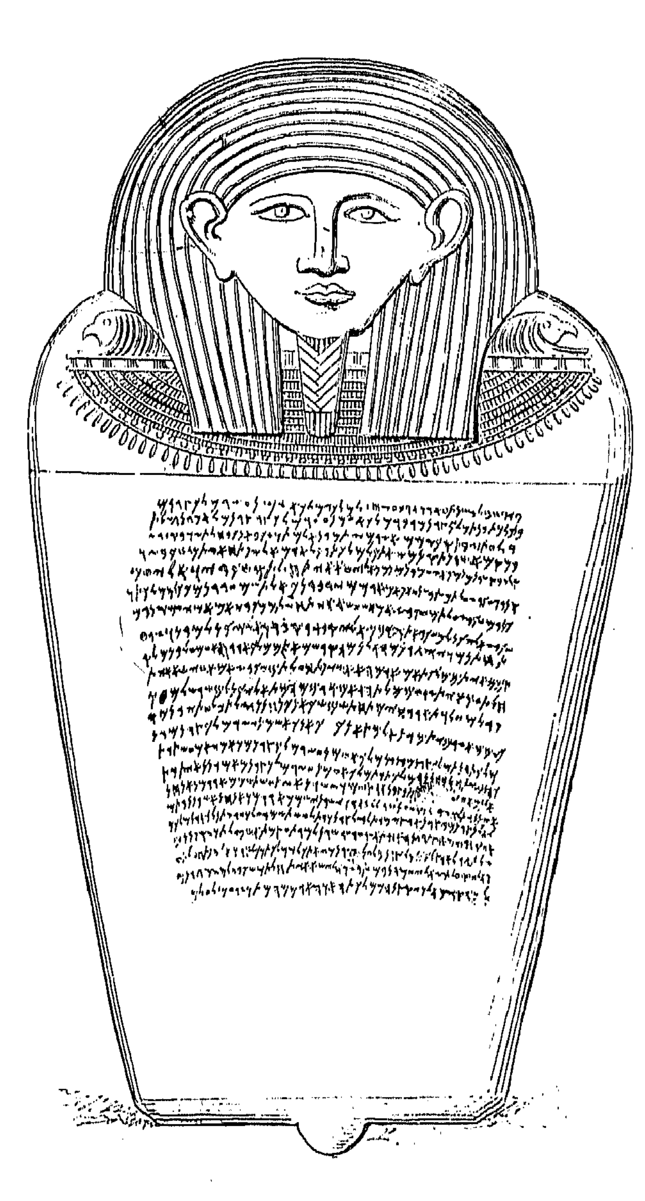
ب) القلعة البحرية التي تحمي مرفأ الشمال مكوّنة من عدة أبراج ، أضاف إليها الصليبيون وبشكل غير منتظم بضع أبنية وذلك خلال عامي ١٢٢٧ و١٢٢٨ . وفي وسط الجسر الذي يربط القلعة باليابسة نجد كتلة ضخمة كان يقوم عليها باب وبرج كبيران وذلك على مسافة خمسة وثلاثين متراً من القلعة واثنين وأربعين متراً من اليابسة . الجزء الأول من الجسر ، لجهة القلعة ، مكوّن من أربع قناطر ركائزها ذات دعائم تمكنها من مقاومة أمواج القاع . أمّا الجزء الثاني ، لناحية البرّ فهو أيضاً مكوّن من أربع قناطر مماثلة للأولى تقريباً ، ولكن ركائزها غير مدعّمة كما أنها

أحدث بنياناً . ويحتمل أنّ هذا الجزء كان مبنياً من الخشب أيام الصليبيين وذلك كي يسهل هدمه عند التعرّض لهجوم . جدران القلعة صلبة البناء ، شديدة السماكة ، وحجارتها ملتصقة ببعضها بواسطة تعشيقات خشبية . مدخل البرج الشرقي الكبير كان مرتفعاً عن سطح الأرض وذلك لأنه يقوم على قاعدة ضخمة حفر فيها بئران واسعتان . أمّا البرج الغربي ذو الأبعاد الجميلة فكان يستخدم مستودعاً للبارود . هذه القلعة ، بكل ما فيها من بنيان متقن ، كانت من أبرز مظاهر الجمال حتى عام ١٨٤٠م حين قصفها الانكليز مدمّرين معظم أجزائها دون رحمة أو شفقة .

ج) مرفأ الجنوب أو «مينا» المصريين أضحى مهجوراً اليوم لأنه شديد التعرّض للرياح الغربية التي تحمل إليه الأمواج العاتية عبر ثغرة كبيرة فيه . ويحيط به من الشمال والجنوب أرصفة صخرية ، ومن الشرق تلال الشاطىء الرملي المرتفع .

تعتبر البضائع المصدّرة عبر مرفأ صيدا ضخمة جداً بالمقارنة مع حجم هذه المدينة الصغيرة . وهي في معظمها من العنب المقطوف من الكروم التي تغطي الهضاب القريبة ، إضافة إلى الحبوب والقطن وأنواع الجوز والفستق ومادة الأشنان أو الصودة المتأتية من ترميد بعض أنواع النبات (سلسولا) وهذه يأتي بها البدو الرحّل من بادية الشام حيث يحملونها مسافة سبعة أيام أو ثمانية ليصلوا بها إلى مرفأ صيدا . يضاف إلى ذلك أن هناك تجاراً يطوفون في المناطق في مواسم معينة ليحملوا إلى المرفأ المحاصيل المختلفة .

القطن والحرير أهم مواد التصدير على الاطلاق . والنساء هنّ اللواتي يقمن بمختلف مراحل انتاج القطن بدءاً من زراعته . وهن يحضرن مرتين في الاسبوع إلى سوق خاصة بالقطن لبيع انتاجهن . أما تربية دودة القز ، لإنتاج الحرير ، فمنتشرة في مختلف مناطق الريف . ويبدأ الموسم في أواسط شهر أيار/ مايو عندما ينتقل معظم السكان للعيش في أكواخ وخيم بين الأشجار والحدائق والبساتين ، وحيث يفضل عدم اقتراب الأغراب والأوروبيين لأن النساء هنّ اللواتي يشغلن غالباً تلك المساكن المبنية من الأغصان والأوراق .



ناووس ملك صيدا الشهير «أسمو نظر»
رسم پ سيليه .
عن صورة فوتوغرافية

إضافة إلى كل ذلك تنتج بساتين صيدا كميات كبيرة من الرمان والمشمش والتين واللوز والبرتقال والليمون والاجاص .

فوق الهضبة الساحلية المطلة على مرفأ المصريين ، والتي ترتفع خمسة وعشرين متراً تقريباً ، نشاهد بقايا صناعة الأرجوان وآثارها ، والتي يبدو أنها كانت شديدة الأهمية . لقد كان الفينيقيون القدامى يستخرجون صباغاً عاد عليهم بشهرة واسعة وذلك من حيوان رخوي بحري يعرف باسم (موركس) وهو شائع كثير الانتشار في المناطق الدافئة من شواطىء المتوسط . وفوق تلك الهضبة نجد أكواماً بل تلالاً من أصداف ذاك الحيوان ، وكلها فتحت بنفس الطريقة بواسطة فأس أو قدّوم كي يمكن استخراج الحيوان منها . تمتد تلك الأكوام على مسافة مئات الأمتار وبارتفاع عدة أمتار .

هذا النوع من صدف الموركس يعطي الصباغ الأرجواني البنفسجي ، في حين أن الموركس الذي كان قد وجد بكميات كبيرة على شواطىء أفريقيا يعطي اللون الأرجواني القاني المعروف باسم الصوري .

الأرجوان أو البرفير من أقدم أنواع الصباغ وأكثرها أهمية وقد كان له أن يتخذ أهميته لجماله وبقائه . فهو لا يزول ولا يشحب بفعل التعرّض للضوء بل يزداد ثباتاً وتألقاً وجمالاً .

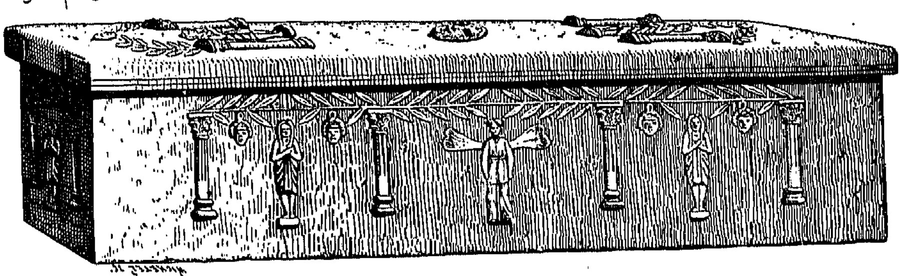
عملية الصباغ بسيطة جداً . فلدى دلك جسم حيوان الموركس في الأماكن المحتوية على المادة ، يسيل منه الأرجوان . وهذا يعطي القماش باديء الأمر لوْناً مائلاً نحو الزرقة يتحول بفعل الضوء بنفسجياً فأرجوانياً لا يتغير ولا يزيله الغسل بالماء .

نواويس وتوابيت

على مسافة كيلومتر واحد تقريباً إلى الجنوب الشرقي من المدينة تقع المقابر الفينيقية وسط صخور ضخمة تشرف على السهل ، وفيها حُفرت أنفاق ومغاور في كل الاتجاهات . إلى الشمال من المقابر ، وعند أسفل الصخور ، نزور الناووس الشهير لملك صيدا «اسمونظر» والذي أصبح الآن من أهم مقتنيات متحف اللوفر بعد أن أهداه إياه دوق «لوينز» .

اكتشف هذا الناووس المحفور من الصخر الأسود على عمق مترين وذلك ضمن قبو ذي عقود على ما يبدو . وسط الأنقاض وجد أيضاً سنّ وعظمة وفك بشري .

شكل الناووس على النموذج المصري القديم الخاص بالمومياء ، فهو جسم مستطيل ملفوف حتى العنق ، أم الرأس فيزينه تصفيفة شعر ضخمة ولحية مستقيمة ، إضافة إلى عقد كبير على كل من طرفيه طائر الباشق «المقدس» كما هي الحال غالباً في المومياء المصرية فوق الغطاء نُقشت كتابة بالحرف الفينيقي القديم وذلك في اثنين وعشرين سطراً ، وهي تعتبر من أهم كتابات المقابر المحفوظة . ومما جاء فيها :

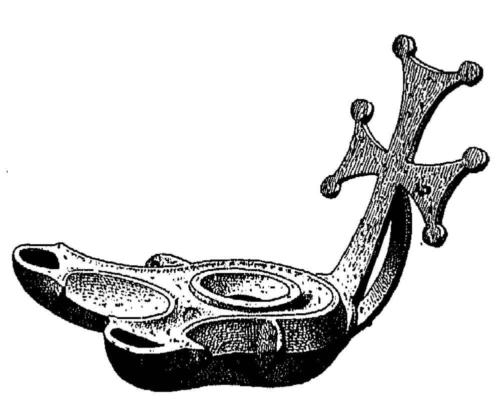


تابوت من الرصاص
رسم للمؤلف

«في شهر (كذا) من العام الرابع عشر لحكم الملك اسمونظر ، ملك الصيداويين ، ابن الملك تبنيت ملك الصيداويين ، اسمونظر ملك الصيداويين تكلّم هكذا : خُطفت قبل وقتي ، ولم أعش سوى أيام قليلة ، يتيماً ابن أرملة ، وها أنذا راقد في هذا التابوت ، في هذا القبر ، في هذا المكان الذي بنيته . . .»

وبعد تحذيرات وتهديدات كثيرة من سوء عاقبة فتح تابوته أو الاساءة إليه أو دفن أحد فوقه ، وبعد ذكر مسهب لأمجاده وأمجاد أجداده وما يتمتعون به من حماية الآلهة ، ينتهي إلى ما يلي :

« . . . إذا لا يفتحنّ انسان هذا القبر ولا يعبثنّ به أحد ولا يضعنّ فوقه شيئاً ولا يأخذن التابوت الذي أضحى مأوى لي ، مخافة أن تأسره الآلهة المقدسة وتمحو المملكة نفسها والأفراد وأنسالهم إلى الأبد» .



مصباح من البرونز
رسم للمؤلف

حين خطّ هذا الملك التعيس وصيته الأخيرة لم يكن ليخطر له ببال أن المقابر التي تضمه مع أجداده وأحفاده ستقلب رأساً على عقب ، وأن العظام ستتفرّق في كل مكان ، وأن تابوته سينقل إلى الطرف الآخر من ذاك البحر الأزرق الذي كان يتأمله من على شرفة قصره وهو يحتسي مع خلاّنه الخمرة الفينيقية المعطرة .

من الأكيد أن ناووس هذا الملك قد احضر جاهزاً من مصر ، فهو ليس من حجر البازلت كما كان يُعتقد ، بل من حجر الامفيبوليت الأسود الموجود في

مصر ، كما أن الغطاء ما يزال يحمل آثار كتابات هيروغليفية مصرية أزيلت لينقش مكانها الحرف الفينيقي القديم .

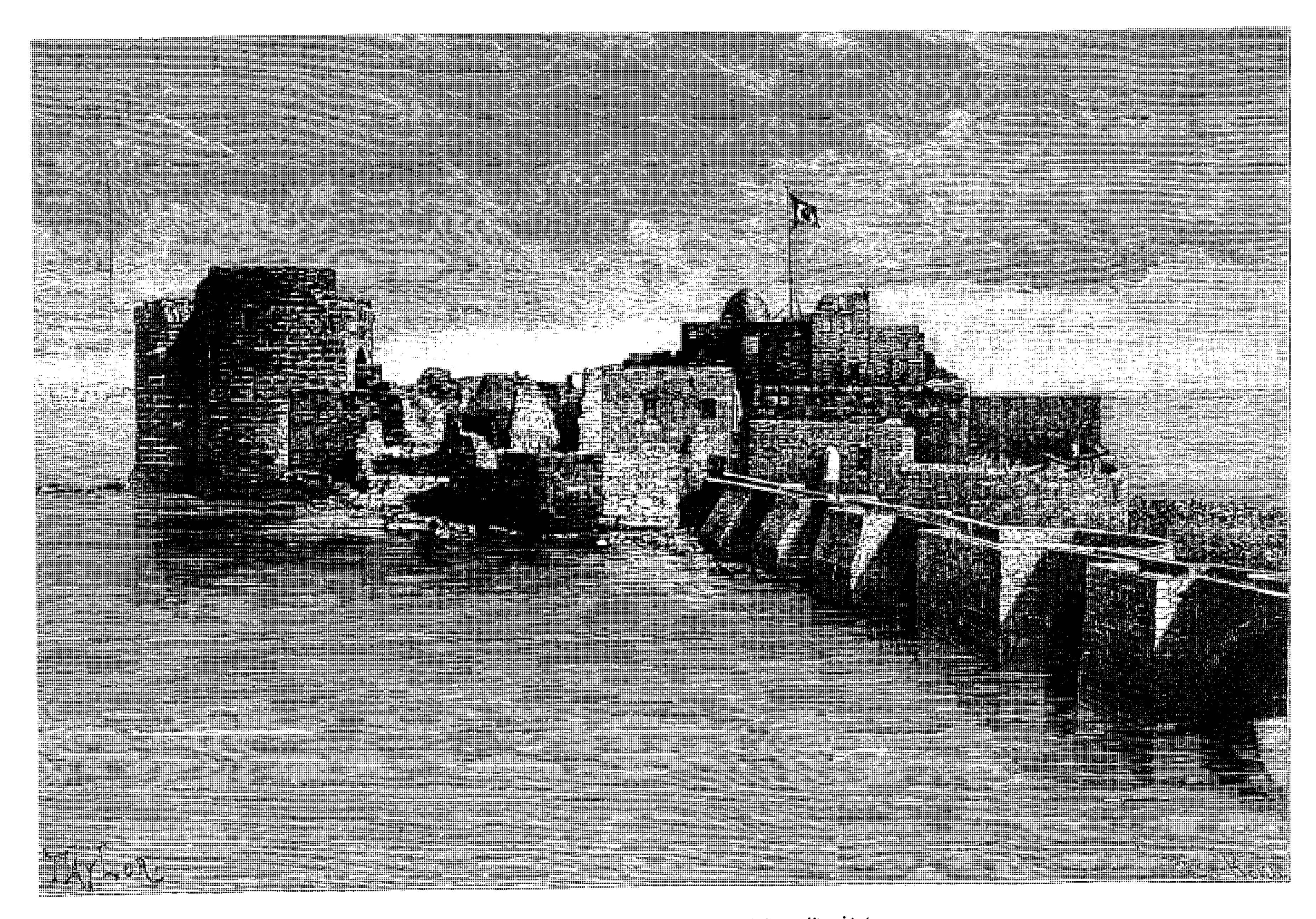
في مقابر صيدا الفينيقية ، كثيراً ما كانت توضع جثث الموتى على الأرض دون أي تابوت ، فيُسجّى الميت على ظهره ويداه ملاصقتان لجانبيه ، وقد يسجّى على بطنه ويوضع وجهه فوق حجر . وفي بعض الأحيان ، ومنعاً للتعفن السريع ، كان الميت يُلفّ بلفائف مشبعة بمادة الحمّر ، كما كان يفعل المصريون القدامى . امّا موتى الطبقات الغنية فكانوا يوضعون في توابيت خشبية مزينة بالبرونز ، وقد يوضع عليها أيضاً لوحة من الفضة نُقش عليها اسم الميت وتاريخ الوفاة .

وفي بعض المراحل كان تابوت الميت الثري يصنع من الرصاص المزيّن بالنقوش الناعمة كأوراق الزيتون والغار التي تمازجها أشكال مختلفة كالمخلوقات المجنحة والفراشات وغيرها .

في تلك القبور قد نقع على أشياء أخرى مختلفة ، من ذلك مثلاً بعض أنواع القناديل التي كانت تستخدم لإنارة ظلمة تلك الانفاق والمغاور . بعضها بسيط مصنوع من الطين ، وبعضها أكثر اتقاناً تزينه نقوش أزهار مختلفة . وقد وجدنا مصباحاً من البرونز يعود إلى العهود المسيحية ، وهو كبير الحجم جميل الشكل ويسمح باضاءة شعلتين معاً . كما أنه مزوّد بقبضة تسمح بحمله بسهولة بواسطة ثلاثة أصابع . ويعلو هذه القبضة صليب يوناني الشكل يشبه ذاك الذي كان يزين

مقابر عدلون بالقرب من صور
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .





صيدا، الجسر الذي يربط المدينة بالقلعة - رسم تيلور - عن صورة فوتوغرافية

صدور جنود الحملات الصليبية .

من صيدا إلى صور

لدى الخروج من صيدا إلى صور نمرّ ببعض أشجار الطلح ، أو السّنط ، ذات الأزهار الجميلة . المهم في الأمر أن هذه الأشجار لا تنبت أصلاً في صيدا ، ولا في أي منطقة من سوريا ، بل هي آتية من مصر العليا ، لذلك لا نشك في أن هؤلاء الذين كانوا يحملون من مصر النواميس والتوابيت لدفن ملوك صيدا ، حملوا معهم أشياء أخرى ومنها هذه النباتات .

الطريق إلى صور تسير بمحاذاة البحر ، تارة كثبان رملية ، وأخرى حقول قمح



راعي ماعز شيعي من صور
رسم إ. برانيشنيكوف .
عن صورة فوتوغرافية



نساء مسلمات من صيدا

رسم برانيشنيكوف ـ عن صورة فوتوغرافية

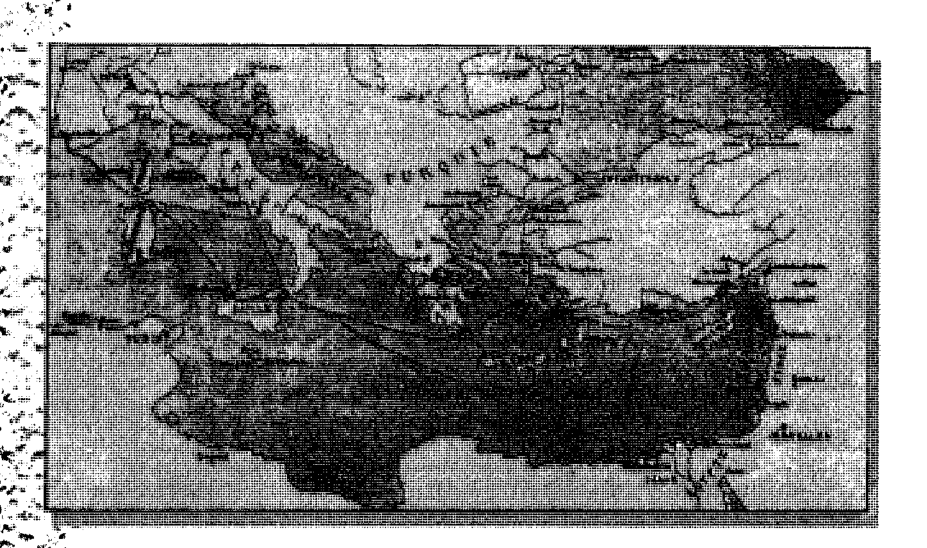
وبساتين تخترقها أنهار وسواق صغيرة . وفي أماكن مختلفة نقع على آثار متبقية للطريق الرومانية القديمة التي كانت تخترق فينيقيا . نعبر أولاً نهر البرغوت ، فنهر سينيق ثم نهر الزهراني وصولاً إلى تلّ البرك .

بعد ساعات نصل إلى سهل مغلق شرقاً بجدار صخري مرتفع حفرت فيه كهوف وأقبية لقبور قديمة . هذه القبور أضحت خالية الآن ومنذ زمن طويل ، ولم يبق منها سوى قاعات ضيقة متصلة بأنفاق منخفضة لا يمكن المرور فيها إلا زحفاً . إنها مقابر عدلون ، أو «عاد نونوم» كما كانت تعرف في القرون الوسطى . يعتبرها بعض المؤرخين شديدة القدم في حين أن بعض الباحثين المحدثين اعتبر أجزاء كثيرة منها تعود إلى العهود المسيحية .

بعد مقابر عدلون نتبع الطريق الرومانية القديمة عبر سهل (أبو الأسود) نسبة إلى النهر الذي يخترقه ، والذي نجتازه عبر جسر روماني قديم .

بعد ذلك نصل إلى القاسمية القائمة قرب قلعة قديمة تعرف باسم «برج الهوا» على ضفاف نهر الليطاني المعروف في قسمه الساحلي باسم نهر القاسمية ، وهو من أهم أنهار سوريا على الاطلاق . بعبور نهر القاسمية نصل إلى منطقة معظم سكانها من الشيعة ، أتباع الامام علي (رضي الله عنه) .

الفصل الخامس

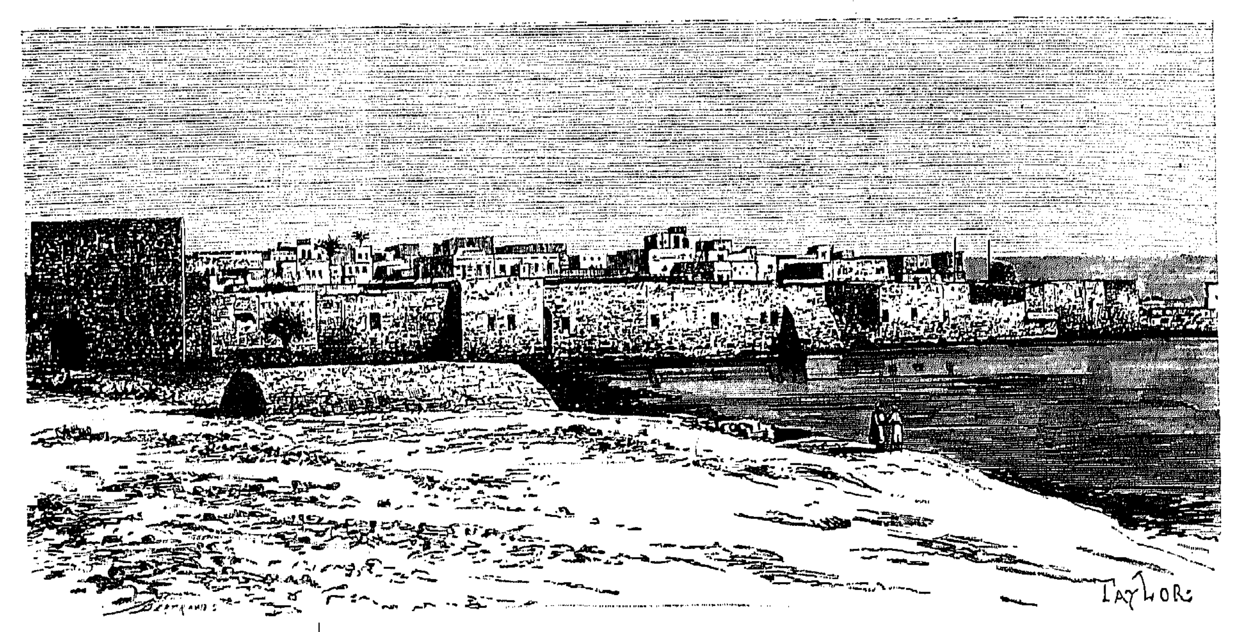


صور

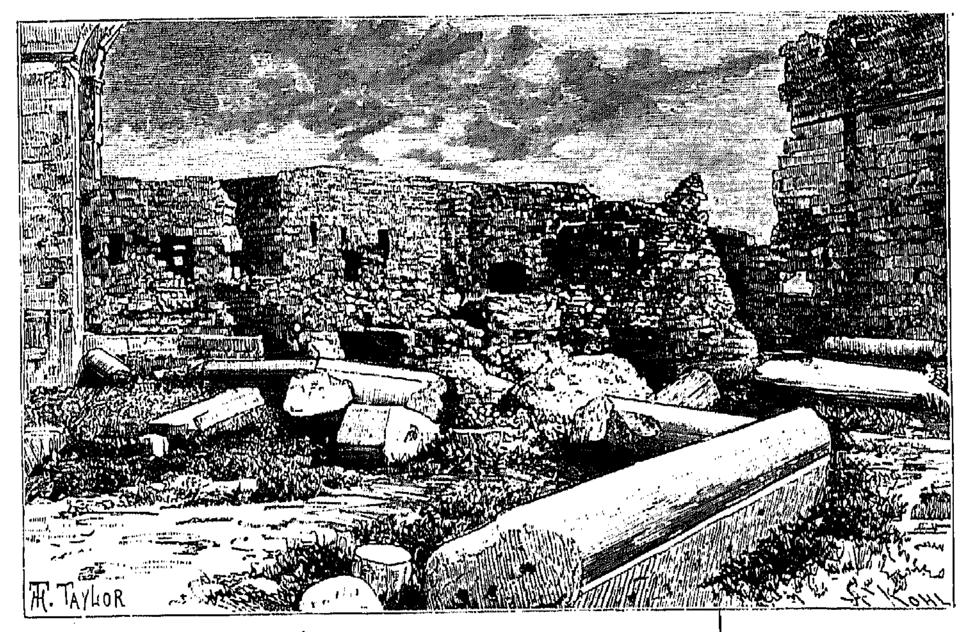
في الطريق إلى صور نعبر نهر القاسمية فوق جسر حجري جميل وحديث البناء . إنه عبارة عن قنطرة واحدة ترتفع بقوة فوق مجرى النهر مما يجعل الصعود اليها والنزول منها عملية صعبة . قرب الطريق نشاهد نبعاً محاطاً بالجدران ويعتقد سكان المنطقة أنّ مياهه شافية للأمراض المزمنة والمستعصية . عند الطرف الشمالي للبرزخ الرملي الذي يصل شبه جزيرة صور باليابسة يقوم المدخل الوحيد إلى تلك المدينة التاريخية ، وعلى الأرجح في نفس المكان الذي كان يقوم فيه مدخل المدينة القديمة .

تقوم مدينة صور على شبه جزيرة كانت في الماضي منفصلة عن اليابسة بواسطة قناة مائية يبلغ عرضها بضع مئات من الأمتار . ويرجح أن المدينة القديمة كانت تقوم على عدة جزر صخرية صغيرة عمل السكان القدامى على ربط بعضها إلى بعضها الآخر . أمّا البرزخ الرملي الذي أضحى اليوم يربط تلك الجزيرة باليابسة فقد أنشأه الاسكندر الكبير حين غزا المدينة . ومنذ ذلك العصر أخذ هذا البرزخ بالاتساع شمالاً وجنوباً بما تحمله إليه مياه البحر من رمال ، حتى أضحى عرضه في أضيق أماكنه أكثر من ستماية متر .

صور مدخل المدينة
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .



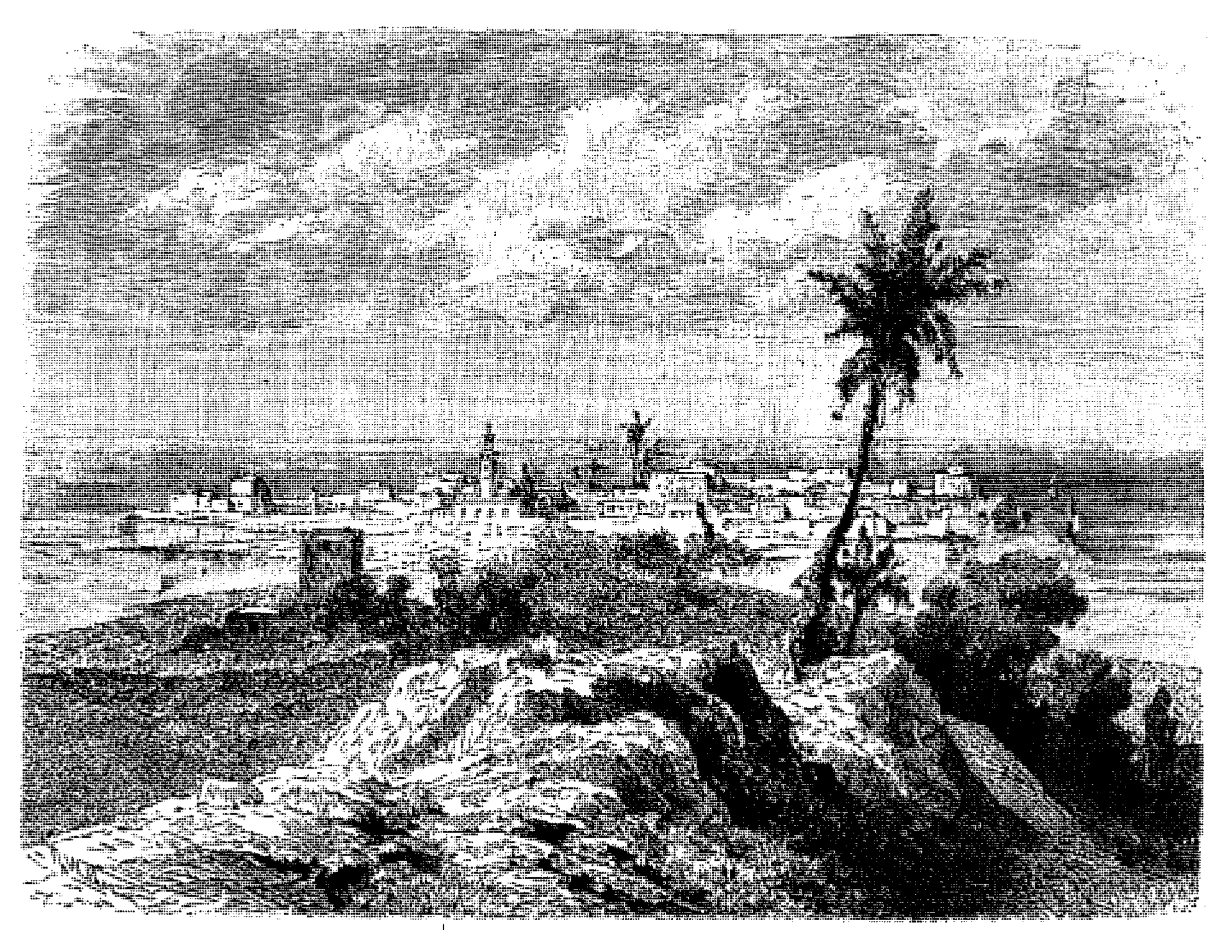
كاتدرائية صور
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .



أعمدة من الصخر الأسواني
المصري في فناء كاتدرائية صور
رسم لتيلور - عن صورة فوتوغرافية .

في صور مرفآن تلجأ إليهما السفن القادمة إلى المدينة ، أحدهما شمالي والآخر جنوبي . مرفأ الشمال أضحى اليوم قليل العمق ويعرف باسم مينا الصيداويين . إنه مغلق جزئياً بواسطة رصيف حجري قديم ، ويشرف عليه شرقاً برج قديم مربع الزوايا وهو يقوم على قاعدة تعود إلى أيام الفينيقيين . هذا المرفأ المليء بالركام والطين لم يعد صالحاً إلا للمراكب الصغيرة والخفيفة الوزن .

أمّا مرفأ الجنوب ، أو مينا المصريين ، فعبارة عن حوض واسع وعميق يحميه غرباً رصيف صخري بعيد كان يصل ما بين الصخور التي نشاهد رؤوسها في عرض البحر ، وجنوباً البرزخ الرملي ، وشرقاً الشاطىء . أمّا الدخول إليه فكان من الجنوب ، وهو بدوره محميّ من العواصف بواسطة رأس الأبيض . الشاطىء الغربي لشبه الجزيرة عبارة عن جرف صخري يرتفع قليلاً عن سطح البحر . في تلك المياه نستطيع احصاء أربعين أو خمسين عموداً من الرخام والغرانيت ملقاة بين الصخور والركام ، وهي دون شك بقايا أسوار وتحصينات تهدمت عبر العصور ولم يبق منها سوى تلك الأعمدة التي استطاعت الصمود نظراً لضخامة حجمها

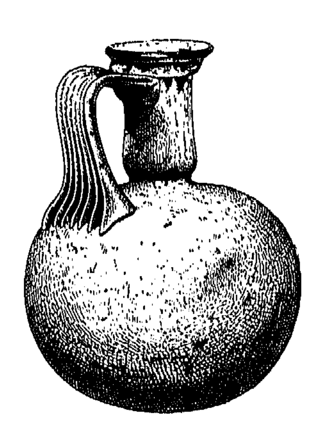


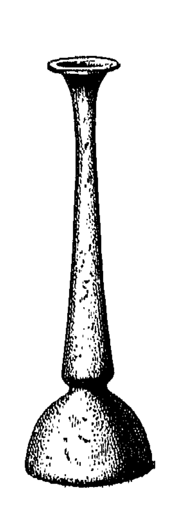
برزخ الاسكندر وبرج الجزائريين في صور
رسم ت . ويبير .
عن مسودة للمؤلف

وثقل وزنها . بين ذاك الجرف ومنازل المدينة تمتد مساحة فارغة من الأرض تستخدم لزراعة بعض الأقطان والتبغ والشعير .

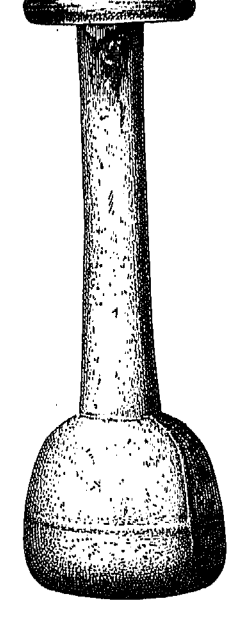
إلى الجنوب من المدينة ، وضمن أسوارها القديمة ، ما تزال تقوم آثار هامة لكاتدرائية صور الشهيرة ، التي كان قد بناها الأسقف «بولان» في أوائل القرن الرابع للميلاد . تقوم هذه الكاتدرائية على سبعين متراً طولاً واثنين وعشرين عرضاً . قبتها التي كانت دون ريب على كثير من العظمة أضحت مهدّمة وأعمدتها ملقاة على الأرض التي تغطيها الحجارة والركام . أمّا السلم الذي كان يؤدي إلى أعلى الجدران فلم يعد له أي وجود . وسط الفناء الخارجي للكاتدرائية نجد مجموعة من الأعمدة الضخمة المنحوتة من الصخر الأسواني المصري ذي اللون الزهري ، وهي تعتبر من أضخم الكتل الصخرية التي عرفها التاريخ وأكثرها قوة . وفي العهد التركي حاول الجزار نقلها إلى عكا ليزيّن بها مسجده ولكن المهندسين الأتراك عجزوا عن ذلك لضخامتها . في هذا الهيكل التاريخي توجد رفات العديد من مشاهير أوائل أيام المسيحية والعهود الصليبية . ويرجح أن هذه الأنقاض تخفي تحتها قبر الامبراطور الالماني المخيف فريديريك الأول الذي قضى غرقاً في أحد أنهار شمال سوريا ، فنقل جثمانه إلى انطاكية حيث تم وضعه في الماء المغلي لفصل العظم عن اللحم . ثم جرى دفن الدماغ والأحشاء في كنيسة انطاكية ، في حين نقل هيكله العظمي إلى صور ليدفن في كاتدرائيتها .

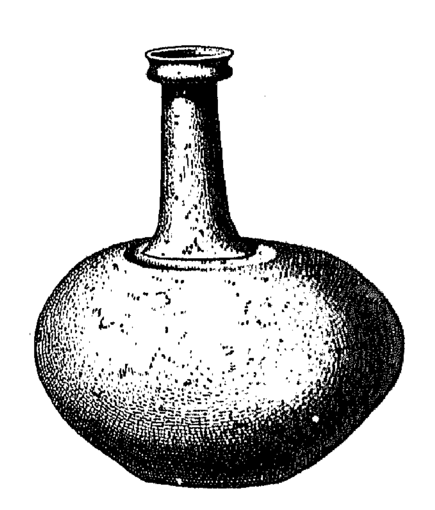
عند الجانب الجنوبي لبرزخ صور ، قرب الحدائق والبساتين يرتفع برج قديم أقامه الصليبيون ويعرف باسم «برج المغاربة» أي المغربيين القادمين من شمال أفريقيا . يتميّز هذا البرج ببنائه الجميل المتقن من حجارة متناسقة الأشكال والتركيب . قرب هذا البرج وعند الشاطىء نجد بقايا حطام زجاج أزرق ، بهت لونه بفعل الزمن والشمس والماء ، وأتخذ أشكالاً مكوّرة كالحصى لكثرة التعرض لصعود الأمواج وانحسارها . هذه البقايا تشير بوضوح إلى أنّ هذه المدينة قد عرفت

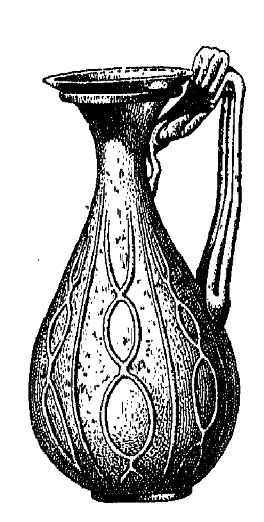


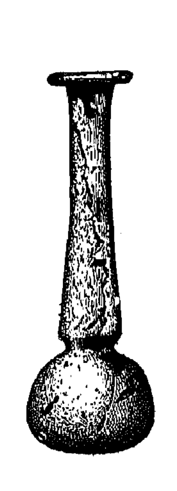


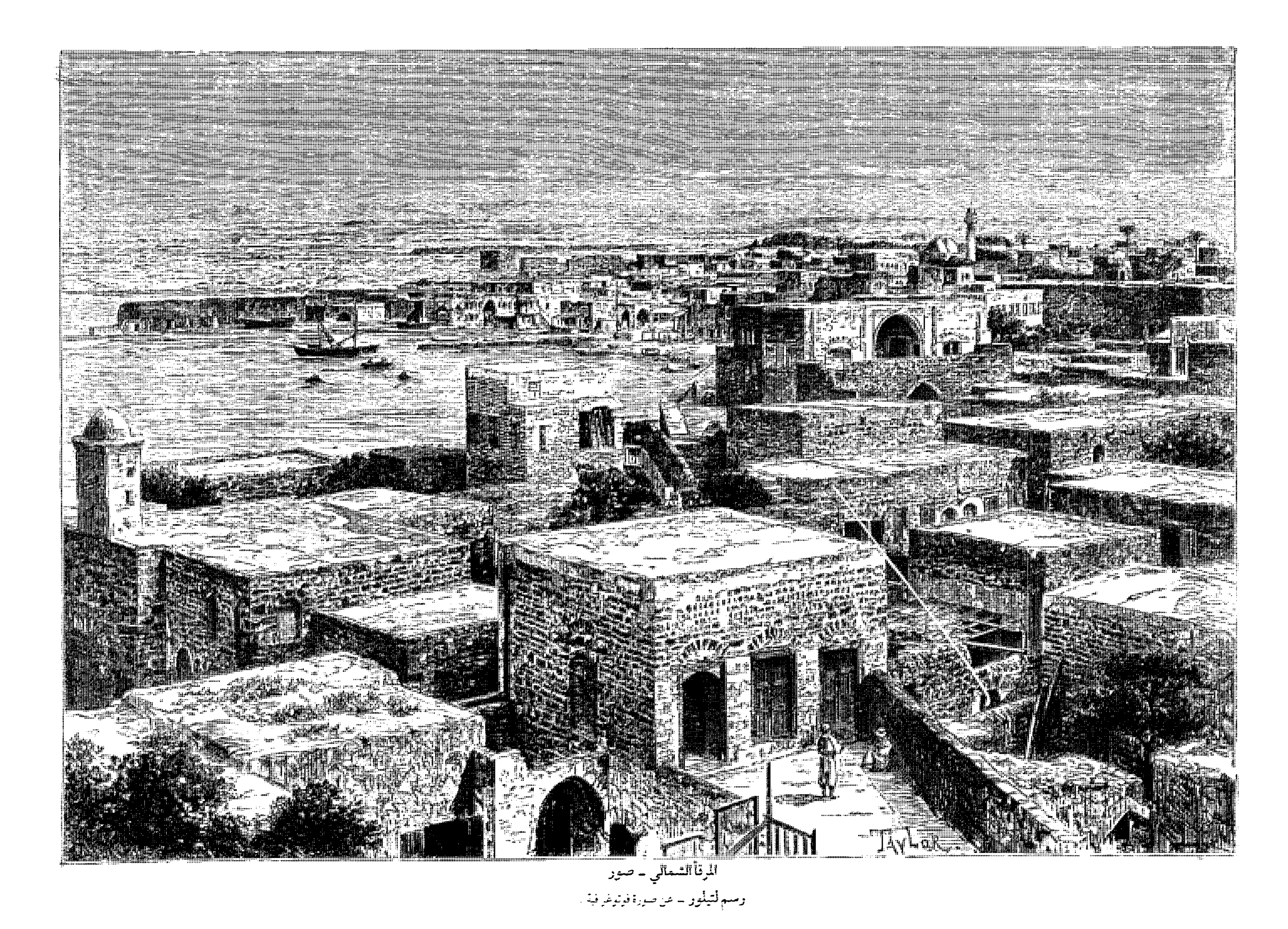
آنية زجاجية ملونة











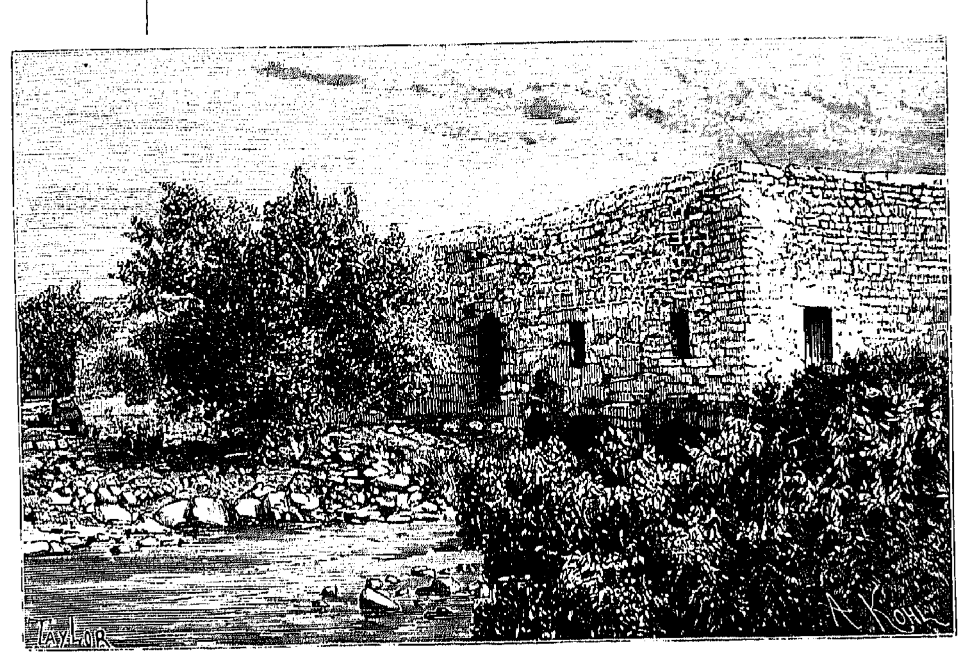
المرفأ الشمالي ـ صور

رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية

صناعة زجاج مهمة . ومن الأدلة على ذلك أنه وفي بعض مدافن صور القديمة ، وحول القبور والتوابيت ، نجد أشكالاً مختلفة من الآنية الزجاجية الجميلة والدقيقة الصنع .

أجمل ما في تلك الآنية ألوانها القزحية التي اكتسبتها بفعل مرور الزمن ، والتي يحاول الفنانون اليوم دون جدوى تقليدها بأساليب مختلفة . منها الجرار ذات الاعناق الطويلة ، والأباريق المزدانة بالنقوش البارزة . وهناك أخرى منتفخة قصيرة العنق ذات أذن ، أو قبضة للحمل عند الطرف ، وغالباً ما كانت تستخدم لحفظ رماد الموتى . إضافة إلى أشكال أخرى متنوعة .

قرب صور ، على مسافة كيلومترين منها ، هضبة صخرية تعرف باسم «تل المعشوق» ، وتشرف على السهل والبساتين القريبة . عند قمة الهضبة نجد مقاماً ذا قبتين سجّي فيه ضريح يقال إنه «لوليّ» . وفي هذا الموقع بالذات يرجّح أنه كان يقوم هيكل صور المكرّس باسم «ملقارت» أو «هرقليس» . ويعتقد بعض الباحثين في التاريخ الفينيقي أنه وفي هذا المكان أيضاً كان يقوم محراب «عشتروت» الآلهة التي أهداها «هرقليس» أول رداء صبغ بالأرجوان الصوري . وقد تكون هذه الرواية وراء استمرار تقليد قديم يقضي بذهاب الأطفال ، في وقت معين من السنة ، إلى «تل المعشوق» حاملين بأيديهم قصباً علق في طرفه خرق قماش صبغت بالأرجوان .



طاحونة عند آبار رأس العين في صور
رسم لتيلور – عن صورة فوتوغرافية .



الجسر المكسور قرب رأس العين
رسم لتيلور
عن صورة فوتوغرافية

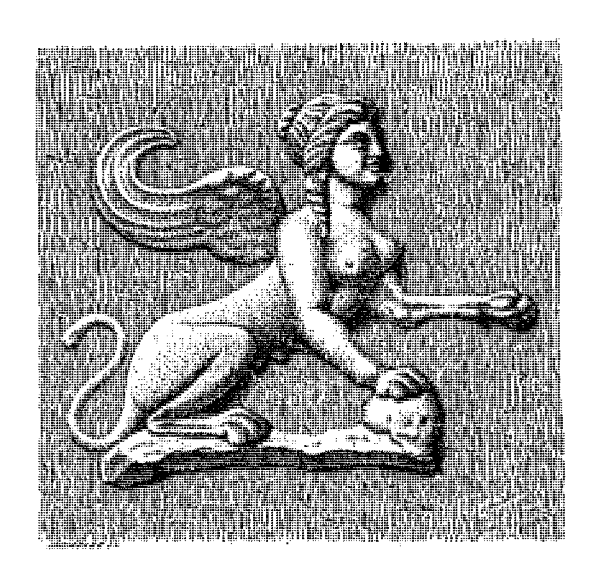
عند هذه الهضبة تتفرّع الأقنية والمجاري التي تجرّ إلى صور مياه ينابيع هامة تعرف باسم «رأس العين» أو آبار سليمان ، الواقعة على مسافة ساعة تقريباً من «تل المعشوق» .

هذه الينابيع الغزيرة ، ذات المياه العذبة الصافية ، كانت تسقي صور القديمة . وكان الفينيقيون القدامى قد أقاموا سدوداً عالية تسمح بارتفاع مستوى المياه وراءها إلى مستوى الأقنية الجارية نحو المدينة . وعند إحدى الآبار ، وهي أهمها ، ترتفع المياه فوق السد لتعود فتنحدر بقوة لتدير دواليب طاحون كبير .

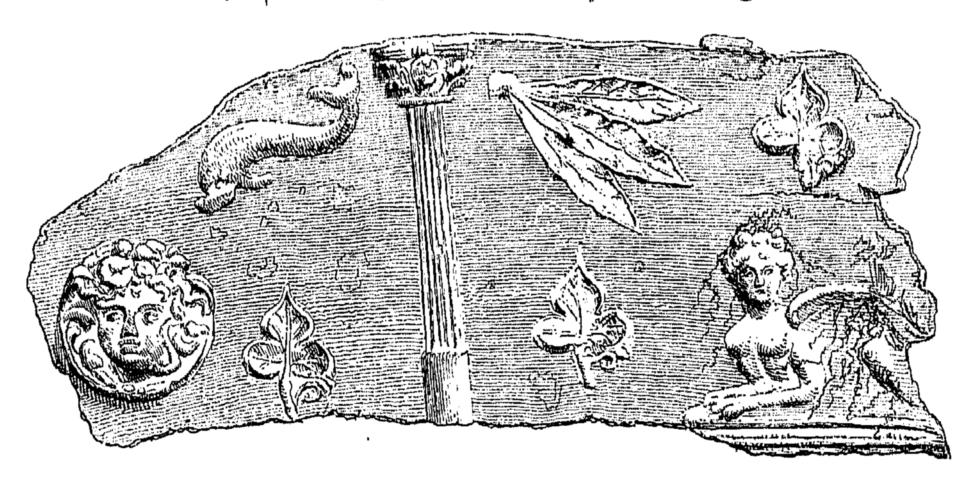
أمّا فائض المياه فيجري في السهل مشكلاً ساقية تنتهي إلى البحر لتصب فيه .

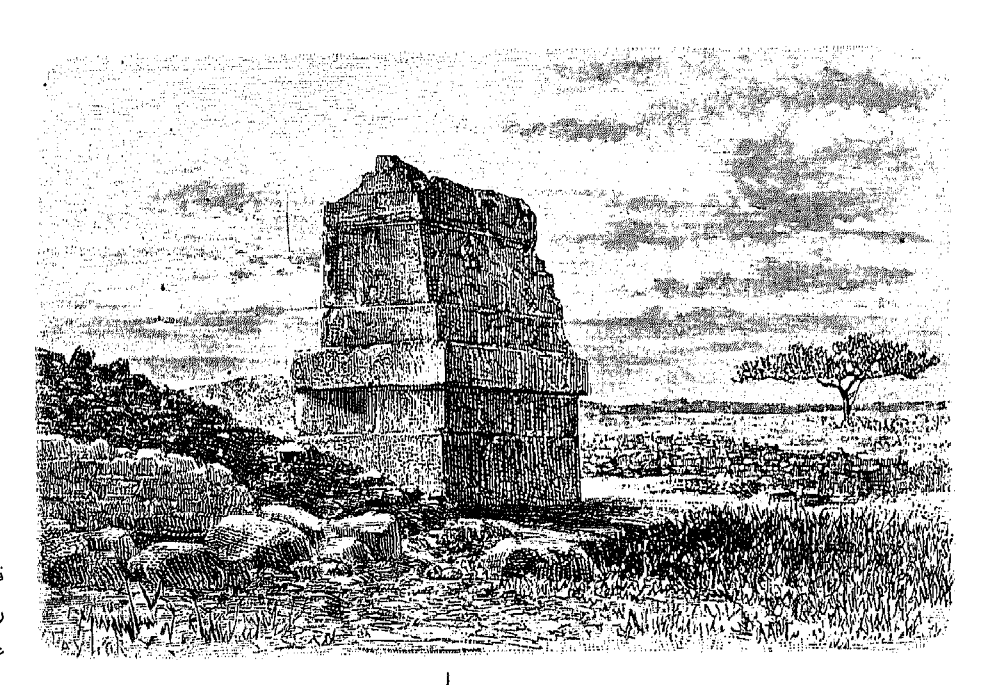
هذه الآبار ، أو الينابيع عبارة عن آبار ارتوازية حقيقية . فهي ثغرات طبيعية تصل في عمقها إلى طبقة مائية ذات ضغط طبيعي . وقد حفظها الفينيقيون القدامى واحسنوا استغلالها بما أقاموه عليها من سدود وبنيان .

في طريق العودة إلى صور نتبع مجرى نهر راس العين الممتد في سهل جميل أخضر ، يتصل من جهة برمال الشاطىء ومن جهة أخرى بمدينة صور وبرزخها الرملي ، فوق هذا النهر ما يزال يقوم جسر روماني قديم يعرف باسم «الجسر المكسور» .


قطعة من تابوت رصاصي
في مدافن حنّاويه
رسم للمؤلف

قطع من تابوت رصاصي (مدافن حنّاويه بالقرب من صور) ـ رسم للمؤلف

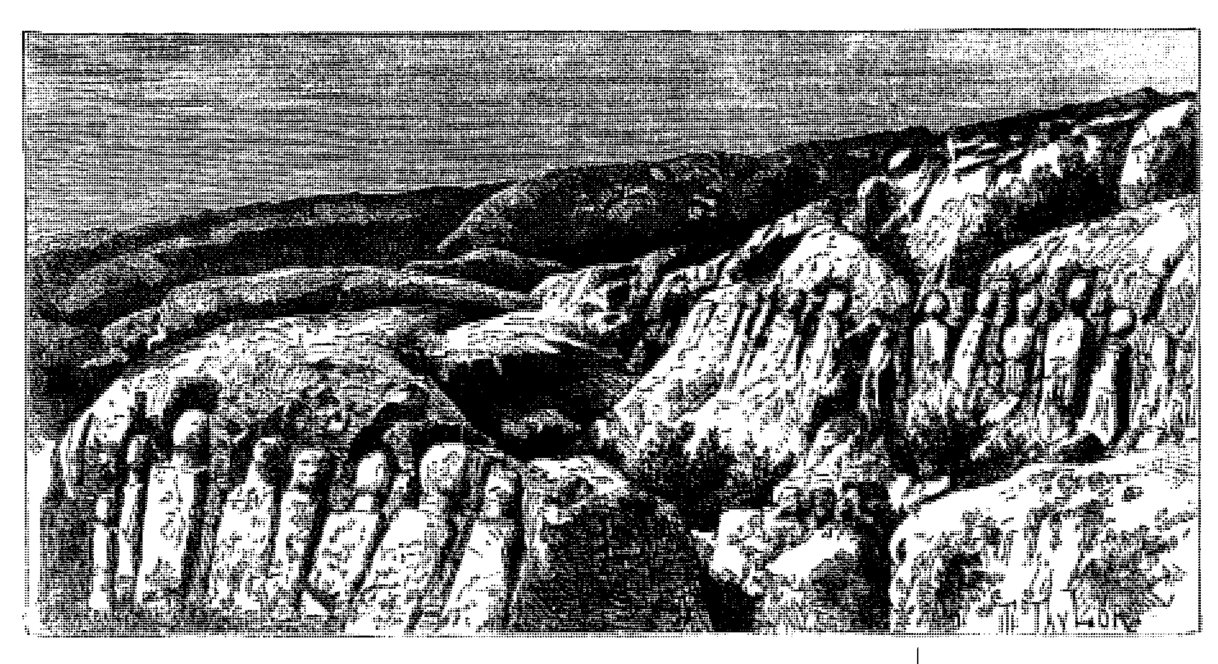



قبر الملك حيرام قرب صور
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .

قرب صور على مسافة ساعتين منها ، نجد واحداً من أهم المواقع الأثرية في سوريا ، انه قبر حيرام ، كما يسميه سكان المنطقة . طوال الطريق المؤدية إلى هذا القبر نجد العديد من القبور ، بعضها مكشوف فوق سطح الأرض ، وبعضها الآخر مدفون تحتها في حفر وكهوف تهدمت بعض أجزائها محدثة شقوقاً عميقة . وهي جميعاً جديرة بالبحث والتنقيب لاكتشاف ما تخبئه من آثار وحقائق تاريخية مهمة .

أمّا قبر حيرام فبناء ضخم يمكن مشاهدته من مسافة بعيدة . انه ضريح كبير من الجمر الكلسي يقوم على قاعدة ضخمة مكوّنة من عدة مداميك متناسقة الشكل والتركيب . غطاء القبر ، البالغة سماكته متراً ، ما يزال في مكانه ، ولكن نلاحظ عند أحد الأطراف وجود حفرة استخدمت لسرقة محتويات القبر .

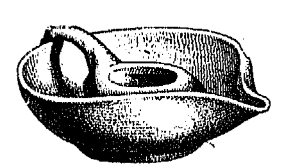
كل ما في هذا الضريح يشير إلى كونه يعود إلى مراحل تاريخية قديمة ، ولكن ليس هناك دليل دقيق يدل على كونه ضريحاً للملك الشهير حيرام ، صديق الملك



صخور منحوتة في حانويه بالترب من صور رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .

سليمان . وقد تكون هذه الرواية من صنع العامة وهذا أمر شائع فيما يتعلق بالمواقع الاثرية . وفي كل الأحوال تجدر الإشارة إلى أن ليس لهذا القبر أي ذكر لدى الرحالة الذين مرّوا في المنطقة قبل عام ١٨٣٣ . كما أن أعمال التنقيب والبحث كشفت عن وجود سلم صخري يؤدي إلى كهف موجود تحت الضريح ، وكلها أكثر حداثة من الضريح نفسه .

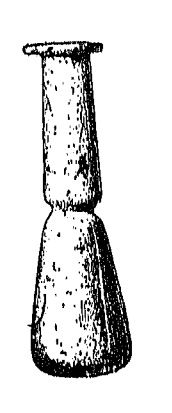
في منطقة صور قرى وأماكن أثرية قديمة جديرة بزيارتها والتعرف إلى ما فيها من آثار تاريخية . من تلك الأماكن قرية «حانويه» الواقعة في الطريق إلى تبنين على هضبة ترتفع عن سطح البحر حوالي ٢٤٥ متراً ، ولا يتجاوز عدد سكانها الأربعماية نسمة .



مصابيح فينيقية (مقبرة حنّاوية)
رسم للمؤلف

قرب «حانويه» إلى الجانب الآخر من الطريق ، هضبة صغيرة ما تزال فيها آثار قلعة فينيقية قديمة . في هذا الموقع بالذات قررنا القيام ببعض أعمال الحفر والتنقيب علّنا نكتشف ما لم يسبقنا إليه الباحثون الأولون .

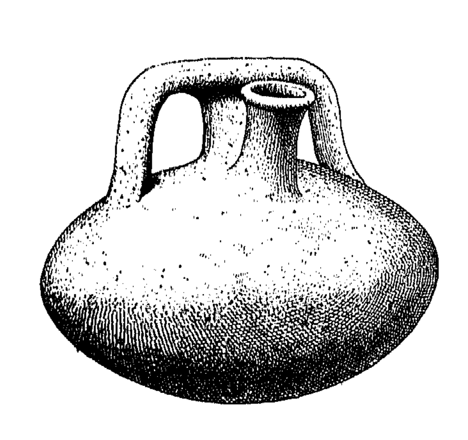
الحفريات الأولى التي أجريت عند قاعدة الأسوار القديمة لم تؤدّ إلى نتائج باهرة . كل ما خرجنا به كان عبارة عن أوان فخارية وأخرى زجاجية ، إضافة إلى أجزاء من صناديق رصاصية وبضع جماجم . فانتقلنا بالبحث إلى الكهوف والمغاور المحفورة في جوانب الهضاب الواقعة إلى الجنوب والجنوب الغربي من حانويه ، وهي كانت في الزمن القديم مدافن وقبوراً . وقد تمكّنا من الكشف عن ثلاثة نواويس حجرية ، وأخرى من الرصاص مصنوعة بجمال فائق ، إضافة إلى مصابيح قبور مميّزة . ولكن ولسوء الحظ جميع هذه الأضرحة كانت قد نبشت قبلاً ونهبت محتوياتها ولم يبق لنا منها سوى مخلّفات قليلة .



مدمعة من حنّاوية
رسم للمؤلف (بالحجم الطبيعي)

أولئك اللصوص الذين كانوا يسطون على قبور الموتى كانوا دون ريب من ذوي المهارة والعبقرية . ففي أحد الأيام اكتشفنا قرب حانويه ، وعلى عمق عدة أقدام تحت الأرض المزروعة ، ثغرة تؤدي إلى مدفن محفور في منحدر كلي .

كانت الحفرة منسقّة الجوانب ، شديدة العمق ، وتحول دونها مهاو وعوائق كثيرة . وبعد عمل طويل ومرهق في رفع الركام والردم ، بما يوازي عدة أمتار مكعبة ، كشفنا عن ناووسين حجريين موضوعين إلى جانب بعضهما البعض . وقد لزمنا نهار طويل من العمل الشاق حتى تمكنا من تحريك غطاءيهما الثقيلين . ولكن ماذا وجدنا؟ مجرد قبرين سرقت محتوياتهما أيدي اللصوص وذلك عبر أنفاق حفرت في الجانب الآخر من المقبرة وأدّت إلى الجهة الخلفية للناووسين اللذين أخرجت محتوياتهما بعد إحداث فتحتين صغيرتين فيهما ، ثم



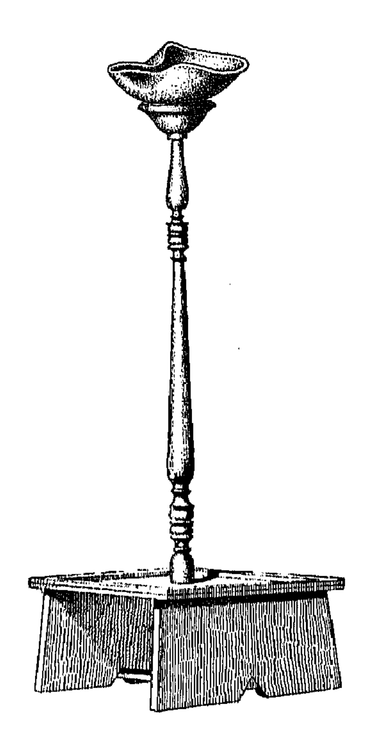
إبريق للزيت ـ مدافن صور
رسم للمؤلف

ردمت الفتحات والأنفاق بعناية فائقة وكأنّ شيئاً لم يكن ! . .

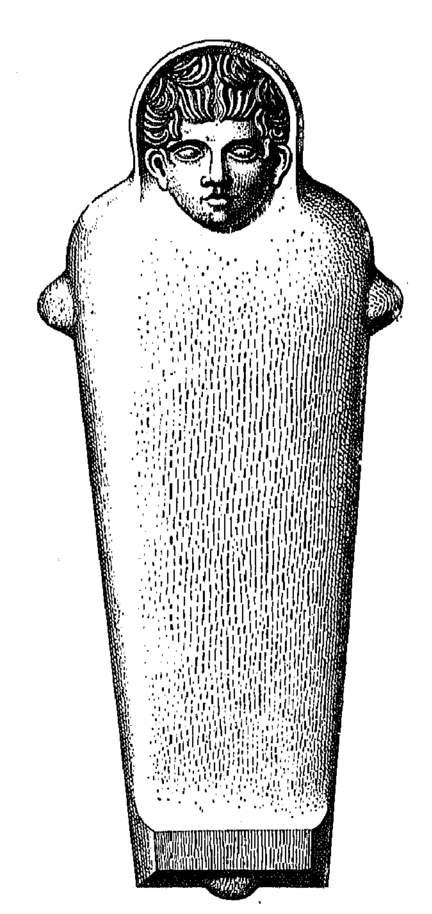
النواويس الرصاصية المكتشفة مصنوعة بجمال وفن مميزين جميعها مزدانة بنقوش بارزة مرسومة بذوق رفيع ، تارة في اسلوب يوناني صاف ، وأخرى بأشكال فرعونية مصرية قديمة ، فمن أوراق الأشجار المختلفة وأكاليل الغار ، إلى الأسود ورؤوس الثيران ، إلى الشكل الفرعوني الشهير برأس المرأة وجسم الأسد كأبي الهول . . وكلها محفورة بدقة وجمال متناهيين .

حول هذه القبور هناك دائماً العديد من الآنية الزجاجية والفخارية المختلفة ، إضافة إلى المصابيح المصنوعة من الطين ، أو ما يعرف بالسراج . ومنها ما يشبه مصابيح ما تزال مستعملة في بيروت صيدا وصور ، وهي قائمة على ساق خشبية بارتفاع ستين سنتيمتراً ، ومثبتة على قاعدة أو كرسي ، من الخشب أيضاً .

تتميّز المصابيح الفينيقية عن غيرها في المناطق الأخرى بما تحمله من نقوش ورسوم عربية ، كأوراق الأشجار والأشكال الهندسية المختلفة .



مصباح مألوف من صور
رسم للمؤلف

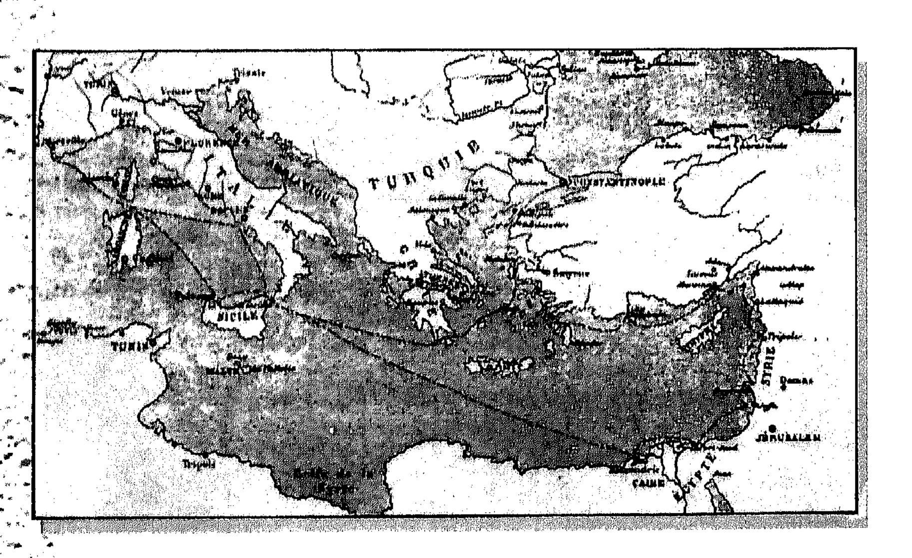


ناووس على شكل إنسان في
مدينة الأموات في صور
رسم للمؤلف



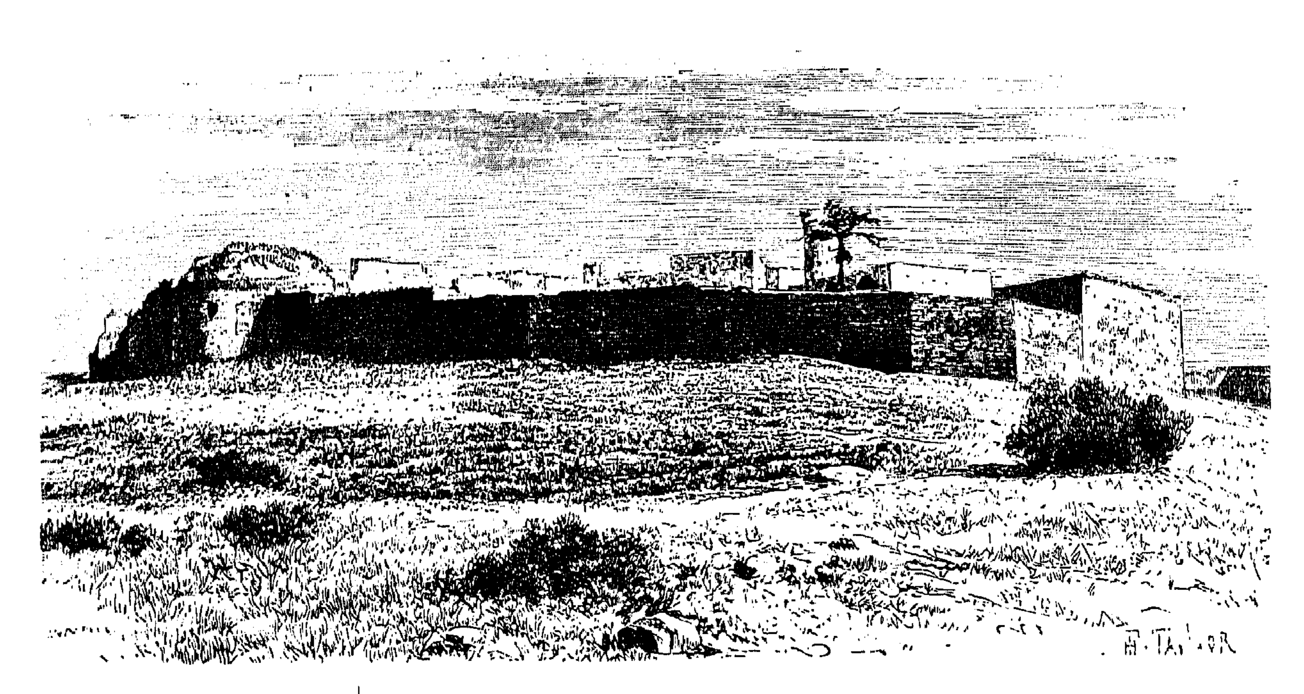
صور ، بئر في حيرام ـ رسم أ. رونجا ـ عن صورة فوتوغرافية .

الفصل السادس



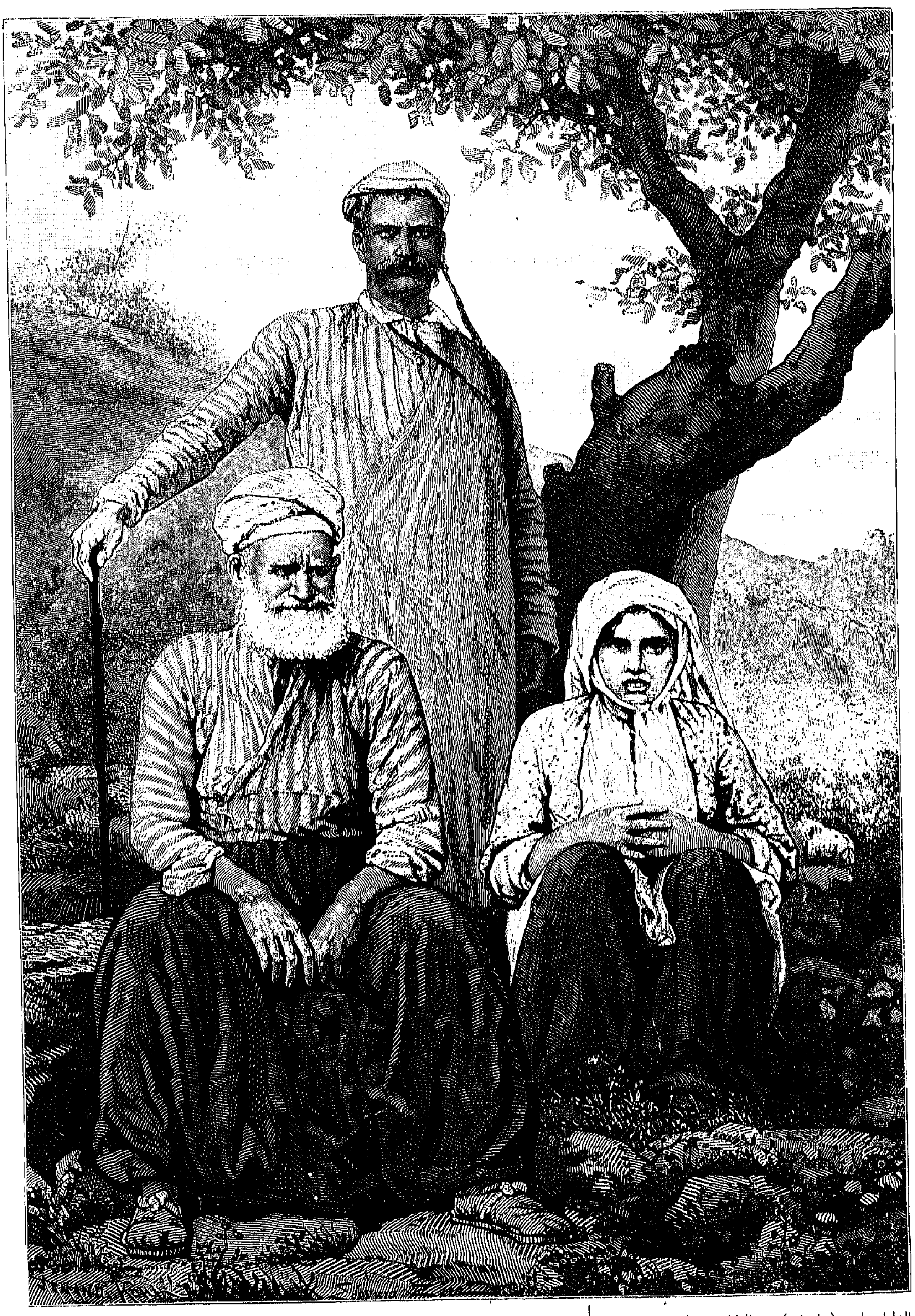
من صور إلى عكا

في أنحاء صور حيوانات كثيرة ومختلفة ، ومن أكثرها تميّزاً السحلفاة البحرية ، أو الغيلم ، والتي يبلغ طول بعضها حوالي المترين ، وهي كثيرة عند الشاطىء . وفي الوديان الجافة المحيطة بحانويه ما يزال يعيش الحيوان المعروف باسم الوَبْر ، أو الزّلم ، وهو يشبه بهيئته المرموط ، أو فأر الجبل ، ولكن تكوينه الداخلي قريب من ذاك الخاص بوحيد القرن . إنه حيوان خجول وبري يعيش في شقوق الصخور في مجموعات صغيرة ، كالأرانب ، وهو مثل هذه الأخيرة يجلس على مؤخرته أثناء قرضه الجذور التي يمسكها بقائمتيه الأماميتين ، ويصدر صفيراً حاداً من أنفه لدى إحساسه بالخطر . براز هذا الحيوان بعد جفافه ذو رائحة قوية شبيهة برائحة المسك ، لذلك يُجمع بعناية من بين الصخور . ولكنه لم يعد يستعمل الآن إلاّ في بعض أنواع الطب المحلي .



قلعة الشّما قرب صور

رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية .



الدليل ملحم (ماروني) ومتواليان من حانويه
رسم لتيلور - عن صورة فوتوغرافية .

من حانويه ، وعندما يكون الطقس صافياً ، نشاهد من بعيد قلعة رائعة تنتصب فوق هضبة مطلّة على الرأس الأبيض ، أو البياضة ، وهي حصن صليبي قديم قلما أشارت إليه الخرائط والكتب .

تمرّ الطريق إلى تلك القلعة عبر الحقول المزورعة والجلول الصخرية ، وتكثر فيها آثار المباني والقبور القديمة ، وأحدها كثير الشبه بقبر حيرام ، وذلك من حيث ضخامة الحجارة وطريقة البناء .

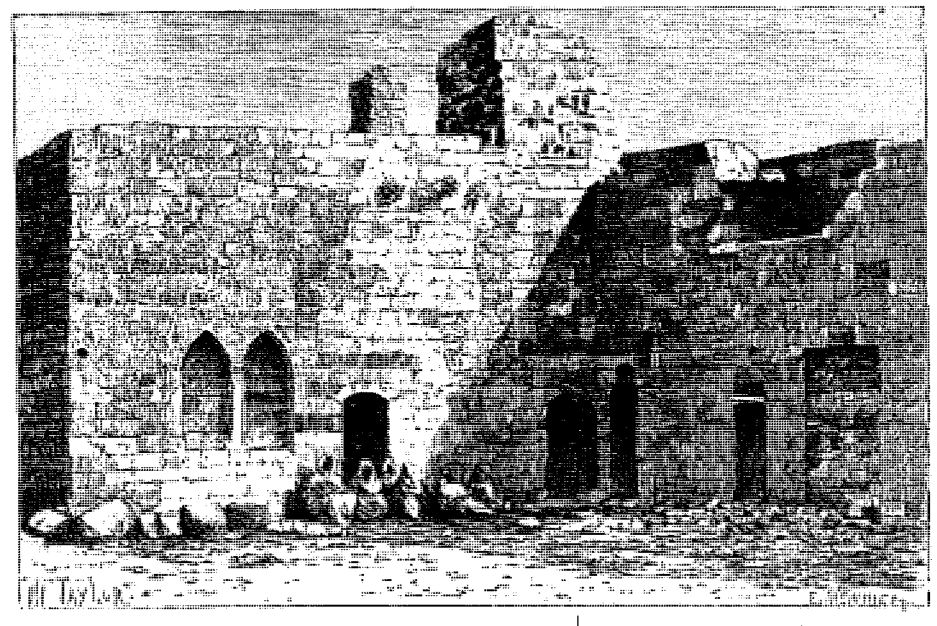
بعد وديان وهضاب عديدة ، وعبر قرى صغيرة منها المنصورة وقلعة المجدل ، نصل إلى الهضبة التي يقوم عليها حصن أو قلعة الشمّا (أو الشمعة) . الصعود إلى الهضبة عمل شاق وذلك عبر ممرات جبلية وعرة بين الصخور والأشجار . أمّا الدخول إلى القلعة فغير ممكن إلاّ عبر باب وحيد في الجهة الخلفية .

جزء مهم من البناء الداخلي ما زال محفوظاً ، وكذلك الأبراج التي يقطنها الآن المزارعون . داخل الأسوار الخارجية نجد سوراً آخر يحيط بالمقر الأساسي الذي كان يخصّ سيد القلعة . الباحة الأساسية للقصر ، والتي ما تزال تضم عقوداً وقناطر وأبواباً من الرخام الأسود والأبيض ، هي جميعاً ذات هندسة عربية ولكنها الآن مجرد اسطبل للبقر والماعز .

من فوق الأسوار الخارجية ، والتي تهدمت أجزاؤها العليا ، تطل على منظر رائع للساحل يمتد من أطراف عكا وجبل الكرمل إلى ما بعد صيدا . وارتفاع هذا الحصن عن سطح البحر يزيد على أربعماية متر .

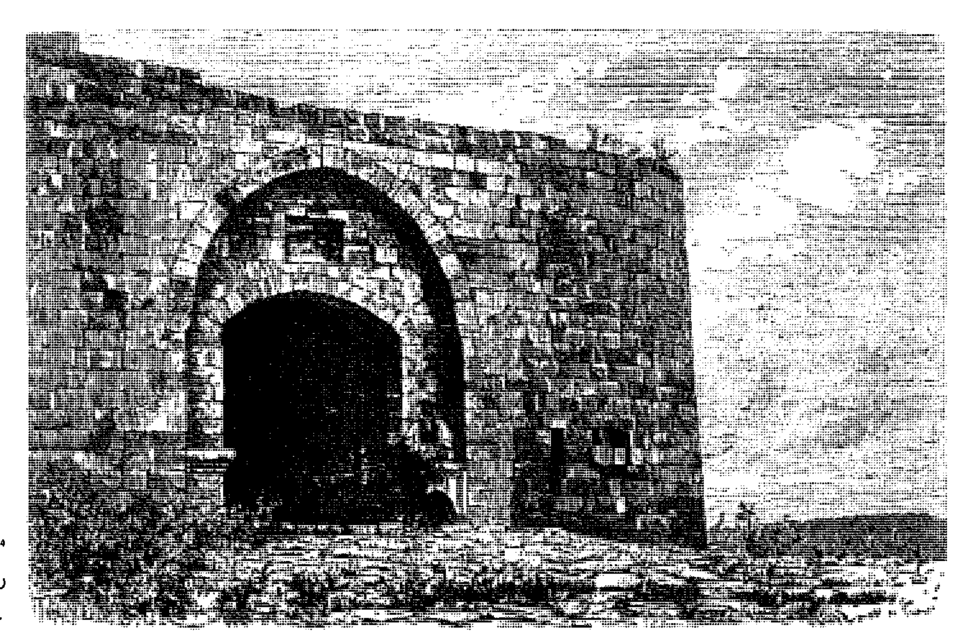
ليست المعلومات عن هذه القلعة وفيرة . ولكنها دون شك واحدة من القلاع الحصينة التي أقامها الصليبيون من صور إلى عكا وطبريا وصولاً إلى وادي الأردن وبانياس .

طريقة البناء ، وأشكال الحجارة ، توحي بأنّ القلعة تعود إلى القرن الثامن عشر ، ولكنها تحوي أبنية أكثر حداثة مما جعل بعضهم يعيدها إلى القرن السادس عشر ، وليس هناك كتابات أو نقوش



ساحة قلعة الشمّا

رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية .



مدخل قلعة تبنين
رسم لتيلور
عن صورة فوتوغرافية .



فتاتان من وادي جيش
رسم توفاني .
عن صورة فوتوغرافية .

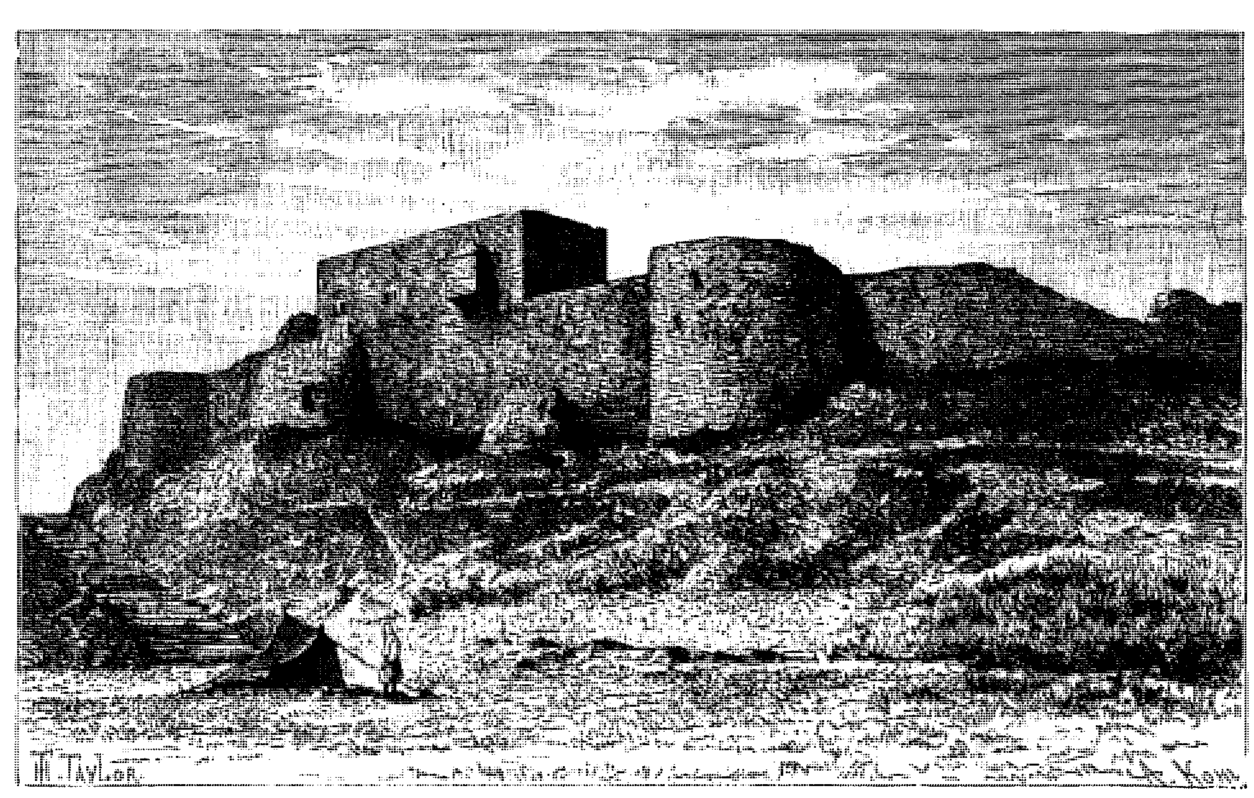
عربية أو لاتينية تحسم الموضوع . لدى الخروج من القلعة باتجاه الشاطىء نلاحظ وجود برجين أقيما على مسافة من القلعة ، يتميزان ببناء متقن وحصين . والغالب أنّ الغاية منهما كانت الاشراف على الطريق الساحلية التي لا ترى من القلعة بسبب ارتفاع رأس الأبيض .

تبنين

نغادر صور جنوباً في طريق وعرة تقودنا إلى قرية قديمة اسمها قانا . انها تقوم في موقع جميل على ارتفاع أكثر من مئتين وخمسين متراً ، تحيط بها أشجار التين والزيتون ، وتكثر فيها وحولها آثار إسلامية قديمة ، إضافة إلى آثار أكثر قدماً تعود إلى أيام الفينيقيين ، مما يؤكد على أهمية هذه البلدة على امتداد العصور .

بعد قانا نسير في طريق تتلوى في واد سحيق وموحش هو وادي عاشور . وفي بعض الأماكن تضيق الطريق جداً فلا تكاد تتسع لمرور القافلة لا سيما لدى التلاقي مع قوافل الجمال المحملة بالفحم والمتجهة نحو البحر لافراغها في المراكب المتوقفة عند رأس الأبيض .

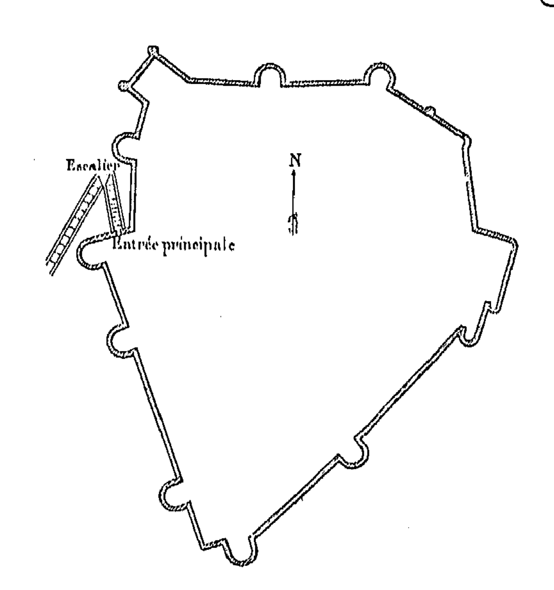
منظر الجمال في هذه الفترة من السنة طريف وفريد . فقد جُزّ وبرها جميعاً ،



قلعة تبنين (الجانب الغربي للسور)

رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية .

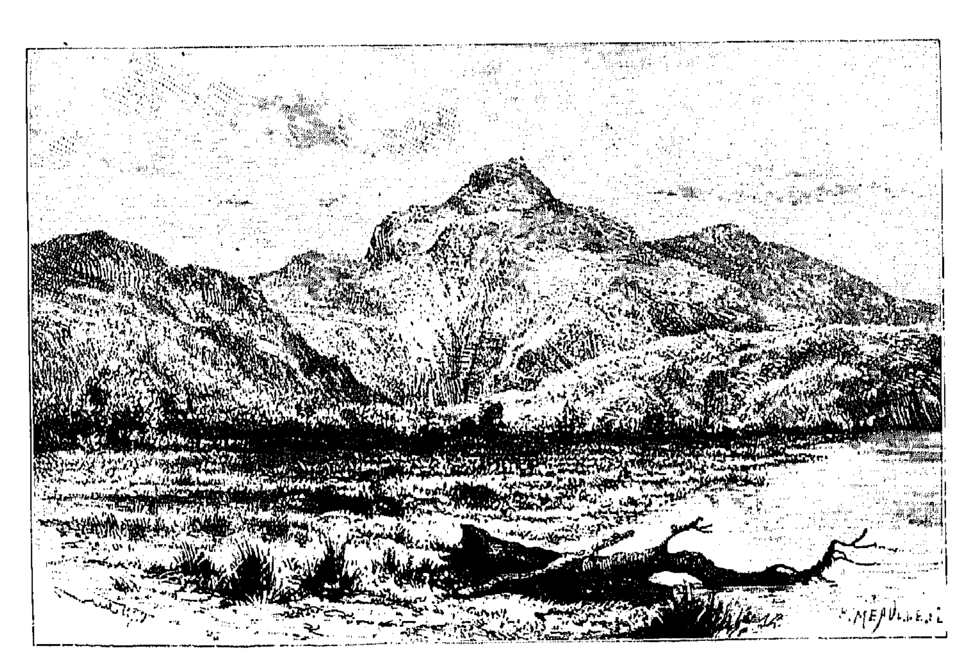
ثم طليت بمزيج أسود اللون من القار والزيت لحمايتها من لسع الحشرات ، فتضحي جمالاً سوداء عارية ذات رائحة كريهة جداً . أما وبرها الطويل القاسي فيستخدم لصنع السجاد والخيم واللباد المستعمل لتغطية أرض البيوت ولصنع بردعة الدواب .



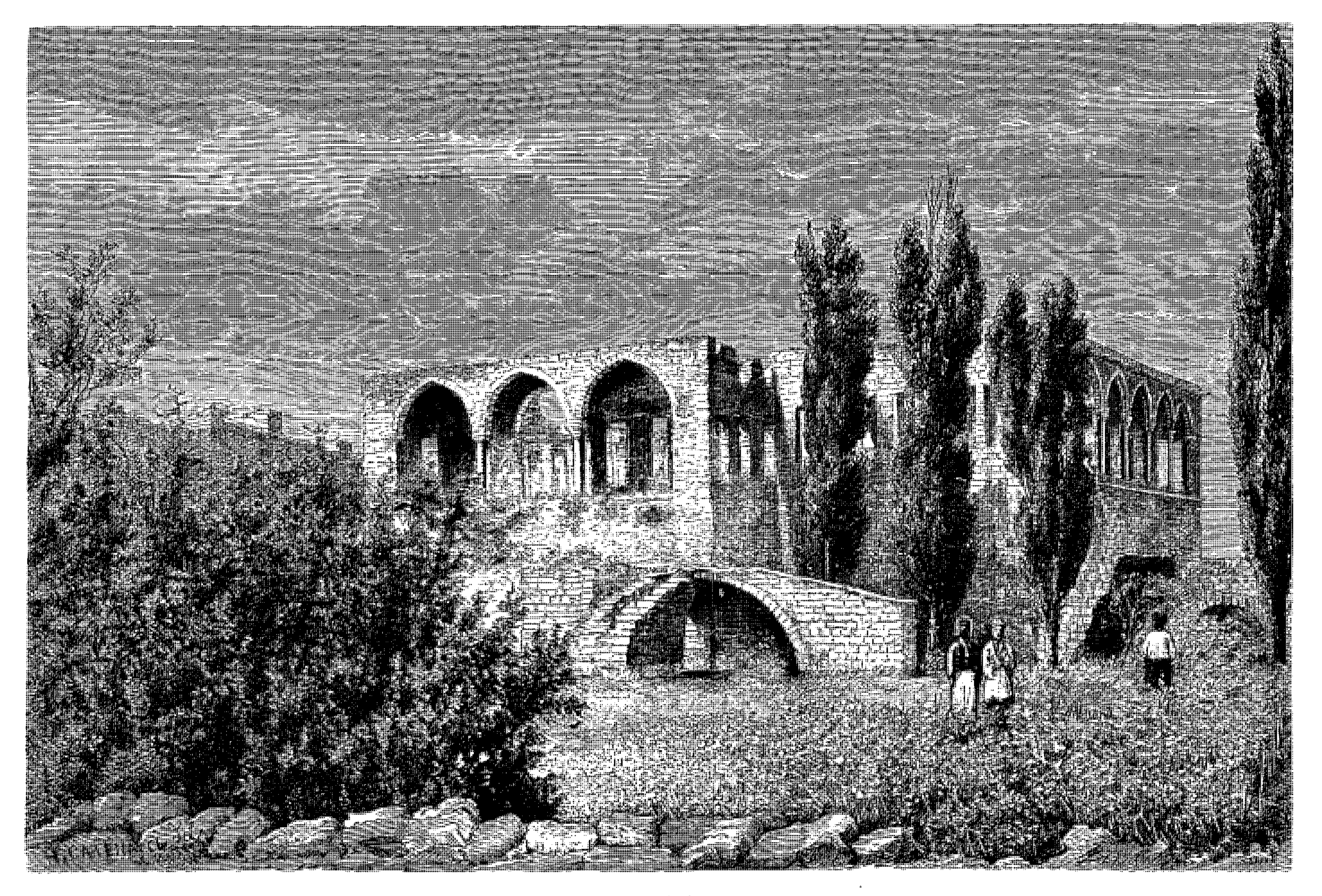
تبنين
مخطط للقلعة

عند الخروج من هذا الوادي ، وعلى ارتفاع يقارب الستماية متر نشرف على منظر رائع لجبال حرمون وحوران ، كما نشاهد لأول مرة قلعة تبنين ، حصن الصليبيين المنيع . غربي القلعة تلة يعلوها حصن صغير مربع ترتفع عند زواياه أبراج مستديرة . وبين القلعة الأم والموقع المتقدم التابع لها واد صغير تقع فيه قرية تبنين وذلك عند ضفاف غدير تستعمل مياهه العكرة لسقاية القطعان .

نصعد إلى قلعة تبنين عبر طريق مرصوفة بقطع ضخمة من البلاط الصخري جعلت درجاً عريضاً يسمح بصعود الخيالة . أمّا البوابة فيعلوها أسدان منتصبان يبدو أنهما من صنع عربي . في الداخل ، وكما في جميع حصون تلك الحقبة في التاريخ ، ممرات مظملة وسلالم لولبية تؤدي إلى أعالي الأبراج ، وملاجىء وأقبية مختلفة .



راس الشقيف



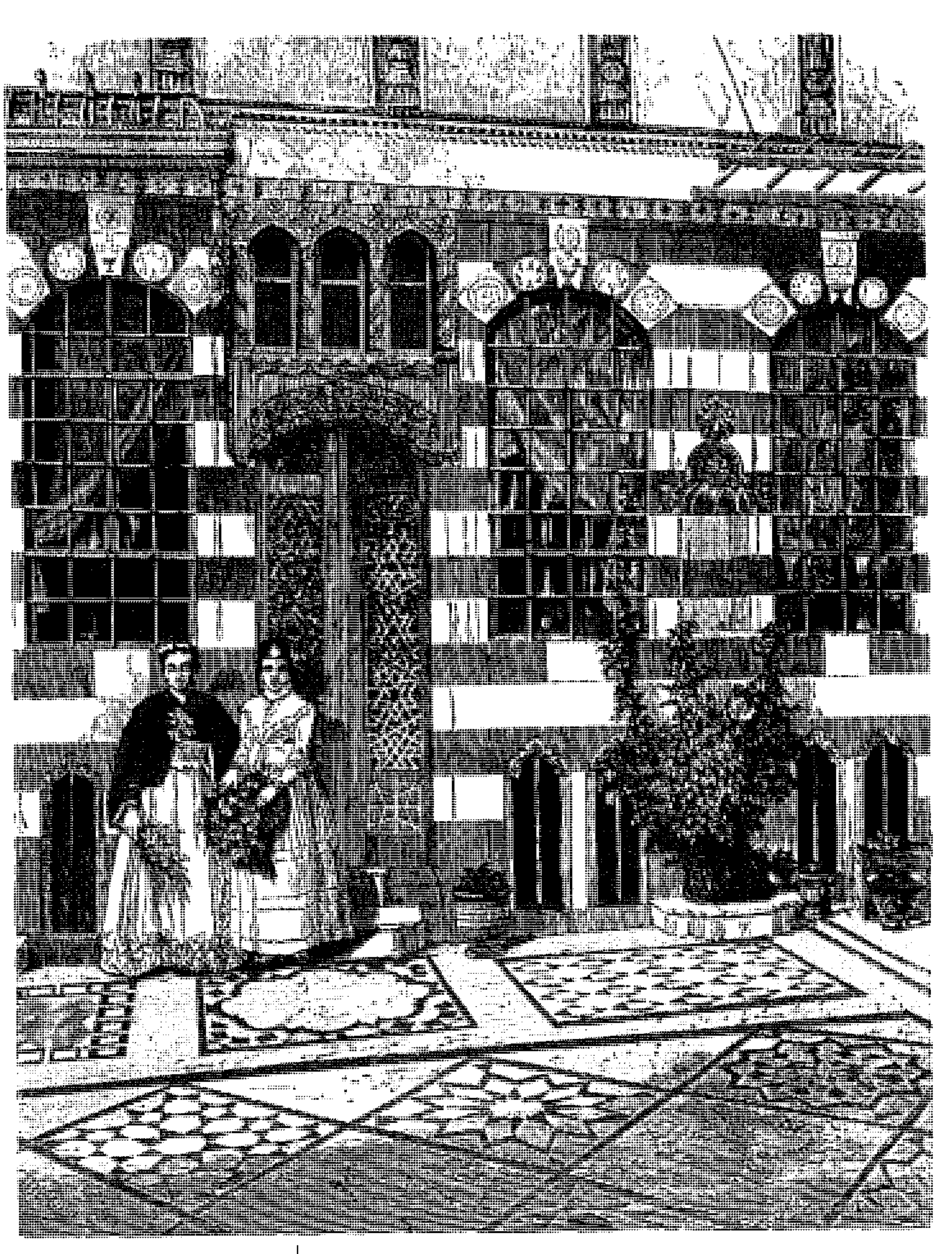
قصر علي الصغير في تبنين

رسم كاتيناتشي ـ عن صورة فوتوغرافية .

يقع هذا الحصن على ارتفاع يزيد على ستماية متر عن سطح البحر ، وهو يشكل نجداً أو سهلاً مرتفعاً دائري الشكل تقريباً ، عند أطرافه الغربية تقوم أبنية ذات طراز عربي تحيط بها حدائق ترتفع فيها أشجار سرو شاهقة . في هذا الموقع كان يقوم مقرّ علي الصغير ، زعيم إحدى العائلات الارستقراطية الثرية .وحتى الآن ما تزال هناك بعض القاعات الجميلة ، وأهمها واحدة كبيرة تنتهي إلى شرفة واسعة معلقة على الأسوار على ارتفاع شاهق لتطلّ على منظر رائع للجبال والوديان إضافة إلى قلعة الشقيف القائمة في وادي نهر القاسمية . مقرّ علي الصغير هذا كان قد دمرّه الجزار باشا ، والي عكا ، الذي كان يخشى نفوذ تلك العائلة بين سكان المنطقة .

يعود بناء قلعة تبنين إلى عام ١١٠٧م وقد بناها «هيجو دي سانت ـ أومير» سيد طبريا . بعد ذلك تعاقبت عليها ظروف مختلفة من السيطرة والحروب والدمار بين المسلمين والصليبيين ، وكانت خاتمة المطاف على يدي الجزار باشا ، كما سبق وأسلفنا .

نغادر تبنين في الطريق المتعرجة بين التلال والهضاب . وبعد فترة ننحدر باتجاه قرية كبيرة هي بنت جبيل المحاطة بالمزروعات الخضراء على الرغم من قلة الأشجار ، إضافة إلى



منزل في عكا
رسم تيرون ـ عن صورة فوتوغرافية .

بركة ماء للري والسقاية ونبع عذب لمياه الشفة . إنه مكان مثالي لاقامة المخيم بعد رحلة شاقة .

بعد الخروج من بنت جبيل عبر طرقات ملتوية وعرة نصل إلى قرية جارون ، وفيها مسجد قديم أثري عند بابه نقوش وكتابات يونانية . قرب هذه القرية مقابر قديمة بعضها شبيه بقبر حيرام القائم في صور ، وقد تكون جميعاً عائدة إلى حقبة تاريخية واحدة .

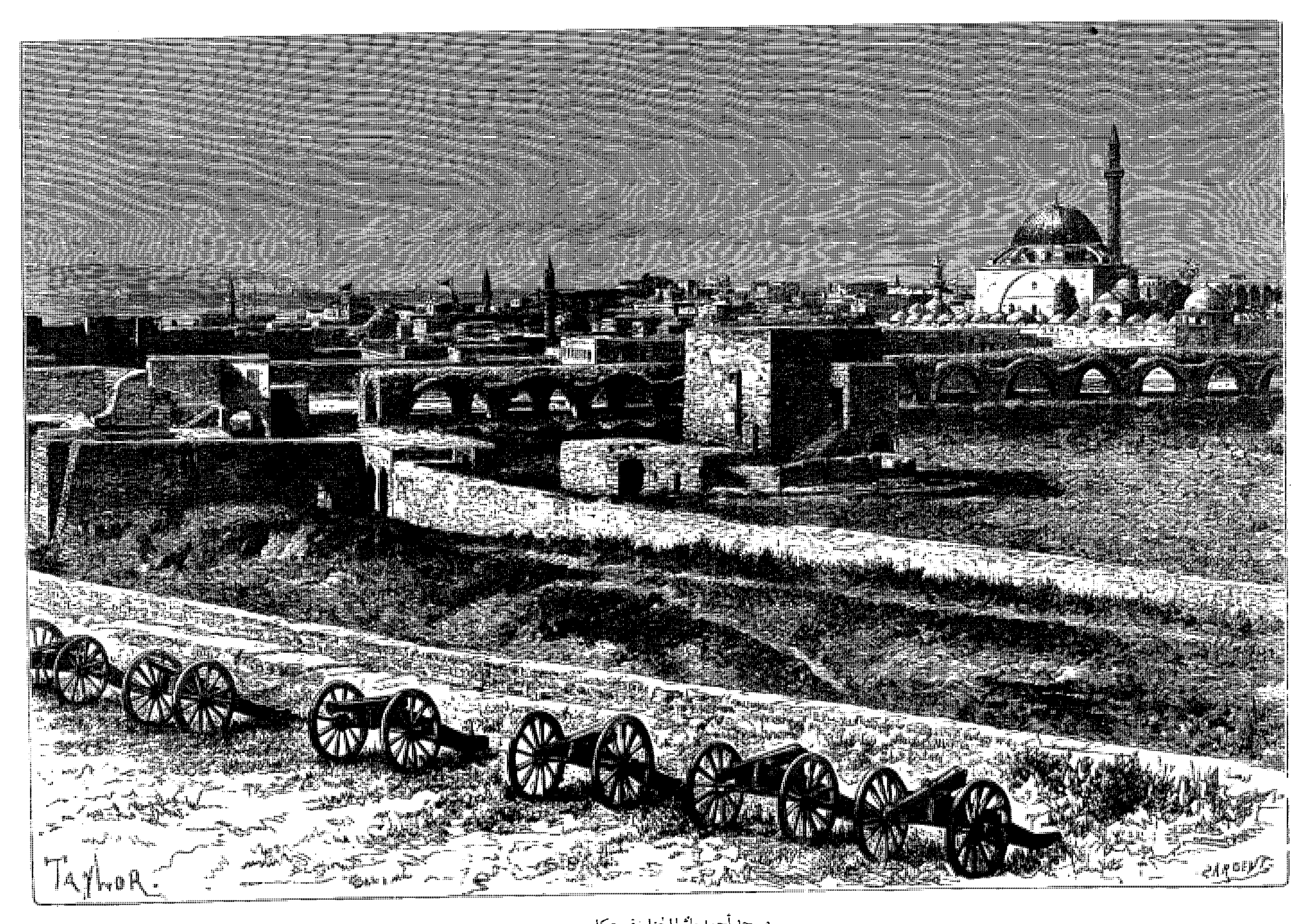
بعد جارون تنحدر الطريق بقوة نحو وادي «جيشْ» ، حيث تجري مياه نبع عذب تبعث على الانتعاش ، وتنشر الخضرة في أنحاء الوادي . بعد ذلك تستمر الطريق في انحدارها الوعر نحو قرية «جيشْ» ، ومنها نحو سهل بركاني ما تزال ظاهرة فيه ثغرة فوهة بركان قديم ، وهي تحولت الآن إلى بحيرة صغيرة تعرف باسم «برْكة الجيشْ» وهي ذات مياه بيضاء كالحليب لا حياة فيها سوى لبعض الضفادع .

من تلك المرتفعات تطل من بعيد على بحيرة طبريا ، ثم وبعد اجتياز منحدرات وعرة نصل إلى مدينة صفد التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً .



مسلمان في عكا

رسم رونجا ـ عن صورة فوتوغرافية .



مسجد أحمد باشا الجزار في عكا

رسم لتيلور - عن صورة فوتوغرافية .

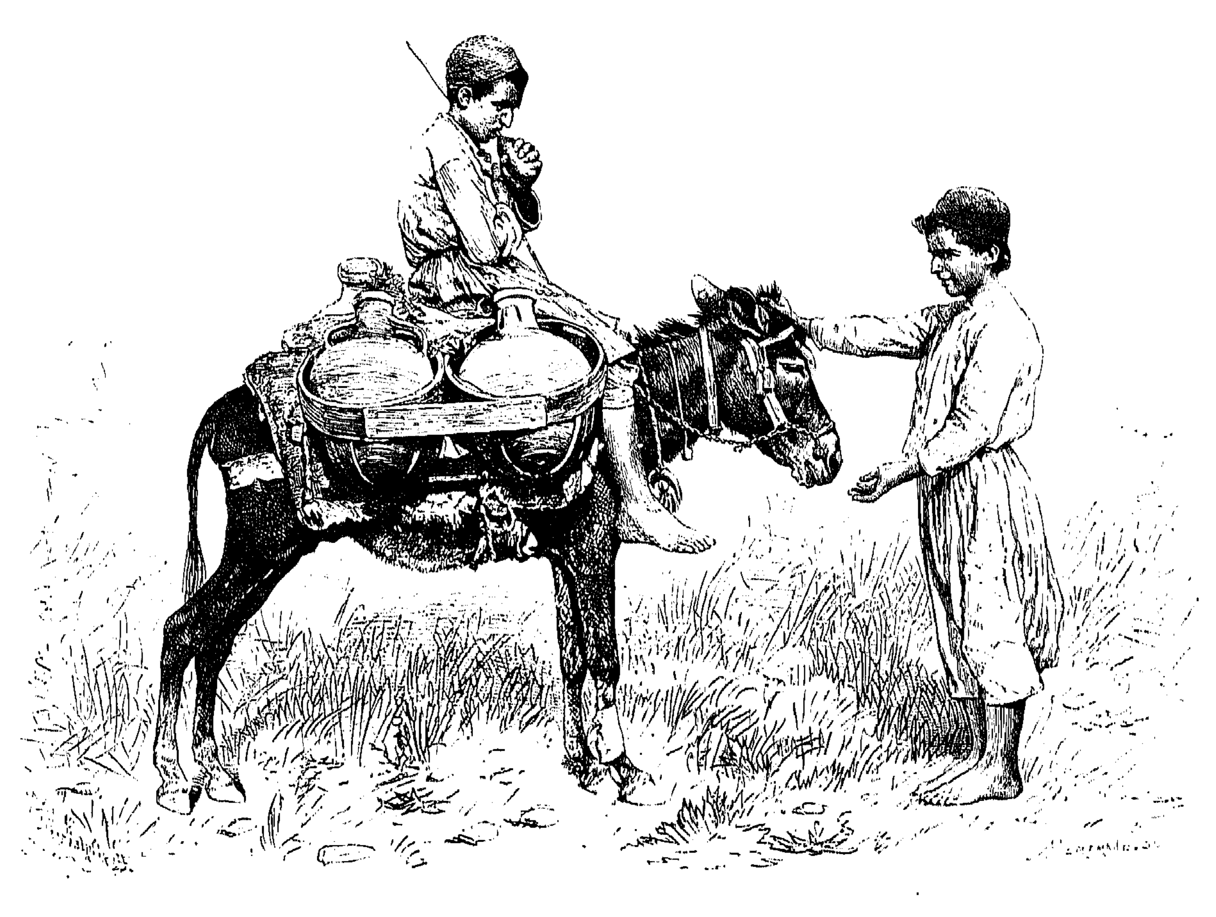


فتيات عربيات في عكا
رسم أ. رونجا
عن صورة فوتوغرافية

أيامٌ للراحة نعود بعدها أدراجنا، وعبر الطريق نفسها نحو حانويه، ومنها إلى صور.

عكا

الطريق من صور إلى عكا تسير بمحاذاة الشاطىء عبر قرى ودساكر مختلفة تكثر فيها المواقع الأثرية القديمة. وعند رأس الأبيض، أو البياضة، ترتفع الطريق محفورة في الصخور لتبلغ عند قمة الرأس ارتفاع ستين متراً عن سطح البحر، حيث نجد بقايا برج قديم تهدّم نصفه ويعرف باسم «خان الحمر». المنظر المطلّ من رأس الأبيض أجمل من أن يوصف. شمالاً تمتد فينيقيا، غرباً البحر متصلاً في الأفق بزرقة السماء، وجنوباً من بعيد جبل الكرمل وقبله رأس الناقورة الذي يحجب عكا. من البياضة تنحدر الطريق ببطء نحو موقع يعرف باسم اسكندرونه، ربما لأن الاسكندر ضرب فيه مخيماً لدى عودته من رحلة حصار صور إلى القدس. ليس في هذا الموقع آثار هامة بل مجرد خان قديم بني من بقايا



حمّال الماء
رسم برانيشنيكوف .
عن صورة فوتوغرافية

حجارة قديمة قرب نبع ماء عذب .

بعد ذلك ، وعبر سهل واسع نصل إلى موقع أثري قديم يعرف باسم «ام العواميد» . ويبدو أنّ الآثار الموجودة فيه كانت قد بنيت بدورها من آثار موقع فينيقي أكثر قدماً ، وربما حدث هذا خلال بعض الحقبات الفارسية . من الآثار التي كانت قد أكتشفت في هذا المكان تماثيل على الطراز المصري لأبي الهول ، واخرى لأسود كبيرة . أمّا أهمها فيمثل ساعة شمسية منحوتة في الرخام وهي الآن في متحف «اللوفر» . «أم العواميد هذه تعرف أيضاً باسماء أخرى منها «مدينة الطهران» و «مدينة الطوران» و «طهران الشام» .

ومن هناك تبدأ الطريق بالارتفاع تدريجياً نحو رأس الناقورة ، الذي ما أن نبلغ أعلاه على ارتفاع خمسة وسبعين متراً حتى نطلّ على سهل عكا المحاط بجبل الكرمل جنوباً وجبال الجليل شرقاً . وعبر منحدر قوي ننزل من رأس الناقورة لنعبر فوق جسر حجري ، يعلو مجرى مائياً صغيراً يعرف باسم «عين المشيرف» ، وهو يصب في البحر على مسافة بضع مئات من الأمتار . هذا المجرى المائي كان يشكل



راقص من بلاد ما بين النهرين وعازفتان في قلعة سان جيل - عكا
رسم زيير .
عن صورة فوتوغرافية

الحد الفاصل في القديم ما بين فينيقيا وبلاد كنعان .

قبل الوصول إلى عكا نجتاز سهلها الواسع الخصب والغني بالمياه والمزروعات المختلفة ، حيث يصبح في آخره ، قرب الشاطىء ، رملياً قليل الزرع . من أبرز معالمه تلك المجاري المائية الضخمة التي تجرّ مياه الشرب الى مدينة عكّا .

تحيط بعكا ، لجهة اليابسة ، تحصينات واسوار قديمة أقيمت للدفاع عنها ، والمدخل الوحيد اليها هو عبر باب قائم شرقي المدينة .

لم تلعب عكا على ، ما يبدو ، دوراً هاماً في التاريخ القديم . ولكنها مذكورة في الكثير من الكتب القديمة ، كما انها طالما كانت محطة توقف فيها الفرس والمصريون القدامى خلال حملاتهم المتعدّدة في سوريا وفلسطين . وفي مراحل لاحقة ، خلال الحملات الصليبية ، كان لهذه المدينة أن تعرف ما لم تعرفه مدينة أخرى من سفك دماء ودمار وخراب وحصار . وكانت خاتمة المطاف عام ١٢٩١م على يدي السلطان ملك الأشرف ، ابن قلاوون ، الذي أحرق المدينة بعد أن هزم الصليبيين وطردهم منها . ولم تقم لها قيامة بعد ذلك حتى نهاية القرن الثامن عشر حين اتخذها أحمد باشا الجزار مقراً له والذي كان قد استقل بدولة تمتد ما بين نهر الكلب وبيروت شمالا والقيسارية جنوباً .

تقوم عكا فوق رأس يمتد من الشمال إلى الجنوب في مياه البحر المتوسط . في الجهة الجنوبية الشرقية يقع المرفأ الذي كان يحميه رصيف دائري . وإلى الشرق يقوم الباب الوحيد الذي يسمح بدخول المدينة . أمّا الأسوار فقد تهدمت بعض أجزائها وتصدع بعضها الآخر . ولكن يبدو أن الأتراك يخططون لأعادة ترميم المدينة وأسوارها ولا سيما المرفأ بعدما أدركوا أهمية هذا الموقع المتحكم بمناطق جنوبي سوريا وبطريق قناة السويس . وللأسباب نفسها يبحث الالمان والانكليز عن الوسيلة المناسبة لوضع اليد على عكا .

أسواق عكا مليئة بالبضائع المختلفة والتجار والحبوب الآتية من المناطق القريبة . حركة التصدير في المرفأ ناشطة على الرغم من إهمال الحوض الذي لم يعد يسمح بالرسوّ إلاّ للسفن والمراكب الصغيرة والخفيفة . مواد التصدير في معظمها صوف وحرير وتبغ وسمسم وقطن .

سكان عكا في ازدياد مستمر وهم يبلغون الآن حوالي اثني عشر ألف نسمة ، وقد يتضاعف هذا العدد إذا تمكنت ، شركات الشحن البحري الفرنسية والانكليزية والنمساوية ، من تثبيت قدمها في المرفأ فهي بالتالي ستبعث في المدينة الحياة بما تؤمنه من اتصال مستمر مع مختلف المراكز التجارية الأوروبية .

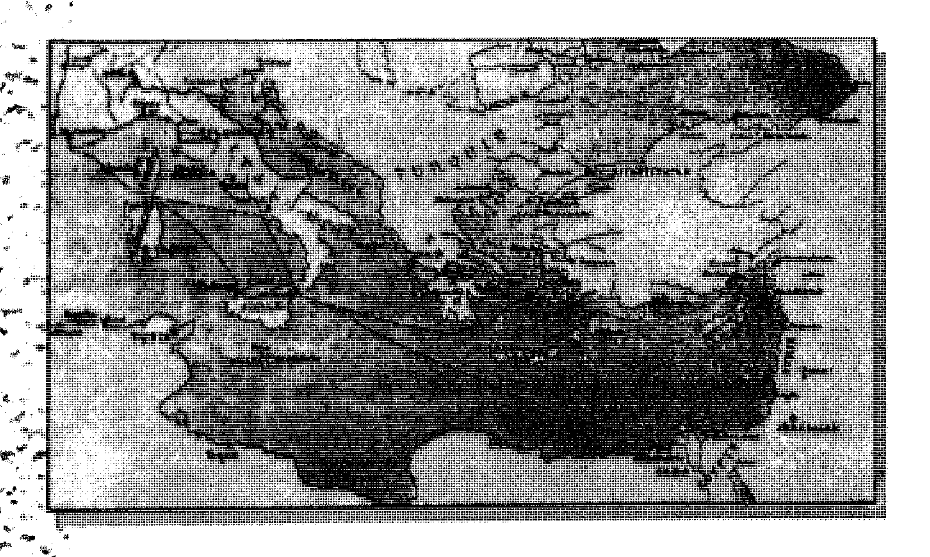
في مدينة مثل عكا ، طالما تعرّضت مراراً وتكراراً في القديم كما في الحديث ، للحصار والدمار والنار ، لا نستطيع توقع بقاء صروح ومبان أثرية هامة . . في إحدى الساحات الصغيرة يقوم مسجد أحمد باشا الجزار ، وهو كان قد بناه من

أنقاض مبان أثرية أخرى في صور والقيسارية . أمّا المساجد والكنائس الأخرى في المدينة فلا أهمية بارزة لها . شمالي المدينة نجد بقايا قصر فرسان القديس يوحنا والذي تحوّل الآن الى مستشفى وثكنة . الأجزاء العليا من المبنى قامت في العهد التركي ، أما الأجزاء السفلى فتعود الى أيام الصليبيين .

من المشاهدات الجميلة في عكا ، والجديرة بعمل ريشة رسام ، منظر فتيات صغيرات يرتدين سراويل وأردية قطنية بيضاء فضفاضة ويعتمرن طرابيش جميلة ذات شرابات زرقاء ، ويقفن فوق بئر بنيت خرزتها من الحجارة البيضاء ، يسحبن بعناء دلواً تدلى في قعر البئر ، ثم يفرغن محتواه من الماء في جرار من الفخار يمسك بها فتى جالس الى الأرض . أما حمّال الماء فنجده يمتطي حماراً صغيراً تحيط به من كل جانب جرتان مليئتان بالماء ومثبتتان في البردعة بواسطة أطر خشبية ، وينطلق في الشواراع والأزقة موصلاً الماء إلى زبائنه .

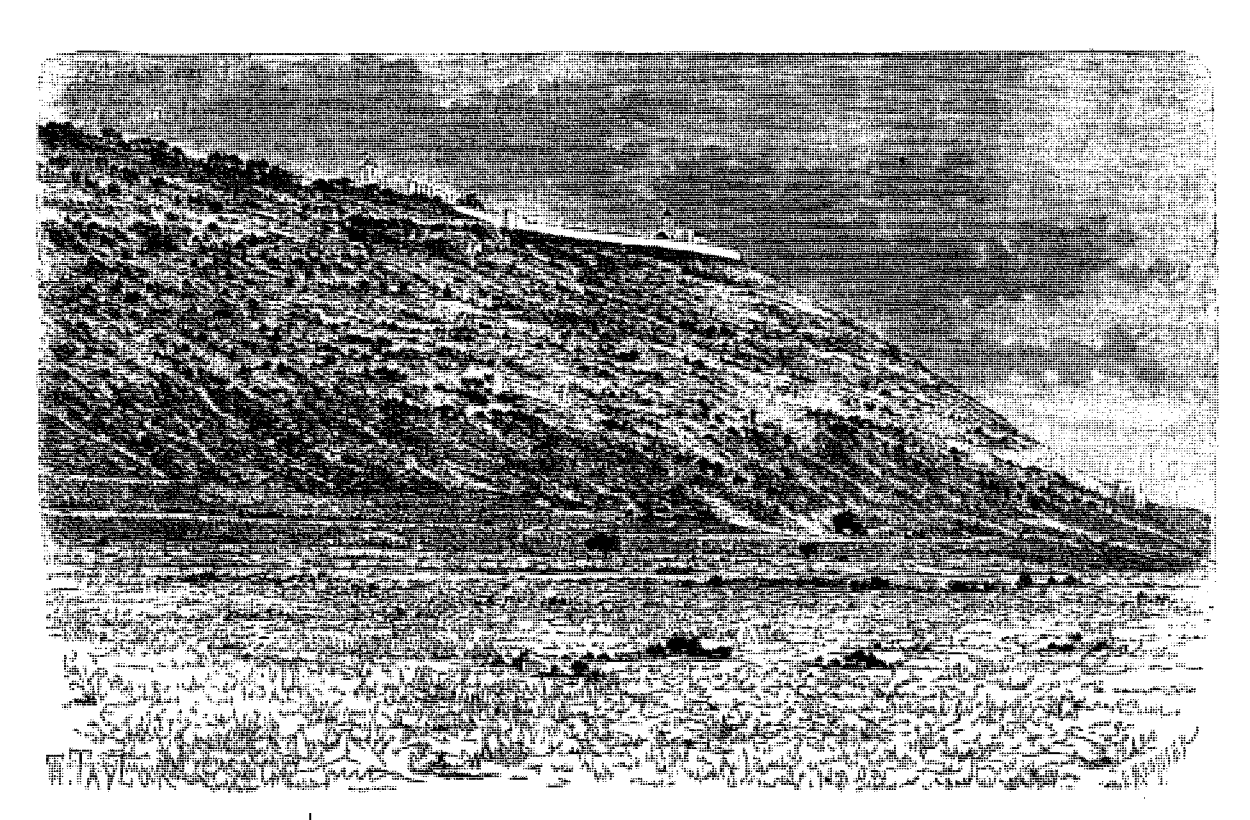
من عكا نشدّ الرحال باتجاه حيفا ، المدينة الصغيرة القائمة عند أقدام جبل الكرمل ، بعد الخروج من عكا تمرّ الطريق في نهر النعمان ، والذي يروى انه شهد عند مصبه اكتشاف الفينيقيين لسرّ صناعة الزجاج . بعد ذلك تمتد الطريق رملية رطبة ترهق البعير لصعوبة السير فيها . من هذا المكان كان قد عبر في الماضي نحو يافا نابوليون بونابرت مع جيشه الذي أصابه الطاعون ، عبره وهو يجرّ أذيال الخيبة والهزيمة بعدما افتعل مجزرة عبثية في عكا.

الفصل السابع



حيفا وجبل الكرمل

حيفا مدينة قديمة ، دخلها الصليبيون عام ١١٠٠م وخرجوا منها بعد هزيمتهم في معركة حطين فأصبحت خاضعة لحكم صلاح الدين الأيوبي ، وفي مراحل لاحقة أضحت تابعة لولاية عكـّا . تتمتع حيفا بموقع ممتاز على البحر مما يجعلها المرفأ الطبيعي لتصدير محاصيل المناطق القريبة مثل طبريا ووادي الأردن وحوران . موقعها المميز وطبيعتها الخصبة جذبا اليها جاليات أوروبية عديدة استقرت في أنحائها وأسسّت فيها مساكن ومصالح تجارية وزراعية ، وفي طليعة هؤلاء ، الألمان الذين أقاموا مدينة جديدة لهم عند أقدام جبل الكرمل في الجهة الشمالية ـ الشرقية من حيفا . يحيط بالمدينة لجهة اليابسة سور يعود بناؤه الى عام ١٧٦١م ، وهو على الرغم من سوء بنائه يؤمن للمدينة قدراً جيداً من الحماية والأمن . أما المرفأ فقليل



جبل الكرمل منظر من جهة حيفا
رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية .

العمق لا يستقبل سوى المراكب والسفن الخفيفة الوزن . أما السفن الكبيرة فتبقى في عرض البحر في الجهة الشمالية الغربية . عدد السكان في تزايد ، مستمر ، يبلغ الآن ستة الاف نسمة ، نصفهم من المسلمين ، والنصف الآخر من المسيحيين واليهود .

حيفا القديمة ، حيث يسكن العرب الأتراك ، لا تختلف كثيراً عن بقية مدن الساحل السوري . أما منازل الأوروبيين ، ولاسيما المستعمرة الألمانية ، فنجدها بنيت على الطراز الأوروبي تحيط بها الحدائق والبساتين .

الطريق إلى جبل الكرمل المطل على حيفا تمرّ أولاً وسط بساتين الزيتون والحقول المزروعة ، ثم ترتفع بسرعة عبر سلالم حجرية تصل إلى السهل المرتفع الذي يقوم عليه دير جبل الكرمل على ارتفاع ١٩٥ متراً .

بوابة الدير حديدية منخفضة ، أما الأسوار فسميكة مرتفعة شبيهة بأسوار



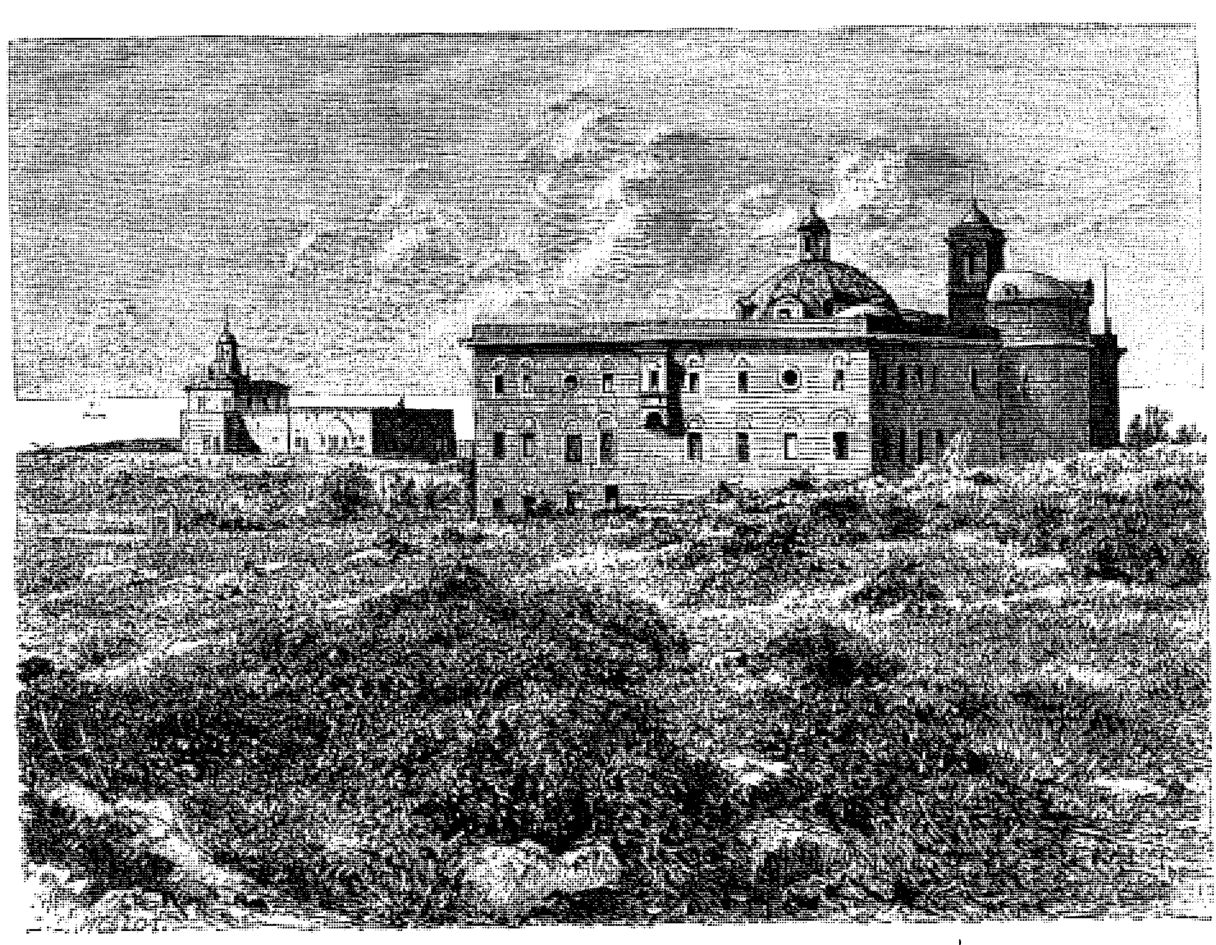
حيفا ، منظر من قاعدة جبل الكرمل
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .

الحصن ، تعلوها شرفات مطلة على مناظر رائعة لسهل عكا وشاطىء المتوسط .

جبل الكرمل امتداد لمرتفعات السامرة ، وهو يتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي لينتهي في مياه المتوسط مشكلاً ذاك الرأس المميّز الذي يقوم عليه الدير .

يقيم في الدير عشرون من الرهبان الكرمليين ، من الايطاليين والاسبان ، وهم يؤمنّون الضيافة للمسافرين والزائرين ، كما هي الحال في جميع أديرة سوريا . جميع أبنية الدير ذات ضخامة ظاهرة وهي قائمة حول الكنيسة المبنية على الطراز الايطالي ، ولكن لا يمكن وصف بنائها برفعة الذوق .

عند طرف رأس جبل الكرمل تمّ بناء منارة ترشد السفن والمراكب وتنير الشاطىء في تلك المنطقة الخطرة .



كنيسة جبل الكرمل
رسم لنسولو .
عن صورة فوتوغرافية .

من حيفا إلى الناصرة تتجه الطريق شرقاً عبر السهل الممتد عند أقدام الكرمل والذي تخترقه تعرجات نهر كيشون .

الناصرة

الناصرة ، مدينة يسوع الناصري عليه الصلاة والسلام ، مدينة تاريخية قديمة . انها تقع في منخفض من الارض تحيط بها مجموعة من الهضاب التي يتراوح ارتفاعها ما بين أربعماية وخمسماية متر فوق سطح البحر . شوارع المدينة أزقة ضيقة ، وتصبح أحياناً سلالم مرتفعة ومتعرجة ، كتلك التي تقود إلى ساحة المسجد . أمّا المنازل فمبنيّة من الحجارة عند السفح الغربي لجبل عار من الأشجار تغطي قممه نباتات العوسج والأزهار البرية المختلفة . تاريخ مدينة الناصرة غامض ومظلم فهي لم تذكر مرة واحدة في «العهد القديم» ونادراً ما جاء على ذكرها كتّاب التاريخ القديم .



فتاة مسلمة من الناصرة
رسم أ . رونجا
عن صورة فوتوغرافية .

أيام الصليبيين كانت جزءاً من الاقطاع الممتد ما بين طبريا وحيفا . وبعد معركة حطين عادت إلى حكم المسلمين لتصبح فيما بعد جزءاً من إمارة الأمير فخر الدين المعني .

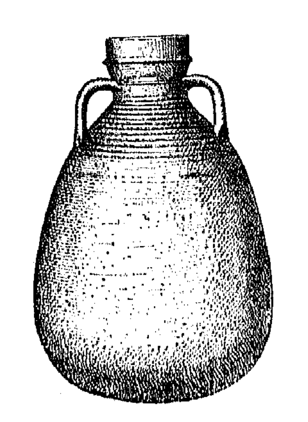
معظم سكان الناصرة من العاملين في الزراعة ، لاسيما القمح والشعير والزيتون . يضاف إليها التين والقطن في الحقول المجاورة . كما تُصدر سنوياً كمية من أجود أنواع التبغ .

العرق الأصلي لسكان الناصرة ذو مميزات رائعة . فالرجال والنساء ذوو أشكال وملامح جميلة . النساء ، كما هي الحال في بيت لحم ، أجمل نساء سوريا ، في وجوههن سمات نبل وعراقة . أزياؤهن فريدة ومتميّزة ، لا مثيل لها في الجليل كله : سروال واسع يزين أطرافه الحرير الملون ، وقميص من القطن الناعم ذي أغضان وكشاكش ، إضافة إلى جلباب مربوط إلى الخصر بحزام ويستعمل كرداء خارجي . أمّا الرأس فتغطيه كفيّة من الحرير المذهب ، لا تغطي الوجه ، ومثبتة



الناصرة ـ رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية .

بواسطة عمامة من القماش الرقيق ، فيما تنساب أطرافها بجمال وأناقة على الكتفين . الجبهة والصدر مزدانان بقطع نقد معدنية ثمينة .

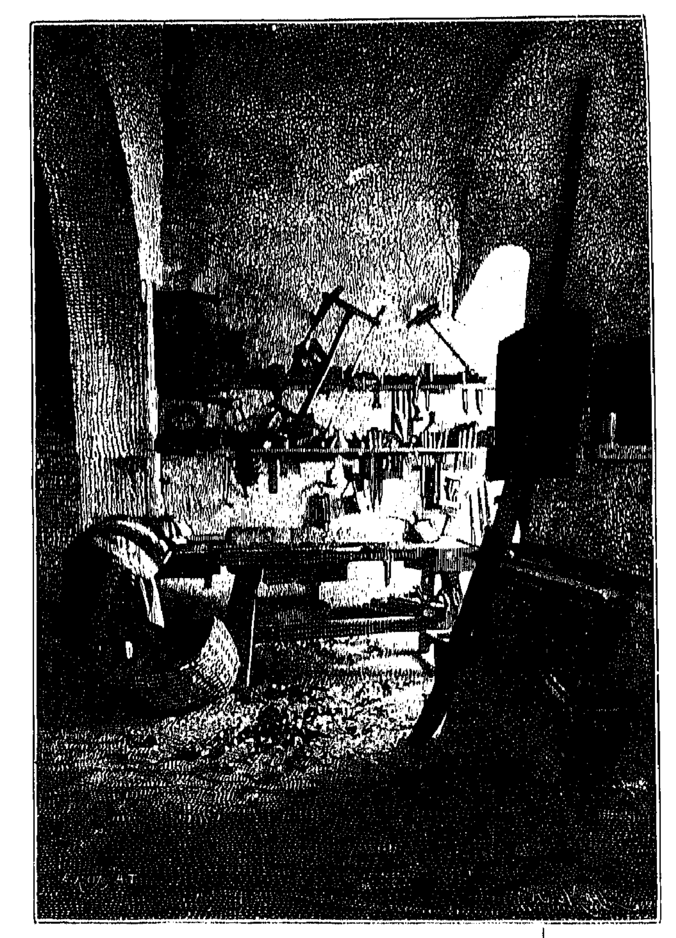


الجرّة التي تحملها النساء في الناصرة
رسم للمؤلف

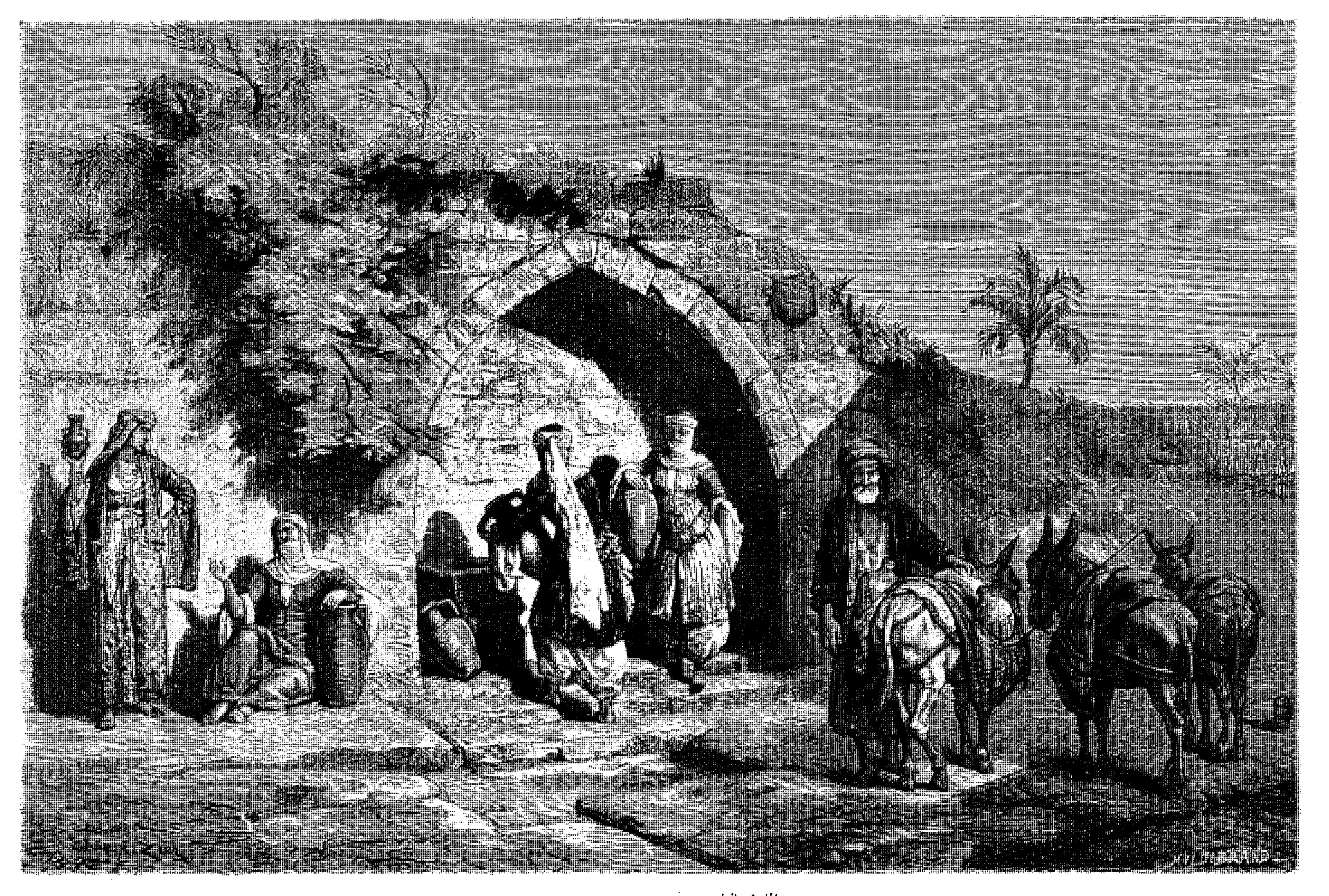
من أشهر الأماكن الدينية في الناصرة دير الفرنسيسكان الذي يضم كنسية سيدة البشارة التي تمّ بناؤها عام ١٧٣٠م ، والتي يؤكد المؤمنون إنها تضمّ المكان الذي أبلغ فيه الملاك مريم العذراء بولادة المسيح ، ويشيرون إلى ذاك المكان ومن وراء المذبح يمكن النزول الى مغارة صغيرة يشار فيها إلى مكان يقال إنه كان مكان تعبّد العذراء ومرقدها !

ولكن ، وبناء على معرفة أكيدة بعدم تبدل الأشياء في الشرق ، يبقى من الأكثر احتمالاً ، وخلافاً للرواية السابقة ، أن يوسف ومريم كانا يعيشان في منزل صغير شبيه بتلك المنازل التي ما نزال نجدها في الأحياء الفقيرة من المدينة ، وأنّ مشغل النجّار كان مماثلاً تقريباً لتلك المشاغل التي ما تزال موجودة في بعض الأزقة ، والتي نقدم صورة صادقة عنها .

من المشاهدات الجميلة في الناصرة ذاك المنظر المتكرر يومياً عند نبع الماء الوحيد الذي يؤمن للمدينة مياه الشرب وهو موجود في جنوبيّها الغربي . هناك نجد حوضاً قديماً ، تغطيه قنطرة قديمة نصف مهدمة ، وتجري فيه مياه نبع عذب . وعند الصباح والمساء من كل يوم تأتي أرتال من النساء والفتيات لملء جرارهن الكبيرة ذات الشكل التقليدي القديم . نجدهن يرفعن أثوابهن ، ويخلعن أحذيتهن قبل النزول في الحوض . وبعد ملء الجرار يحملنها إلى حافة الحوض حيث تساعد كل واحدة منهن الأخرى في وضع جرّتها على رأسها المغطى بقطعة من القماش ملفوفة دائرياً لتساعد على ثبات الوعاء الموضوع مائلاً قليلاً . وأثناء السير تلامس اليد اليمنى أذن الجرة ، أو عروتها ،



مشغل النجار في الناصرة
رسم أ . رونجا
عن صورة فوتوغرافية



عين الماء في الناصرة ـ رسم زيير ـ عن صورة فوتوغرافية .

من وقت لآخر ، في حين تستند اليد اليسرى إلى الورك لحفظ التوازن .

الخروج من الناصرة الى نابلس : السامرة

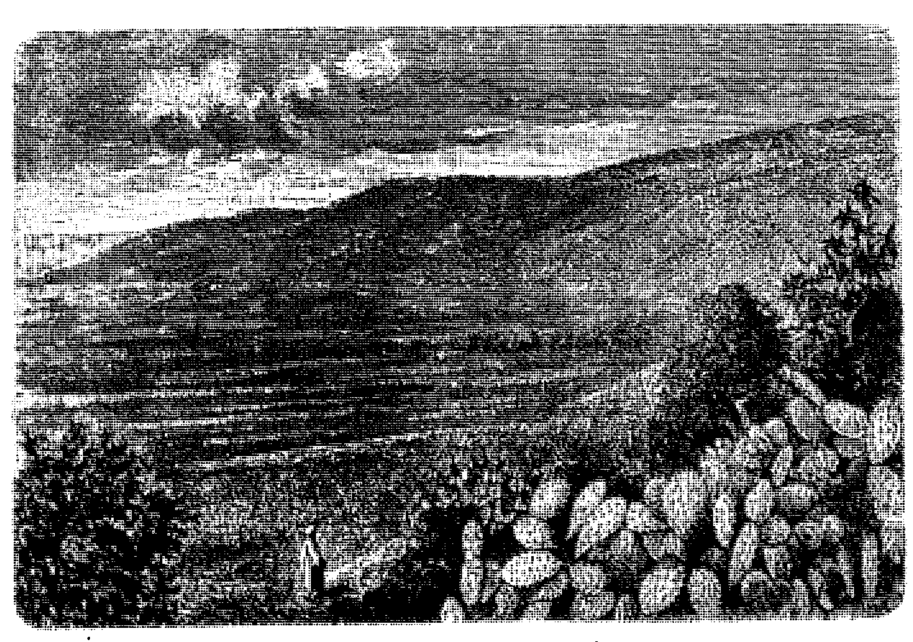
للخروج من المنخفض الذي تقع فيه الناصرة ، يجب التوجه أولاً نحو ممّر جبلي مرتفع تهبط الطريق بعده جنوباً عبر واد عار وجاف ، ينتهي إلى سهل واسع يرتفع عن سطح البحر تسعين متراً ؛ هو سهل esdrelon . إنه سهل شديد الخصب غني التربة تكثر فيه الأشجار المثمرة وحقول القمح والأزهار والنباتات المختلفة .

بعد المرور بعدة قرى صغيرة ، وبعد سير مضن استغرق نهاراً ، نصل إلى قرية كبيرة وجميلة تقوم عند أقدام هضاب خضراء هي بلدة جنين المحاطة بحقول الزيتون والبساتين المزهرة .

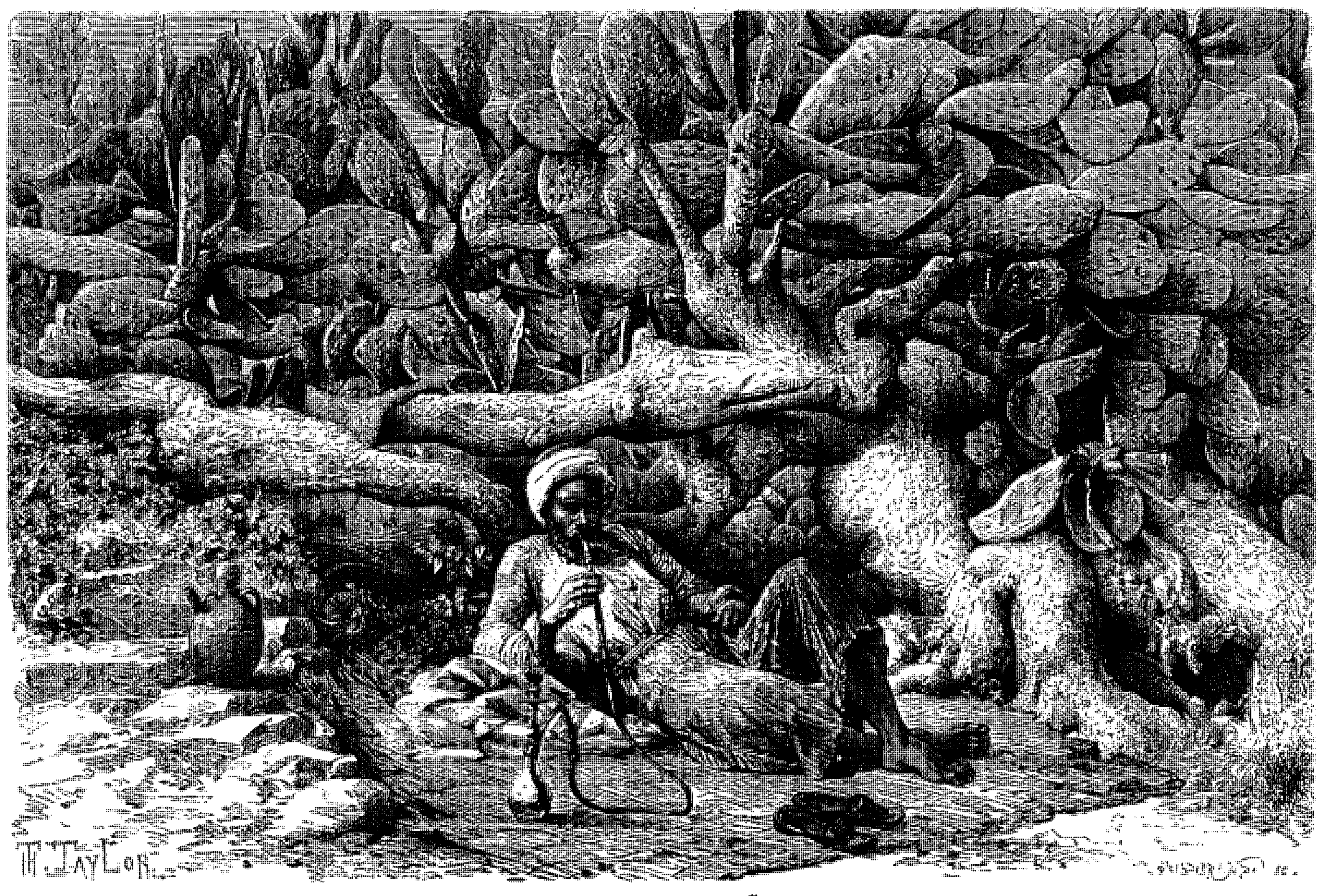
تقع جنين عند مدخل واد يصبّ في سهل esdrelon عند أقدام هضاب تغطيها أشجار التين والزيتون . المنازل هناك حجرية حسنة البناء تحيط بها الحدائق وتكثر بينها أشجار الصبّار . أشجار الصبّار هذه تحيط بالبلدة كلّها مشكلّة حولها سوراً نباتياً حيّاً يصعب اختراق جذوعه الغليظة وأوراقه الشائكة المتشابكة ، فلا يمكن الدخول إلى جنين إلاّ بواسطة الأبواب التي أحدثت في سورها الطبيعي .

من جنين إلى نابلس تنحني الطريق قليلاً نحو الغرب تفادياً لمنطقة مستنقعات يصعب تجاوزها . وبعد تجاوز عدة وديان وهضاب وبعض القرى الصغيرة تطلّ الطريق على بقايا مدينة السامرة التاريخية الواقعة في منخفض تحيط بها هضاب عارية وأخرى تغطيها الجلول الخضراء .

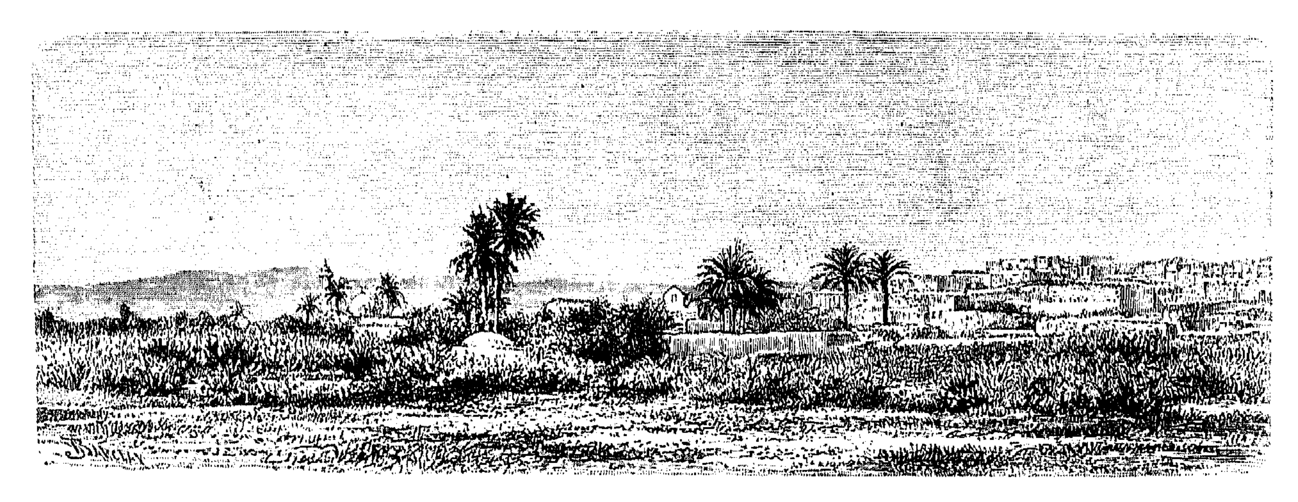
تقوم السامرة فوق مرتفع صغير يغطيه البنيان حتى قمته وتكثر فيه الحقول الخضراء والبساتين الغنّاء . ووسط الخضرة والمزروعات تنتشر هنا وهناك بقايا المدينة القديمة . امّا العمران الحديث فمعظمه من بقايا العمران القديم



سهل أسدريلون وقمة جبل الكرمل
رسم تيلور .
عن صورة فوتوغرافية .

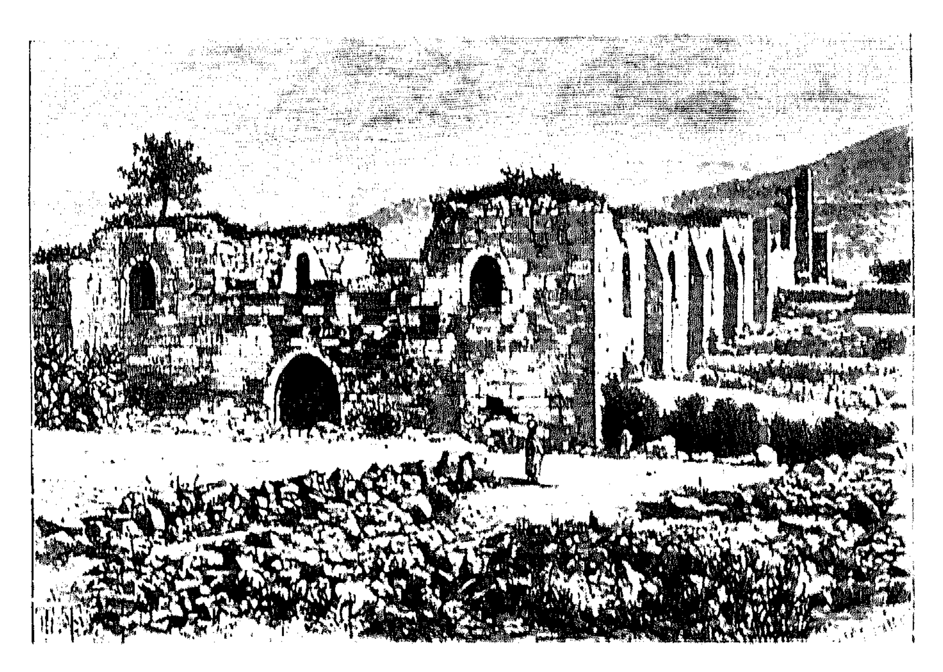


سور من الصبّار في جنين ـ رسم تيلور ـ عن صورة فوتوغرافية .



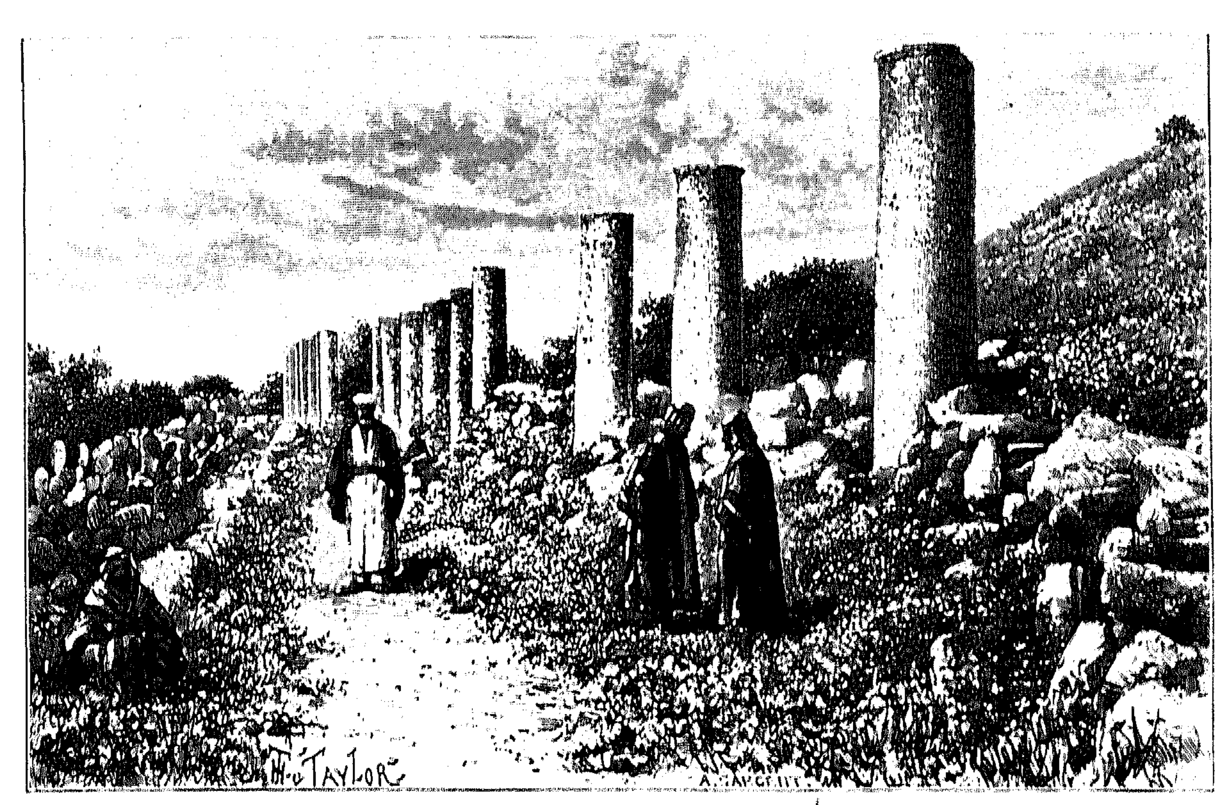
جنين - رسم س . باركلي - عن صورة فوتوغرافية .

السامرة
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .



كنيسة القديس يوحنا المعمدان في السامرة

رسم لتيلور – عن صورة فوتوغرافية



صف من الأعمدة الضخمة المتبقية من العمران القديم

رسم لتيلور .

عن صورة فوتوغرافية

وأعمدته ومدافنه .

من أهم الأماكن الأثرية في السامرة كنيسة قديمة للقديس يوحنا المعمداني التي أقامها الصليبيون ما بين عامي ١١٥٠ و١١٨٠م . انها كنيسة كبيرة تبلغ خمسين متراً طولاً وثلاثة وعشرين عرضاً . الواجهة بسيطة لا زينة فيها ، في وسطها باب ذو عقْد غوطي يعلوه من كل جانب نافذة ذات شكل مماثل . البهو الداخلي ذو صحن مركزي أكثر ارتفاعاً من الجانبين ، ويدخله النور من نوافذ مفتوحة في أعلىٰ الجدران .

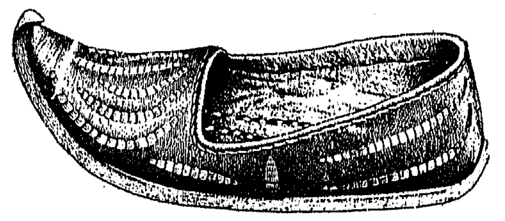
في أعلى السامرة ، وعلى ارتفاع ٤٨٤ متراً عن سطح البحر ، تكثر الأعمدة والآثار المتبقية من العمران القديم . أهمها بقايا صف من الأعمدة كانت قد بنيت في القديم على الطراز اليوناني ، يبلغ ارتفاع كل منها خمسة أمتار ، ويفصل بين الواحد والآخر خمسة عشر متراً . في الماضي كان هذا الصف من الأعمدة يبلغ ما يقارب الكيلو متر ، ولكن أكثرها ساقط على الأرض الآن ، كما أنّها أضحت مجردة من التيجان التي كانت تعلوها .

نابلس (السامرّيون)

نابلس مدينة تاريخية قديمة تقوم عند أقدام جبل «جار يزيم» أو جبل طور ، عند مدخل سهل مكْنة .

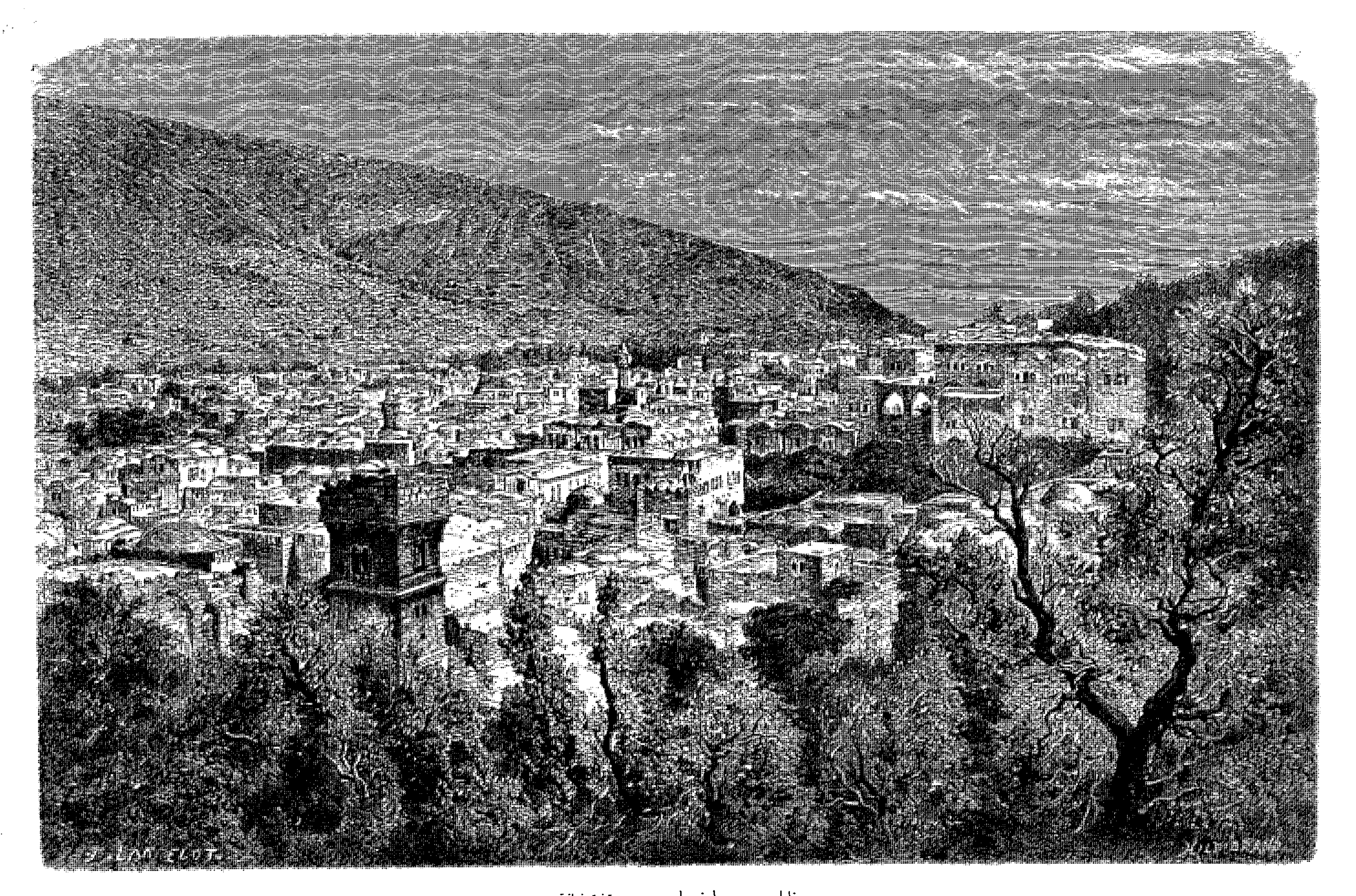
منازل المدينة على الطراز القديم مبنيّة بعناية من الحجر المنحوت بعضها ذات سقوف سوية عادية وبعضها الآخر تعلوه قبب وعقود من الاسمنت أو الحجارة . يتميز محيط نابلس بالأراضي الخصبة ذات الأشجار المثمرة ، كما تكثر فيها ينابيع المياه العذبة التي نجدها تجري في بعض الشوارع الرئيسية . تلك الشوارع دائمة الحركة والضجيج ذلك أن هذه المدينة الصغيرة تعتبر مخزناً كبيراً للقمح والصوف والقطن الذي تأتي به القوافل من وادي الأردن وحوران وغيرهما ليصدّر عبر مرافىء حيفا ويافا . يضاف إلى ذلك شهرة نابلس ببعض الصناعات المحلية البسيطة وفي طليعتها الصابون المصنوع من زيت الزيتون على شكل قوالب صغيرة مزدانة بالرسوم المختلفة . وهناك أيضاً صناعة الأسرجة ذات اللون الأحمر الجذّاب ، وصناعة الأحذية الجلدية لا سيما تلك المصنوعة للنساء ، تزينها التطريزات الرائعة .





جزمة بدوية وحذاء نسائي ، صناعة نابلس
رسم للمؤلف

يخترق مدينة نابلس شارعان رئيسان يتفرع منهما عدد كبير من الأزقة



نابلس ـ رسم لونسولو ـ عن صورة فوتوغرافية .

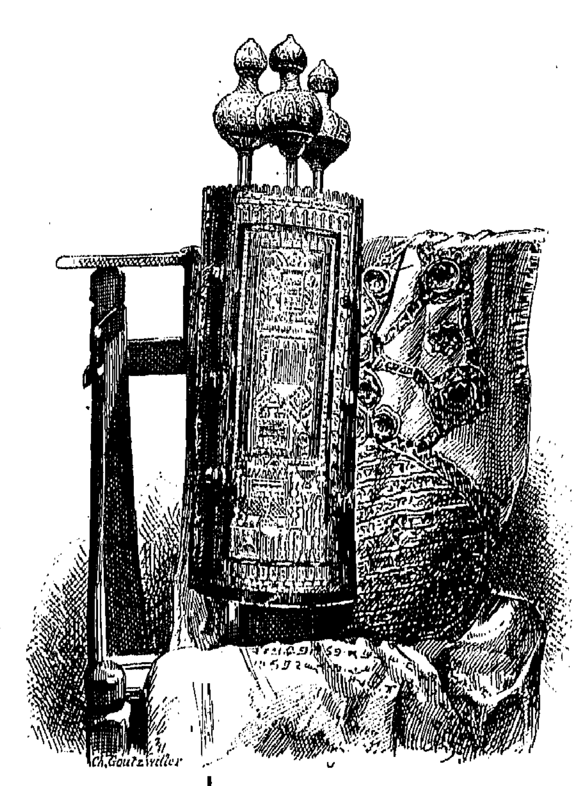
والممرات الضيقة ذات العقود والأقبية . كما تكثر في أنحائها بقايا من آثار وأعمدة ومنحوتات تعود إلى عصور قديمة مختلفة . إضافة إلى بعض الكنائس القديمة التي تحوّل معظمها إلى مساجد للمسلمين بعد هزيمة الصليبيين . ومن الأماكن القديمة الجديرة بالزيارة كنيس السامريين . إنه عبارة عن حجرة بسيطة ذات عقود مطلية بالكلس الأبيض ، نصعد إليها عبر سلّم قديم خرب حيث يستقبلنا الكاهن الأكبر يعقوب ، معتمراً عمامته البيضاء الكبيرة ومرتدياً ثوباً من الجوخ الأخضر مع رداء حريري قرمزي . أمّا بقية السامريين فيتميزون بعماماتهم الحمراء .



سامريون من نابلس
رسم لرونجا .
عن صورة فوتوغرافية .

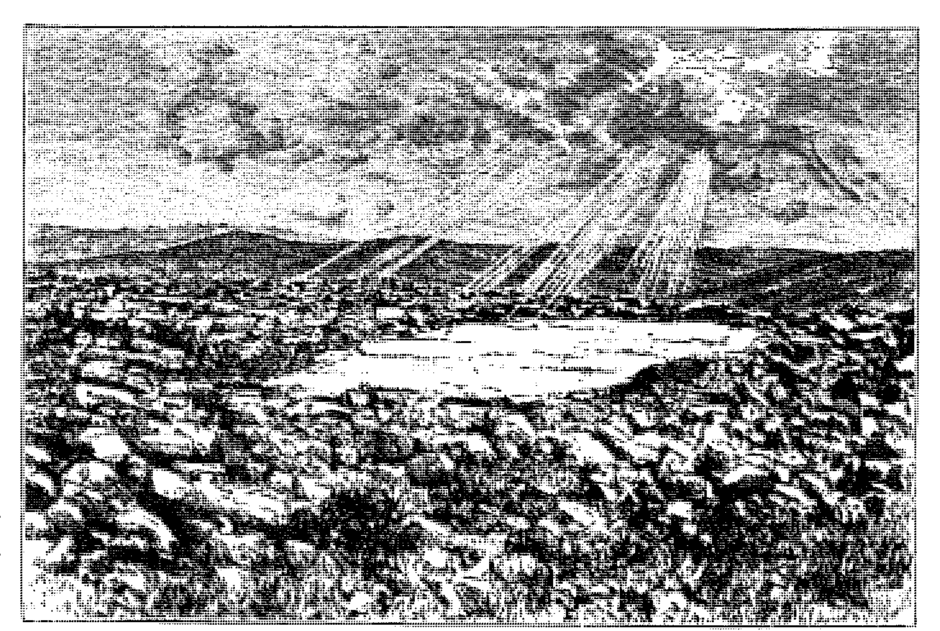
الجزء الداخلي من الحجرة مفصول عن الجزء الخارجي بواسطة درجة مرتفعة أو مرقاة ، وهي الحد الفاصل الذي لا يستطيع تجاوزه غير السامريين . هذا الجزء محجوب بستار كبير مكون من عدة أجزاء ذات ألوان مختلفة ومرتبة بطريقة تشكل معها رسماً مميزاً . ثم يزيح الكاهن الأكبر الستار ويسحب من فجوة اناء فضياً كبيراً ينفتح إلى ثلاثة أجزاء تضم اسطوانات يلتفّ عليها التوارة الذي يقدسه السامريّون .

هذه المخطوطة المكتوبة بالحرف السامري القديم على رُقع من جلد الحمل تعود على ما يبدو إلى ما قبل التاريخ الميلادي .



أسفار موسى الخمسة في إناء فضي
رسم ش . غوتزويلر .
عن صورة فوتوغرافية .

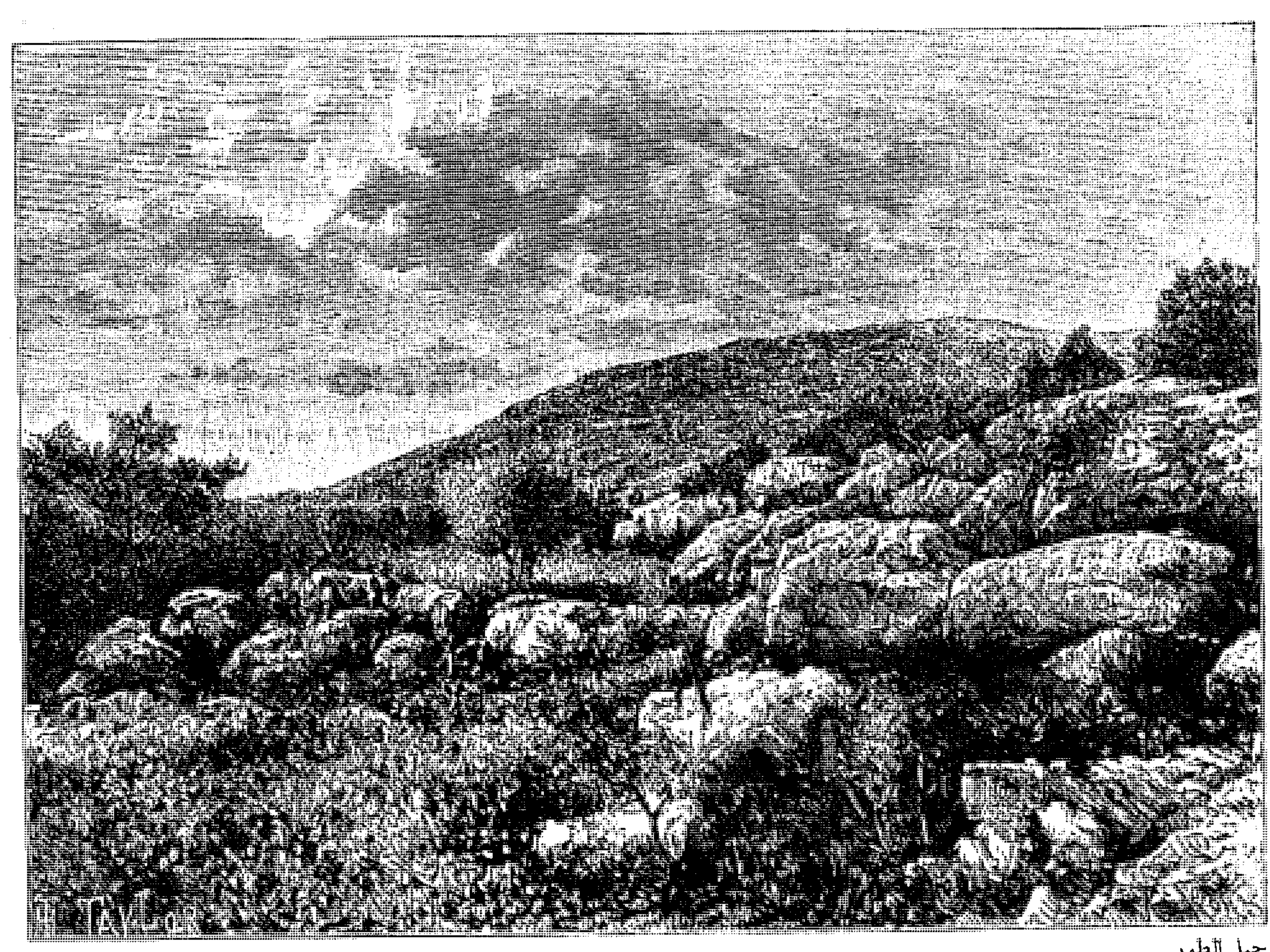
السامريون طائفة من اليهود يعيشون في عزلة مميّزة مما جعلهم في تناقص مستمر وقد يصلون إلى حدّ



الصخرة المقدسة على قمة جبل الطور
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .



الكاهن الأكبر يعقوب وأسفار موسى الخمسة
رسم لرونجا .
عن صورة فوتوغرافية .



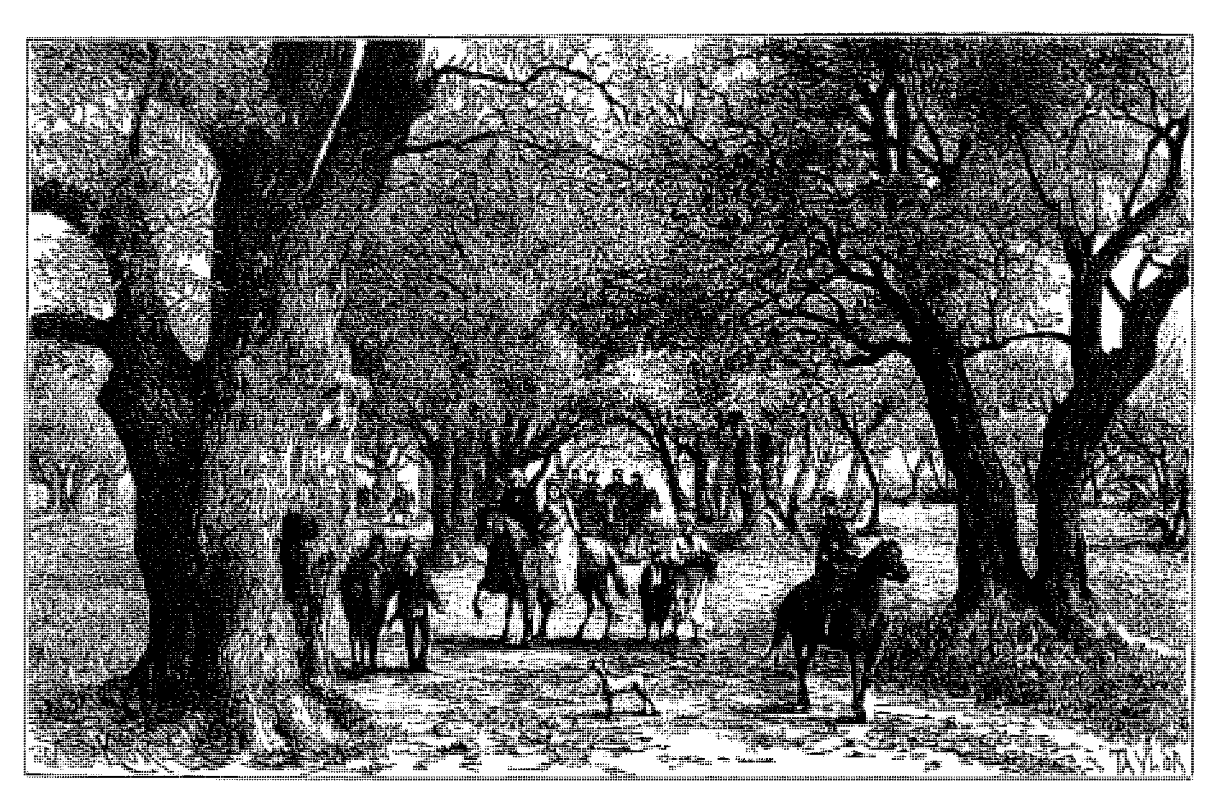
جبل الطور

رسم لتيلور

عن صورة فوتوغرافية .

الانقراض . إنهم لا يتزاوجون إطلاقاً مع الأغراب ، أي غير السامريين ، مما يحوّل عملية الزواج إلى مسألة صعبة لا تتم إلا بإشراف مباشر من الكاهن الأكبر نفسه . حياتهم منظمة تغلب عليها البساطة وتميزها نظافة بارزة .

من الطقوس السامرية ذهاب كل الطائفة ثلاث مرات في السنة إلى الصخرة المقدسة الموجودة عند قمة جبل «جاريزيم» المعروف الآن باسم جبل طور . وفي عيد «الخبز بدون خمير» يُخيّم الجميع في الجبل نفسه ، حيث كان يقوم معبدهم القديم وفي اليوم الخامس عشر من الشهر الأول يتلو الكاهن الأكبر بعض الصلوات أمام المؤمنين ، ثم تضرم النار في حفر تحت قدور كبيرة من البرونز مملوءة بالماء . كما يجري حفر فجوة كبيرة في مكان قريب وتضرم فيها النيران بكمية كبيرة من الخشب لتصبح كالفرن . بعد ذلك يحضر كبار السن سبعة حملان ، وعند إشارة من الكاهن الأكبر ، يجري ذبحها سريعاً بواسطة نصال طويلة حادة . وهنا يأتي الجميع ويقوم كل منهم بتغطيس يديه في الدماء ثم يصبغ أنفه وجبينه . بعد هذه العملية توضع الأضحيات في القدور الغالية في حين يحفظ الصوف والأكتاف اليمنى والعراقيب كي تحرق معاً . بعد ذلك تنقل اللحوم لتشوى في الحفرة التي أضحت حرارتها مناسبة ، حيث توضع ويغلق عليها بالأغصان



تحت شجر الزيتون بالقرب من نابلس

رسم لتيلور
عن صورة فوتوغرافية .

والأعشاب لعدة ساعات ، تتلى أثناءها الصلوات . وحوالي منتصف الليل يتناول جميع المؤمنين الطعام ، ثم تجمع البقايا كلها ليجري إحراقها بعناية كبيرة . ما نعرفه عن هؤلاء السامريين أنهم توحيديون ، موسى (عليه السلام) نبيّهم ، والتوراة كتابهم ، وجبل «جاريزيم» قبلتهم ، وعليه سيكون البعث والقيامة .

من نابلس إلى القدس

من نابلس إلى القدس تمتد الطريق في الوادي وتتعرّج مع ضفاف مجرى مائي ، تظلّله أشجار زيتون ضخمة مما يجعل الرحلة متعة حقيقية . وفي مكان من الطريق نمرّ بمقام يقال انه مقام النبي يوسف ، أو قبر يوسف . وتجمع التقاليد المسيحية والاسلامية على أنّ يوسف ابن يعقوب قد دفن في هذا المكان . جنوبي هذا المقام ، وغير بعيد عنه ، نجد عند أقدام جبل «جاريزيم» ما يعرف باسم آبار يعقوب ، أو آبار السامرية ؛ انها آبار قديمة نجد حولها بعض الآثار وبقايا أعمدة وعمران تشير إلى انّ هيكلاً ما كان يقوم في هذا المكان ، ولكن ما تبقى منه لا يساعد على تكوين فكرة واضحة عنه .

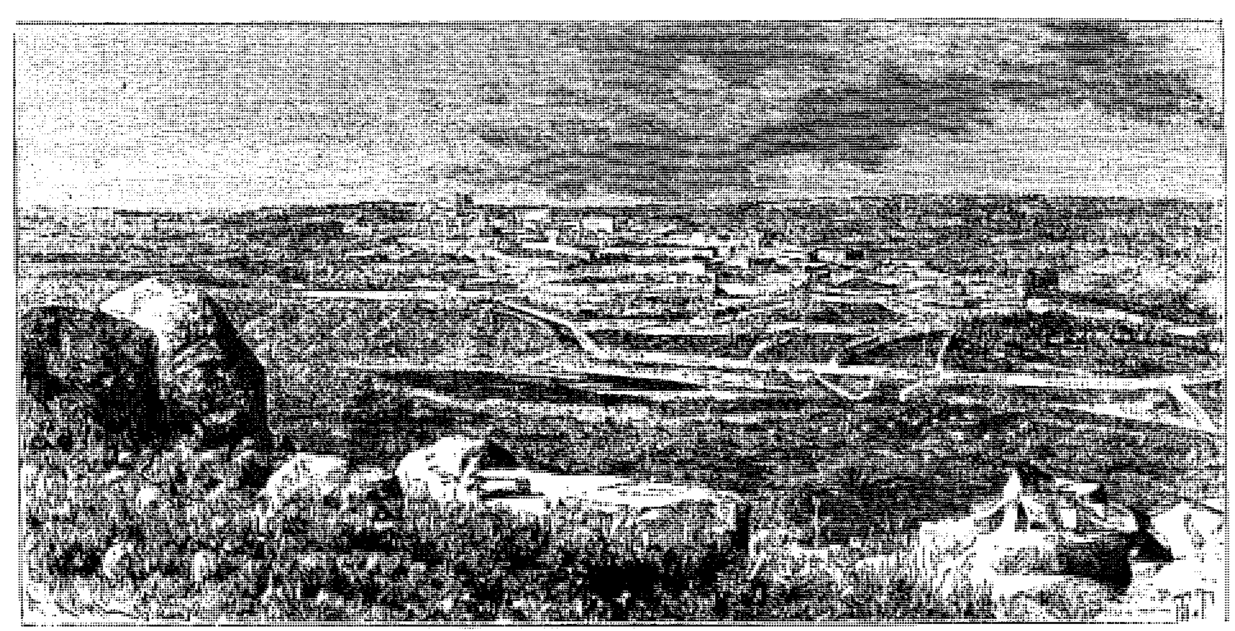
من المحطات الهامة في الطريق من نابلس إلى القدس قرية قديمة صغيرة تعرف باسم بيتين ، وتقوم على هضبة قرب الطريق المؤدية إلى البيرة . محيط هذه القرية صخري جاف تندر فيه الأشجار ، مما يضفي على القرية جواً من الحزن والكآبة .

وفي الكتاب المقدس أنّ بيتين هي «بيت ـ آل» أو بيت النبي ﷺ ، حيث كان ابراهيم عليه السلام ، ينصب ، في بعض فصول السنة ، خيمته فوق هضبة معشبة وينصرف لرعاية قطيعه . وفي الرواية أيضاً أن يعقوب رأى فيها حلم السُلّم الذي يصل الأرض بالسماء .

من بيتين إلى البيرة عبر طرق صخرية وعرة ، ومنها نتابع جنوباً عبر هضاب ووديان لنطل أخيراً على مدينة القدس بمنائرها ومآذنها الكثيرة ، وبأسوارها الرائعة ذات الأبراج . قرب تلك الأسوار شجرة صنوبر ضخمة تعرف باسم «جودوفروا دي بويون» وهو أحد قادة الحملة الصليبية الأولى ويقال إنه عند هذه الشجرة ضرب مخيماً له وأقام قيادته العامة . في هذا المكان رأينا أن نقيم معسكرنا في محطة القدس .



آبار يعقوب
رسم لتيلور
عن صورة فوتوغرافية .



بيتين أو بيت ـ آل ـ رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية .

معسكر الرحلة خارج أسوار القدس

رسم لتيلور

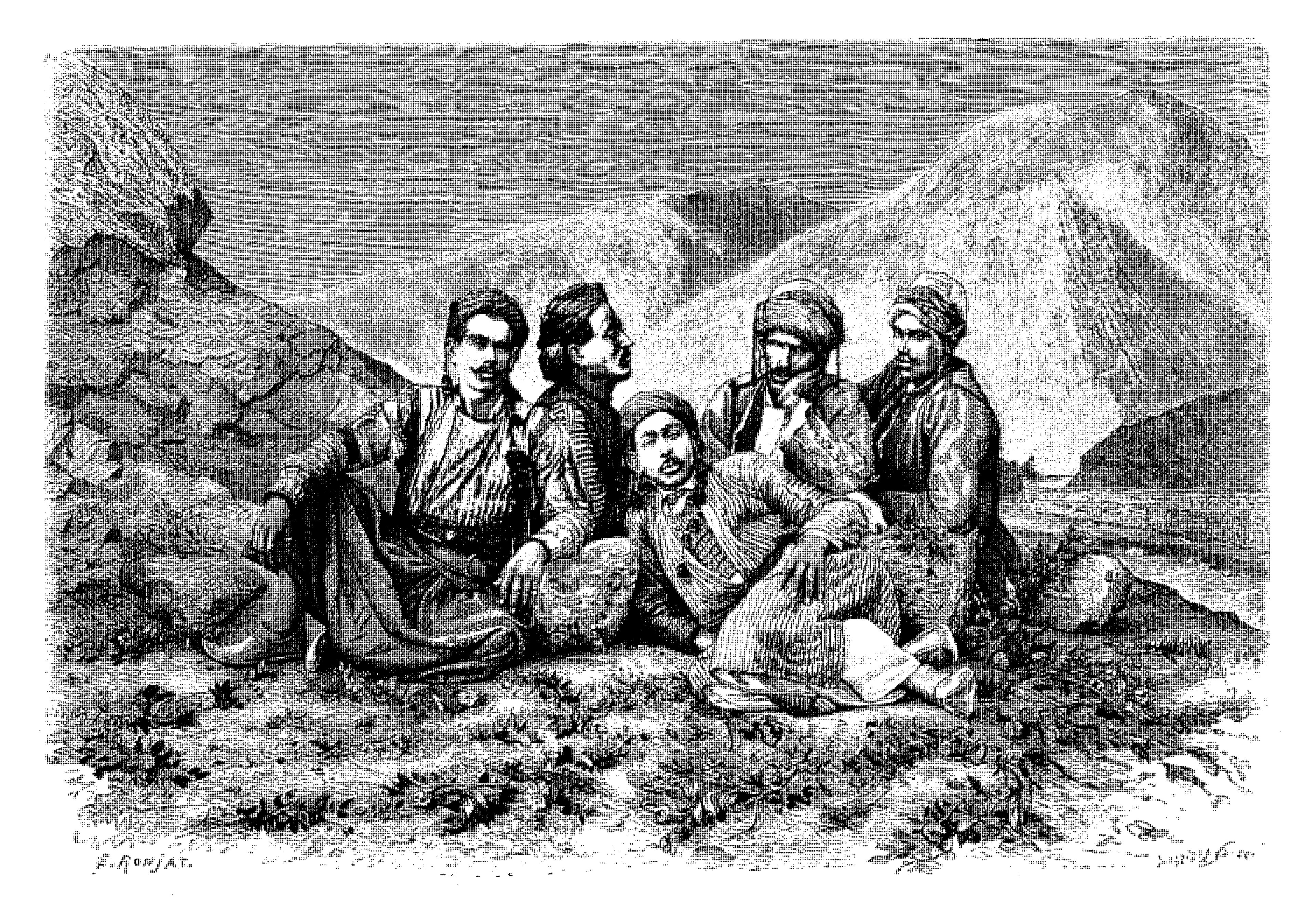
عن صورة فوتوغرافية



راعٍ وامرأة من سيلون

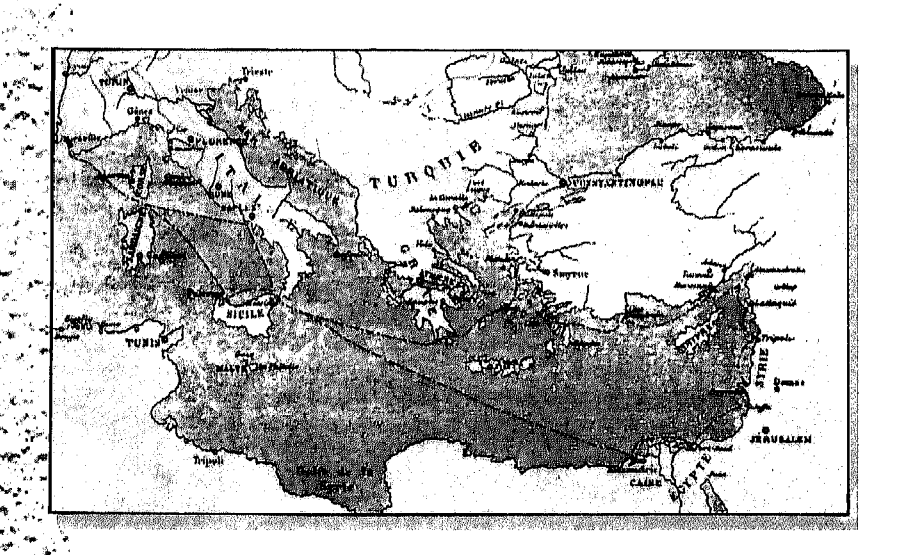


إمرأة من بيت ـ أيل



المكاريون الذين رافقوا الرحلة

الفصل الثامن

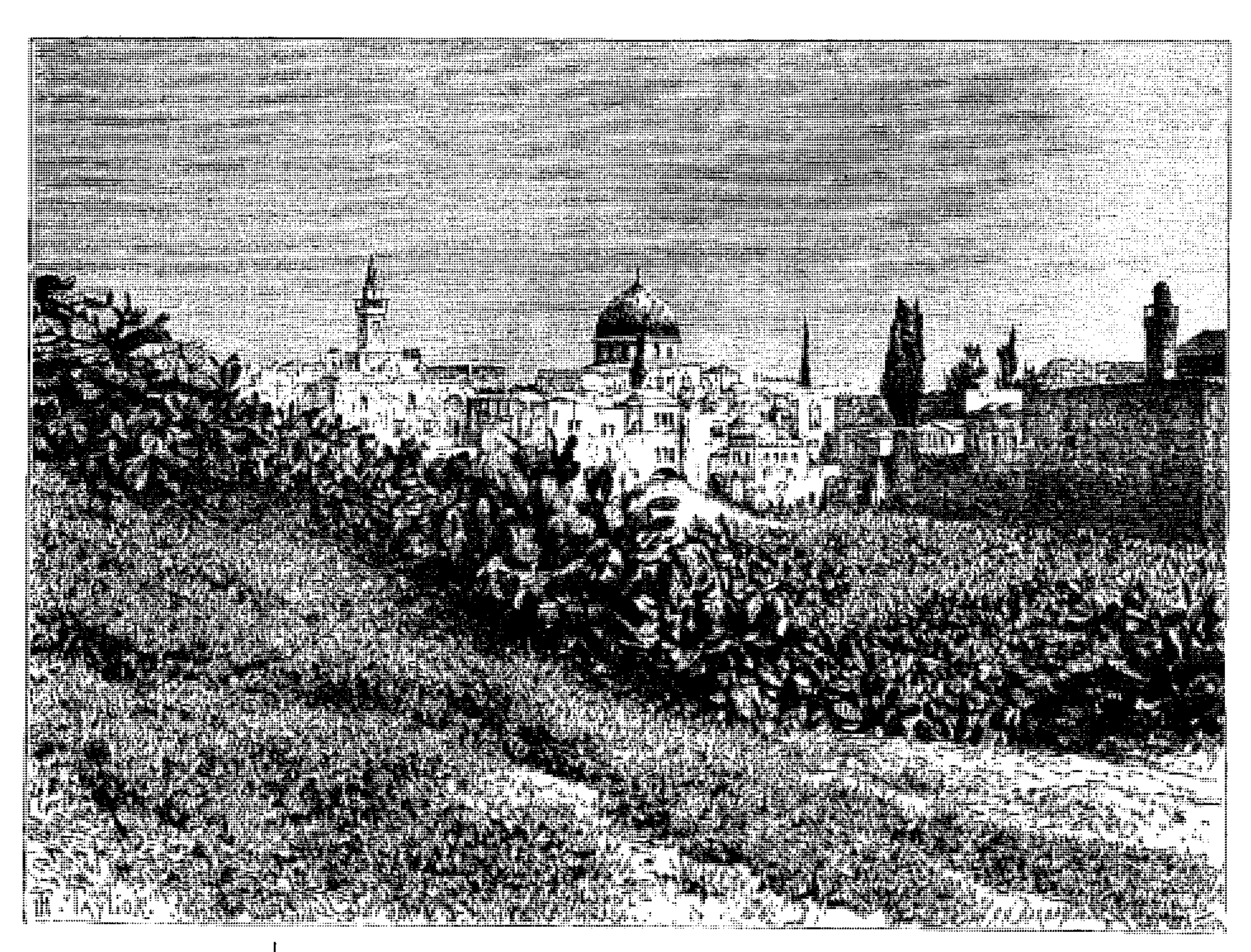


القدس

أسوارها وأبوابها

أسوار القدس القديمة هي أول ما يستوقفنا عند الوصول إلى هذه المدينة التاريخية . إنها عبارة عن مربع شبه منتظم تتجه أضلاعه نحو جهات الأرض الأربع ويحيط به خندق قديم متوسط العمق ، أصبح اليوم مطموراً بالركام في معظم أجزائه .

عام ١٥٨٤م أعاد السلطان سليمان بناء أسوار القدس التي تعاقبت عليها مختلف صروف الحروب والطبيعة . أجزاء عديدة منها ، لا سيما الشرقية



القدس من خلال جبل صهيون
رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية .



مخطط للقدس ـ رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية .

والشمالية ، ما تزال تحمل آثار العمران الذي أنشأه الصليبيون ، وقبلهم الرومان ، وقبل هؤلاء وأولئك آثار الملك سليمان ، كما يقول بعض المؤرخين ، ويتراوح ارتفاع هذه الأسوار ما بين اثني عشر وخمسة عشر متراً .

نبدأ بسور الشمال وهو عبارة عن خط متموج تبعاً لتموج الطبقة الأرضية التي يقوم عليها . يتوسط هذا السور باب جميل يعرف باسم باب دمشق ، وهو حتماً ذو هندسة عربية ، وتعلوه منافذ بارزة وشرفات مسقوفة فيها فتحات وكوّات كانت تسمح للرماة باطلاق سهامهم على المهاجمين دون أن يتعرّضوا للخطر .

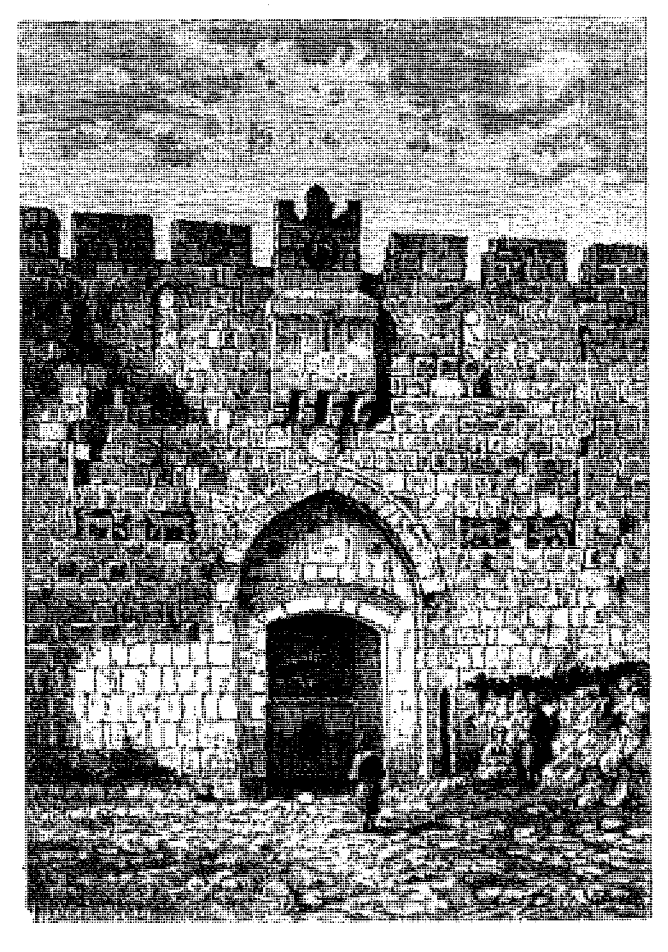
كان باب دمشق يعرف في الماضي باسم «باب أفرام» ويطلق عليه أيضاً اسم «باب العمود» وذلك نسبة إلى عمود كان يقوم عنده في القرون الوسطى ، وكان يعلوه صليب حديدي .

على مسافة من باب دمشق نصل إلى باب صغير كان يعرف باسم «باب هيرودس» ، أو باب الأزهار وكان قد أقيم أيام الرومان لاختصار طريق السكان نحو «بيزيتا» التي كانت تقوم إلى الشمال - الغربي من القدس . فيما بعد أغلق ابراهيم باشا هذا الباب تاركاً منه ممراً ضيقاً . عند هذا الباب ، داخل الأسوار ، نجد سلّماً

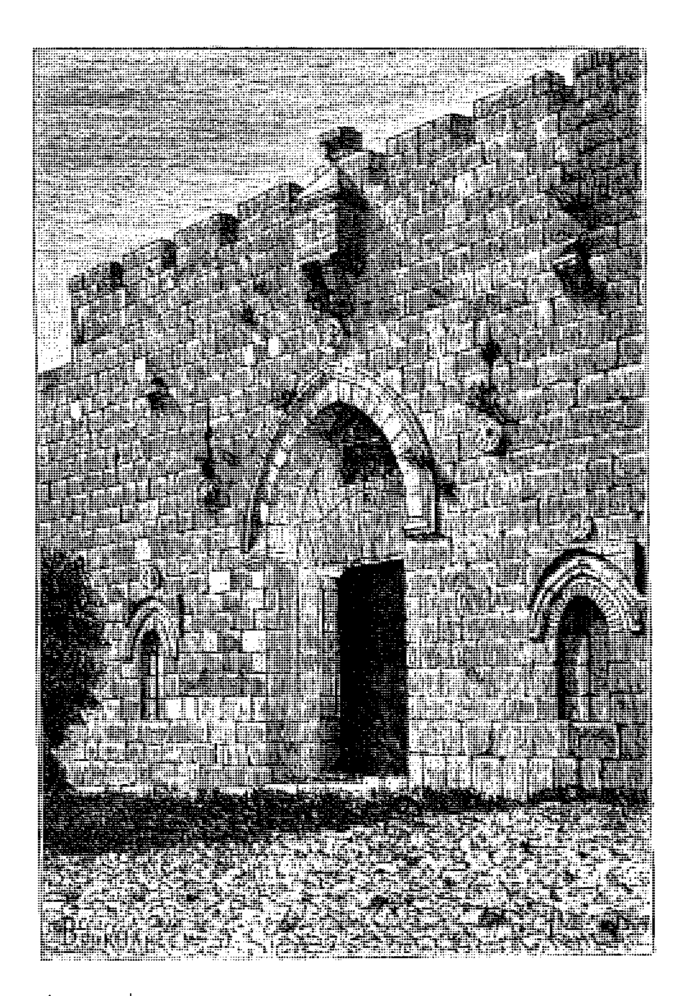


باب دمشق - رسم تيرون

عن صورة فوتوغرافية



باب سانت إتيان
رسم هـ . كاتيناتشي
عن صورة فوتوغرافية .



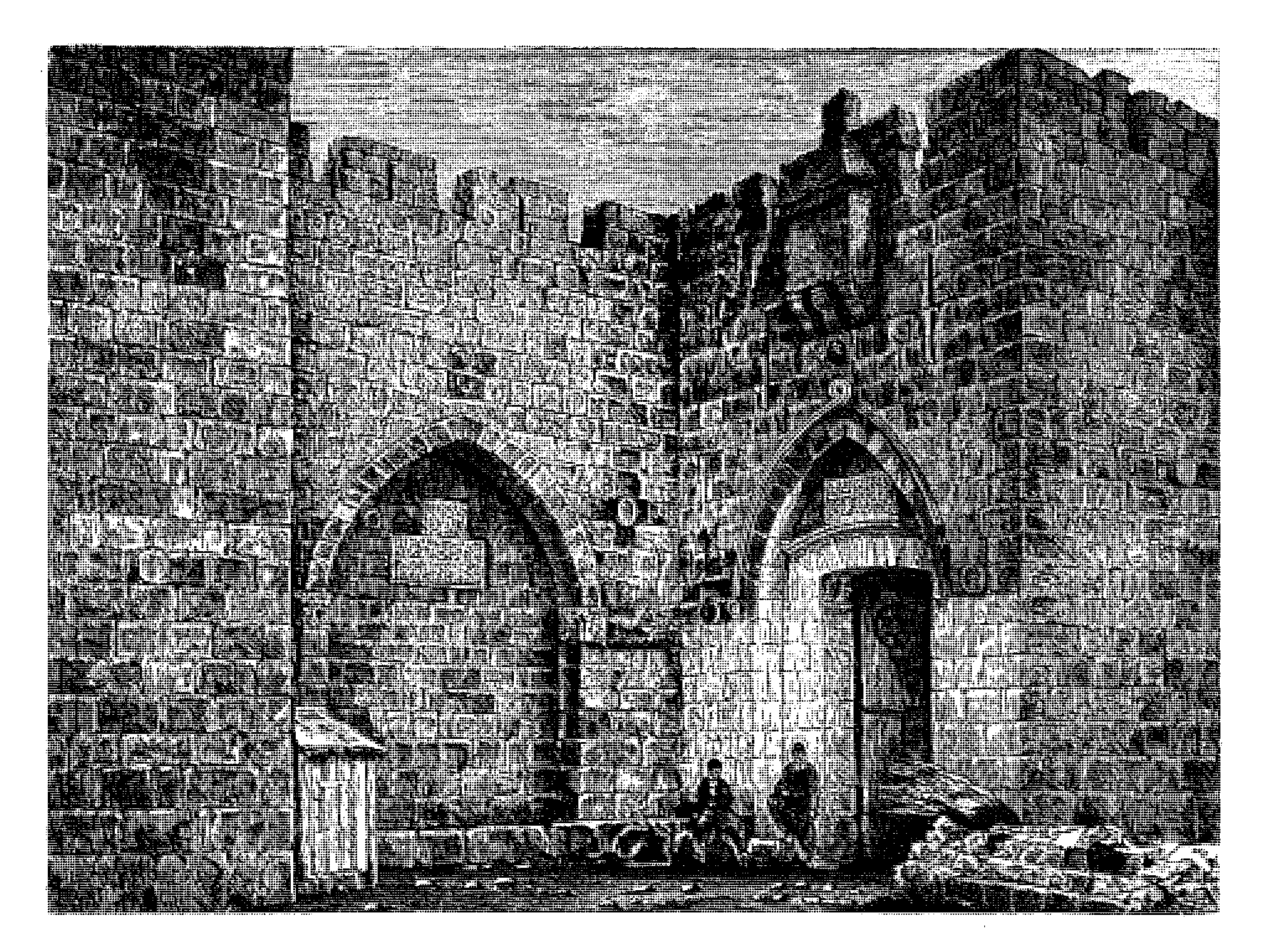
باب صهيون
رسم بورمانسيه
عن صورة فوتوغرافية

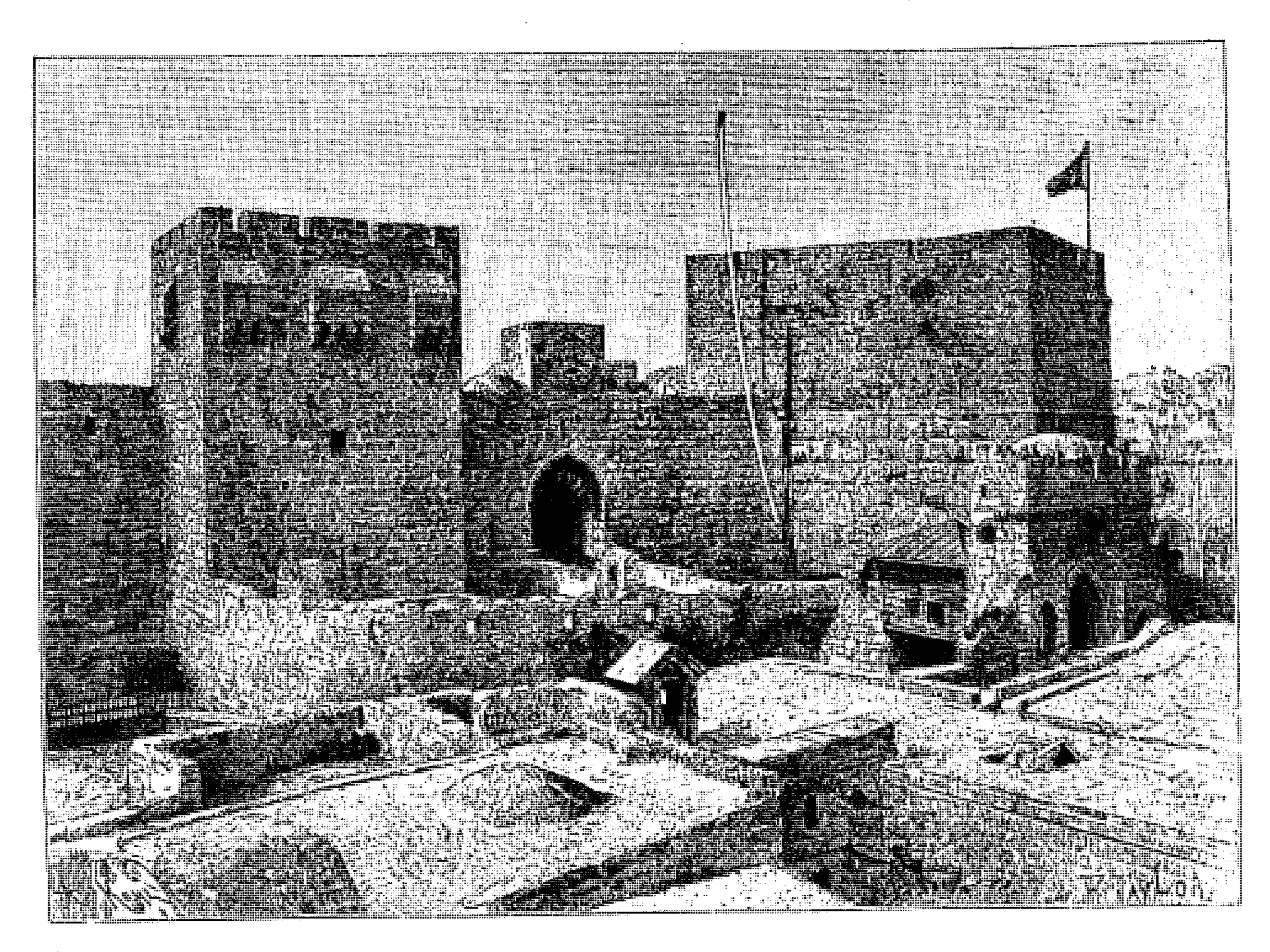
يصعد إلى قمة برج مربع الأضلاع ويطلّ على منظر رائع لمدينة القدس . لدى النزول من أعلى البرج نصل إلى أعلى السور حيث يمتد ممرّ ضيق يحيط به حاجز لجهة المدينة ، وشرفات من الجهة الخارجية . ليس هناك أجمل من نزهة فوق هذا الممرّ العالي والضيق ، لاسيما في هذا الجانب الهادىء من القدس الذي لم تغزه بعد الحياة العصرية بحركتها وضجيجها .

نحو الشرق ، حيث تنخفض الأرض باتجاه واد عميق ، يقوم جزء من أسوار القدس جدير بالدراسة والاهتمام . الأجزاء السفلى من هذا السور عبارة عن قطع حجرية ضخمة يبلغ طول الواحدة منها بضعة أمتار ، وهي منحوتة بشكل دقيق وبارز . الأجزاء العليا أكثر حداثة من الأجزاء السفلى ، كما أنّ الأتراك عمدوا لاحقاً إلى سدّ الثغرات بقطع كبيرة من الدبش دون أي عناية أو ترتيب . وفي هذا

برج هيبيكوس
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .

باب يافا
رسم هـ . كاتيناتشي
عن صورة فوتوغرافية .





برج داود
رسم تيلور
عن صورة فوتوغرافية

الجانب من السور نجد باب «سانت إتيان» المعروف باسم باب «ستّنا مريم» ، وهو يؤدي إلى طريق طويلة تخترق المدينة إلى طرفها الآخر . أمّا تسمية الباب باسم «ستنا مريم» فمردّه إلى أنه قائم عند الوادي الذي تقوم فيه كنيسة يقال انها بنيت فوق قبر السيدة العذراء .

إنه باب صغير نسبياً يعلوه محراس جميل محصّن فيه كوتان ضيقتان .

بين باب «سانت اتيان» والزاوية الجنوبية يمتد جزء من السور تعود دعائمه السفلى إلى أيام الملك سليمان ، ونلاحظ فيه وجود حجارة كبيرة جداً على ارتفاعات مختلفة ، وهي بقوة بنائها وحسن هندستها تمكنت من تحدّي الطبيعة والانسان والصمود أمامهما . وسط هذا الجانب من السور يقوم أحد أشهر أبواب القدس وأجملها ، وهو الباب الذهبي المؤدي إلى مسجد عمر ، والذي سنعود إلى تفصيل الكلام عنه لاحقاً .

السور المحيط بالباب الذهبي أضحى مزعزعاً في أجزائه العليا حيث تكثر الثقوب والشقوق التي نبت في بعضها أعشاب وشجيرات خضراء . في حين أن

دعائم هذا السور وأجزاءه السفلى القديمة ما تزال محافظة على صلابتها وسلامتها .

قرب الزاوية الجنوبية يزداد ارتفاع السور ، لا سيما حيث يزداد انحدار الأرض المحيطة نحو الوادي ، مما يجعل عملية تتبّع السور أمراً صعباً . ومع اتجاهنا غرباً نصل إلى باب صهيون الذي يعلوه قبة قوسية ونقوش مختلفة إضافة إلى كوتين قوسيتين تحيطان به من كل جانب .

بدلاً من الدخول إلى المدينة نتجه نحو مكان قريب لزيارة هيكل مهم يعرف باسم «قبر داود» أو «العلية الصهيونية» . الهيكل عبارة عن مجموعة غير متنظمة من الأبنية المقامة حول باحة واسعة أضحت تملؤها الأنقاض . هناك نجد سلّماً يؤدي إلى قاعة قديمة ذات عقود وأقبية قائمة على أعمدة جميلة البناء .

تلك هي «العليّة» التي يُفترض أنها شهدت «العشاء السري» للسيد المسيح ، عليه السلام . في آخر هذه القاعة بضع درجات تقود إلى تسقيفة نشاهد فيها ، عبر فتحة مشبّكة بالقضبان ، ناووساً طوله أكثر من أربعة أمتار ، تغطيه أقمشة قطنية صفراء وخضراء ، ويقال إنه قبر الملك داود .

اعتباراً من قبر داود نلاحظ أنّ الأسوار تصبح محصنة بمجموعة من الأبراج المربعة الأطراف ، وصولاً الى حصن مكوّن من مجموعة من الأبراج أهمها برج «هيبيكوس» أو برج داود ، وبرج مريم . والى الشمال من هذه التحصينات يوجد الباب المعروف باسم باب يافا ، أو باب الخليل ، أو الباب العبراني ، وهو يؤدي مباشرة إلى الحي المسيحي في القدس .

عند الدخول من الباب نصل إلى ساحة مرصوفة بالحجارة ، يحيط بها جنوباً الحصن المكوّن من الأبراج ، وشمالاً بضع منازل ذات بناء أوروبي . في هذا المكان ، ولمرّة أو مرتين في الأسبوع ، يقوم سوق تأتي إليه النساء من أماكن مختلفة ليبعن فيه الآنية الفخارية المصنوعة في بعض المناطق القريبة ، إضافة إلى الفاكهة الآتية من بساتين بيت لحم .

أمّا الحصن وأبراجه ، فعبارة عن أبنية عادية ليس فيها سوى قاعات وردهات واسعة ، أضحت تستخدم اليوم كثكنات للجند ومخازن للأسلحة .

الأجزاء العليا من البناء حديثة العهد إذا قورنت بالأجزاء السفلى والدعائم المبنية من قطع حجرية ضخمة وبارزة . الحصن كله معروف باسم قلعة أو قصر داود ، وكذلك البرج الأساسي المربع الأضلاع . هذا البرج بناه «هيرودس» الروماني عند الزاوية الشمالية ـ الغربية للمدينة وأطلق عليه اسم أحد أصدقائه «هيبيكوس» وكان قد قتل في إحدى المعارك .

بائعات زيت مسيحيات
رسم هـ .شابوي
عن صورة فوتوغرافية



عازف في مقهى
رسم برانيشنيكوف
عن صورة فوتوغرافية

بعض المشاهدات في القدس .

قرب باب يافا انتشرت مظاهر الحياة العصرية بأشكالها المختلفة ، في حين أن ما تبقى من القدس ما زال محافظاً على طابع الحياة القديمة ، فإذا أجزاء المدينة الأخرى محاطة بالحقول الزراعية الخالية إلاّ من المدافن وسكونها .

منازل قليلة تنتشر بين الحقول والبساتين حيث تحلو النزهة دون خوف من أولئك السكان ذوي العروق المختلفة الذين توافدوا إلى تلك الأرض على مرّ التاريخ ، فهناك اليهود والعرب ثم الأتراك ومن جاء مع الحملات الصليبية من الافرنجة .

لا شيء يعكّر صفو تلك الأماكن وهدوءها ، اللهم إلاّ أصوات بعض النسوة والفتيات اللواتي يأتين مرّة أو مرتين في الاسبوع فيعلّقن جرارهن على الأغصان ، ثم يُردّدن صياحهن ، وغنائهن بين أرجاء حقول الزيتون القديمة .

ليست القدس عاصمة كبرى ، ولا هي مدينة صناعية أو تجارية هامة مثل يافا أو صور أو صيدا . منذ أقدم حقبات التاريخ كانت هذه المدينة وما تزال مكاناً مقدساً للمسلمين والمسيحيين واليهود الذين طالما تعايشوا فيها بهدوء . ولكن هذا لم يمنع أن تناحرهم في بعض المراحل كان يقود إلى مواجهات وحروب بين القوى العظمى في العالم .

النزهة في أحياء القدس القديمة هامة ومليئة بالمشاهدات الفريدة والمعبرّة ، بين مزيج كبير من الأجناس والأديان .

في كل مكان أزقة وشوارع ضيقة متعرّجة ، بعضها مرصوف بالحجارة ، وبعضها الآخر تملأه البقايا والركام .

وفي الأماكن التي تكثر فيها العقود والأقبية تصبح الشوارع مظلمة حتى في وضح النهار .

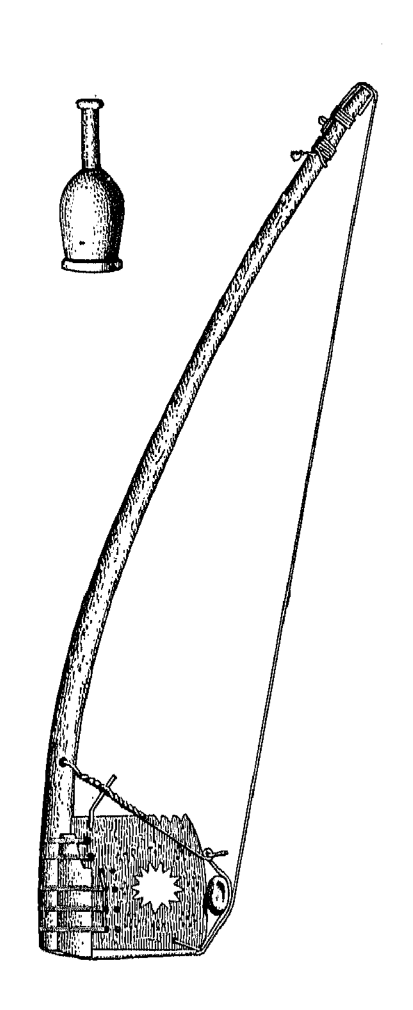
في إحدى الساحات تسمع صوت موسيقى منبعثة من داخل مقهى صغير : بعض الرجال يعزفون على آلات غريبة تشبه الكمنجة ، ولكنها مربعة الشكل ويضربون على طبول صغيرة مصنوعة من الطين ، يرافقهم عازف ينفخ في مزمار قصبيّ مزدوج (الناي أو المنجيرة) .

من المشاهد الملفتة للنظر في القدس دكاكين بيع الزيت التي يديرها غالباً نساء مسيحيات بعضهن يرتدين الأزياء الأوروبية . في تلك الدكاكين نجد جرار الزيت الضخمة مطمورة في الأرض حتى أعناقها ، تغطيها قطع من الحجارة أو الطين المشوي .

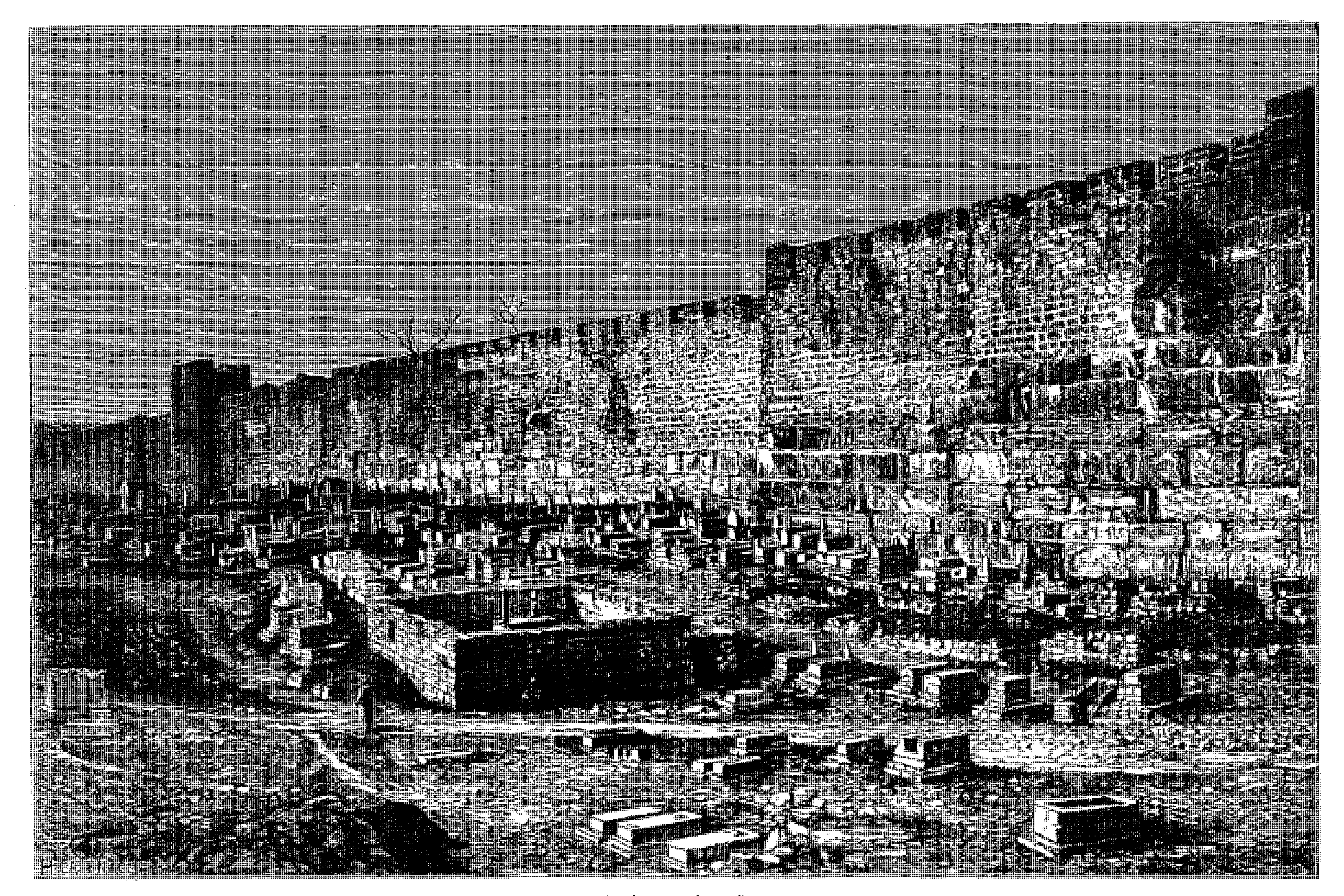
الدكاكين في السوق ذات قناطر وعقود ، وتكاد تكون مظلمة . أمّا البضائع الموجودة فيها فعبارة عن أشياء بسيطة تلبيّ حاجات الفقراء والفلاحين الذين يتوافدون إلى القدس من المناطق القريبة . هناك أيضاً حوانيت خاصة ببعض الأعمال الحرفية كالسّكافة والسراجة ، وقد استوقفنا طويلاً منظر النّدافين (المنجدّين) وهم يمشقون الصوف ويندفون القطن مستخدمين جهازاً يدوياً بدائياً يشبه القيثارة ، أو العود ، ولكنه بوتر واحد ويعرف باسم المشّاقة ، أو النداّفة ، إضافة إلى مطرقة خشبية ، أو مدقة .

النداقة ذات ذراع طويلة من الخشب اللين أو الخيزران ، ويبلغ طولها حوالي المترين ، ويكون أحد طرفيها أكثر دقة من الطرف الآخر . أمّا الوتر ، أو الحبل ، فيبقى مشدوداً بين طرفي الذراع ، أو القوس ، فيربط إلى الطرف الدقيق ثم يمرّر إلى الطرف الآخر عبر لوحة صغيرة ، أو ممشطة ، ذات ثقوب وأوتاد لولبية تحافظ على توتر الحبل .

للقيام بعمله يجلس العامل أرضاً ، أو فوق مقعد منخفض ، ويلف يده اليسرى بالقماش لحمايتها أثناء ضرب الوتر ، ثم يمسك الجهاز من ناحيته السفلى ويميل به ليلاصق الأرض تقريباً على مستوى كومة من الصوف أو القطن ، ثم يبدأ بتسديد ضربات المطرقة بيده اليمنى إلى الوتر المشدود الذي يأخذ بالاهتزاز بقوة كافية لنثر أجزاء الصوف أو القطن في انحاء المكان .



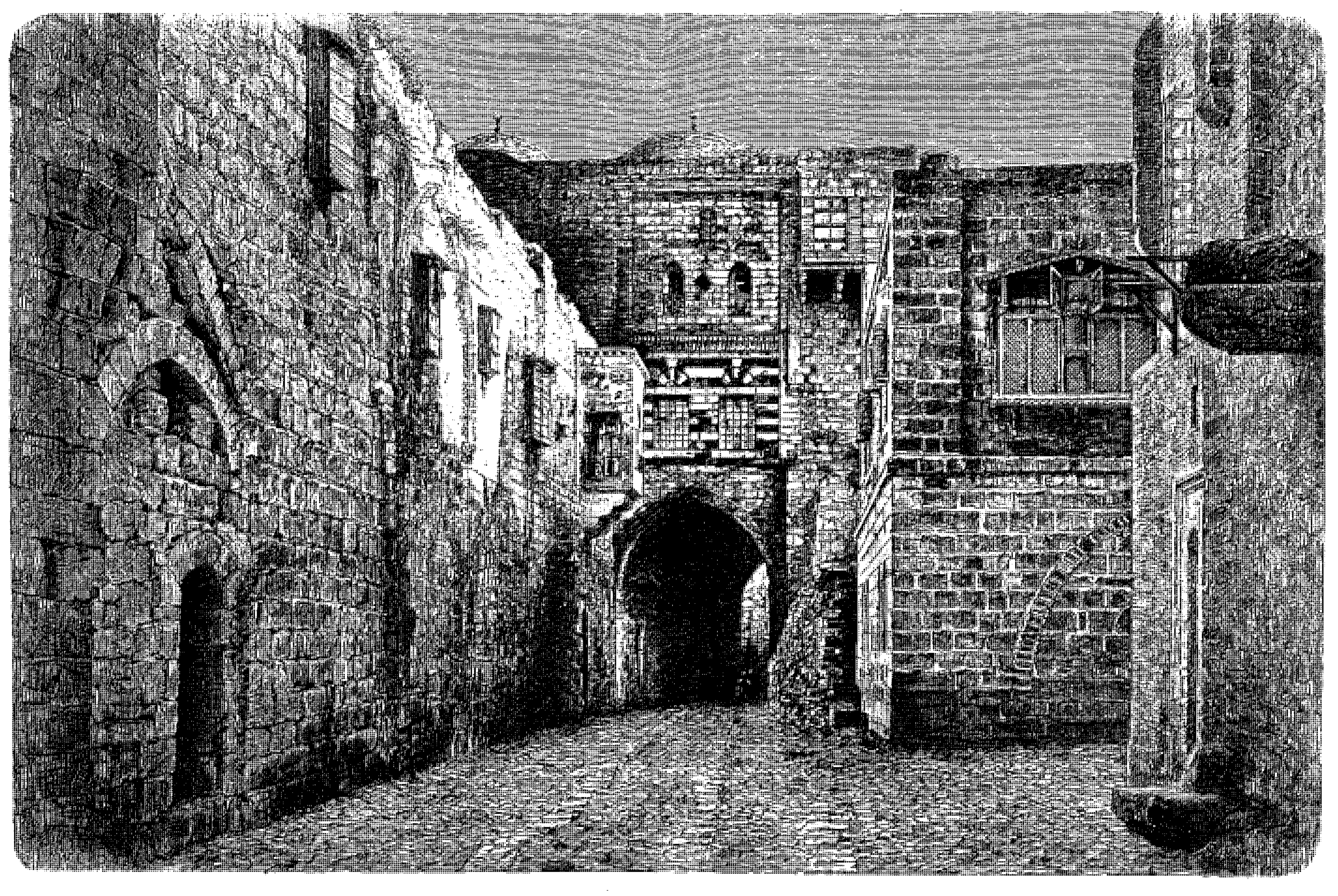
آلة ندف القطن ـ رسم للمؤلف



سور القدس القديم من الجهة الشرقية

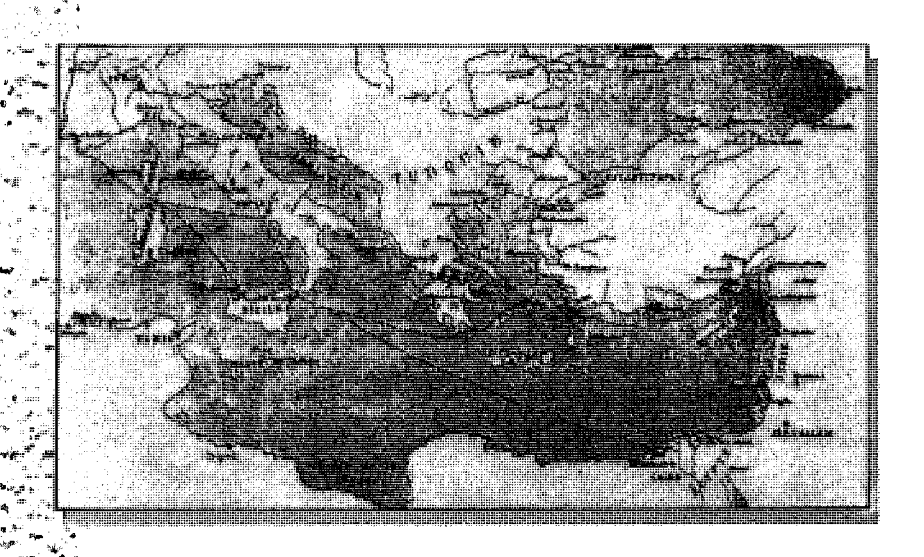


فلاحة في لباس العيد



منزل الثري السيء السمعة

الفصل التاسع



القدس
كنائسها وجوامعها

حارة اليهود في القدس كثيفة السكان ، يبلغ عدد سكانها عشرة آلاف نسمة تقريباً ، وهي تقع ما بين الحرم الشريف وجبل صهيون . هؤلاء اليهود مختلفو المذاهب والمشارب والعادات باختلاف البلدان التي جاؤوا منها إلى فلسطين تدفعهم نزعة جامحة لممارسة الشعائر الدينية . منهم من جاء من الغرب ، من المانيا وروسيا وبولونيا واسبانيا . ومنهم من جاء من الشرق ، من تركيا ومصر وشمال أفريقيا ، وهم عموماً يكرهون الأعمال اليدوية ويعيشون دون ممارسة المهن المنتجة . كثيرون منهم يمارسون مهنة الصرافة ، كما هي حالهم في معظم مدن الشرق . نجد واحدهم جالساً على كرسي منخفض وأمامه صندوق أو حقيبة من الخشب ، وفي يديه قطع من النقد المعدني يستخدمها في إصدار أصوات تجذب انتباه المارّة .

الأحياء والبيوت التي يعيش فيها اليهود تدل على فقرهم وعلى ظروفهم الاجتماعية السيئة . لذلك ، ومنذ سنوات ، تبذل جهود كبيرة لتحسين هذه الأوضاع وذلك عبر تخصيص مبالغ كبيرة تصرفها شركات مالية قائمة في باريس ولندن وفيينا لتمويل مشاريع مختلفة منها إقامة مستوطنات جديدة لليهود ، لا سيما في المناطق التي لا يسكنها سوى البدو الرحلّ . والسلطات العثمانية ستكسب بضعة ملايين لقاء التعاون والتغاضي .

قرب حيّ اليهود يرتفع جدار كان يدعم أحد جوانب الأرض التي كان يقوم عليها الهيكل ، وهو مبني من حجارة ضخمة يتجاوز



صرّاف إسرائيلي
رسم أ. فرديناندوس
عن صورة فوتوغرافية

طول بعضها الثلاثة او أربعة أمتار . هذا الجدار الذي يفصل حيّ اليهود عن المكان الذي يقوم فيه جامع عمر ، والذي يحظّر على غير المسلمين تجاوزه ، هو حائط المبكى الذي يأتي اليه اليهود للبكاء والنواح في كل أيام الأسبوع ، لا سيما يوم الجمعة .

عند الخروج من حيّ اليهود نمرّ أمام أراض ترتفع فيها أشجار صبار ضخمة ، ثم نصل إلى الناحية الشمالية الغربية من الحرم المقدس الذي يضم جامع عمر . في هذا المكان يوجد بناء كبير وجميل يعرف باسم «بيت بلاطس» ، وهو محطة من محطات «طريق الآلام» التي يقصدها حجّاج القدس .

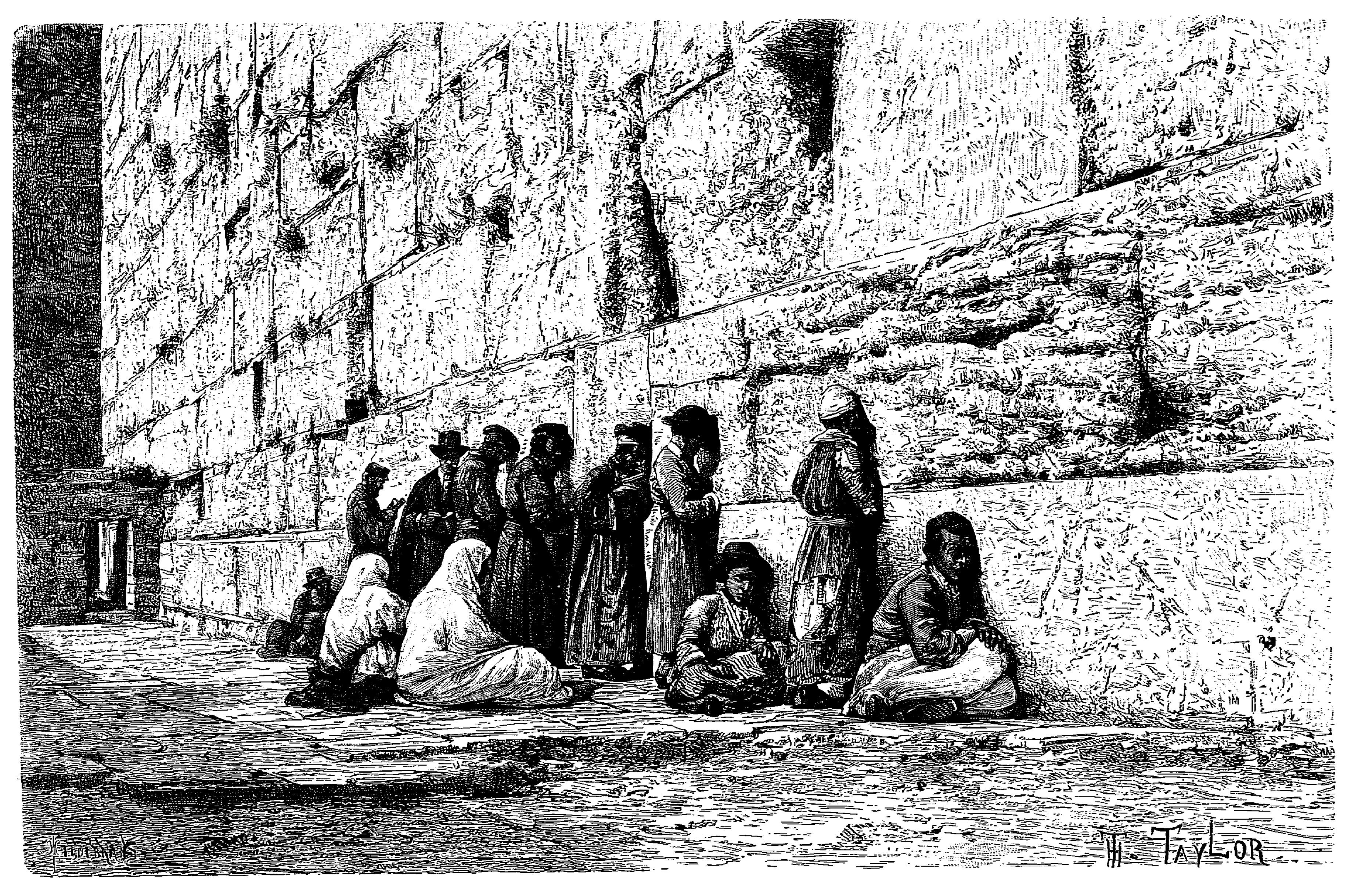
يرجح أن هذا البناء يقوم في المكان الذي



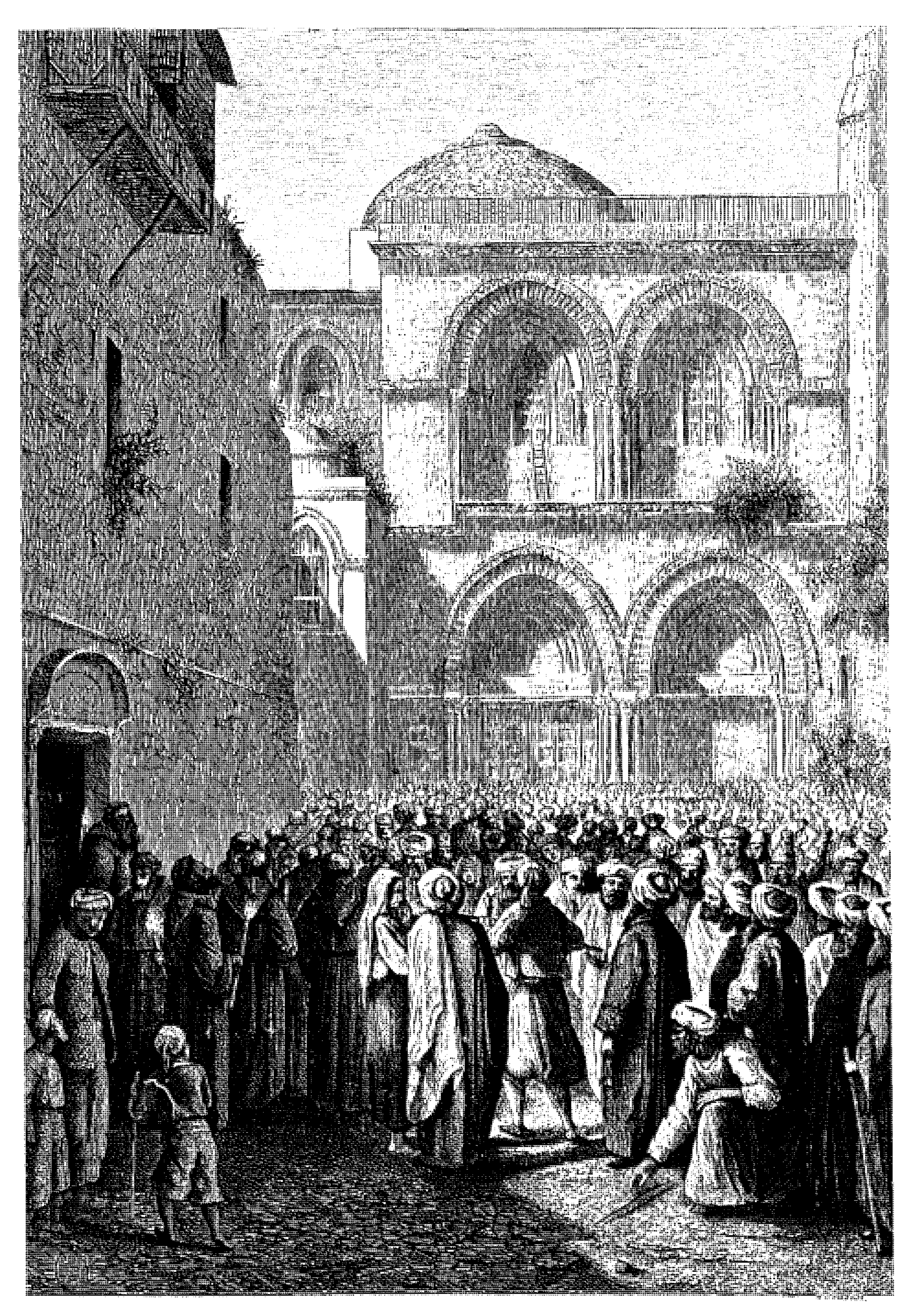
طريق الآلام - رسم . لنسولو
عن صورة فوتوغرافية .



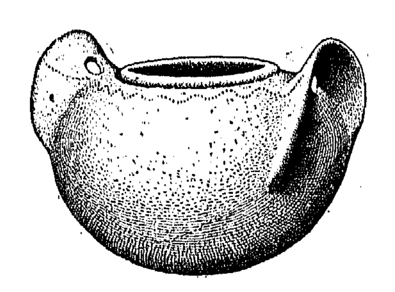
منظر للقدس - رسم تيرون - عن صورة فوتوغرافية .



الحائط الكبير للمعبد

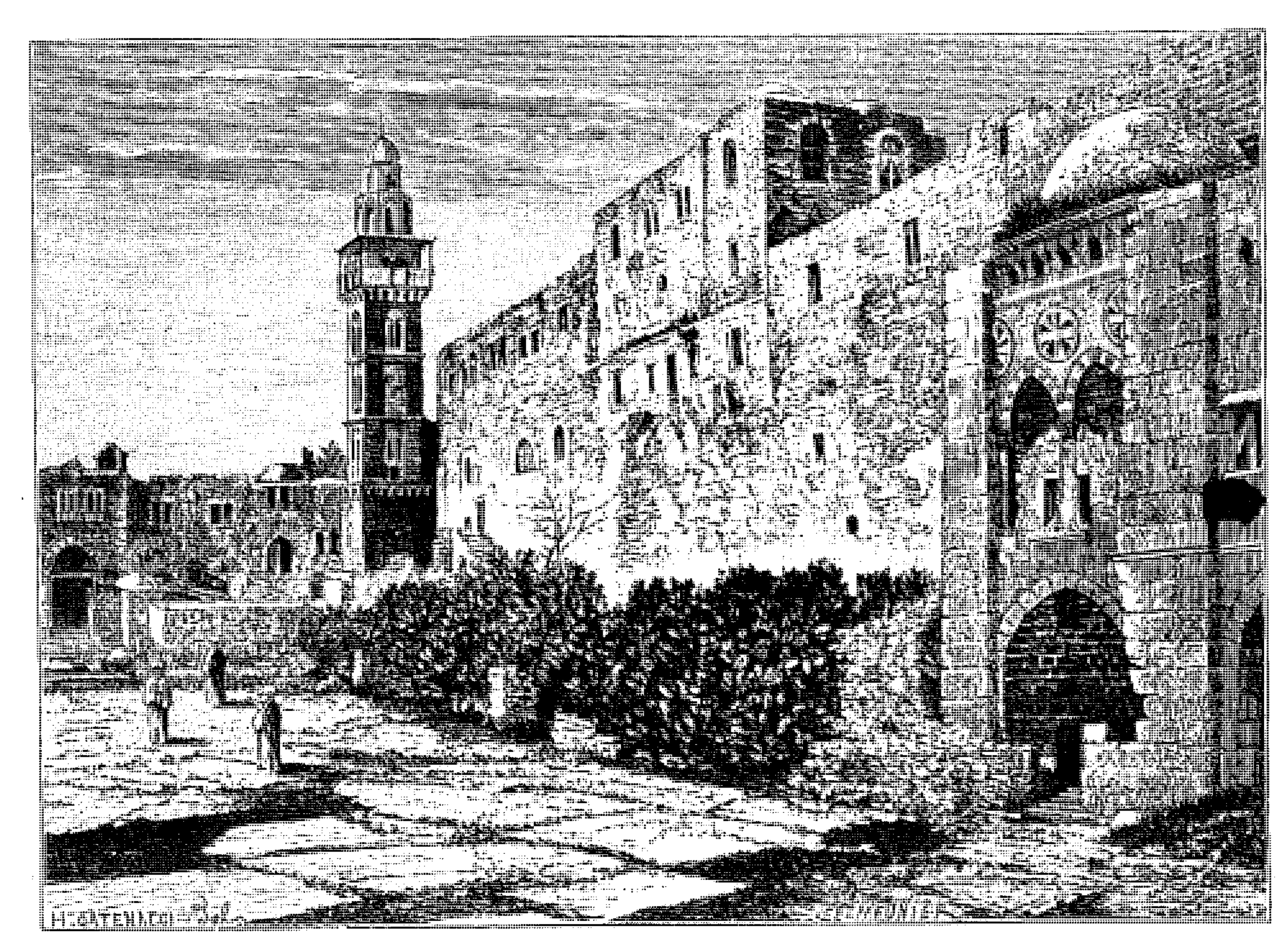


ساحة كنيسة القبر المقدس يوم الفصح اليوناني
رسم س . رودار ـ حسب المؤلف .



إبريق النساء في القدس ـ رسم المؤلف

كنيسة القبر المقدس ـ رسم تيرون
عن صورة فوتوغرافية .



بيت بيلاطس ـ رسم كاتيناتشي
عن صورة فوتوغرافية .

كان يقوم عليه برج أنطونيا ، وكان يتصل به في الماضي ، لجهة الشارع الخارجي ما كان يعرف بالدرج المقدس الذي نقل إلى كنيسة القديس يوحنا في روما . في داخله كان يوجد معبد صغير تحول اليوم إلى مسجد . البناء بمجمله أصبح اليوم جزءاً من الحرم الشريف .

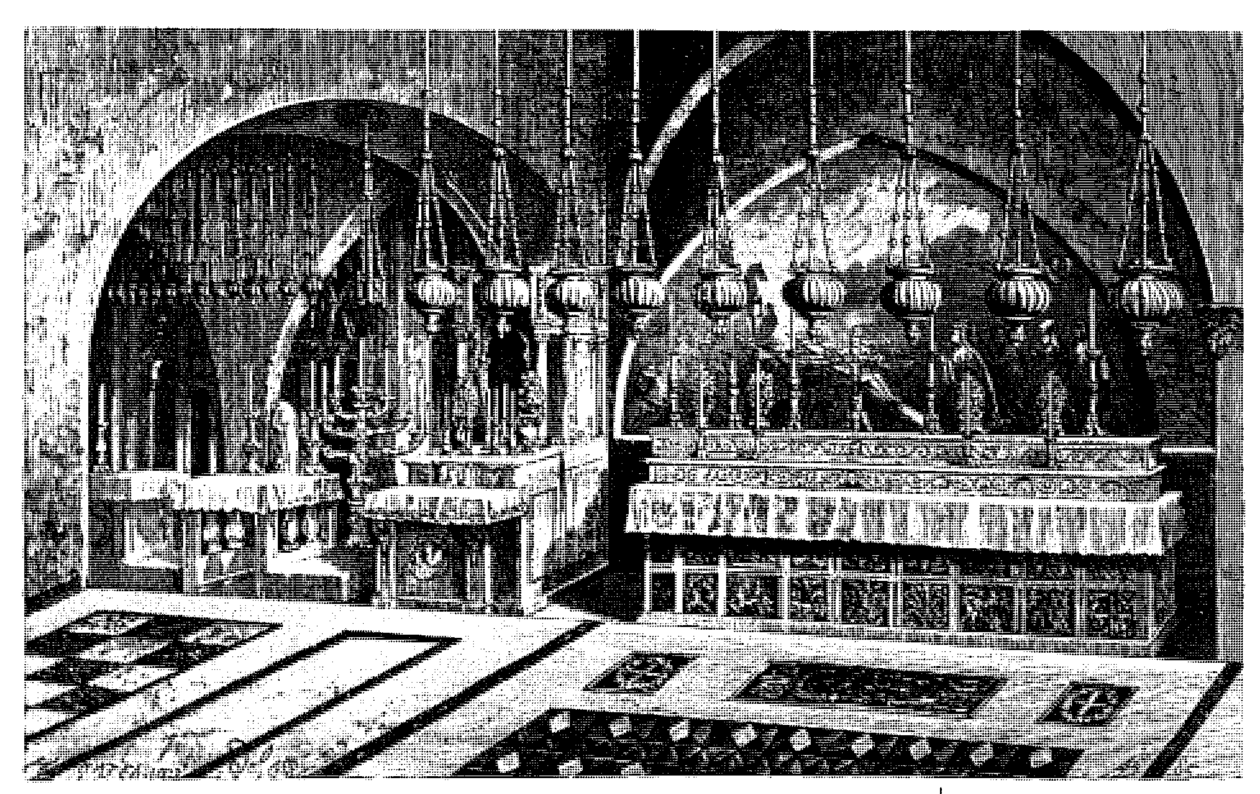
في مكان غير بعيد ، عبر الأزقة والشوارع الضيقة والمتعرّجة المتجهة نحو أعلى المدينة ، نمرّ تحت عقد غوطي قديم يعتبره الاكليروس اللاتين بقايا «الباب القضائي» القديم الذي سقط أمامه السيد المسيح ، عليه السلام ، للمرة الثالثة في سعيه نحو الجلجلة .

قامت كنيسة القبر المقدس عام ٣٢٦م ، وقد أنشأها الامبراطور قسطنطين . عام ٦١٤م هدمها الفرس كلياً . ولم يكد يعاد بناؤها عام ١٠١٠م حتى تهدّمت مجدداً على يدي الخليفة الحاكم . بعد ذلك ، وعلى مراحل مختلفة ما بين ١٠٤٨م و١١٣٠م عادت هذه الكنيسة للنهوض من أنقاضها ، لا سيّما على أيدي



باب القضاء

رسم . لنسولو - عن صورة فوتوغرافية .



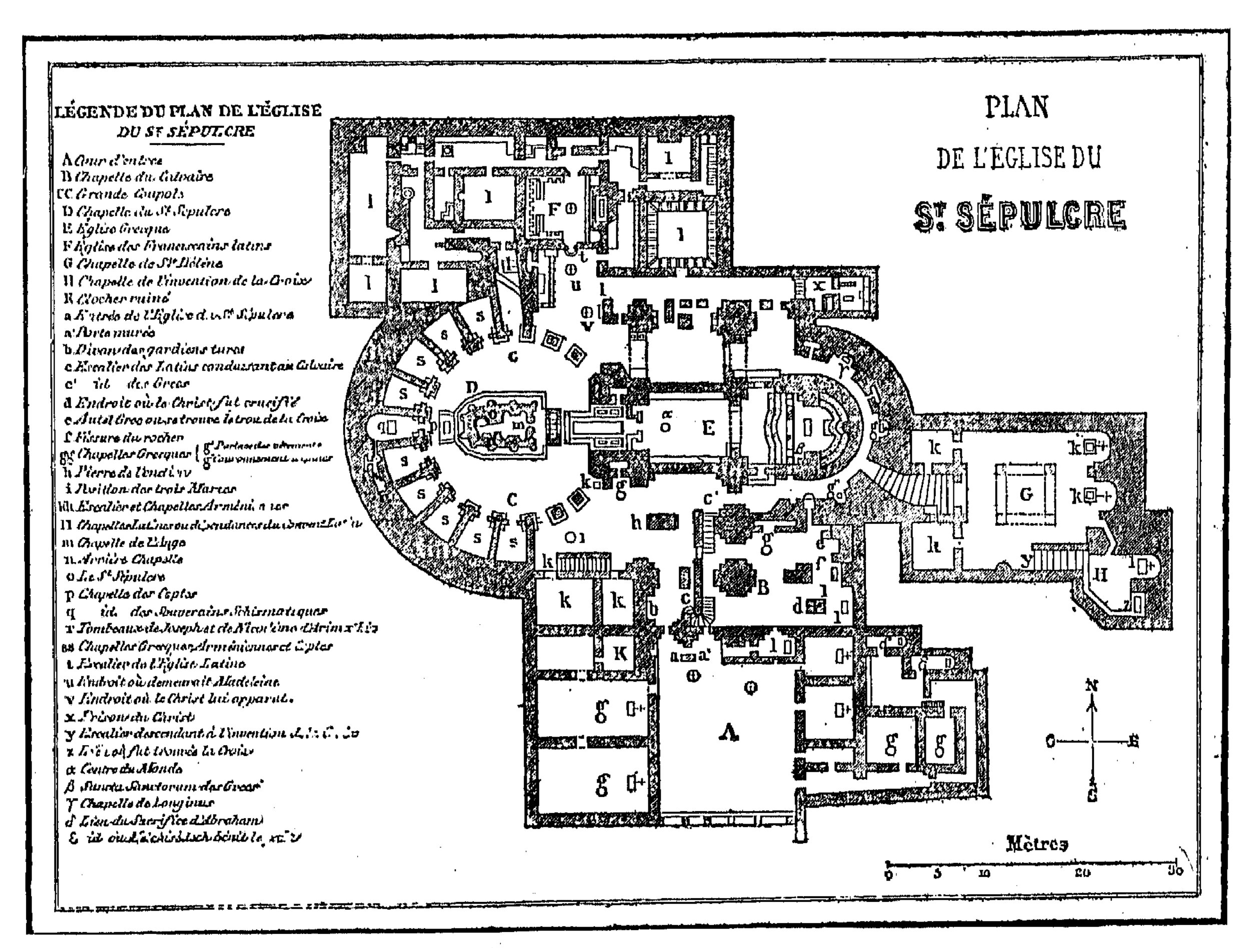
مذبح كنيسة القبر المقدس

رسم هـ . كاتيناتشي

عن صورة فوتوغرافية .



يهود أمام حائط المبكى ـ رسم بيدا ـ حسب المؤلف .



تصميم كنيسة القبر المقدس

الصليبيين . وفي عام ١٨٠٨م شبّ حريق كبير قضى على أجزاء كبيرة من هذا الصرح الصليبي . وعندما تولى اليونان إعادة البناء استغلوا الظرف لإخفاء معالم قبر «جو دوفروا دي بويلون» و «بودوين» .

تقع الواجهة الأساسية لهذه الكنيسة الكبيرة اليوم في الجهة الجنوبية ، ولكنها كانت قديماً في الجهة الشرقية . أمامها باحة كبيرة مفتوحة ومرصوفة بقطع كبيرة من البلاط الصخري المائل لونه إلى الصفرة . في هذا المكان ما تزال هناك آثار أعمدة تدل على أنه كان يوجد باب كبير خارجي ، كما هي الحال في جميع الكنائس الكبرى . إلى جانبي الباحة مجموعة من الكنائس الصغيرة العائدة إلى مذاهب مختلفة . إلى اليمين نجد سلماً يقود نحو خلوة يقال إنها اقيمت في المكان الذي كان ابراهيم عليه السلام ينوي التضحية فيه بابنه اسحق .



إسرائيليان في القدس - رسم بيدا - حسب المؤلف .

الأبواب القوسيّة الكبيرة ، التي تعلوها نوافذ كبيرة قوسيّة أيضاً ، تحمل نقوشاً ورسوماً تمثّل مشاهد انجيلية قام بتنفيذها على الأغلب فنان فرنسي من القرن الثاني عشر . إلى جانبي الأبواب أعمدة رخامية تعلوها تيجان ، ويبدو أنها مأخوذة من هيكل بيزنطي قديم .

الباب الأيمن مسدود بجدار منذ زمن طويل ، إلى جانبه سلّم يقود إلى كنيسة الجلجلة . أما الباب الأيسر الكبير فيقود مباشرة إلى كنيسة القبر المقدس .

إنها بناء ضخم مليء بالظلال والغموض ، ترتفع قبته الكبيرة فوق أعمدة كثيرة تضم بينها مصلّيات ومعابد صغيرة لمختلف المذاهب . في الوسط يقوم بناء صغير يضم قبر السيد المسيح . إنه عبارة عن شكل مكعب تحيط به أعمدة رخامية مفتولة . ولكن ، وبكل أسف ، نجد أن أعمال الزينة المختلفة قديمها وحديثها ، تخفي المظهر الأساسي لهذا الصرح .



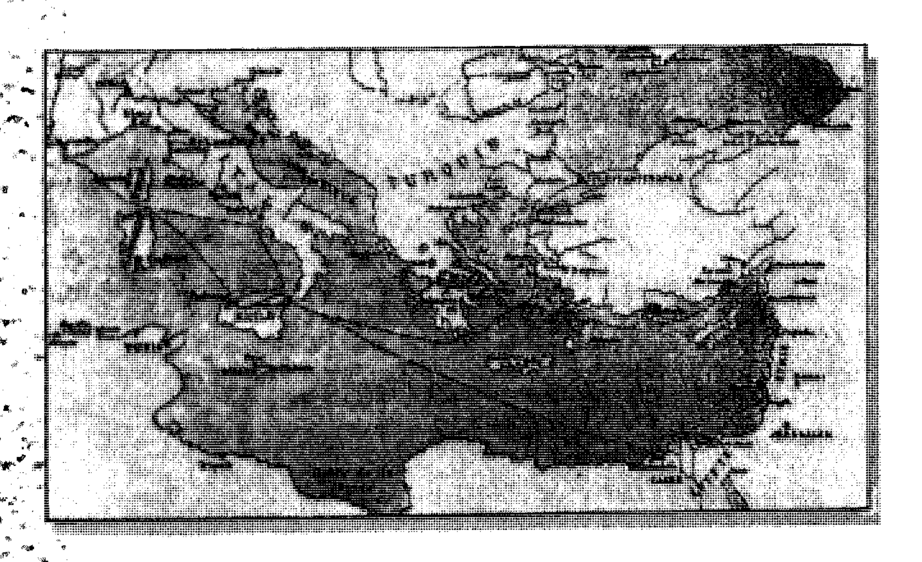
عائلة إسرائيلية في القدس
رسم هـ .شابوي
عن صورة فوتوغرافية .



بائعة أساور في ساحة كنيسة القبر المقدس ـ رسم سيروي ـ عن صورة فوتوغرافية .

جنوبي الكنيسة بناء مربع يبلغ ارتفاعه عدة أمتار ، ونصل إليه عبر سلّمين جانبيين من ثماني عشرة درجة . هذا المكان المرصوف بالرخام ، الذي تعلوه أقواس وقناطر خفيضة وتحتشد فيه المذابح والاضرحة العائدة لمختلف المذاهب ، يقال انه يضم الصخرة التي صلب عليها السيد المسيح ، عليه السلام . ولكن يبدو أن أعمال الزينة والبناء المختلفة لم تبق شيئاً من الملامح الأولى لهذا الصرح .

الفصل العاشر



القدس

جامع عمر بن الخطاب

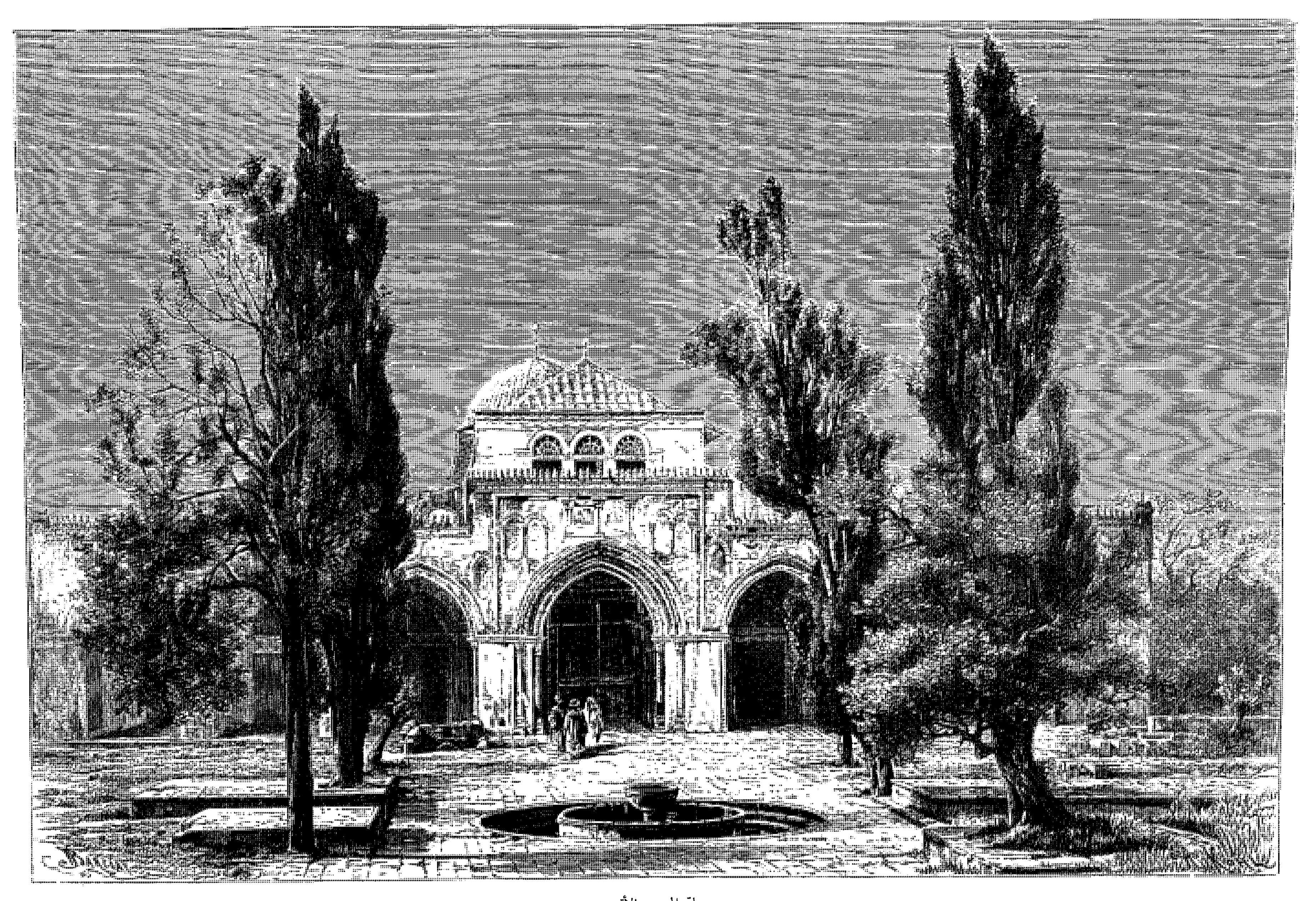
في الشرق قلما نجد أبنية أثرية أو صروحاً عظيمة تستطيع منافسة جامع عمر في القدس ، أو الجامع العمري الكبير ، الذي يشكل أحد أهم انجازات العبقرية العربية في البناء والفن والزخرفة . وقد تكون زيارة هذا المكان الدافع الأكبر والأهم للقيام برحلة القدس .

يقوم هذا الجامع في المكان نفسه الذي كانت تقوم فيه هياكل قديمة كتلك التي كان قد بناها سليمان وهيرودس . هذا الموقع عبارة عن ساحة كبيرة تشغل الزاوية الجنوبية الشرقية من مدينة القدس التي يفصله عنها سلسلة من بقايا القصور والخرائب . انه مرتفع من الأرض ، كان يشكل في الأصل قمة جبل قديم مُهّدت وسوّيت ، كما ردمت جنوباً بعض الجوانب المنحدرة ودعّمت بأقبية وأقواس وأعمدة ، وكان من كل ذلك أن امتدت تلك الساحة المرتفعة التي يقوم عليها ذاك المكان المقدس والذي أصبح يعرف بعد الاسلام بالحرم الشريف .

تحيط بالحرم شمالاً وشرقاً اشكال مختلفة من البناء الرائع المميّز ، فلا نرى إلاّ المآذن الشاهقة والأقبية القائمة فوق مساجد صغيرة أو صروح أقيمت تخليداً لبعض أبطال الاسلام إضافة إلى الاروقة ذات العقود وبقايا الابنية القديمة والقبور ، كل ذلك في انسجام كليّ مع أشجار زيتون ضخمة ومغرقة



مسلم يصلي سجوداً
رسم برانيشنيكوف .
عن صورة فوتوغرافية



رواق المسجد الأقصى

رسم باركلي - عن صورة فوتوغرافية .

في القدم ، جذوعها المزرورقة تبرز بجلال بين الحجارة البيضاء التي ذهّبتها أشعة الشمس .

في كل مكان ، فوق الصخور العارية ، أو على الأعشاب الخضراء ، أو تحت ظلال الأشجار الضخمة ، نجد أعداداً من المسلمين يؤدون صلواتهم خاشعين .

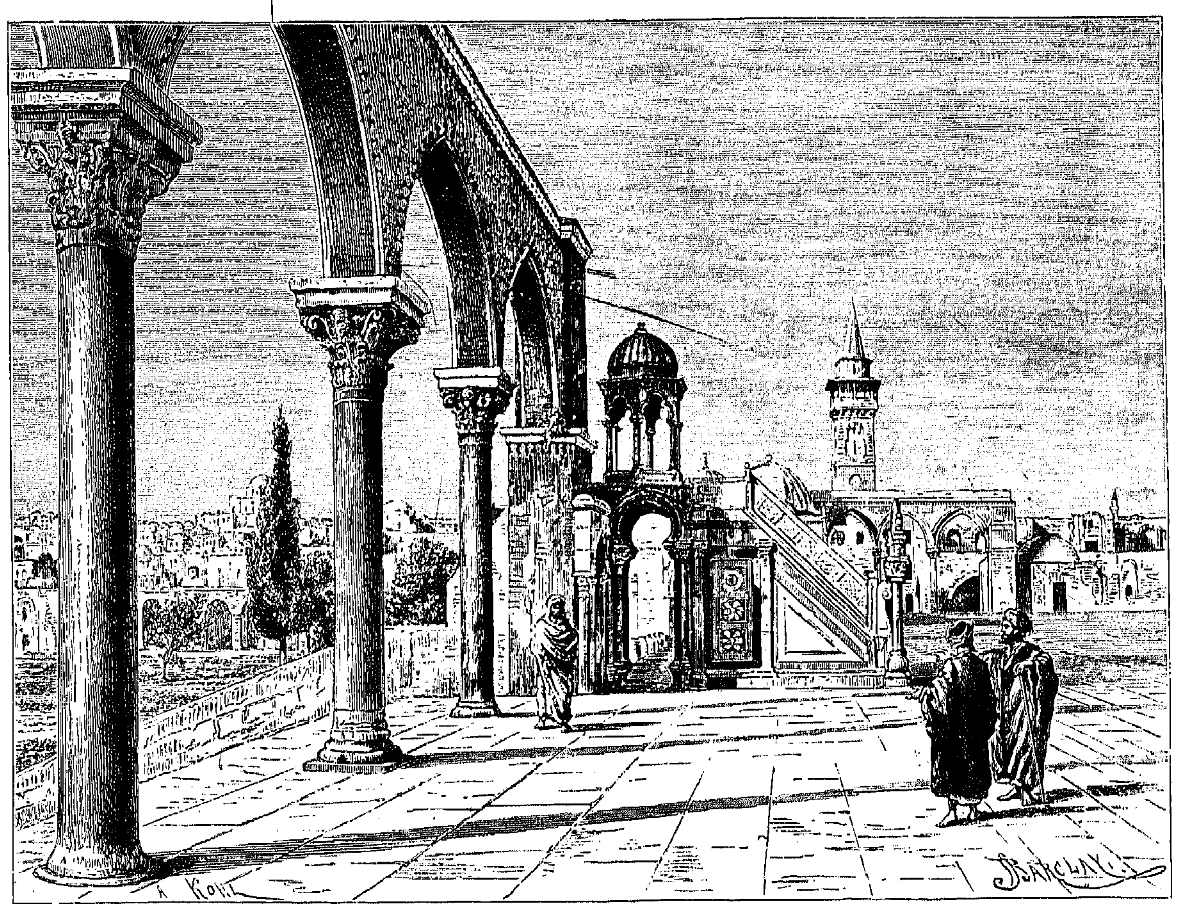
مهما اختلفت الظروف ، وفي أي مكان ، تقوم صلاة المسلمين خمس مرات يومياً ، الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء . يسبق الصلاة فرض الوضوء بالماء ان وجد ، وإلاّ فتيمّم بالرمال او فوق صخرة ، شرط النظافة . ومع قيام الصلاة نشعر بالرهبة والخشوع لما يرافقها من انفصال كليّ عمّا يحيط بالمصلّي وانصراف تام الى الله (سبحانه وتعالى) .

منبر جامع عمر من أهم نماذج الهندسة والبناء



مسلم يصلي - رسم برانيشنيكوف
عن صورة فوتوغرافية .

منبر جامع عمر - رسم باركلي
عن صورة فوتوغرافية .



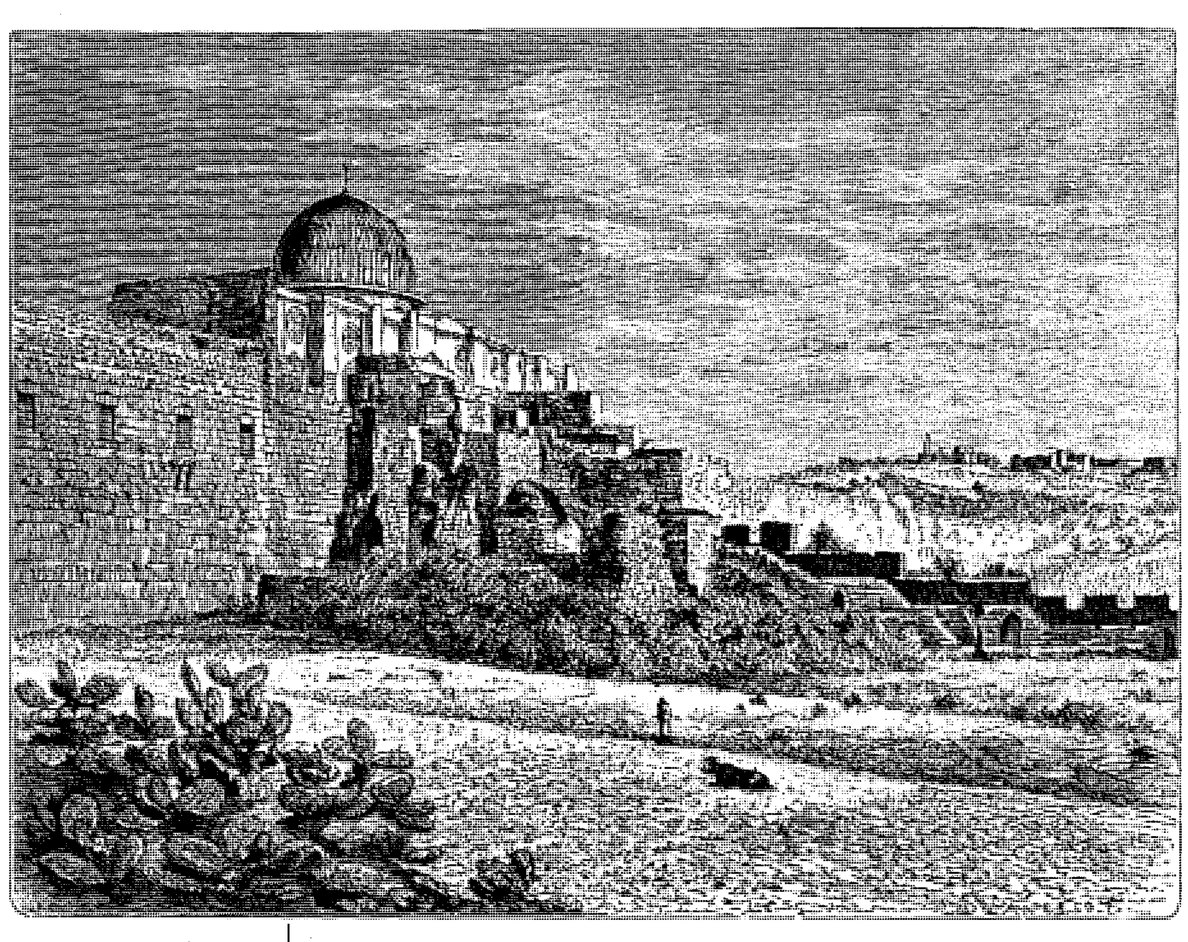
منظر عام لمسجد عمر (قبة الصخرة)

رسم د. لونسولو - عن صورة فوتوغرافية.

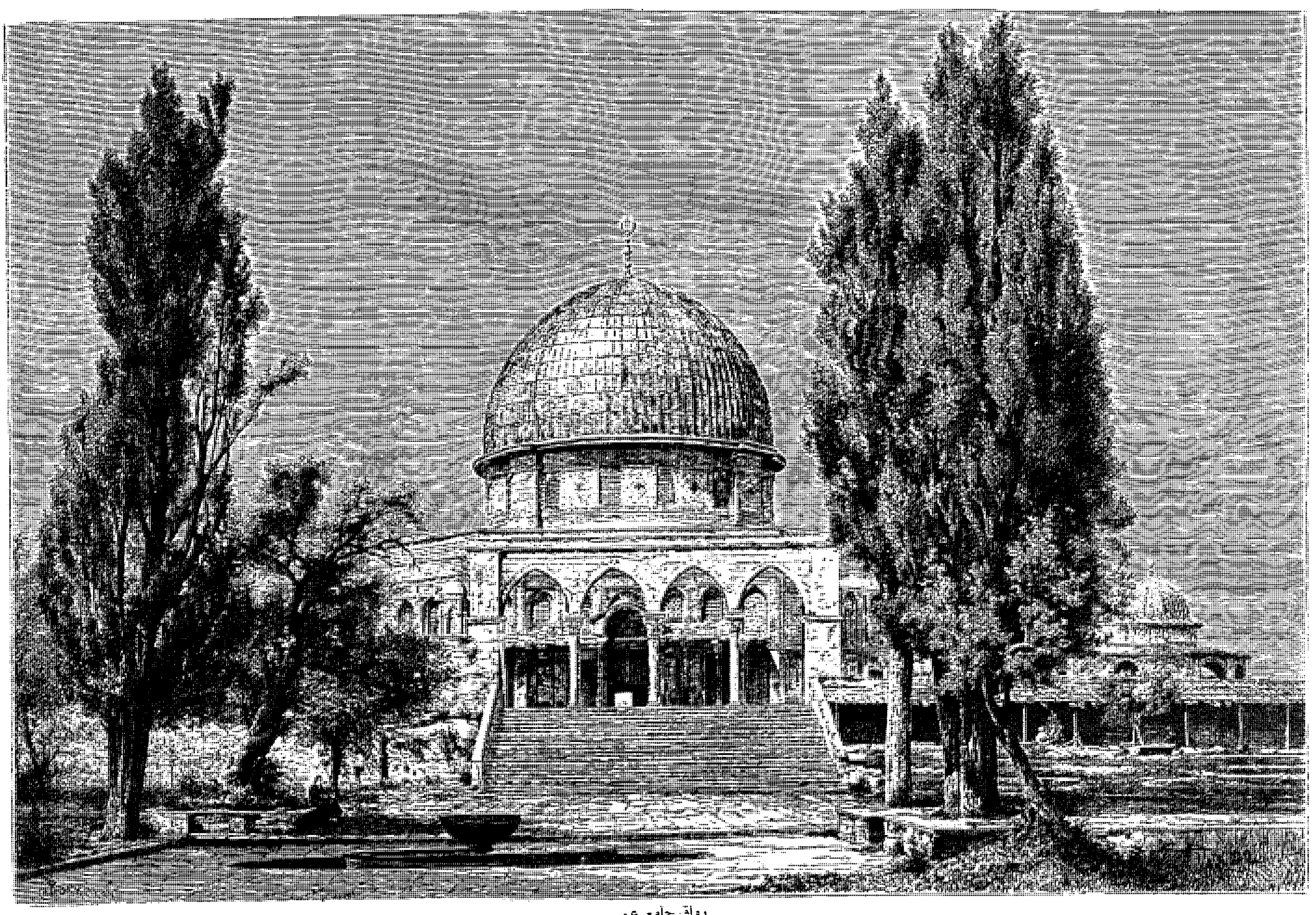
وأجملها . انه مبني من الرخام الابيض الجميل ، ويقوم فوق أقواس صغيرة رائعة الهندسة ، وتعلوه قبة صغيرة ترتفع فوق أعمدة . تمّ صنع هذا المنبر بكامله في حلب ، ثم نقله الى القدس القائد صلاح الدين الايوبي ، وهو منسوب خطأ الى عمر .

أما قصة بناء هذا الجامع العظيم فتعود الى عام ٦٣٨م حين دخل عمر بن الخطاب القدس ، واختار بنفسه المكان الذي يجب ان يقوم فيه مسجد كبير . ولكن إقامة عمر في القدس لم تكن طويلة بما يكفي لاقامة صرح كهذا ، بل انتظر الأمر حتى مجيء الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي أنجز البناء ما بين عامي ٦٨٨ و ٦٩١م . وآنذاك أطلقت تسمية قبة الصخرة . عبد الملك بن مروان هو الذي بنى ايضاً الأروقة والاقواس التي تدعم الزاوية الجنوبية الشرقية من أرض الحرم ، كما أنه أعاد بناء كنيسة جيستنيان محولاً إياها إلى ما أصبح يعرف بالمسجد الأقصى .

عام ١٠٩٩م ، وبعد الغزو الصليبي للقدس ، تحوّلت قبة الصخرة ، دون تغيير في الهندسة ، الى كنيسة . أمّا المسجد الأقصى فجرى تحويله الى قصر ملكي



المسجد الأقصى من الجهة الجنوبية
رسم د . لنسولو
عن صورة فوتوغرافية .

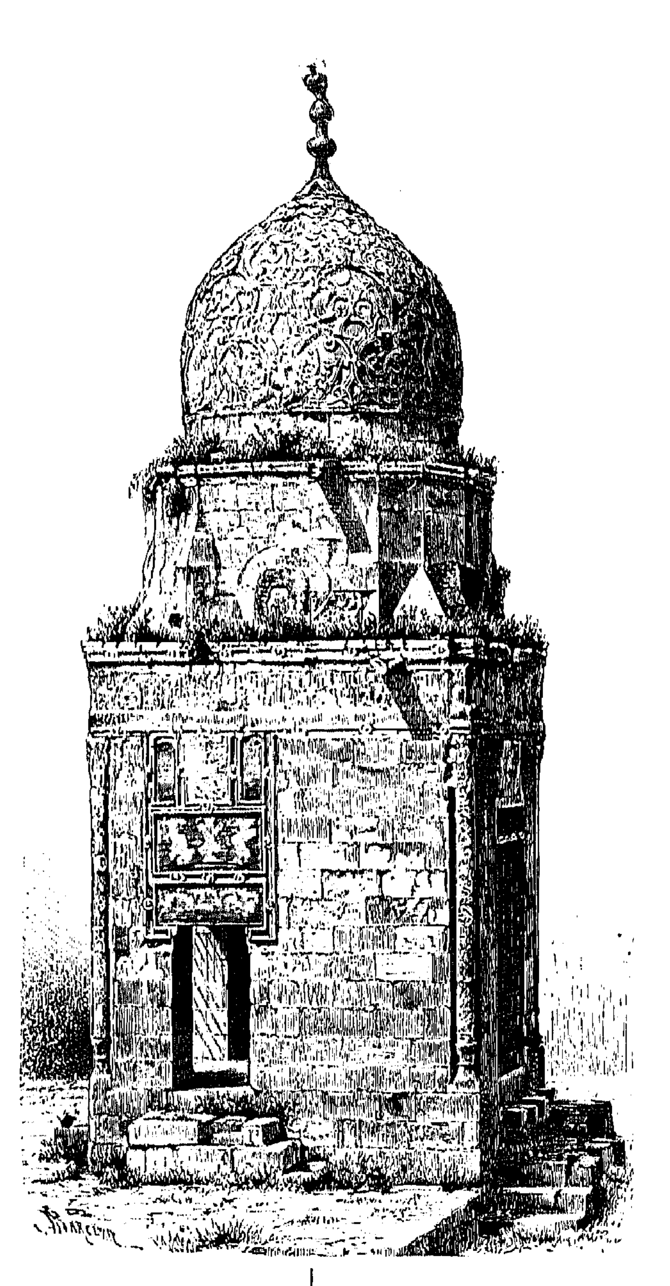


رواق جامع عمر

رسم باركلي - عن صورة فوتوغرافية .

يحمل اسم قصر سليمان . وبقي الأمر كذلك حتى عام ١١٨٧م حين دخل صلاح الدين الأيوبي القدس وأعاد قبة الصخرة والمسجد الأقصى الى ما كانا عليه .

ما بين عامي ١٥٢٠ و ١٥٦٦م أدخلت على قبة الصخرة تعديلات وتحسينات هامّة ، اذ تم تركيب رخام القاعدة كما جرى زخرفة وترصيع أعالي القبة .



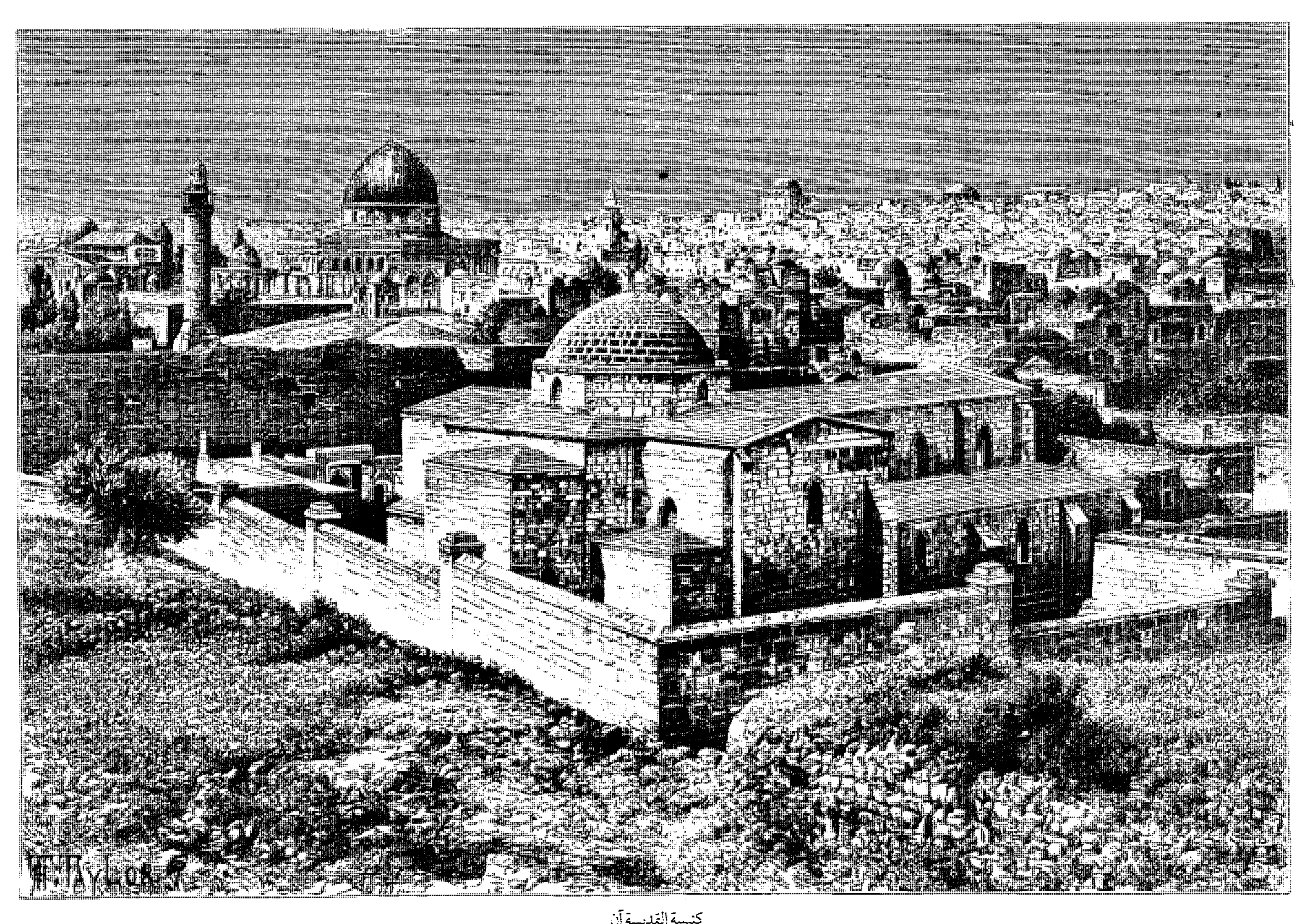
قبر إيلي داخل الحرم
رسم باركلي
عن صورة فوتوغرافية .

قرب جامع عمر يوجد نموذج هندسي جميل يعرف باسم «قبر ايلي» . انه بناء ضريحي صغير مربع الزوايا ، تزينه أعمدة ونقوش وكتابات مختلفة ، وتعلوه قبة صغيرة تغطيها نقوش وزخارف رائعة .

في الطرف الشمالي من أرض الحرم كان يوجد برج قديم عرف في الماضي باسم «بيراة» ثم أضحى برج أنطونيا أيام الرومان ، كما اضيفت اليه تحصينات وقاعات مختلفة . وما بين غارات وحملات عسكرية مختلفة من رومانية الى فارسية الى صليبية الى إسلامية وغيرها لم يبق من ذاك البرج الكبير ، والقائم على ما اضحى يعرف باسم «طريق الآلام» ، لم يبق سوى خرائب وانقاض تقوم فوق أقواس واقبية ، حيث تنبت في جدرانها وبين حجارتها الكبيرة أشجار صبّار ضخمة .

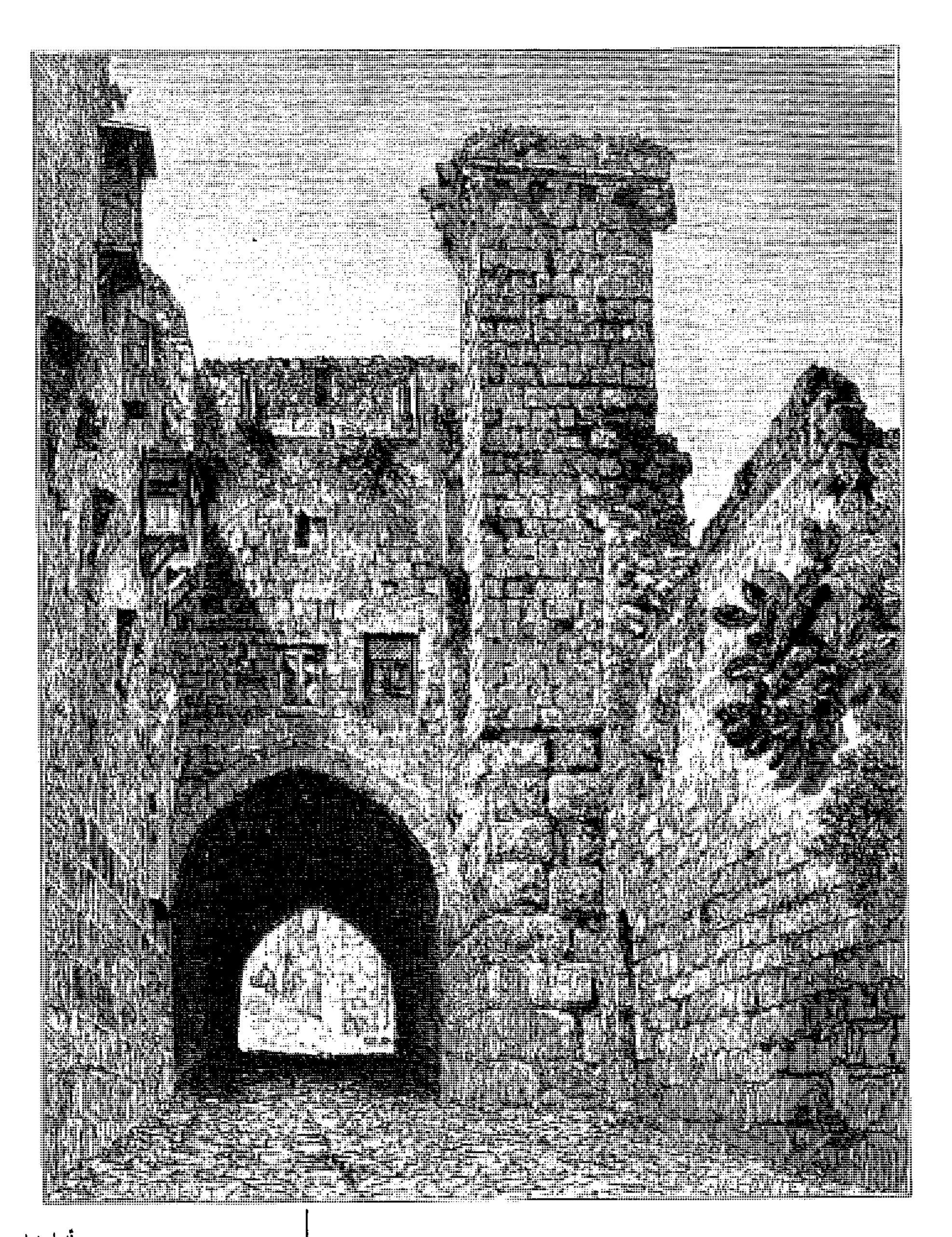
من خارج الحرم نستطيع ملاحظة كيف أن الارض المرتفعة التي يقوم عليها المسجد الأقصى ترتكز الى كتل وأعمدة حجرية ضخمة ، يعود بعضها الى عصور قديمة جداً . في تلك البنية التحتية الضخمة عقود وأقبية وأروقة كثيرة تدعمها أعمدة ودعائم ينتهي بعضها بتيجان ذات نقوش وزخارف جميلة .

في وسط السور الشرقي للحرم يوجد الباب الذهبي الذي كان يؤدي مباشرة الى داخل المنطقة المقدسة . من داخل الحرم يظهر هذا الباب على شكل فتحتين مغلقتين ومدعومتين بأعمدة ذات بناء جميل جداً . أما من الخارج فيبدو واضحاً أنه كان يستحيل الولوج من هذا الباب إلاّ بواسطة سلم أو ما يشبهه .



كنيسة القديسة آن

رسم تيلور - عن صورة فوتوغرافية .



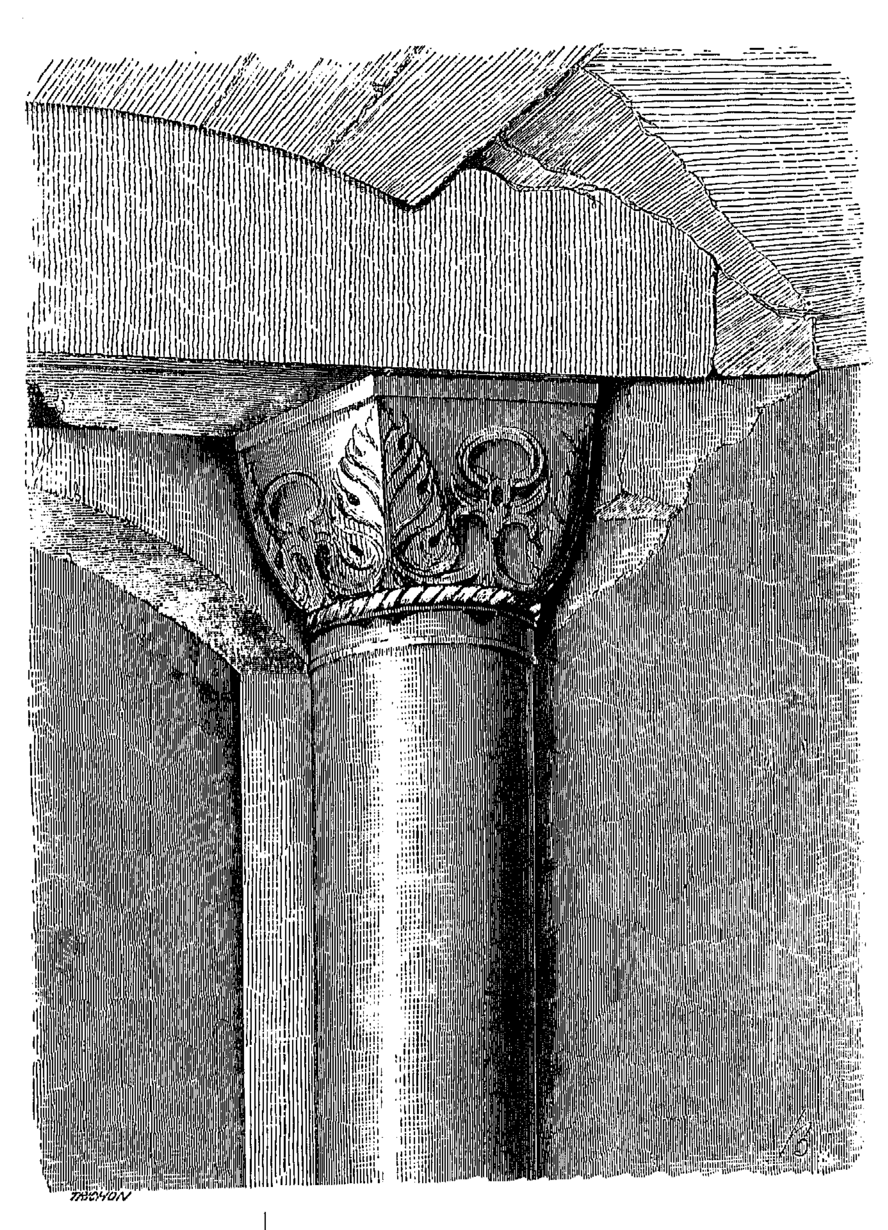
برج أنطونيا
رسم د . لونسولو
عن صورة فوتوغرافية .

قرب أحد ابواب القدس ، باب «سانت ـ اتيان» طريق تنحدر نحو الوادي حيث تقوم كنيسة يقال انها بنيت فوق قبر السيدة العذراء . هذه الكنيسة المبنية كلياً تحت سطح الأرض ، وبعد تعرضها للهدم مراراً تارة على أيدي الفرس وأخرى على أيدي العرب ، أعيد بناؤها حوالي عام ١٦٦١م على الشكل الذي نشاهده اليوم ، وقد قامت بذلك ابنة الملك «بودوين» الثاني . من الخارج لا نشاهد سوى مدخل صخري جميل هو عبارة عن عقود وقناطر ذات نقوش جميلة ، في وسطها مدخل ضيق يغلقه باب حديدي سميك ويؤدي الى سلم من سبع وأربعين درجة وصولاً الى عمق أحد عشرمتراً عن سطح الأرض ، حيث نصل الى صحن الكنيسة المتجهة من الشرق نحو الغرب بطول تسعة وعشرون متراً وعرض ستة أمتار . نافذة واحدة ضيقة من جهة الشرق توصل شيئاً من الضوء الى ذاك المكان العميق الذي يبقى شديد الظلام لولا المصابيح الكثيرة المعلّقة في جميع الزوايا . في الجناح الشرقي من هذه الكنيسة ضريح ، أو ناووس حجري كبير يؤكد الرهبان أنه يضمّ رفات السيدة العذراء .

عند اسفل السلم المؤدي الى صحن الكنيسة بئر تعتبر مقدّسة ومياهها تشفي

الأمراض وقد تحقق الاماني . من المألوف دائماً مشاهدة احد الرهبان منهمكاً بسحب الماء من البئر في سطل معدني فيسقي الحجاج المتحلقين حوله ويملأ لهم آنية يحملونها لينقلوا فيها بعض الماء المقدس الى مختلف أرجاء العالم .

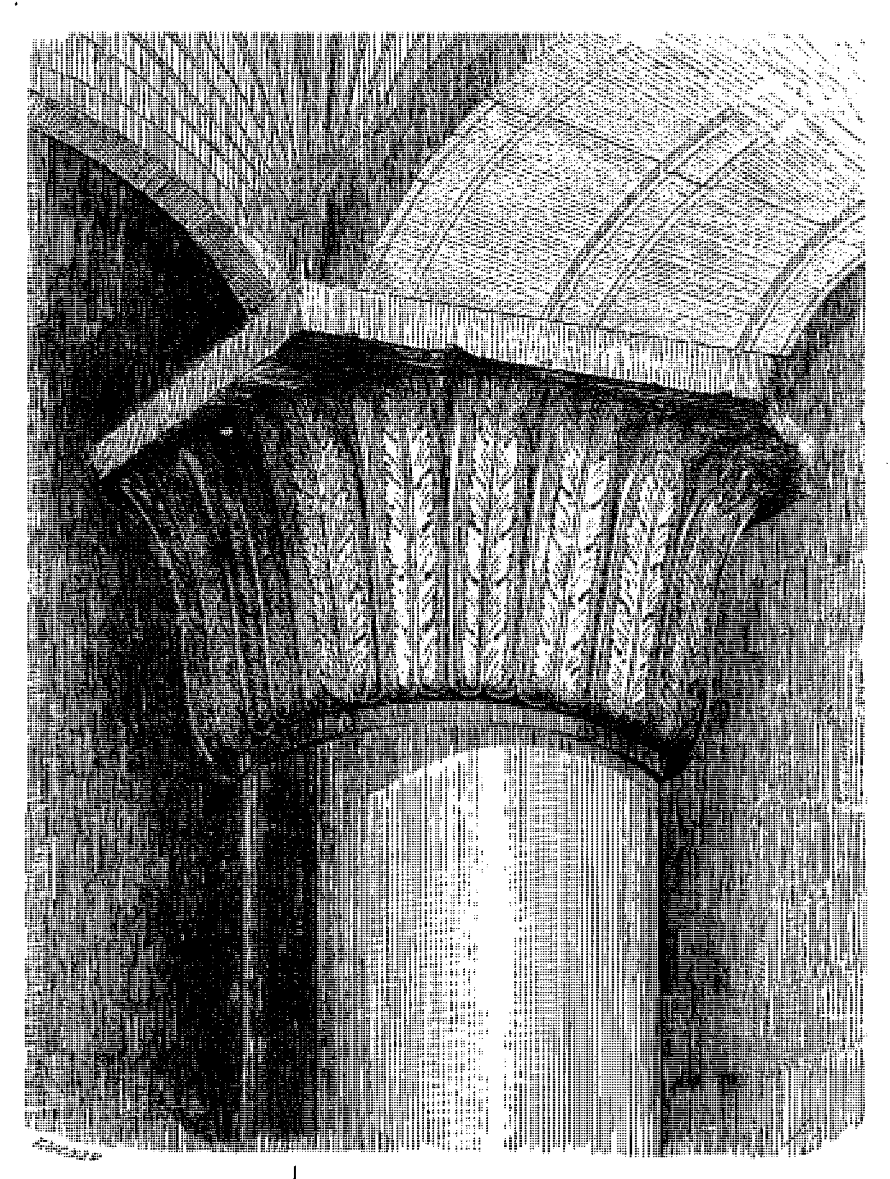
خارج أسوار القدس ، غير بعيد منها ، وقرب قرية صغيرة تعرف باسم زيتون ، برج قديم مرتفع يستحق عناء الزيارة للتمتّع بالمنظر الرائع الذي يمكن مشاهدته من قمته . من هناك نشرف على محيط القدس والحرم الشريف وقبة الصخرة والمسجد الاقصى . والى الجنوب الغربي ، على مستوى جبل صهيون نشاهد أبنية جميلة يقال إنها شهدت العشاء السري مع السيد المسيح عليه السلام ، كما تضم تبعاً للأعراف والروايات قبر داود .



قمة عمود مزخرف
داخل المسجد الأقصى
رسم بيدا - عن الطبيعة

ومن النزهات الجميلة التي يمكن القيام بها خارج القدس زيارة قرية صغيرة تعرف باسم «بيت هاني» أو «العازارية» لأنها تضمّ قبر «اليعازر» ، حسب ما تقول الروايات .

الطريق الى هذا القبر تتجه نحو شمالي القرية لتصل الى باب يؤدي الى سلم من خمس عشرة درجة تهبط بنا نحو كهف فيه سلم آخر من عشر درجات تنتهي اى فجوة في آخرها ممر ضيق لا يمكن المرور فيه إلاّ زحفاً للوصول الى القبر الذي يقال انه يضمّ داود .

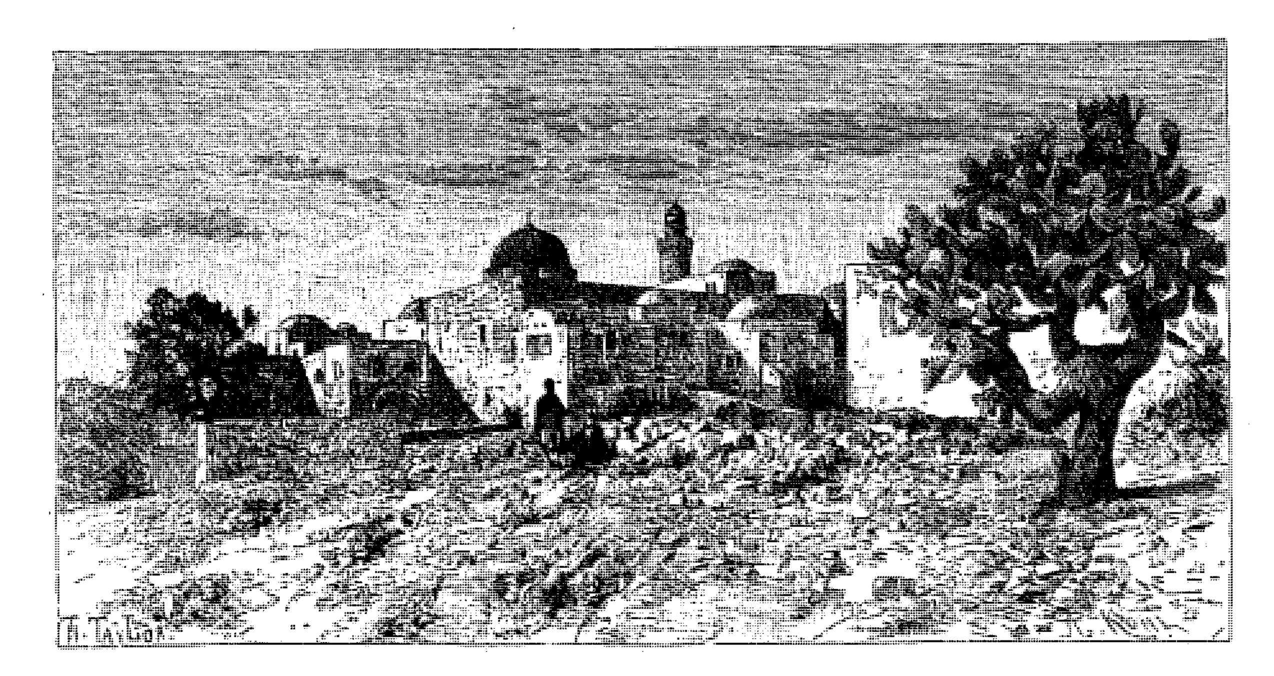


قمة عمود الباب المزدوج في المسجد الأقصى ـ رسم بيدا ـ عن الطبيعة



كنيسة قبر السيدة العذراء
رسم بورماسيه
عن صورة فوتوغرافية .

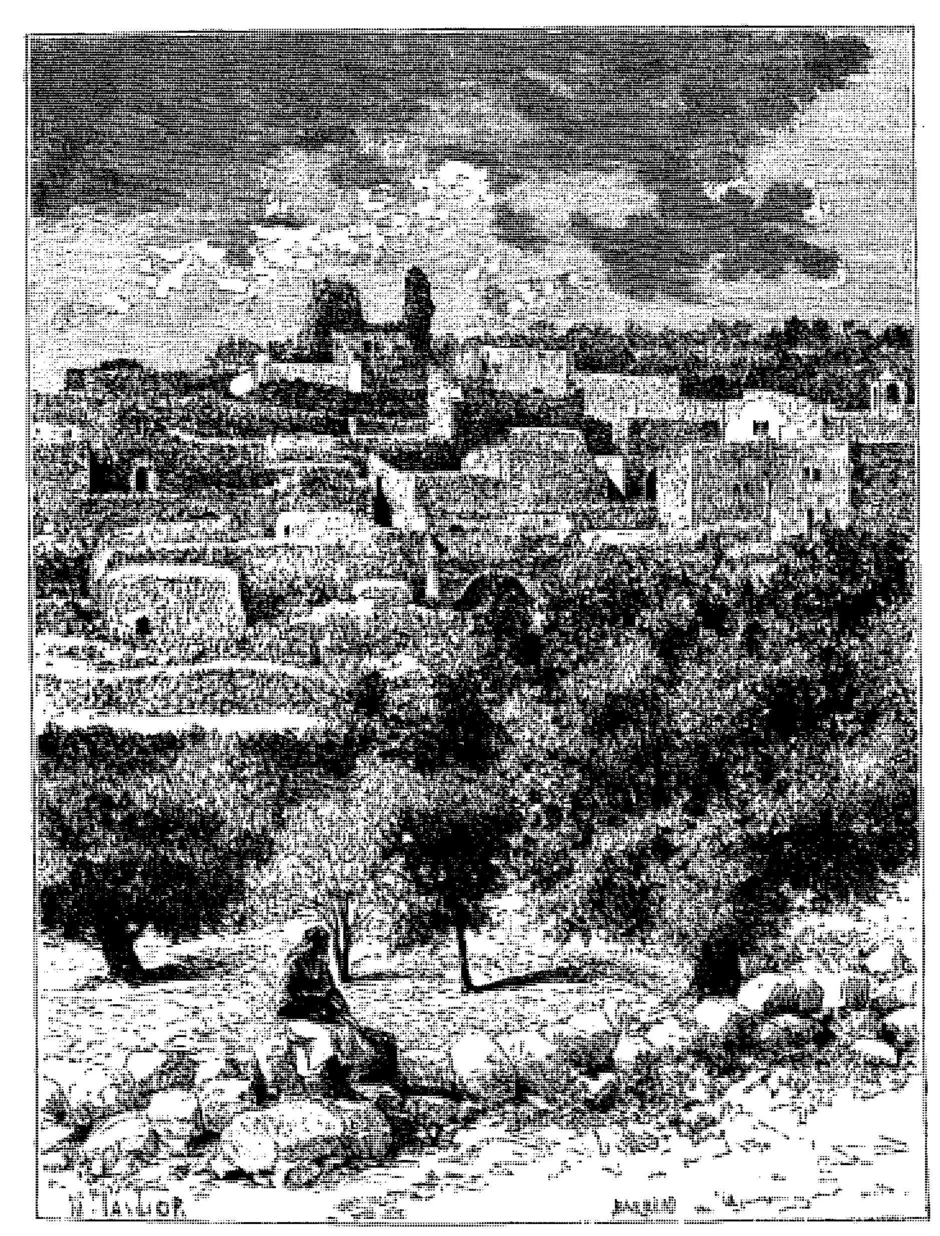
الباب الذهبي
رسم هـ . كاتيناتشي
عن صورة فوتوغرافية .



قبر داود

رسم لتيلور .

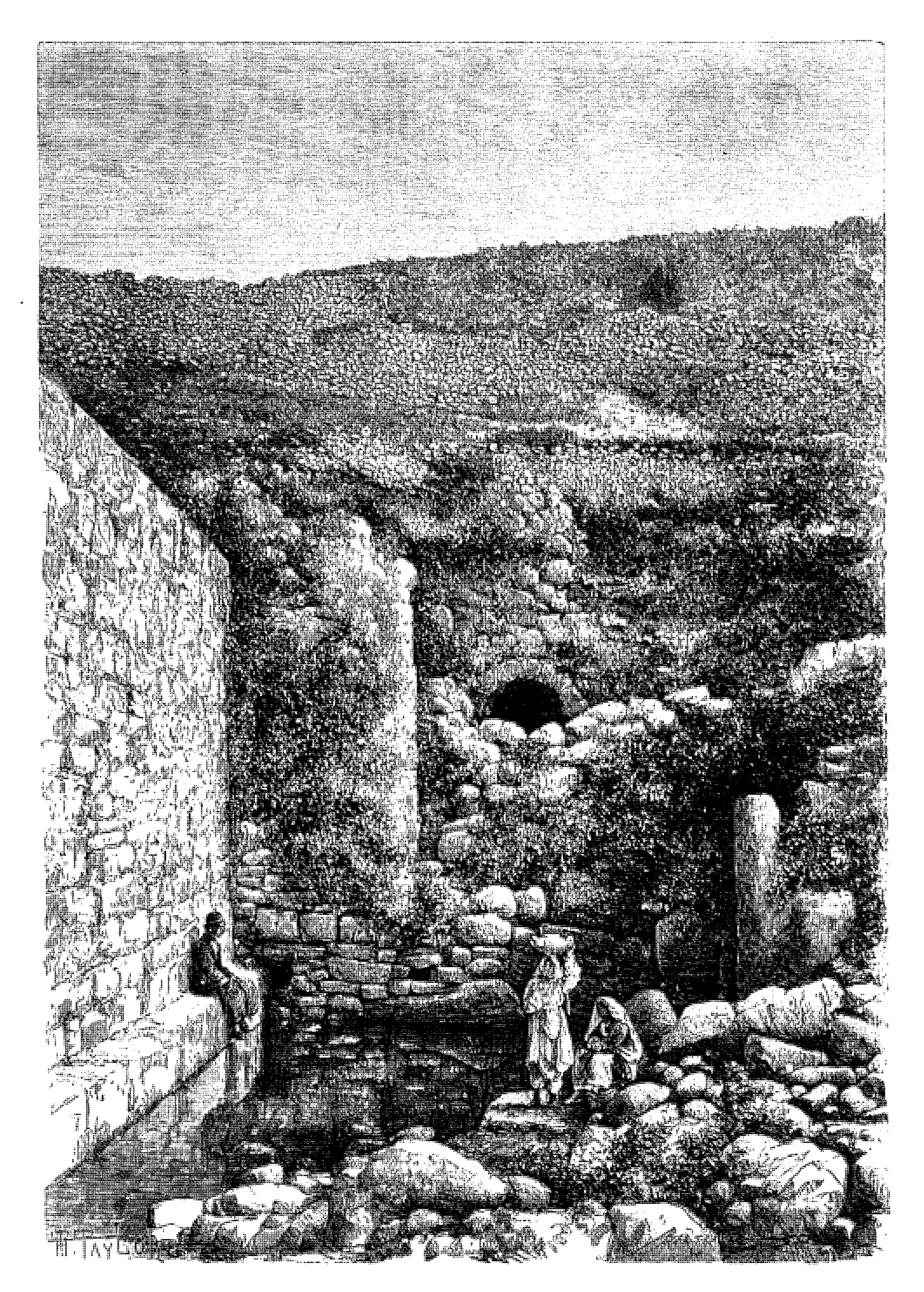
عن صورة فوتوغرافية .



قرية بيت هاني

رسم لتيلور

عن صورة فوتوغرافية .

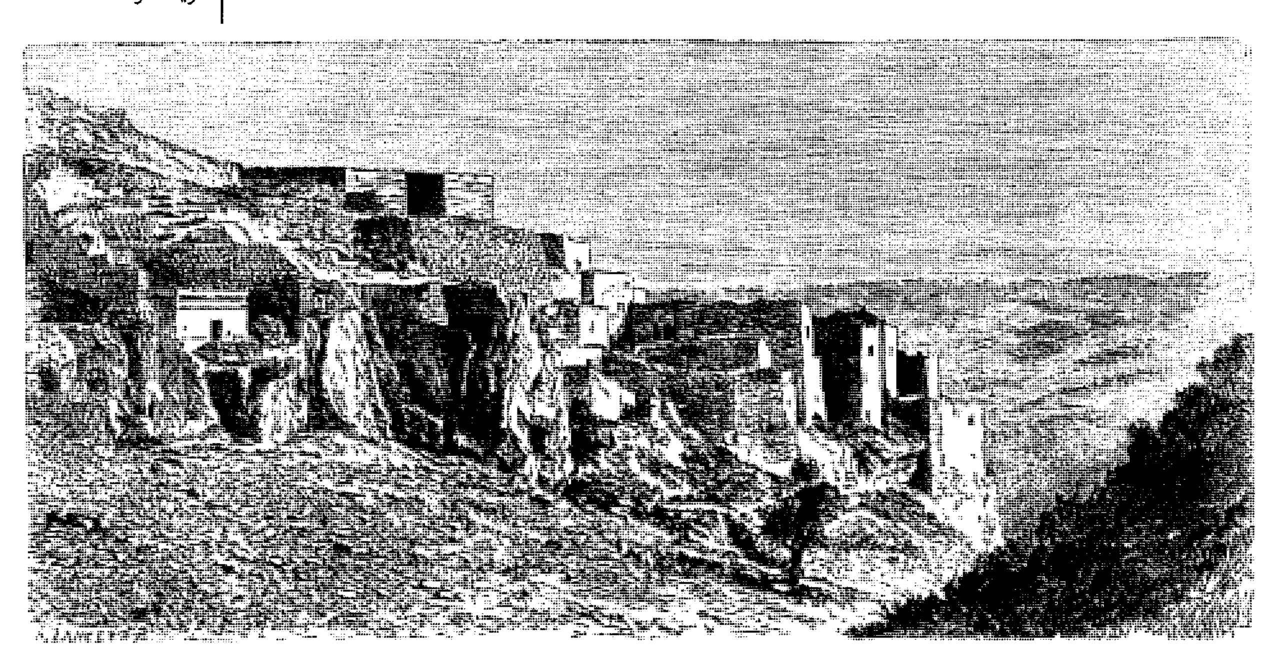


نبع سلوان

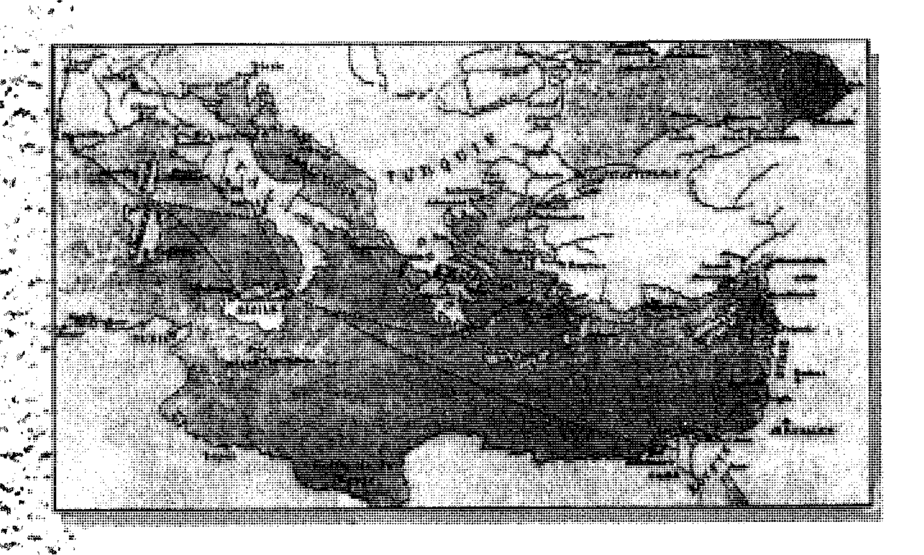


شيخ المصابين بالبرص

قرية سلوان



الفصل الحادي عشر



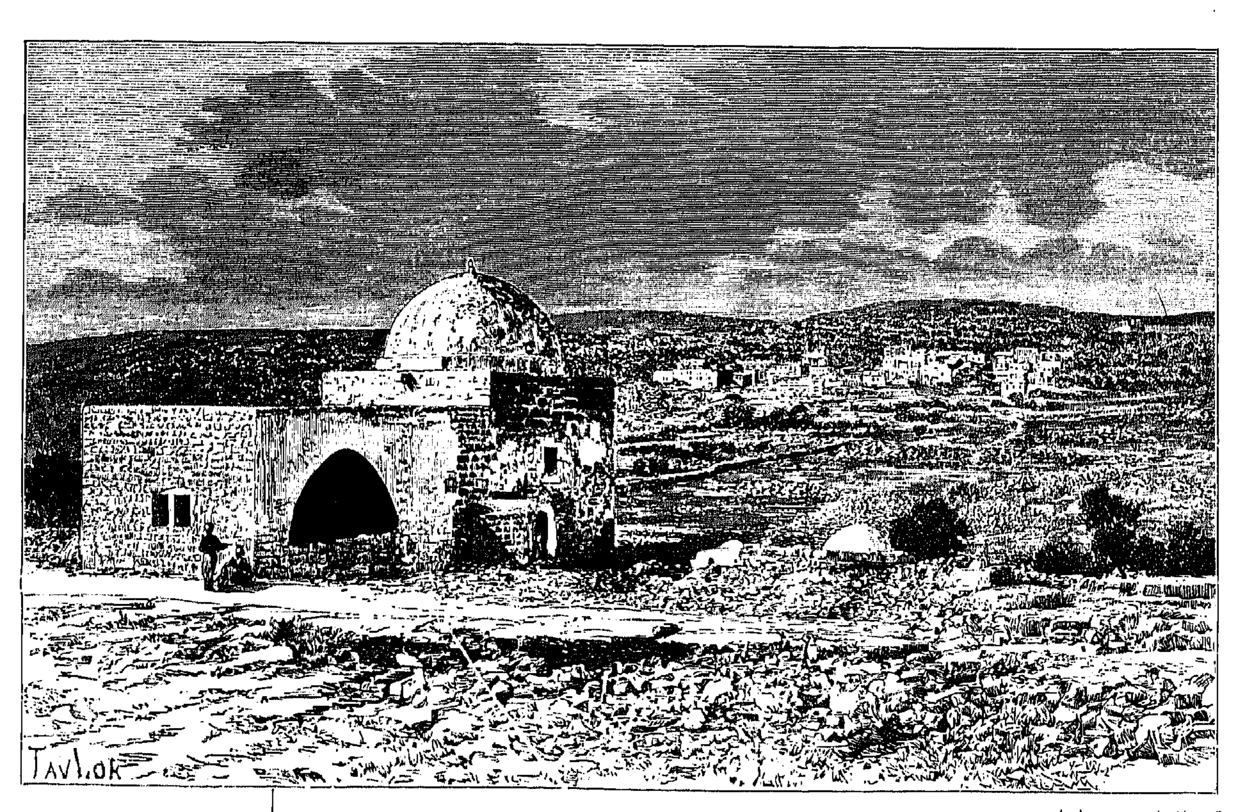
قبر راشيل والخليل

قرب القدس ، على الطريق الى بيت لحم (والخليل Hebron) محطة جديرة بالتوقف عندها وهي قبر راشيل ، راحيل ، إمراة يعقوب .

في سفر التكوين ان راحيل أسلمت الروح في هذا المكان بعد إنجابها إبنا أسمته (بن أوني) اي (ابن ألمي) ولكن زوجها يعقوب غير الاسم الى بنيامين (ابن يميني) ثم أقام نصباً تذكارياً لامرأته فوق قبرها .

في القرن السابع عشر أعيد بناء هذا القبر على ما هو عليه اليوم ، تعلوه قبة بيضاء جميلة وبجواره رواق يتجه نحو الشرق .

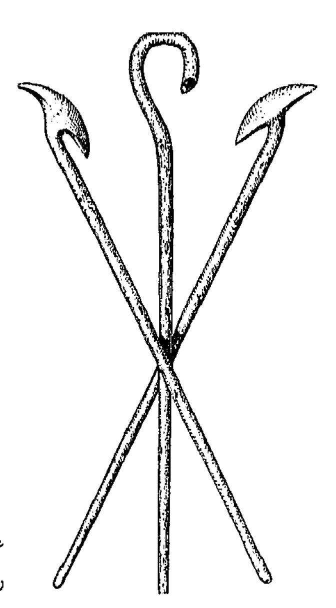
الروايات القديمة المتوارثة تشير ، بكثير من اليقين ، الى المكان الذي توفيت فيه راحيل ، وتروي كيف ان المكان أضحى مقدساً ، كما انه في عهد موسى عليه



قبر راشيل ـ رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية .



بدو التعامرة
رسم هـ .شابوي
عن صورة فوتوغرافية .



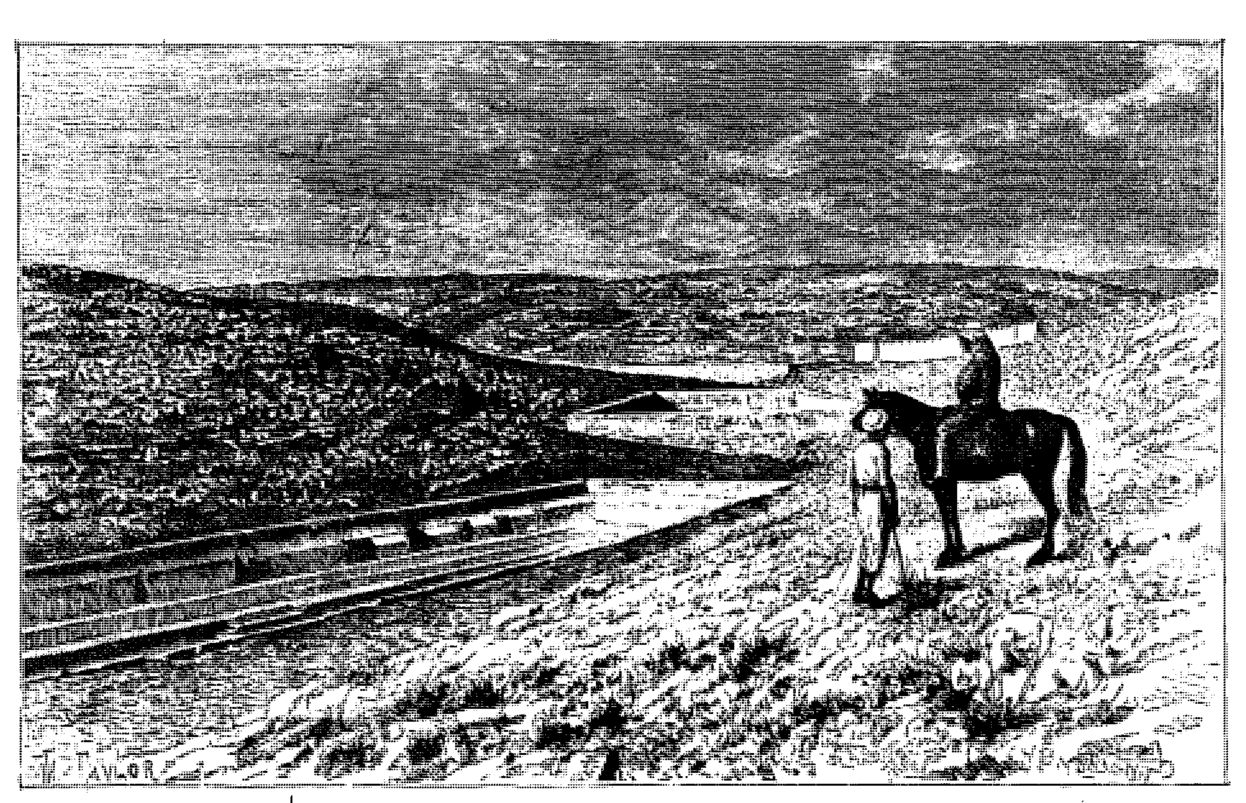
عصي التعامرة المعقوفة
رسم للمؤلف

السلام ، كان يقوم فيه هرم يحيط به اثنا عشر نصباً اشارة الى القبائل الاثنتي عشرة .

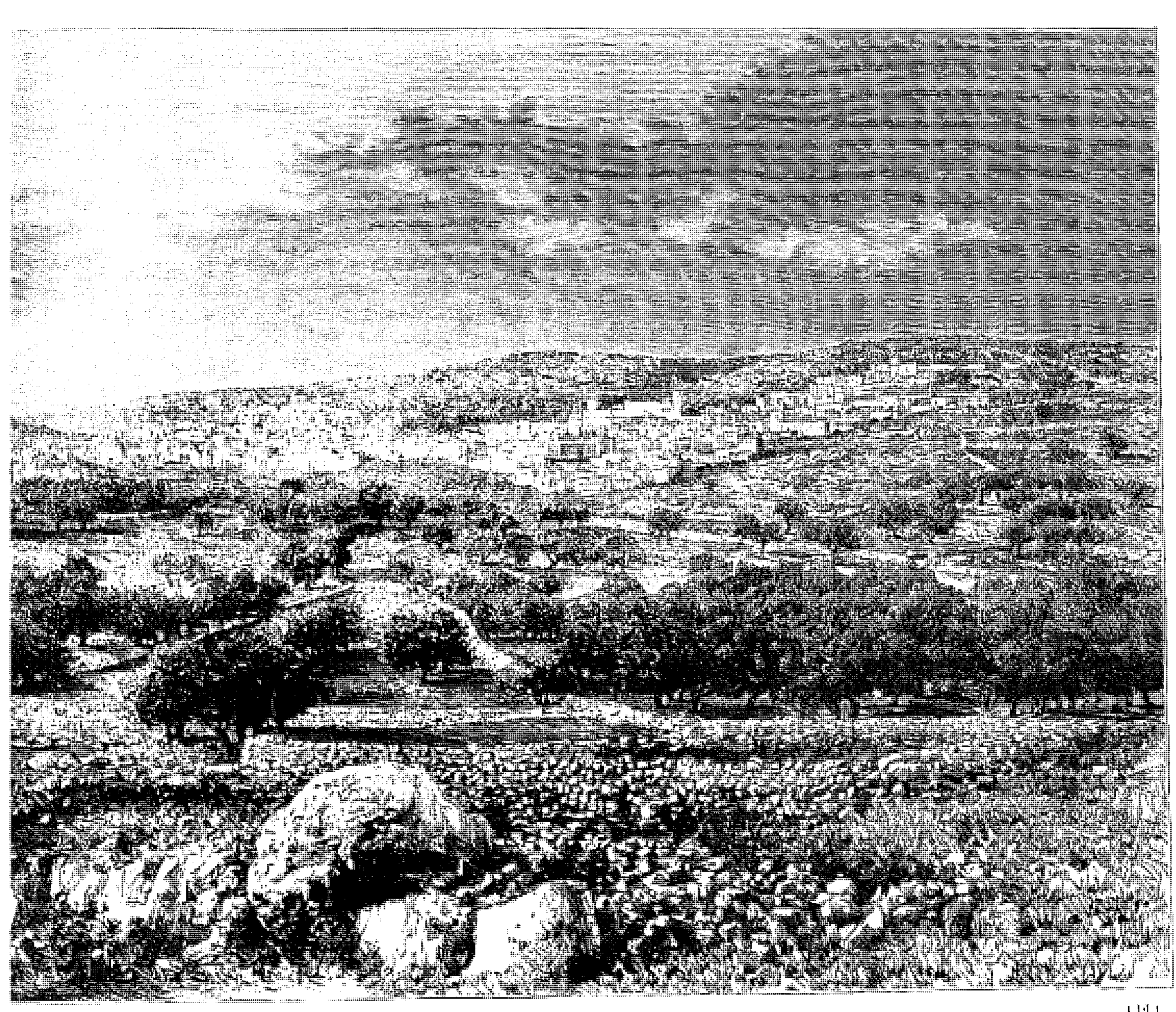
بكل اسف لم يبق شيء من كل ذلك ، ما نجده الآن هو ما ذكرناه اضافة الى اشجار جميلة من الزيتون والتين تحيط بالمكان الذي تعلوه غرباً هضاب خضراء مزروعة تقوم فوقها قرية بيت جالا ؛ في حين تبدو جنوباً قرية جميلة هي بيت لحم .

في الطريق نحو (الخليل : Hebron : العبرية) وفي منطقة عارية وجافة ، تكاد تنقرض أشجارها بسبب الحطابين ونيران الرعاة ورعاية الماعز ، نصل الى مُنخفض من الأرض تحيط به تلال صخرية . من هناك نطلّ على ما يعرف باسم خزانات سليمان ، أو برك سليمان ، والتي نشاهد الى جانبها أنقاض حصن قديم كان يعرف باسم قلعة البرك التي بناها السلطان عثمان خان عام ١٦١٨م ، كما هو منقوش على الباب .

تستقبل هذه الخزانات الثلاثة مياهها عبر قناة باطنية تجري من نبع قريب يعرف باسم راس العين والواقع عند هضبة قريبة غربي القلعة .



برك سليمان
رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية .



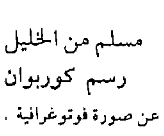
الخليل
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .

تتفجّر مياه هذا النبع في قعر فجوة عميقة محفورة في الصخر . وبعد تدفقها عبر فتحات ثلاث تتجه المياه نحو الخزان الاول عبر ممر أو رواق تغطي القناطر والعقود جزءاً منه في حين أن الجزء الآخر مسقوف بقطع كبيرة من البلاط الحجري . جزء من المياه يتجه مباشرة نحو بيت لحم عبر مجرى فوق سطح الأرض ، بينما يجري الفائض ليملأ الخزانات الأخرى .

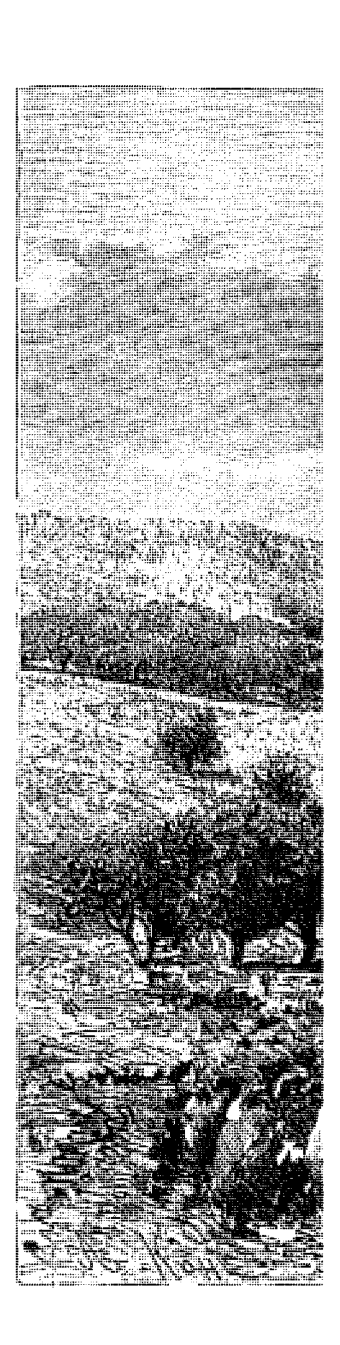
بنيت هذه الخزانات المربعة الاضلاع في أيام ملوك يهودا ، وربّما في ايام الملك سليمان بالذات ، وذلك لريّ الحدائق الملكية الواقعة في وادي أرطاس .

الرحلة من خزانات سليمان الى (الخليل : Hebrön : العبرية) طويلة وشاقة .





مسلم من الخليل
رسم كوربوان
عن صورة فوتوغرافية .



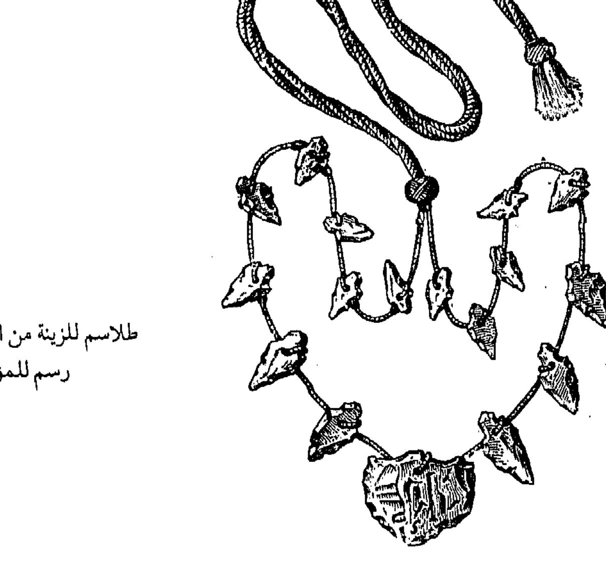
إنها تستغرق اكثر من اربع ساعات عبر طرق بدائية ووعرة ، في منطقة جافة ومرتفعة الحرارة معظم أيام السنة . في هذه الطريق لا نلتقي إلاّ ببعض الفلاحين ، اضافة الى حجاج ذاهبين الى الخليل أو آتين منه .

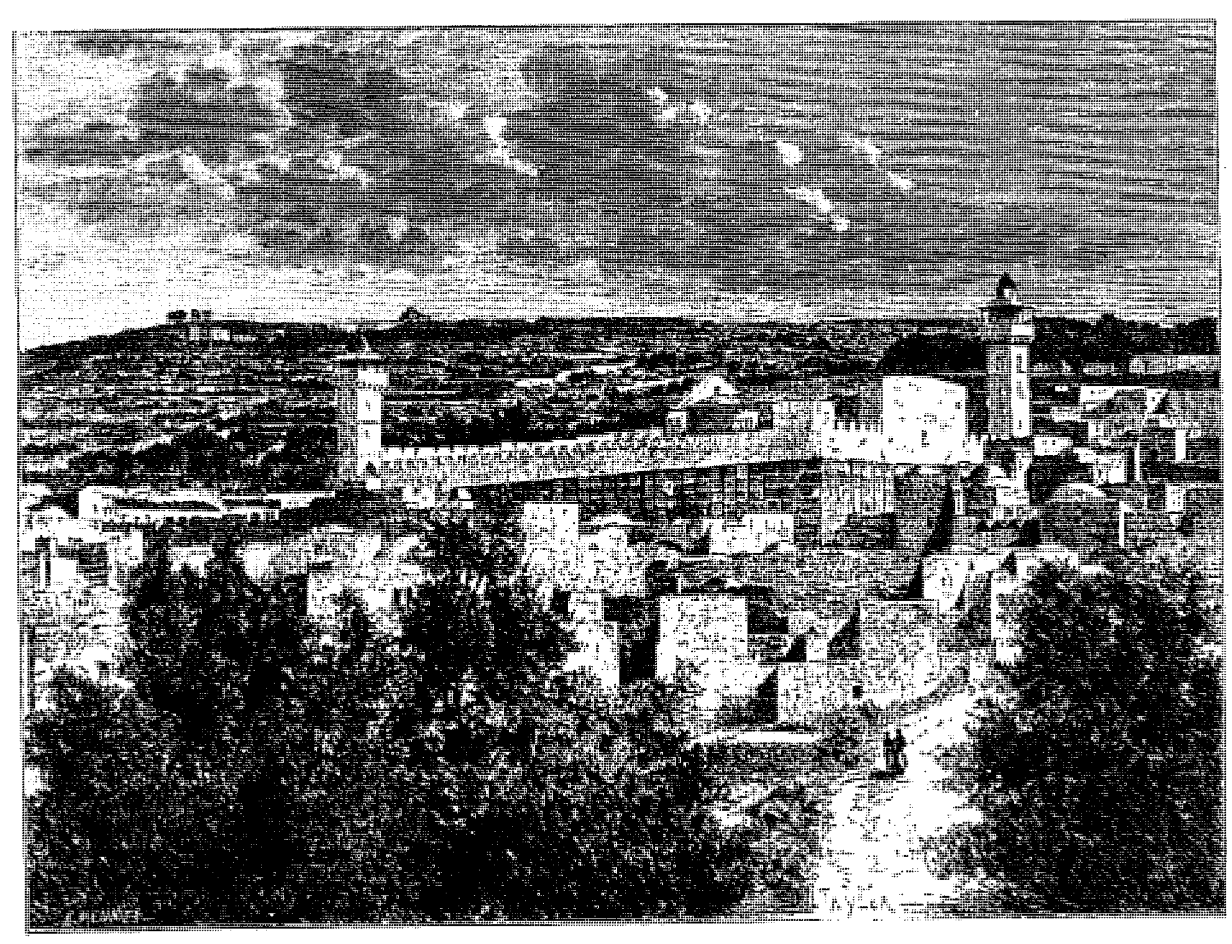
في تلك المناطق النائية الهادئة التقينا ببعض البدو يرعون جمالهم وخرافهم السوداء . إنهم قبيلة عربية يعرفون باسم التعامرة . تراهم سمراً أقوياء ، يرتدون ملابس خفيفة هي عبارة عن ثوب قطني فوقه عباءة بيضاء ذات خطوط سوداء بنيّة ، ويعتمرون لفة سوداء أو زرقاء مشدودة الى الرأس بخيط أسود من وبر الجمال . وقد ينتعل بعضهم أحذية عادية أو جزماً من الجلد الأصفر أو الأحمر .

في سوق قطعانهم ، أو لالتقاط بعض الأشياء عن الأرض دون النزول عن



طلاسم للزينة من العقيق الأحمر
رسم للمؤلف





الحرم في الخليل - رسم لتيلور - عن صورة فوتوغرافية .

خيلهم ، نجدهم يستخدمون عصياً معقوفة الأطراف أحياناً وشبيهة بالفأس أحياناً أخرى . يضاف الى ذلك أنهم غالباً ما يحملون سلاحاً هو عبارة عن دبوس غليظ من خشب السنديان ذو رأس ضخم مطليّ بالزفت القاسي .

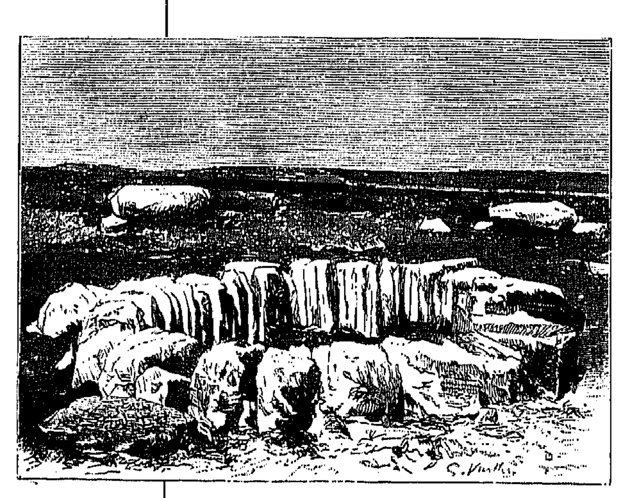
بعد رحلة شاقة نصل الى واد يعرف باسم وادي سبتة ، تكثر فيه كروم العنب والاشجار المثمرة . وبعد قليل نعبر باب واحدة من أقدم مدن الأرض ، كما تقول الروايات . انها مدينة ابراهيم الخليل (Hebron/ العبرية) والتي يعيدها بعض الروايات الشعبية الى أيام آدم عليه السلام ، وانه قد بناها ومات ودفن فيها .

صحّت الروايات أم لم تصحّ ، من الواضح ان هذه المدينة مغرقة في قدمها ، وهي من أقدم مدن مصر السفلى . انها تقوم على جوانب واد تغطيه الكروم والبساتين . أما المنازل فحجرية بيضاء جميلة البناء ، بعضها ذات سقوف مسطحة وبعضها الآخر ذات قبب خفيضة كتلك القائمة في القدس .

غربي المدينة يوجد الحرم الذي يضم كنيسة قديمة تحوّلت بعد خروج الصليبيين الى مسجد للمسلمين . هذا الحرم يقوم فوق القبور والمدافن القديمة التي تقول الروايات عنها انها تضمّ ابراهيم ، وغيره من البطاركة وآباء البشر . منذ قرون طويلة تحوّلت هذه القبور الى مزار يقصده الحجاج المسلمون والمسيحيون واليهود .

سكان الخليل يعيشون حياة هادئة تبدو عليها مظاهر الراحة والسعادة أكثر مما هو شائع في تلك المناطق .

عند المساء ، وبين الحدائق والبساتين ، ترتفع أصوات الرقص والموسيقى . بضع عائلات تجتمع تحت أشجار الزيتون التي علّقت عليها مصابيح تضيء المكان . مجموعة من الشبان يشكلون حلقة ويمسكون بأيدي بعضهم بعض مؤدين



فوهة بئر ـ رسم ج . فويلييه ـ عن صورة فوتوغرافية

رقصة ذات إيقاع مضبوط بضربات من الأقدام ، مطلقين أصواتاً وصيحات تزيد من الحماس و الفتيات يجلسن للمشاهدة مرافقين الرقص بتصفيق وحماس أما الموسيقى فتؤديها مجموعة من ثلاثة أو أربعة شبان مستخدمين المزامير القصبية إضافة الى طبلات صغيرة من الفخار ذات طرف ضيق مفتوح وآخر تغطيه قطعة مشدودة من كرش الحيوان .

موقع بلدة الخليل وارتفاعها البالغ ٨٨٥ متراً وخصب تربتها ونقاء هوائها وعذوبة مياهها وغزارتها ، كل هذه العوامل انعكست بشكل واضح على السكان في جمال ملامحهم وصحة تكوينهم . فالرجال أقوياء طوال القامة أصحّاء . والنساء جميلات نحيلات الاجسام متناسقات القوام .

من صناعات الخليل أقمشة قطنية زرقاء ، ولكنها في تراجع الآن بسبب منافسة الانتاج الاوروبي لها . هناك ايضاً مصنعان للزجاج ينتجان الزجاجات المختلفة الأشكال وأوعية النارجيلة والمصابيح ، إضافة الى بعض أشكال الزينة والأساور والعقود لزينة النساء .

وفي الخليل صناعة أخرى مميّزة يصدّر انتاجها الى المدن السورية الأخرى والى القبائل المنتشرة في كل مكان . انها صناعة نوع من المجوهرات ـ الطلاسم التي تتزين بها النساء لابعاد القوى الشريرة والأمراض ، كما يقول الاعتقاد الشائع . هذه الطلاسم عبارة عن عقود يتكوّن الواحد منها من ستة عشر حجراً من العقيق الأحمر اللون أو الشفاف ذات أشكال شبيهة بالسهام ، إضافة الى حجر كبير يتوسطها وهو بشكل قلب ، يجمعها كلها حبل قويّ من الحرير المذهّب .

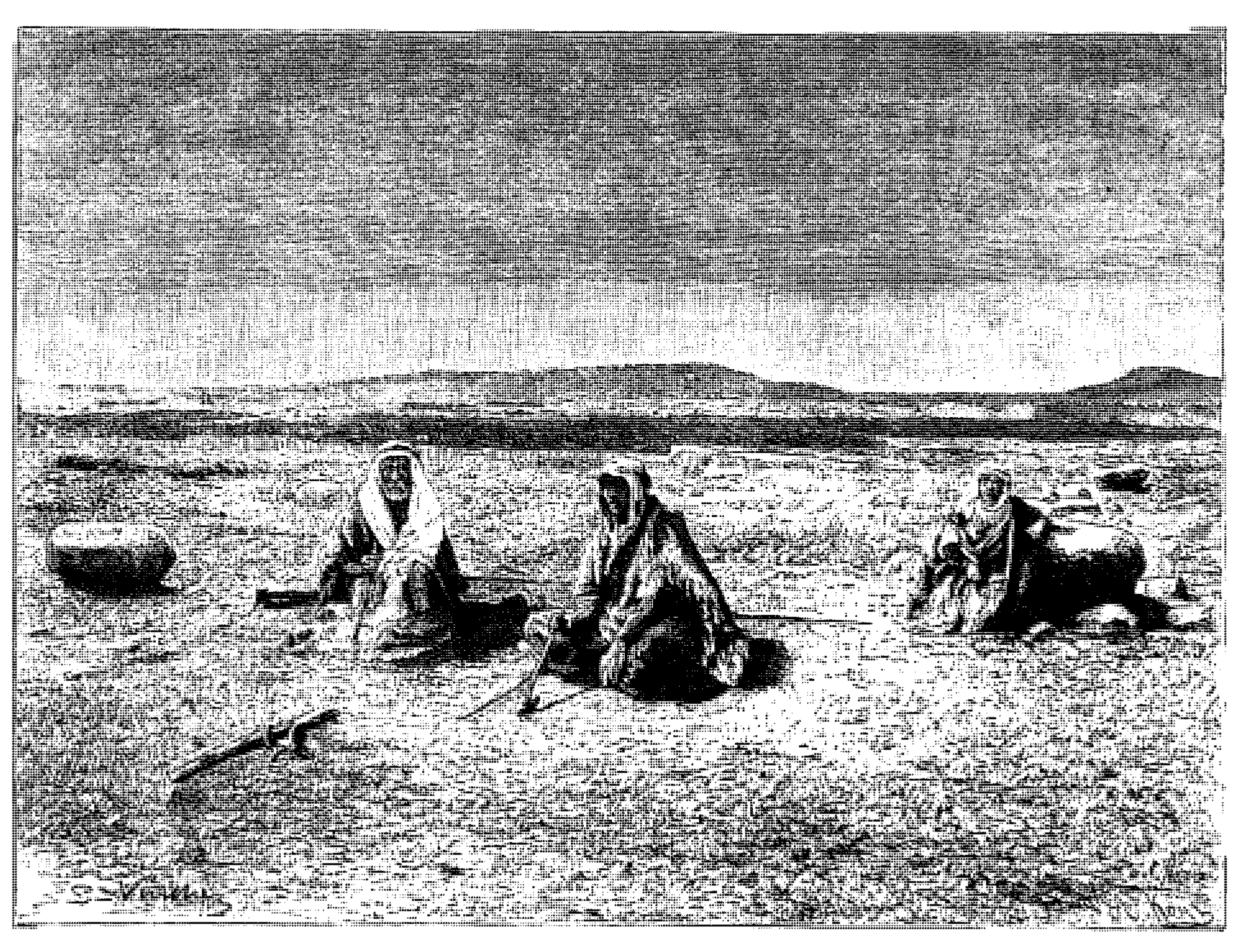
وفي بعض الأحيان يكون العقد مكوّناً من الحجر الكبير فقط ، ويتصل بالحبل بواسطة قطعتين من الزجاج الأزرق .

من الخليل ننطلق في رحلة تستغرق يومين لزيارة موقع تاريخي يعرف باسم بئر السباع الذي يذكر في التوراة على انه يشكل الحدود الجنوبية الشرقية لفلسطين .

بعد ساعات قليلة من مغادرة الخليل تبدأ الطبيعة بالتحوّل تدريجياً الى أراض جرداء صحراوية ، يندر فيها النبات والشجر ، سوى بعض أشجار سنديان هزيلة وشجيرات أخرى صغيرة . القرى بدورها تختفي أيضاً فلا وجود لها في تلك المناطق . المظهر الوحيد للحياة الذي يمكن الوقوع عليه رؤية خيام بعض البدو الرحّل الذين يأتون شتاء مع بعض قطعان الخراف السوداء والبيضاء إضافة الى بعض الجمال .

في بئر السباع بئران تفصل بينهما مسافة قصيرة . إنها ذات شكل دائريّ ، ويتكوّنان من الداخل من مادة حجرية صلبة يبدو انها قديمة جداً .

البئر الكبيرة يبلغ قطرها اثني عشر قدماً ، بعمق أربعة وأربعين قدماً ، حتى سطح الماء ، يضاف الى ذلك عمق ستة عشر قدماً في القعر الصخري . أما البئر الثانية فتقع على مسافة ثلاثمائة خطوة من الاولى ، وهي بعمق اثنين وأربعين قدماً ويبلغ قطرها خمسة أقدام . أمّا مياه بئر السباع فصافية عذبة لذيذة المذاق .

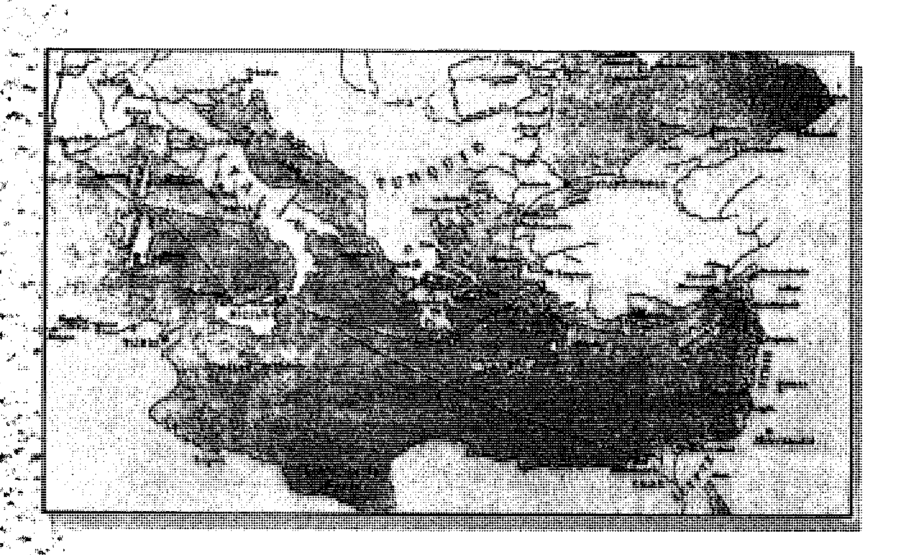


آبار بئر السباع
رسم أ . د . بار عن صورة فوتوغرافية



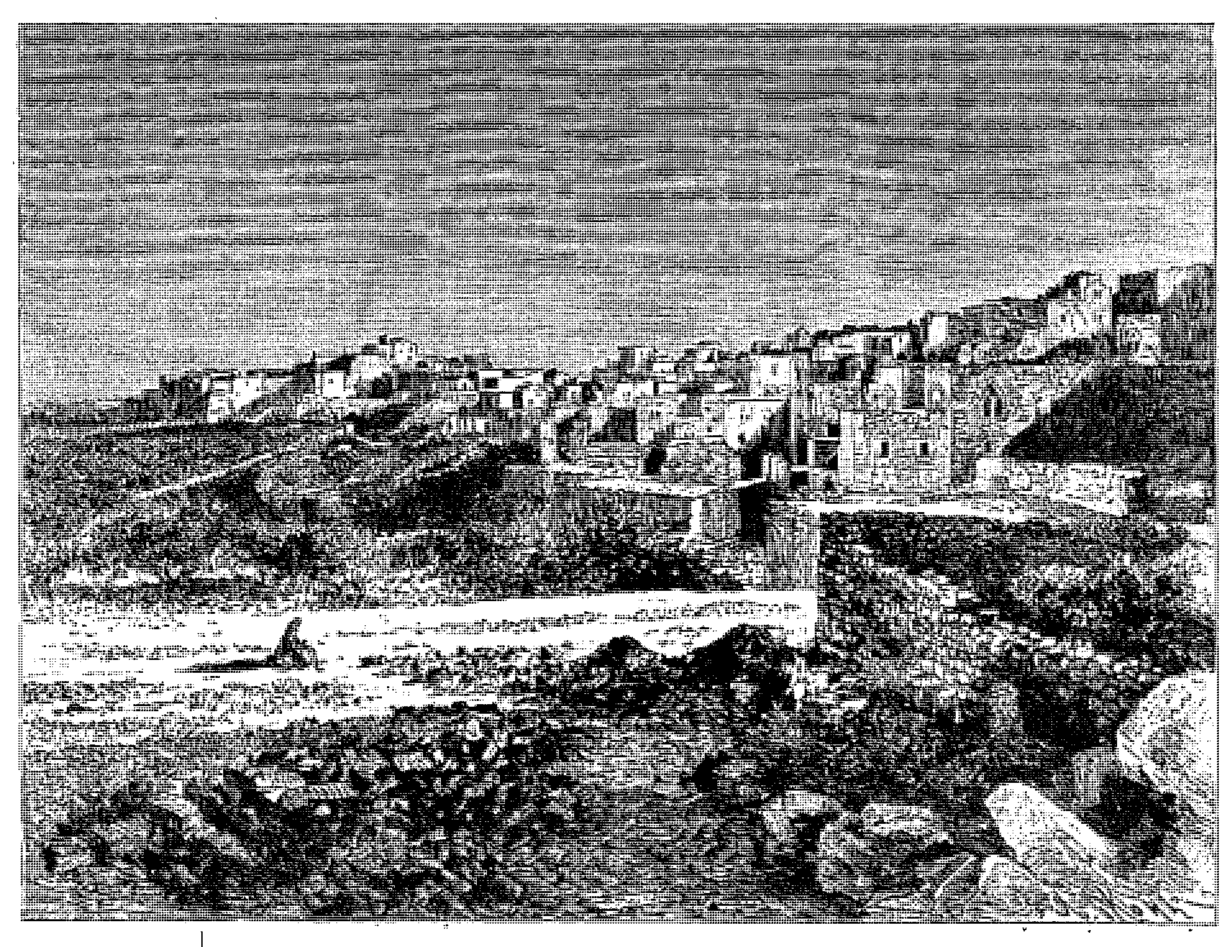
سنديانة ابراهيم في الممرة

الفصل الثاني عشر



بيت لحم

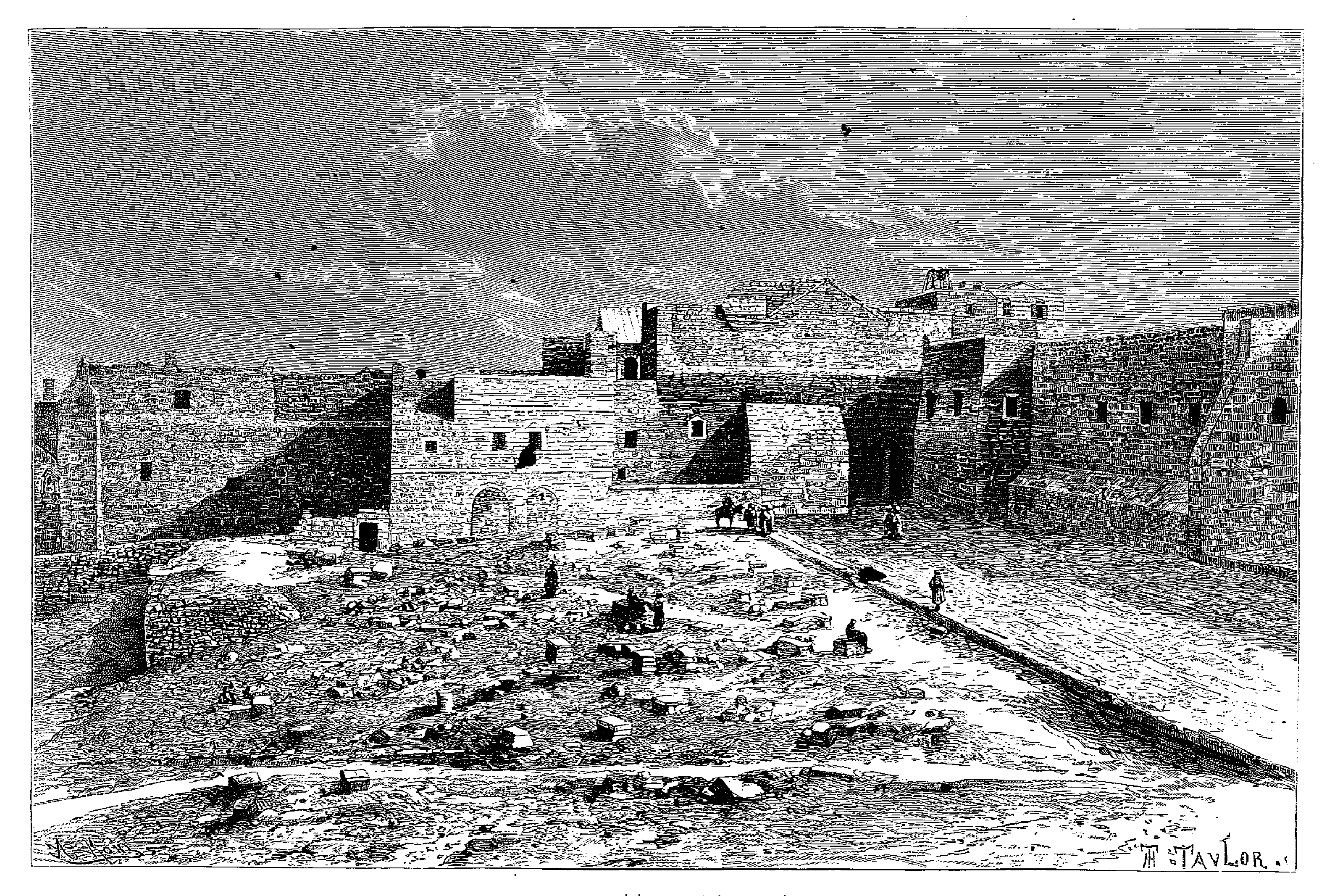
الطريق من القدس الى جانب بيت لحم طويلة وصعبة في بعض مراحلها . بعد خزانات سليمان ، أو برك سليمان ، تتجه الطريق غرباً ، عبر وديان صخرية وعرة وتمر قرب قرية بيت عمّار المطلة على وادي العرب ، وصولاً الى بيت زاطا ، صعوداً نحو قرية الفجّار ، نزولاً نحو وادي الخريتون حيث «مُغَرْ الخريتون» الشهيرة ، وهي الكهوف التي يُقال إنها كانت مخبأ لداود خلال نزاعه مع شاول . أمّا اليوم فهي ملجأ شتوي لبعض البدو والرعاة ، ومرتع للوحوش والذئاب لما تبقى من السنة .



بيت لحم
رسم د . لنسولو
عن صورة فوتوغرافية .



بيت لحم - كنيسة القيامة من الداخل
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .

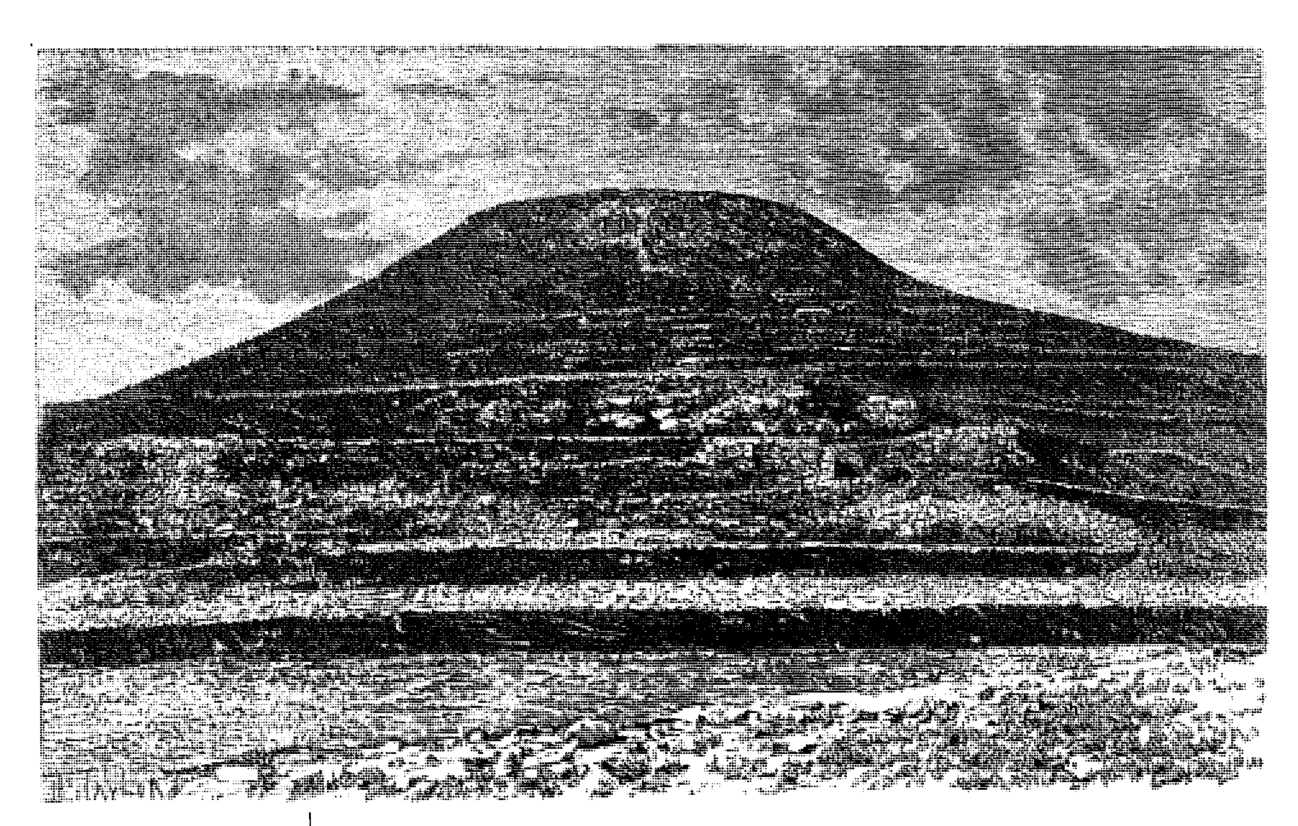


بيت لحم ـ كنيسة القيامة ـ رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية .

بعد وادي أرطاس تتجه الطريق صعوداً على سفوح جبل ذات شكل مخروطيّ مميّز يمكن مشاهدته من مرتفعات القدس، وهو يعرف باسم جبل «الفريديس» أو الفردوس. قمة هذا الجبل عبارة عن أرض مسطّحة دائرية يبلغ محيطها ثلاثماية متر، وفي وسطها حفرة مصطنعة تشبه فوّهة البركان. وعلى هذا المسطح من الأرض نقع على بقايا وركام لأبنية وأعمدة وجدران وخزانات وأعمال زخرفة مختلفة. يعتقد بعض المؤرخين ان هذه الآثار هي بقايا قبر «هيرودس» في حين يعتبرها آخرون بقايا مقرّه الصيفي. ويبقى أنه من المرجح أن القصر الذي كان يعرف باسم «هيروديوم» كان يقوم عند قمة هذا الجبل، في حين كانت تقوم عند سفوحه مدينة «هيروديا» حيث لا تزال توجد بعض الآثار.

من الواضح ان الشكل الذي تتخذه هذه القمة ليس من فعل الطبيعة بل هو من فعل الانسان، كما أنها كانت مرويّة بمياه غزيرة وذلك عبر شبكة من الأقنية المائية التي لا تزال بعض آثارها موجودة حتى الآن.

تطلّ قمة جبل الفريديس على مناظر رائعة لا سيما لجهة البحر الميت المطلّ بزرقته الشديدة من بين الهضاب الصخرية العديدة. من الجهة الجنوبية الغربية نطلّ



جبل الفريديس
رسم لتيلور.
عن صورة فوتوغرافية.

على وادي أبو نجم ، قرب بيت لحم ، ودير مار الياس وقرية أبو دبس ، كما تظهر في الافق البعيد هضاب القدس وجبل الزيتون المرتفع فوقها .

قبل بلدة بيت لحم الواقعة على مرتفع صخري ، حقول وبساتين ترتفع فيها اشجار التين والزيتون . وبعد الممرات الجبلية الصخرية الوعرة تصل الطريق الى مجموعة متشابكة من الممرات والأزقة الضيّقة التي تميّز هذه البلدة الصغيرة . المنازل في بيت لحم متقنة الهندسة ومتناسقة وهي مبنيّة من الحجر المنحوت . أمام كل منزل تقريباً عقد كبير فوقه سطح أو شرفة ، إضافة الى سلم خارجي للصعود الى أعلى . فوق هضبة مرتفعة شرقي المدينة تقوم الكنيسة والأديرة ذات الأبنية الضخمة التي تبلغ سماكة بعض جدرانها عدّة أمتار ، في حين أن سطوحها عبارة عن شرفات تطلّ على مناظر خلاّبة .

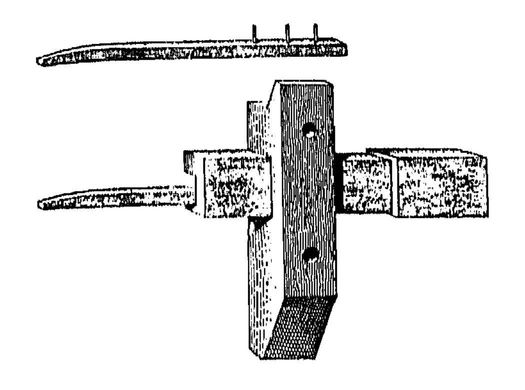
تعتبر كنيسة بيت لحم من أهم كنائس سوريا . يرجح أن بناءها قد تمّ عام ٣٣٠م على يدي هيلانة وقسطنطين .

يتكوّن داخل الكنيسة من ثلاثة صحون ، واحد في الوسط شاهق الارتفاع يعلوه سقف تركت أخشابه بارزة تبعاً لما كان عليه بناء الكنائس البيزنطية ، وتغطي جدرانه المحيطة به من أعلى زخارف وخطوط وكتابات بيزنطية . في حين أن الصحنين الجانبيين أكثر انخفاضاً يدعمهما عدد من الأعمدة الضخمة التي تعلوها تيجان منقوشة . من المؤسف أن بعض البنائين عمدوا في بعض المراحل الى مدّ طبقة سميكة من الكلس دون أن يعيروا أي اهتمام بمحيط بعض النقوش والزخارف . ويضاف الى ذلك أن الخلاف القائم بين الطوائف المسيحية التي تمتلك هذه الكنيسة أوصلها الى حالة يرثى لها من الإهمال والفوضى . تحت المحراب والصحن الاوسط توجد مغارة الميلاد وقبور قديسين منهم بطرس وبولس ، ويمكن النزول الى المغارة عبر سلّم ضيق . كنيسة بيت لحم نموذج حقيقي للكنائس البيزنطية ، وقد تكون النموذج الوحيد المحافظ على صورته الأولى على الرغم من كلّ الاهمال وسوء التصرف .

كانت بيت لحم في الماضي محاطة بأسوار عالية . أما اليوم فلم يبق من تلك الاسوار سوى آثار قليلة متهدّمة إضافة الى بوابة قديمة تقوم عند الطريق المؤدية الى القدس . يضاف الى ذلك أن بيت لحم تمتدّ الآن وتتسع خارج حدودها القديمة حيث أصبحنا نجد شوارع جديدة تحيط بها منازل قيد الانشاء ، وكل هذا دلالة على ازدياد ملحوظ في عدد السكان وارتفاع جيد في المستوى المعيشي والاقتصادي .

تزدهر في بيت لحم صناعات حرفية مختلفة . من ذلك نسيج أقمشة جميلة

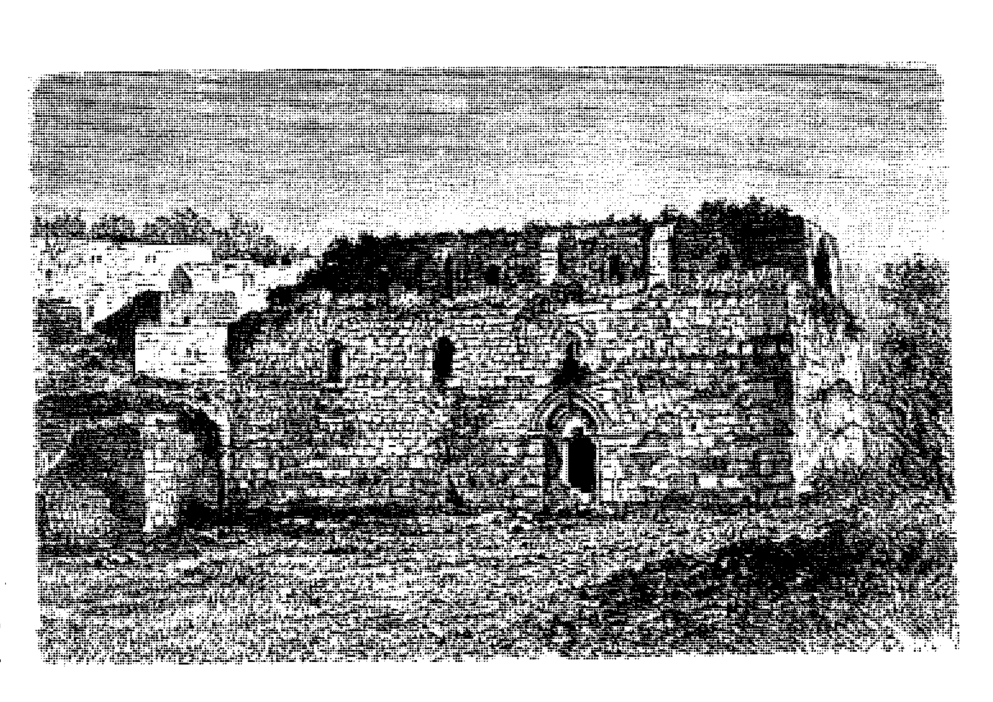
ومميزة ذات الوان مختلفة من الأرزق والاصفر والأخضر والأحمر ، إضافة الى عباءات من وبر الماعز ذات خطوط سوداء وبنيّة ، وبسط مختلفة لتغطية المقاعد في البيوت . أما الصناعة الأكثر ازدهاراً فهي صنع السبّحات (المسابح) ومختلف أدوات طقوس العبادة وحاجاتها . تستقطب هذه الصناعة حوالي خمسماية عامل ، وتستخدم فيها بذور الزيتون والتمر إضافة الى العاج والصدف وخشب الزيتون . يتولى هذه الصناعة نقاشون وحرفيون مهرة ينتجون صلباناً صدفية ونقوشاً على الأصداف تمثّل بعض المواقف والمحطات الهامة في تاريخ المسيحية . من أشهر هؤلاء النقاشين يوسف أبو مخيل الذي يمتلك معملاً كبيراً يضمّ عدداً كبيراً من العمال المنصرفين طوال الوقت الى نقش الأصداف المحارية اللؤلؤية المستوردة خصيصاً من مناطق البحرين والخليج .



غال باب في بيت لحم
رسم للمؤلف

صناعة أخرى أيضاً جديرة الملاحظة والتوقف عندها . فجميع منازل بيت لحم تقريباً تقفل أبوابها بواسطة غال ، أو قفل خشبي يدلّ تصميمه وتركيبه على الدقّة والبراعة ، وقد سبق وشاهدنا مثيلاً له في مدينة طرابلس .

إنه عبارة عن قطعة سميكة من الخشب مُفرّضة ، أو مقوّرة ، عند أحد جانبيها ومثبتة عمودياً وباحكام على الباب بواسطة مسمارين ، أو لولبين . الفرضة أو الفجوة التي في هذه القطعة تسمح بانزلاق لسان خشبيّ مجوّف في جانبه الاعلى ثقوب تتباعد أو تتقارب ما بين قفل وآخر .

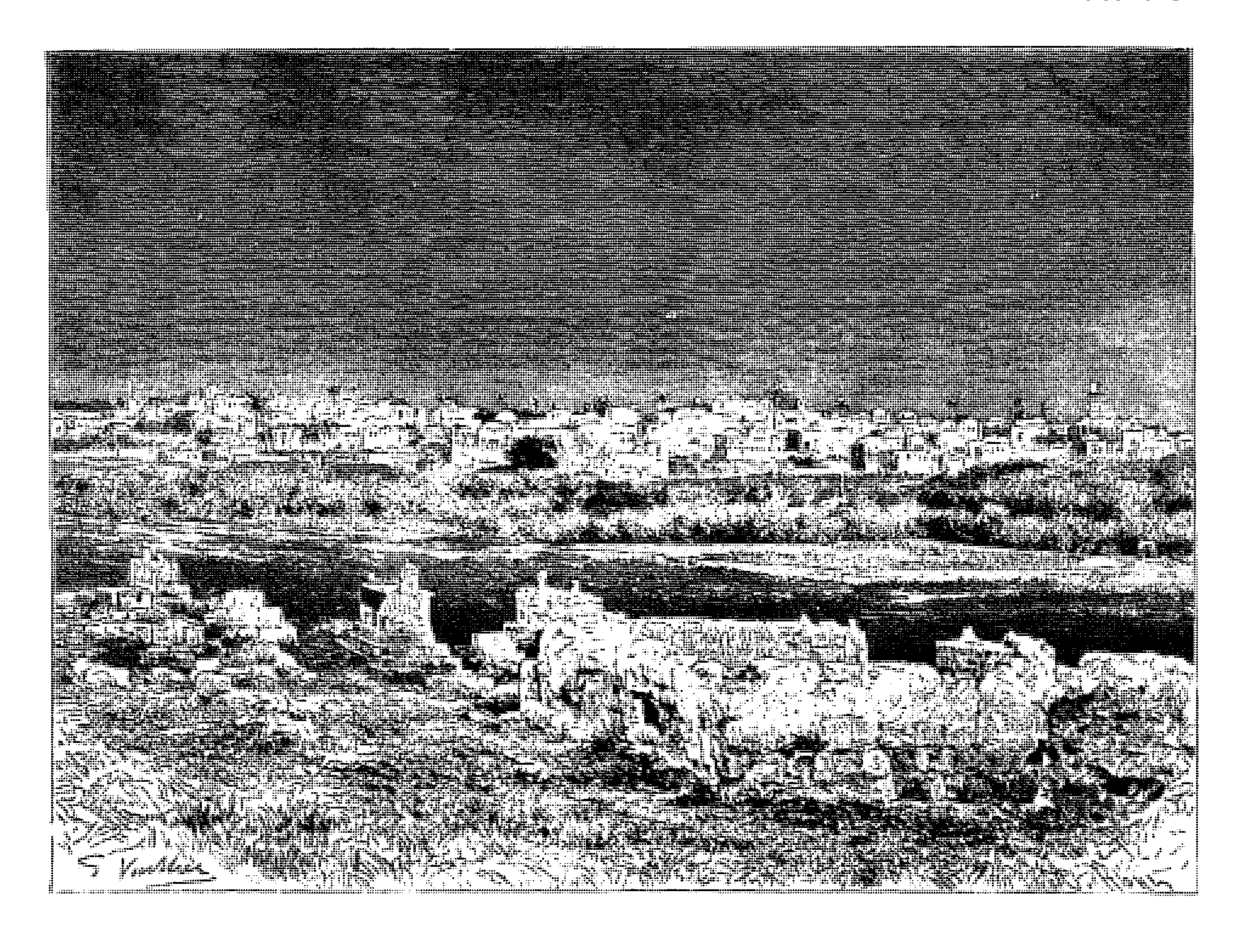


كنيسة قرية العنب
رسم د . لنسولو
عن صورة فوتوغرافية .

وفي هذه الثقوب تسقط مسامير معدنية بفعل وزنها ، من الجزء الأعلى للقطعة الثابتة حيث هي موضوعة بشكل لا يمكن معه رؤيتها .

حين تسقط المسامير في ثقوبها ، ويكون لسان القفل مدفوعاً داخل الفجوة ، يصبح الباب مقفلاً . أمّا إذا لم تكن المسامير في ثقوبها ، واللسان مسحوب الى الخارج ، فيكون القفل مفتوحاً ولا يمكن إقفاله إلاّ بمفتاح خاص . هذا المفتاح عبارة عن قطعة طويلة من الخشب مربعة الزوايا وفي أحد جوانبها ثبّتت مسامير مطابقة في مواضعها لتلك الموجودة في القطعة الثابتة . ولدى إدخال هذا المفتاح في فجوة اللسان يمكن بسهولة رفع مسامير القفل ، وبالتالي يصبح بالامكان تحريك اللسان الى الداخل للاقفال أو نحو الخارج للفتح . إنه فعلاً النموذج البدائي لاقفال «فيشية ـ Fichet» الحديثة . هذا الجهاز الهام البدائي يعود دون ريب الى تاريخ قديم ، وهو وان كان قابلاً للكسر أو التحطيم إلاّ أنه غير قابل للفتح إلاّ بمفتاحه المناسب . تصنع هذه الاقفال عادة من خشب الجوز والتوت ، وقد تزيّن لدى الاثرياء بالصدف والعاج والأبنوس .

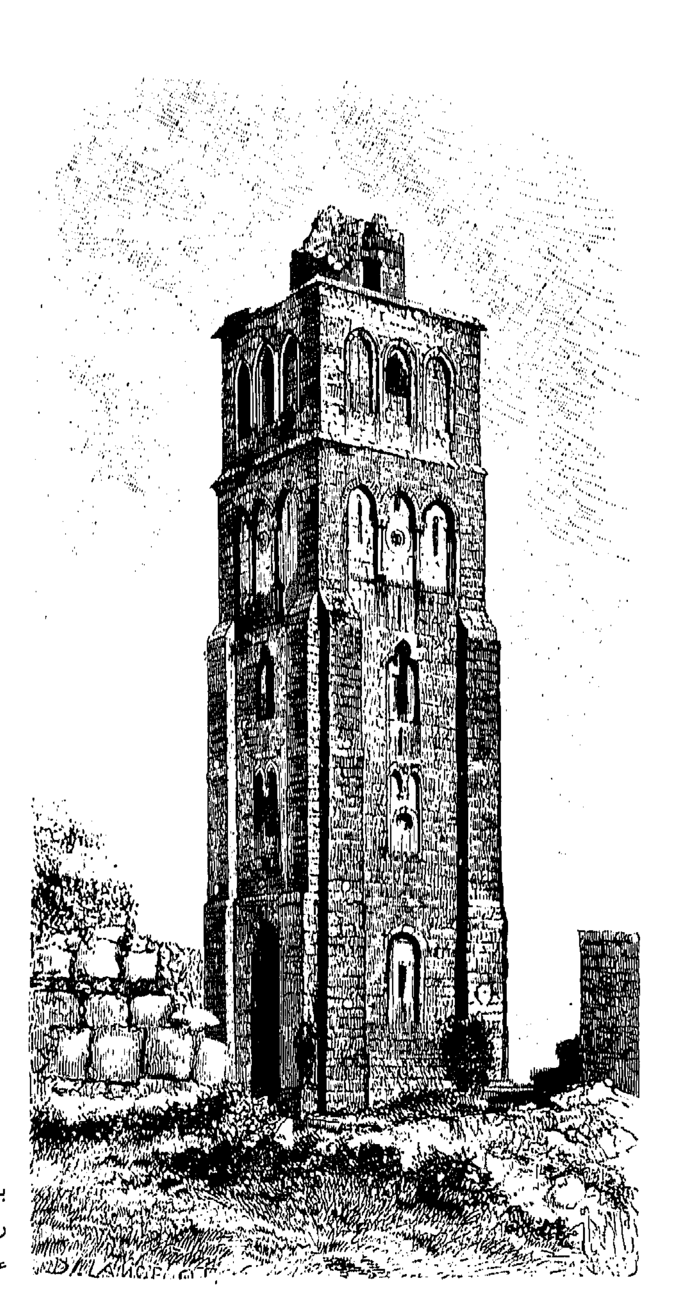
الرملة
رسم ج . فويلييه
عن صورة فوتوغرافية .



بعد العودة من بيت لحم الى القدس نعدّ العدّة لزيارة سريعة الى الرملة ويافا . من المحطات الهامّة في الطريق «قرية العنب» الواقعة في واد أخضر غني بالاشجار المثمرة ، والمعروفة باسم آخر أكثر شهرة هو «أبو غوش» نسبة الى زعيم قبيلة كانت تسكن هذه القرية . عند أسفل القرية ، وبين البساتين تقوم كنيسة القديس جيروم ، وهي الآن مهملة مهجورة تستخدم مستودعاً أو اسطبلاً ، على الرغم من أهميتها وقيمتها التاريخية . انها عبارة عن بناء كبير سميك الجدران ، مستطيل الشكل ، فيه نوافذ ضيقة ذات عقود وتعلوه دار منفصلة ، أو خلوة .

تتألف هذه الكنيسة من ثلاثة صحون ينتهي كلّ منها الى صدر ، أو حنيّة ، وتقوم على دعائم ضخمة وبسيطة يوحي بناؤها بأنها تعود الى القرن الثاني عشر . هذه الكنيسة تشبه كثيراً بعض كنائس السامرة والقدس ، مع أن في زينتها ونقوشها القليلة ما يوحي بالاقتباس من الفن العربي . في الجدار الجنوبي باب يؤدي الى ناووس تحت الارض ، ما تزال فيه آثار نقوش ورسوم . أما المدخل الاساسي للكنيسة فيقع في جهة الشمال وهو على شكل عقد كبير .

من قرية العنب ننتقل الى الرملة وهي قرية جميلة تقوم على الكتف الغربي لهضبة منخفضة تطلّ على سهل رملي خصب . تكثر في الرملة أشجار الزيتون والخروب والأشجار المثمرة المختلفة كما ترتفع فيها أشجار نخيل باسقة تضفي على القرية ومنازلها البيضاء جمالاً لا مثيل له . هذه القرية محاطة بسور طبيعي من أشجار الصبّار المزدانة بملايين الأزهار الصفراء الجميلة .



برج الأربعين شهيداً
رسم د . لنسولو
عن صورة فوتوغرافية .

الأبنية في هذه البلدة غير قائمة على نظام معين بل هي منتشرة عشوائياً في كل مكان ، لذلك لا يمكن الحديث عن شوارع معينة ، بل أزقة متداخلة بين منازل معظمها مبنيّ من حجارة متناسقة ذات لون أصفر ذهبي جميل . يضاف الى ذلك منازل قليلة من الطين والتبن على الطريقة المصرية .

فوق أحد مرتفعات الرملة ، وعلى مسافة عشر دقائق نحو الغرب يرتفع برج الرملة الكبير المعروف باسم «برج الاربعين شهيداً» . إنه محاط ببقايا أبنية خربة يبدو أنها بقايا خان كبير ما تزال بادية آثار ساحاته وخزاناته العميقة .البرج مربع الزوايا ذو هندسة عربية واضحة ، مبني من حجارة متناسقة ودقيقة النحت ، والنوافذ كثيرة وذات عقود وأقواس .

يمكن الصعود الى أعلى البرج ، البالغ ارتفاعه مئة وعشرون قدماً ، عبر سلم ضيق أصبح معظمه خرباً ومهدماً . فوق سطح البرج ما تزال تقوم منارة أصبحت بدورها نصف مهدّمة ، تبعاً لبعض النقوش والكتابات المحفورة التي ما تزال ظاهرة يعود بناء هذا البرج الى ما بين عامي ١٣١٠ و ١٣١٨م وقد بناه السلطان المملوكي قلاوون .

من الرملة الى يافا تمر الطريق عبر سهول رملية خصبة تكثر فيها المزروعات ، أما الأشجار فلا نجدها إلاّ حول القرى المأهولة .

في بعض الأماكن ، وعلى جوانب الطرق نلاحظ وجود أبراج كان يستخدمها الجند المكلّفون بحراسة الطرقات من اللصوص . كما يلفت انتباهنا خطوط التلغراف الممتدّة طوال الطريق . نصل الى يافا والى محطة جديدة وهامة من محطات رحلتنا .



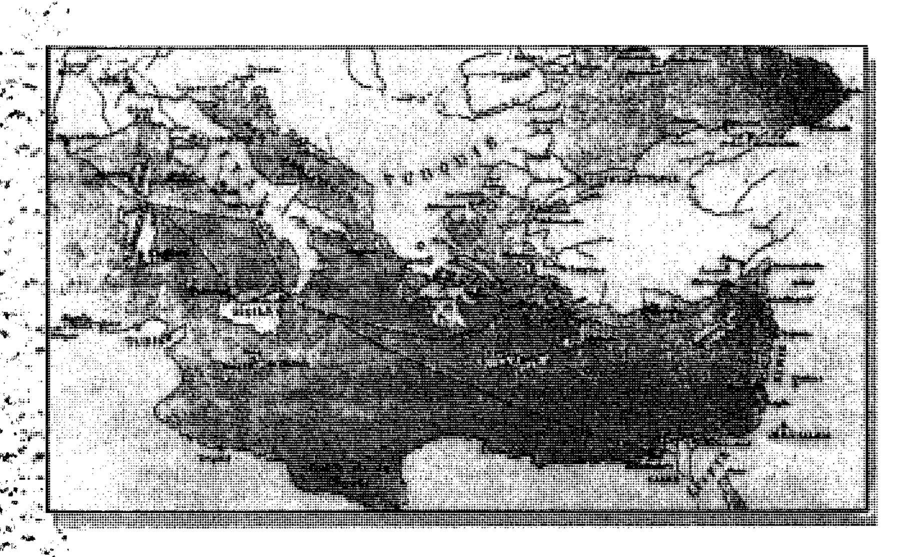
جوزيف أبو فل ، نحات الصّدف ـ رسم د . لنسولو
عن صورة فوتوغرافية



نساء من بيت لحم - رسم د. لنسولو - عن صورة فوتوغرافية

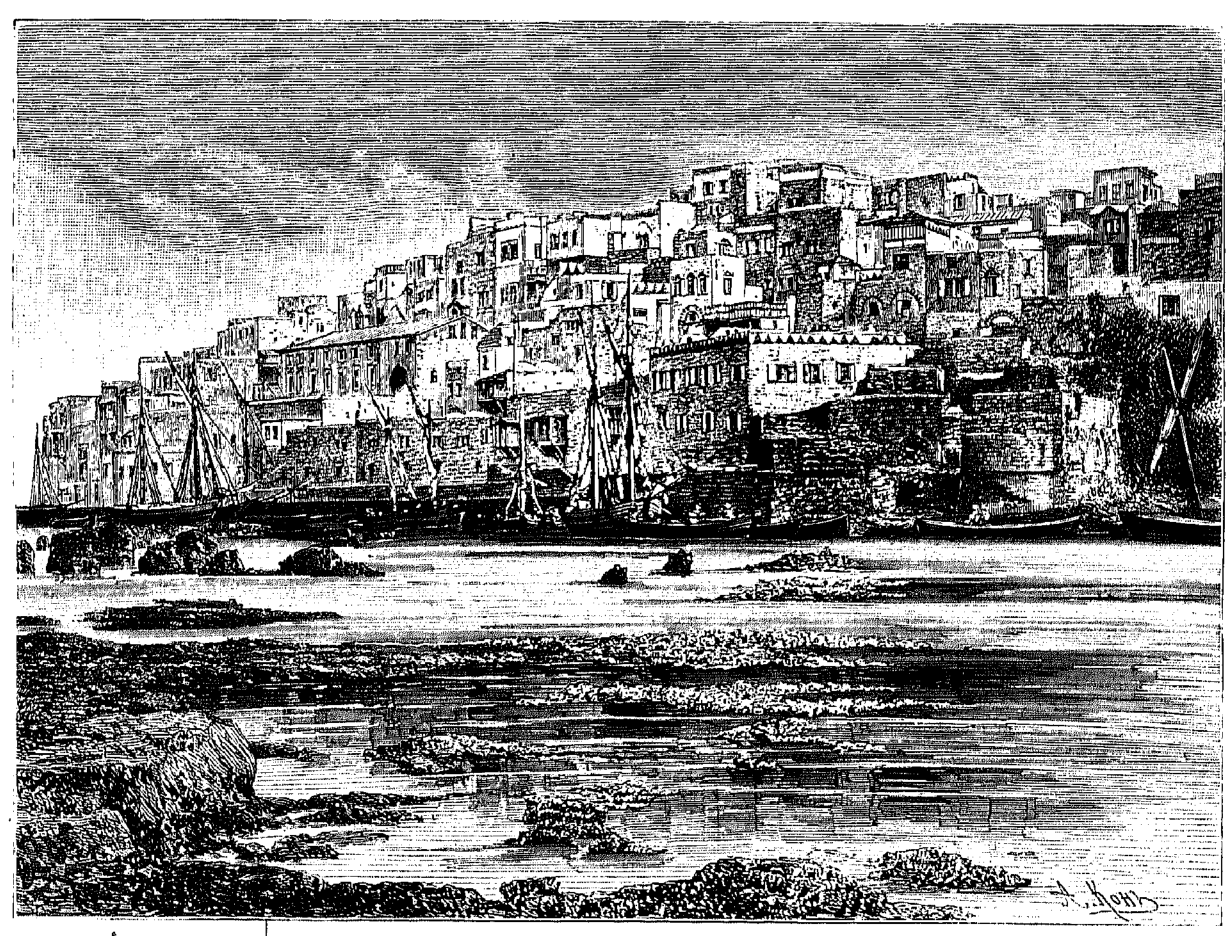
عين كريم

الفصل الثالث عشر



يافـــا

ليس في يافا آثار ومواقع تاريخية بالغة الأهمية ولكنها تبقى واحدة من أهم المدن القائمة على الشواطىء الشرقية لحوض البحر الأبيض المتوسط . إنها عبارة عن واحة خضراء تحيط بها البساتين والحدائق شرقاً ، في حين تمتد شمالاً وجنوباً مساحات شاسعة من التلال والكثبان الرملية . ميناء يافا صغير وقليل العمق وتحيط به سلسلة من الصخور البحرية ، فلا تترك سوى ممر ضيق يسمح بمرور المراكب الصغيرة والخفيفة الحمولة فقط . أما الخليج فواسع ومفتوح من كل الجهات أمام الرياح القوية دائماً في تلك البقعة المفتوحة من شواطىء المتوسط . وهكذا تبقى السفن الكبيرة مجبرة على الرسوّ في عرض البحر ، وقد تضطر في فصل الشتاء ، وخلال العواصف القوية ، الى التخليّ عن الرسوّ في يافا والتوجّه الى مرافىء



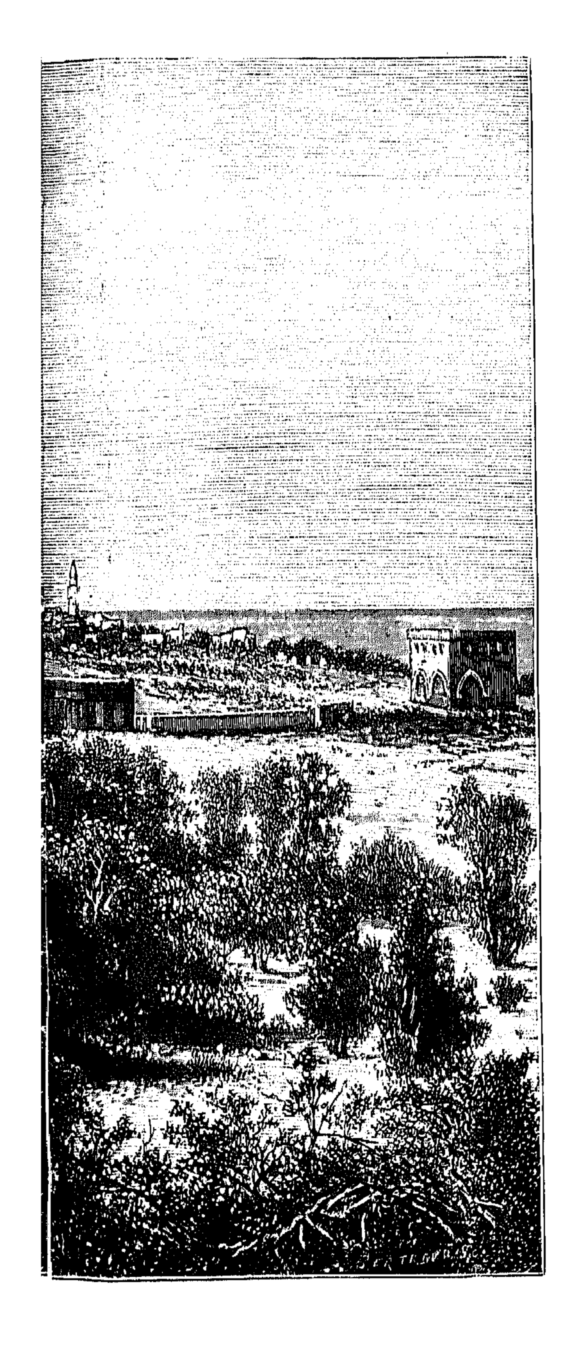
يافا من جهة المرفأ
رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية

أخرى قريبة مثل بيروت وبور سعيد لإنزال ما عليها من ركاب وبضائع .

يحيط بحوض المرفأ من جهة المدينة سور تتخلله في عدة أماكن سلالم بنيت خصيصاً لتسهيل عملية إفراغ المراكب وتحميلها . أما الرصيف فتزدحم فوقه الأكواخ والخرائب الجديرة بأن ترسم وتصوّر . على مسافة مئات الأمتار من شاطىء يافا تمتد سلسلة من الصخور البحرية ، وصولاً الى شواطىء بور سعيد في مصر .

أما الشاطىء الرملي الملتهب ، فهو نفسه الذي اجتازته جيوش بونابرت تجرّ ذيول الخيبة والمرض بعد تلك الحملة

إمرأة مصرية في يافا
رسم رونجا .
عن صورة فوتوغرافية .

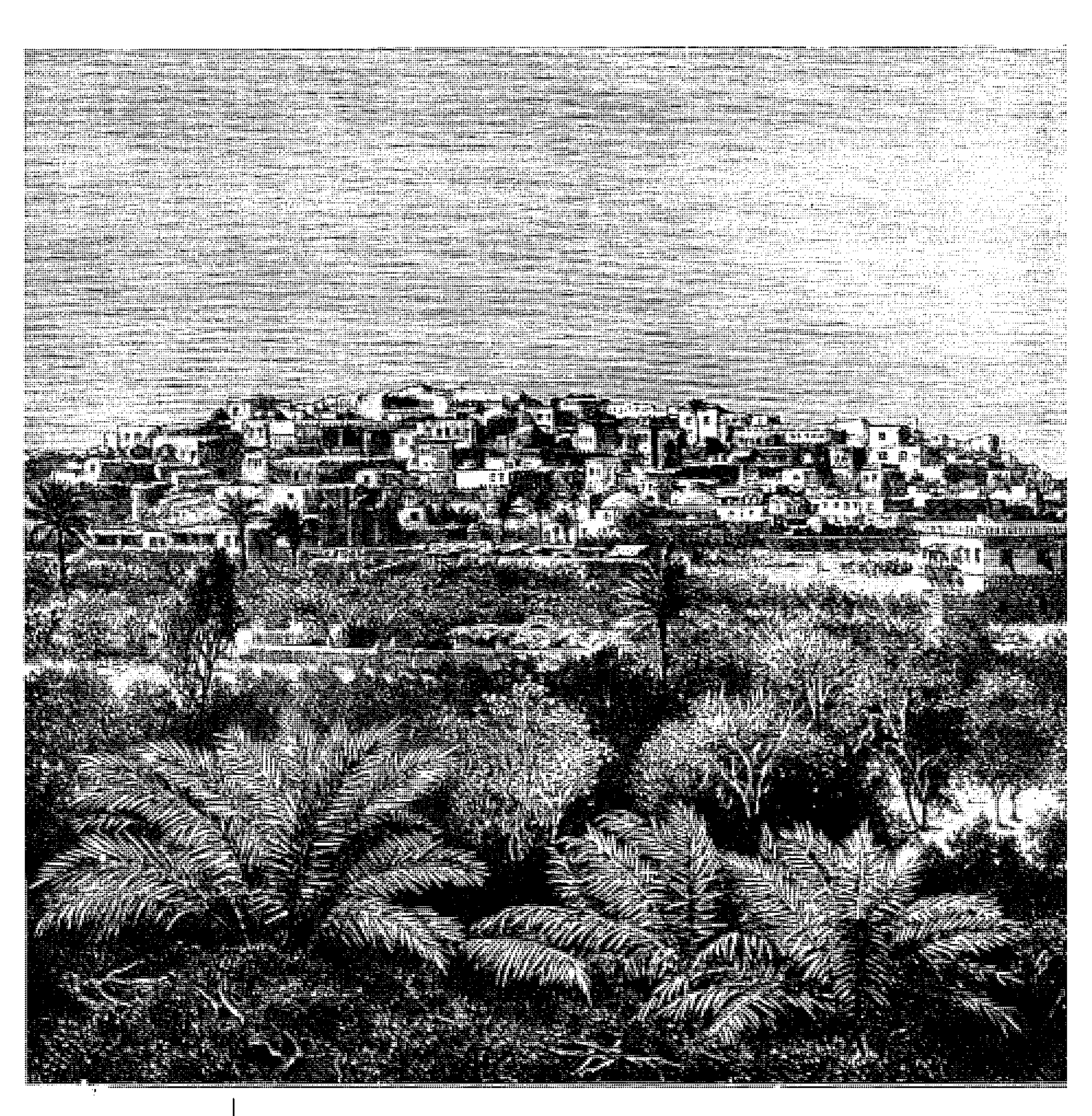




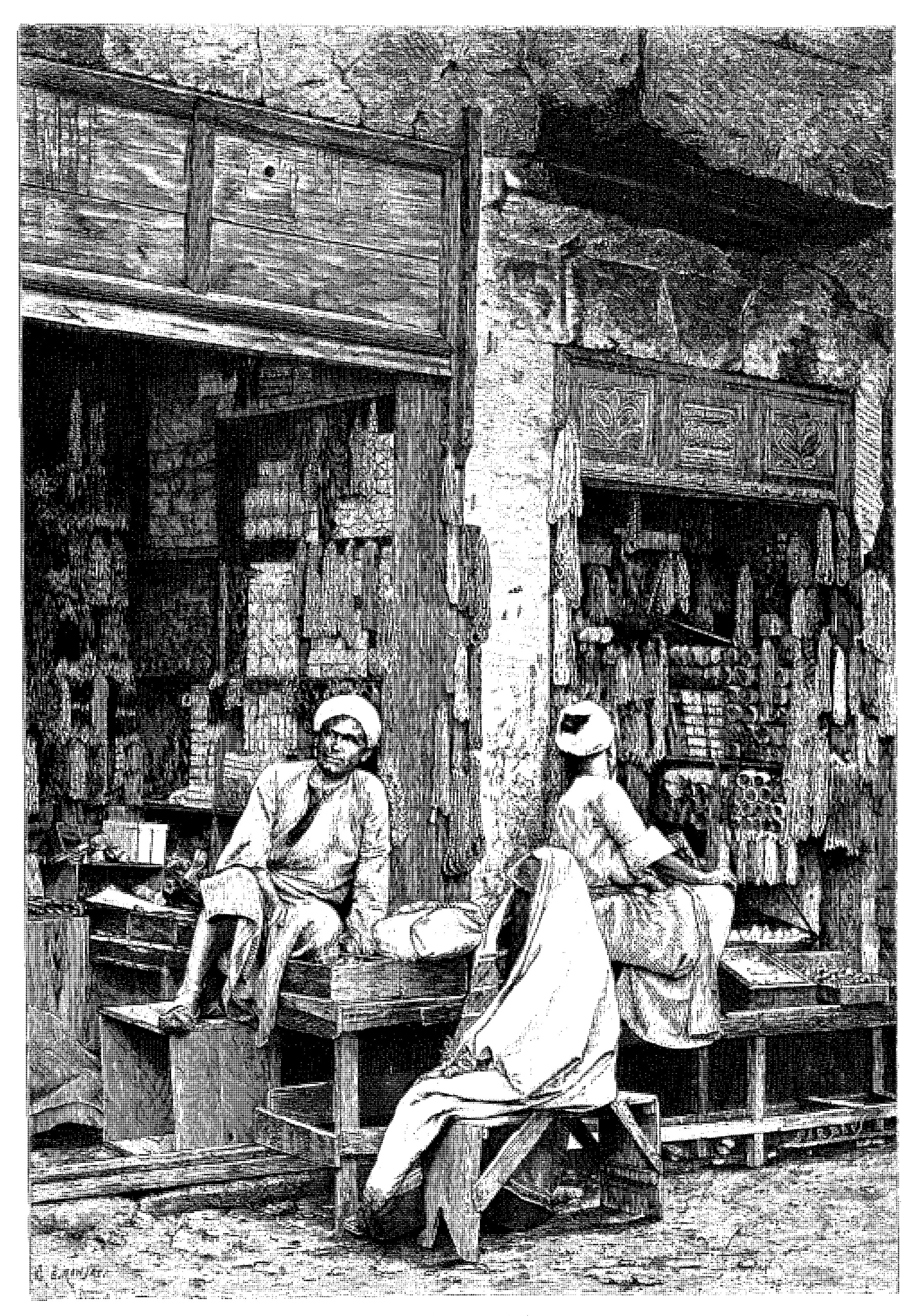
المجنونة والتعيسة في سوريا .

تصدّر يافا الكثير من الحبوب كالقمح والسمسم ، إضافة الى القطن والصوف والجلود والبرتقال والرمان والعنب المجفّف والفاكهة المختلفة ، وهي تُرْسَل الى مرافىء بور سعيد والإسكندرية . وفي يافا صناعة صابون وجرار وأباريق من الطين الأسود . أما أهم مواد الاستيراد فهي الاقمشة القطنية الانكليزية والاميركية والحرائر والعطور الفرنسية والأرز المصري إضافة الى النفط الاميركي .

من البحر تبدو يافا مرتفعة لوقوعها فوق مجموعة من الهضاب المتلاصقة .



يافا من جهة الشمال
رسم أ . دي . بار
عن صورة فوتوغرافية .



بائع اللؤلؤ ـ رسم رونجا ـ عن صورة فوتوغرافية .

شوارعها الداخلية ، المتجهة جميعاً نحو المرفأ ، ضيقة ومتعرجة تعلوها أحياناً بعض العقود وتتخللها سلالم وأدراج قديمة وضيقة . أما المنازل فقديمة غير منتظمة ، تتلاصق جدرانها وتعلو سطوحها فوق بعضها البعض . في أعلى المدينة حيّ جديد بشوارعه ومنازله ، تنتشر فيه المدارس ودور الايتام والعجز ومنازل القناصل وغيرها .

بمحاذاة رصيف الميناء يمتد شارع عريض تزدحم فيه دائماً قوافل الجمال والبغال والحمير والعربات التي يجري تحميلها أو إفراغها في المستودعات والمخازن . تصل هذه الطريق الى السوق ، أو البزار ، الممتلئة دائماً بالحيوية والحركة . في تلك السوق نماذج بشرية متنوعة ومختلفة . فهناك القادمون من شمال سوريا وشرقها ، وهناك الوافدون من مصر ، لا سيما الجنوب . منهم اللبنانيون والدمشقيون وبدو حوران وشواطىء البحر الميت ويهود القدس وأقباط مصر والرهبان الروم . ثم هناك أيضاً الالمان والروس والفرنسيون والايطاليون والمالطيون .

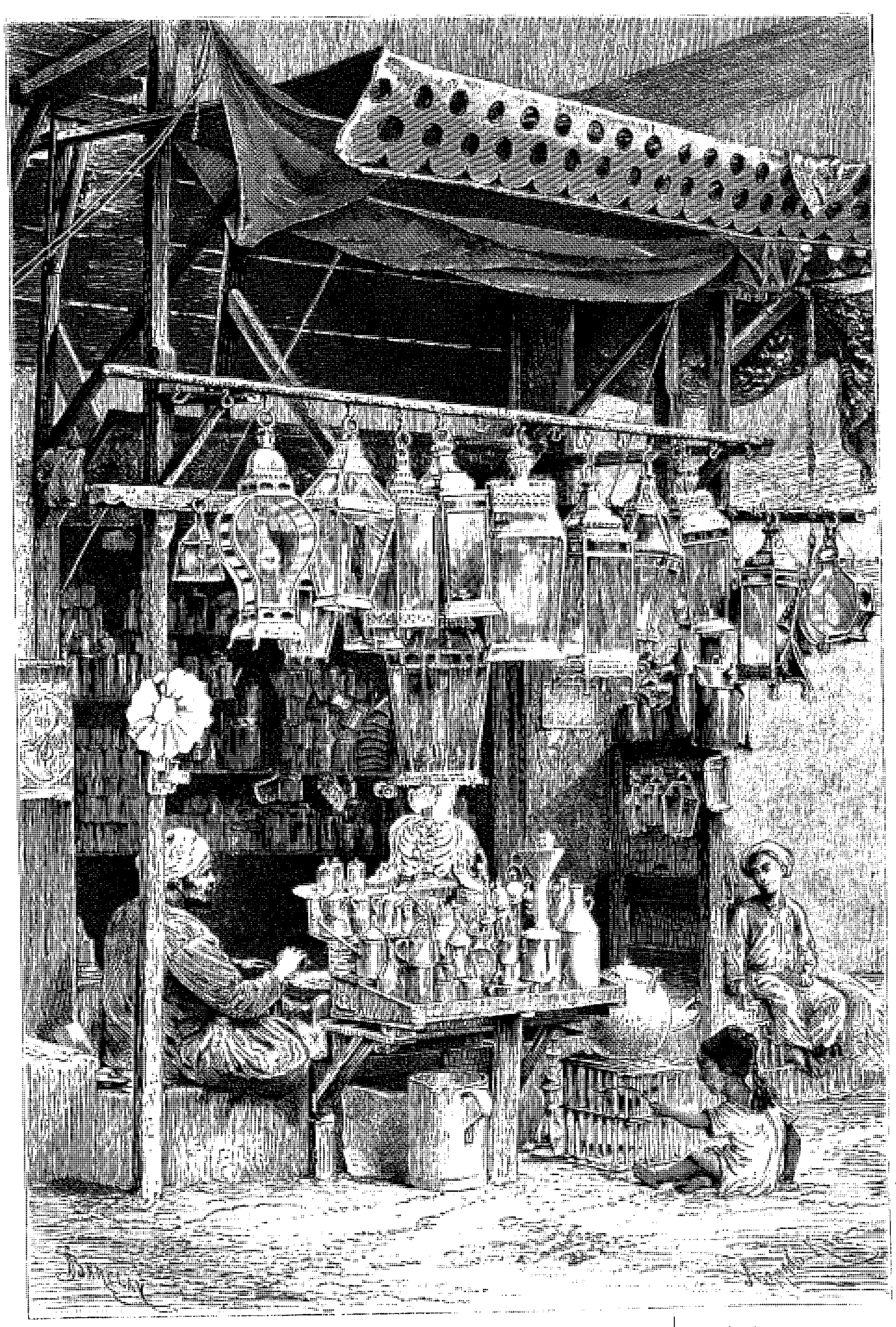
كل هذا الخليط من البشر يمتزج في ضجة الاصوات واللغات واللهجات المختلفة بين أكوام البضائع من حبوب وفاكهة وأصواف وأقطان وجلود .

المحلات والدكاكين ذات مظهر مميّز يصعب وصفه بما تضمّه من بضائع وأشياء متنوعة ومختلفة . فمن الأقمشة الأوروبية والأميركية الى براقع النساء والكفيّات الملونة والالبسة السورية التقليدية وما يتصل بها من أشكال الزينة ، الى الأحذية الجلدية ، الصفراء للنساء والحمراء للرجال ، ثم هناك محلات الزجاجيات واللآليء المختلفة والعقود والزينة والمصابيح ، الى ما هنالك من سلع وأشياء يصعب حصرها .

قبالة المرفأ يقع دير الفرنسيسكان اللاتيني . انه مجموعة من الابنية المتلاصقة والمتكئة على بعضها بعض يربط بينها مجموعة من السلالم والممرات المتعرّجة . في أسفل هذا البناء الضخم توجد مخازن ومحلات مختلفة ، وفي الطابق الذي يعلوها توجد الكنيسة وقاعة الطعام وغرف الرهبان . أما أعلى الدير فيضمّ الغرف الخاصة والضيوف والوافدين الأجانب ، وهي عموماً أكثر ترتيباً وتعرّضاً للشمس والهواء . ومعظم المسافرين الى الأراضي المقدسة يفضّلون اختيار هذا الدير خلال اقامتهم .

قرب دير الفرنسيسكان ، نحو الجنوب ، يقع دير الأرمن بأبنيته الكبيرة ، والذي اقيمت فيه مستشفى خاصة بمصابي وباء الطاعون ، وذلك بعد عودة الحملة التعيسة التي قادها بونابرت الى عكا . هذا الدير عبارة عن سلسلة من الأبنية المرتفعة التي يمكن الصعود الى سطحها بواسطة سلالم عريضة ذات عقود .

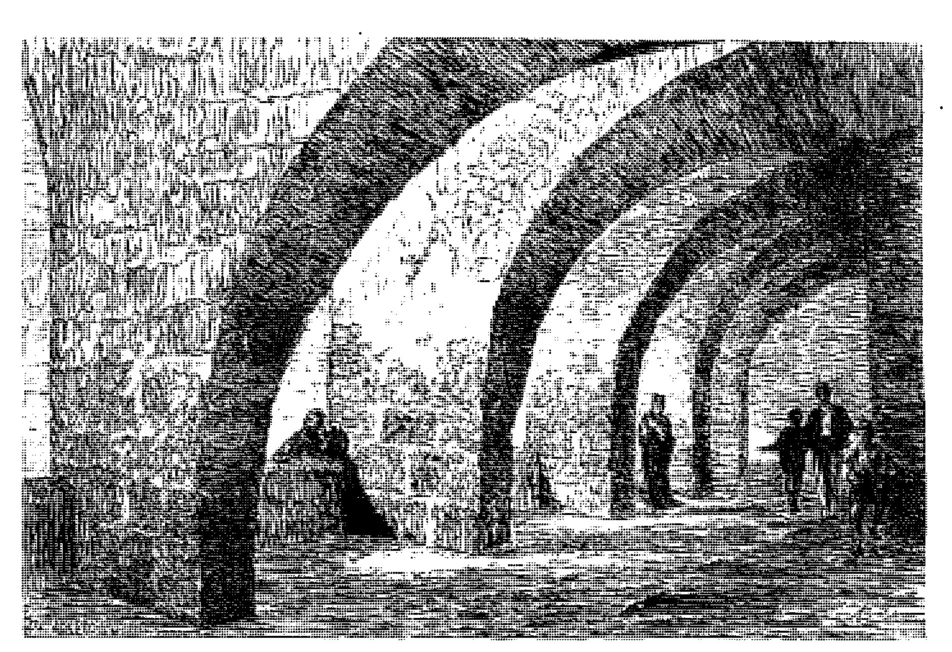
في أعلى الدير يوجد الرواق الشهير الخاص بمصابي الطاعون . إنه عبارة عن قاعة كبيرة ذات قناطر ضخمة وعقود ، وتطل نوافذه العريضة على منظر بحري



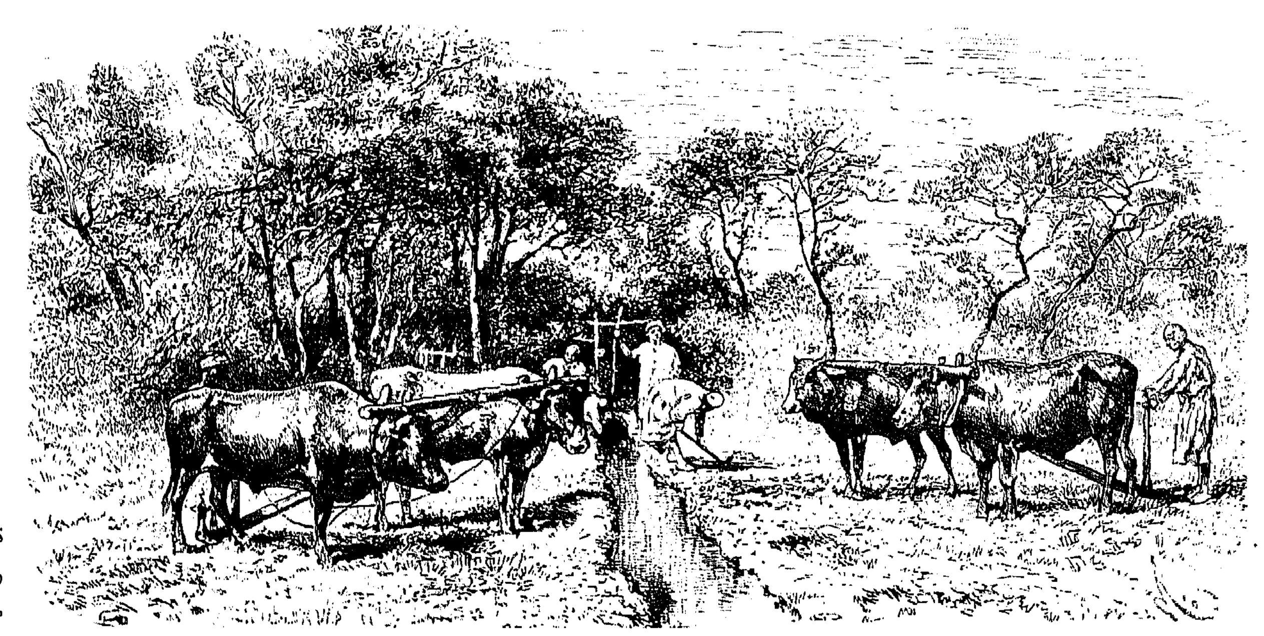
بائع المصابيح
رسم باركلي - عن صورة فوتوغرافية .

المدرسة الأرمنية في يافا
رسم باركلي
عن صورة فوتوغرافية .

جميل . وتقول الروايات ان القنصل الأول بونابرت ، وفي محاولة لرفع معنويات جيشه المهزوم ، حقن نفسه في هذا المكان بقيح دمّلة أحد مصابي الطاعون . وتضيف الروايات انه عاد وسمّم أولئك المصابين الذين لم يستطع حملهم معه في انسحابه نحو العريش خوفاً عليهم من الموت الشنيع على أيدي الأتراك . روايات كهذه تثير الاشمئزاز والغضب .



رواق المصابين بالطاعون
داخل دير الأرمن
رسم د . لنسولو
عن صورة فوتوغرافية



قرية المصريين
رسم ريو - عن صورة فوتوغرافية .

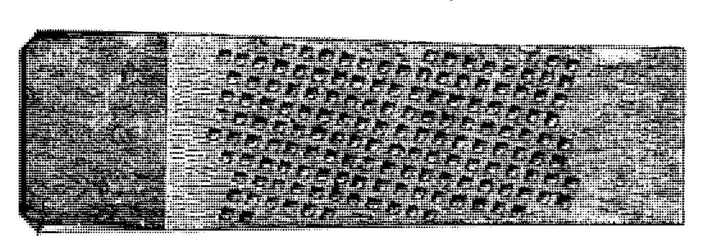
فهي أولاً غير قابلة للتصديق ثم انها لا تستند الى مصادر موثوقة ، بل وعلى العكس من ذلك فإن السجلات التاريخية والمصادر الموثوقة تشير الى إجلاء جميع المرضى تحت اشراف اطباء عرفوا بمهارتهم وإنسانيتهم .

وفي الطوابق الوسطى من هذا الدير رواق آخر كبير يضم مدرسة للأطفال الأرمن . التلاميذ ، كما وجدناهم ، سعداء نشيطون وأذكياء . إنها مدرسة حسنة الادارة ، طلابها يتميّزون بالطاعة والاجتهاد ، ودفاترهم المدرسية تدل على العناية والدقة .

الى الشمال من يافا ، قرب البحر ، توجد قرية صغيرة منازلها من طين وسكانها مصريون جاؤوا إثر الحملة التي قادها ابراهيم باشا . حافظ هؤلاء المزارعون على نمط خاص في حياتهم وعاداتهم التي بقيت لتدل ومن النظرة الأولى على أنهم أبناء وادي النيل .

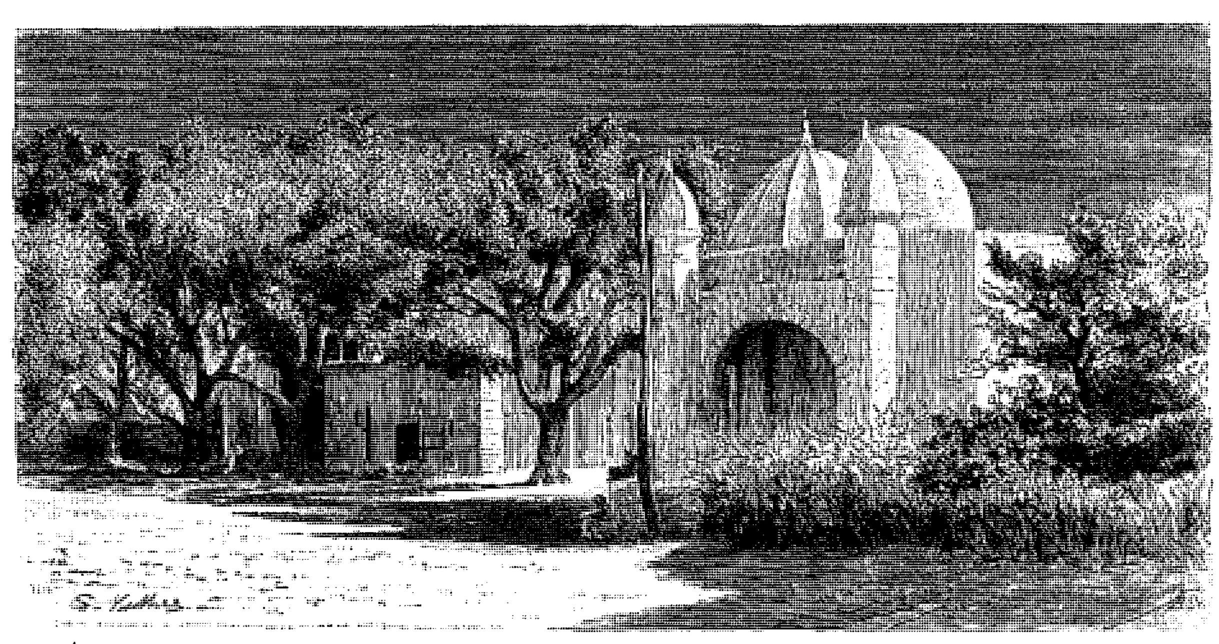
في موسم حصاد القمح ينصرف جميع الفلاحين الى هذا العمل . انهم يستخدمون لقطع السنابل أدوات خاصة بهم وهي عبارة عن سكاكين طويلة ذات انحناء بسيط . وبعضهم يستخدم مناجل شبيهة بالمناجل الأوروبية ولكنها أصغر حجماً .





النورج السوري
رسم للمؤلف

بعد الحصاد تجمع السنابل في رزم مربوطة بالحبال ثم تنقل على ظهور البعير والجمال الى ساحات بين المنازل حيث تترك في الشمس ليكتمل جفافها ونضجها . وبعد أيام تنثر سنابل القمح على الأرض بشكل دائري ويؤتى بالحمير كي تدرس فوقها وقد ربط كل اثنين الى بعضهما بعض ، وقد يستعاض عن الحمير بالثيران . تلك هي عملية درس القمح ، أي فصل الحبوب عن السنبلة والقشور . ولكن هناك طريقة أخرى مستعملة وتقضي باستخدام جهاز قديم جداً هو عبارة عن لوح خشبي غليظ يبلغ المترين طولاً وحوالي ثمانين سنتمتراً عرضاً ، في مقدمته انحناء نحو الأعلى وفي جانبه السفلي ثبّتت قطع حادة وبارزة من الحجارة الصوانيّة الصلبة . يربط هذا الجهاز الى الحمير أو الثيران من جهته المرتفعة ، حيث يقف الفلاح لتوجيه البعير ، فينزلق اللوح بسهولة فوق السنابل التي ، وبفعل الضغط والوزن ، تنفصل حبوبها عما يغلّفها من قشور . هذا الأسلوب في درس القمح شائع أيضاً في مناطق الجليل ودمشق ولبنان وكذلك في اليونان .



عين أبو نبوت

رسم ج . فويلييه
عن صورة فوتوغرافية

المحراث المستخدم في فلسطين بسيط وهو عبارة عن «سكة» خشبية صلبة في طرفها قطعة حديدية حادّة تشّق الأرض ولكنها لا تقلب التراب لأنها غير مزودة برفش عريض . في الطرف الآخر قبضة مثبتة عمودياً الى المحور يمسك بها الفلاح بيد واحدة في حين ان اليد الأخرى توجه البعيرين اللذين يجران السكة وقد ثبّتا الى بعضهما بواسطة نير يمنعهما من الابتعاد عن بعضهما ويجعلهما يسيران باتجاه واحد تبعاً لأوامر الفلاّح . ويلاحظ ان الثيران المستخدمة للفلاحة في يافا من جنس مصري وهي أكثر ضخامة من تلك الموجودة في باقي أنحاء سوريا .

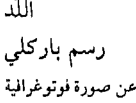
اللدّ

بعد محطة استمرت عدة أيام في مدينة يافا الخلاّبة نعود أدراجنا الى القدس خارجين لمسافة بسيطة عن الطريق المعتادة وذلك للقيام بزيارة اللدّ . وعند الخروج من يافا نتوقف قليلاً عند نبع جميل يعرف باسم «عين أبو نبّوت» حيث يقوم بناء قديم من الرخام الأبيض ، ذو هندسة مميزة تعلوه القبب وتظلّله أشجار جميّز شاهقة . كما تحيط به مقاه ومنتزهات يرتادها سكان المنطقة لقضاء أوقات جميلة يدخنون خلالها النارجيلة .

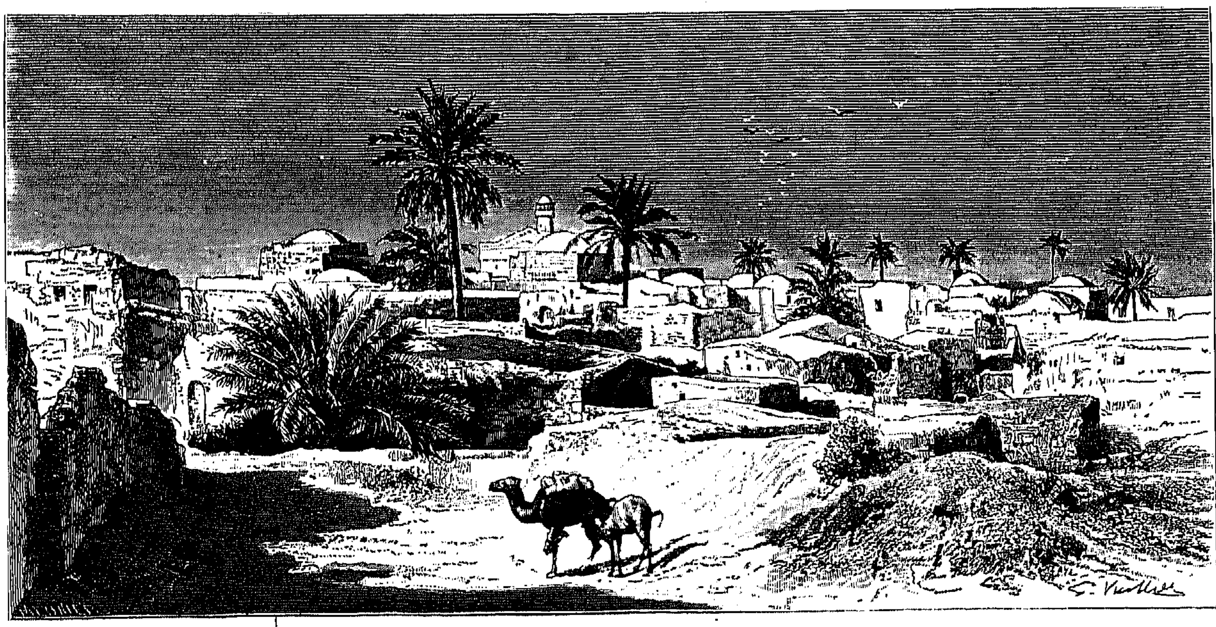
للوصول الى اللّد نسلك طريق القدس ثم ننعطف يساراً عند قرية السفيريّة لنسير في طريق متعرجة في سهل واسع ترتفع فيه سنابل القمح الذهبية . ومع وصولنا الى منطقة تكثر فيها أشجار الصبّير والجميز والنخيل نطلّ على بلدة اللد الجميلة التي يصل تاريخها الى مراحل مغرقة في القدم .

منذ أيام الرومان وحتى يومنا هذا تهدّمت هذه البلدة عدة مرّات ثم أعيد بناؤها . آخر الحملات التي شنّت عليها كانت حملة صلاح الدين الأيوبي ومن بعده الاتراك الذين دمّروها كلياً عامي ١١٩١ و ١٢٧١م . أما ازدهارها الحالي فعائد الى خصب تربتها والى موقعها الهام على طريق قوافل دمشق ومصر .

باستثناء موقعها وجمالها ليس في اللد مواقع أثرية وتاريخية كثيرة جديرة بالوقوف عندها . أهم صرح فيها هو كنيسة القديس جاورجيوس «سان جورج» التي تقول الروايات عنها انها بنيت فوق قبره .



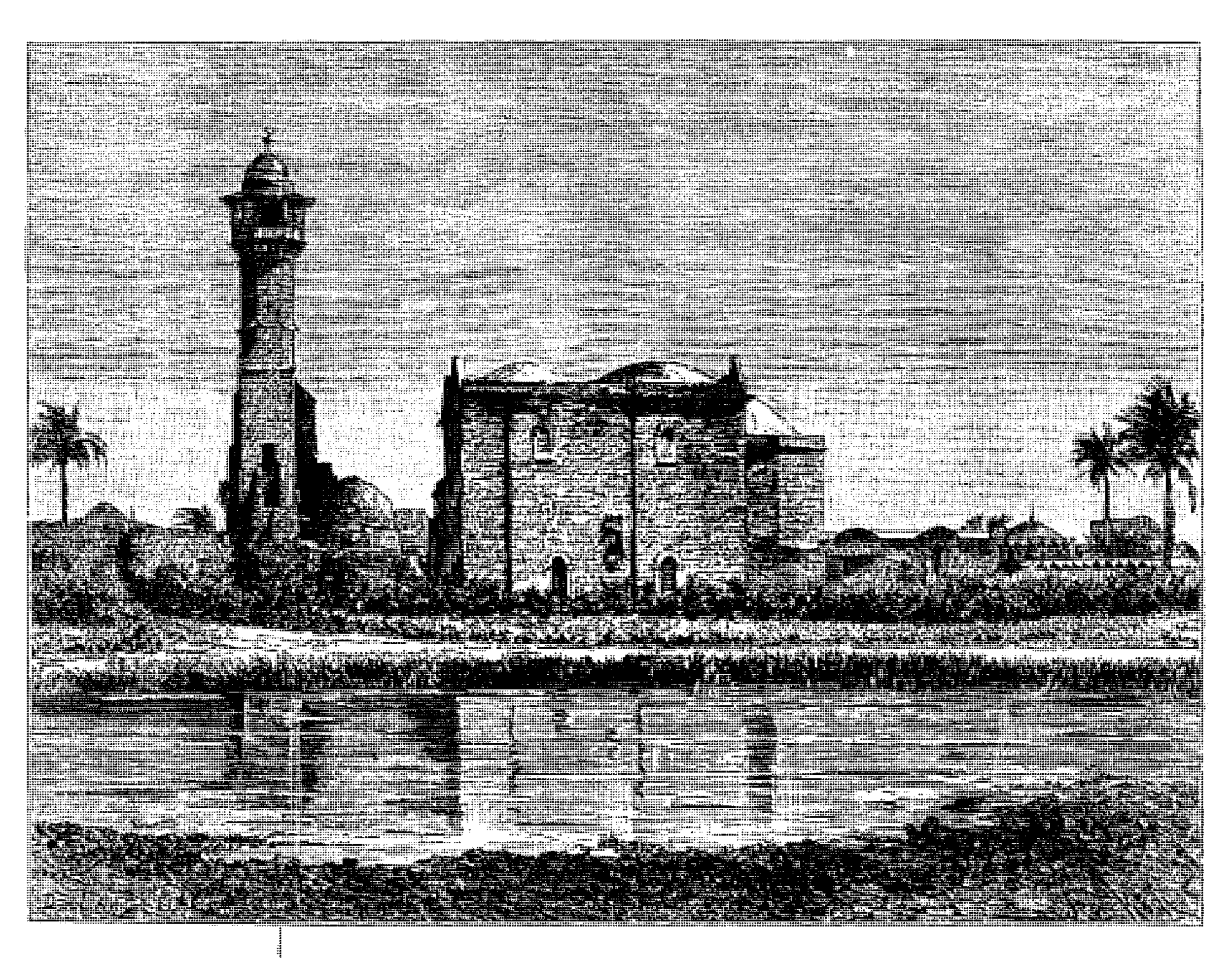
اللّد
رسم باركلي
عن صورة فوتوغرافية



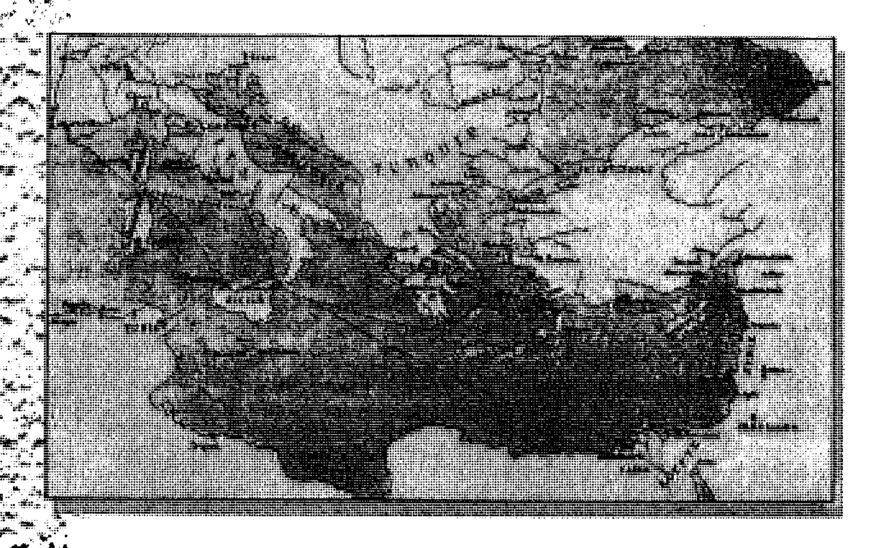
في الأيام الاولى للمسيحية كانت تقوم في هذا الموقع كنيسة كبيرة . في أواسط القرن الرابع عشر أقيمت على أنقاضها كنيسة أخرى جديدة . أما اليوم وبعدما أصبح المكان بين أيدي الروم الأرثوذكس ، فقد أقيمت فوق جزء من الانقاض كنيسة ليس فيها الكثير مما كان قائماً في الماضي . كانت هذه الكنيسة الضخمة مكوّنة من ثلاثة أقبية وثلاثة صحون وأوسطها كان الأكثر ارتفاعاً وهي تشبه بتصميمها ونقوشها كنيسة القديس يوحنا (سان جان) في السامرة ، وهذا قد يعيد بناءها الى القرن الثاني عشر . ويقال إن الناووس الموجود تحت مذبح هذه الكنيسة كان يضمّ قبر القديس جاورجيوس . الأطراف الغربية للكنيسة تحوّلت على أيدي العرب الى مسجد تعلوه مئذنة جميلة . ويبدو أن الحجارة المستحدثة في بناء هذا المسجد تعود الى حقبات قديمة .

شوارع اللد عبارة عن أزقة ضيقة ومتعرّجة وتغطيها الرمال . كثيراً ما نشاهد قوافل الجمال تعبرها بهدوء محمّلة بالبضائع المختلفة . وعلى الرغم من طابع الفقر والبساطة المخيّم على هذه البلدة ذات المنازل المبنيّة من الطين في معظمها فإن فيها من الحركة والنشاط ما ينبىء بمستقبل زاهر ومشرق .

كنيسة القديس جاورجيوس
رسم د . لنسولو
عن صورة فوتوغرافية



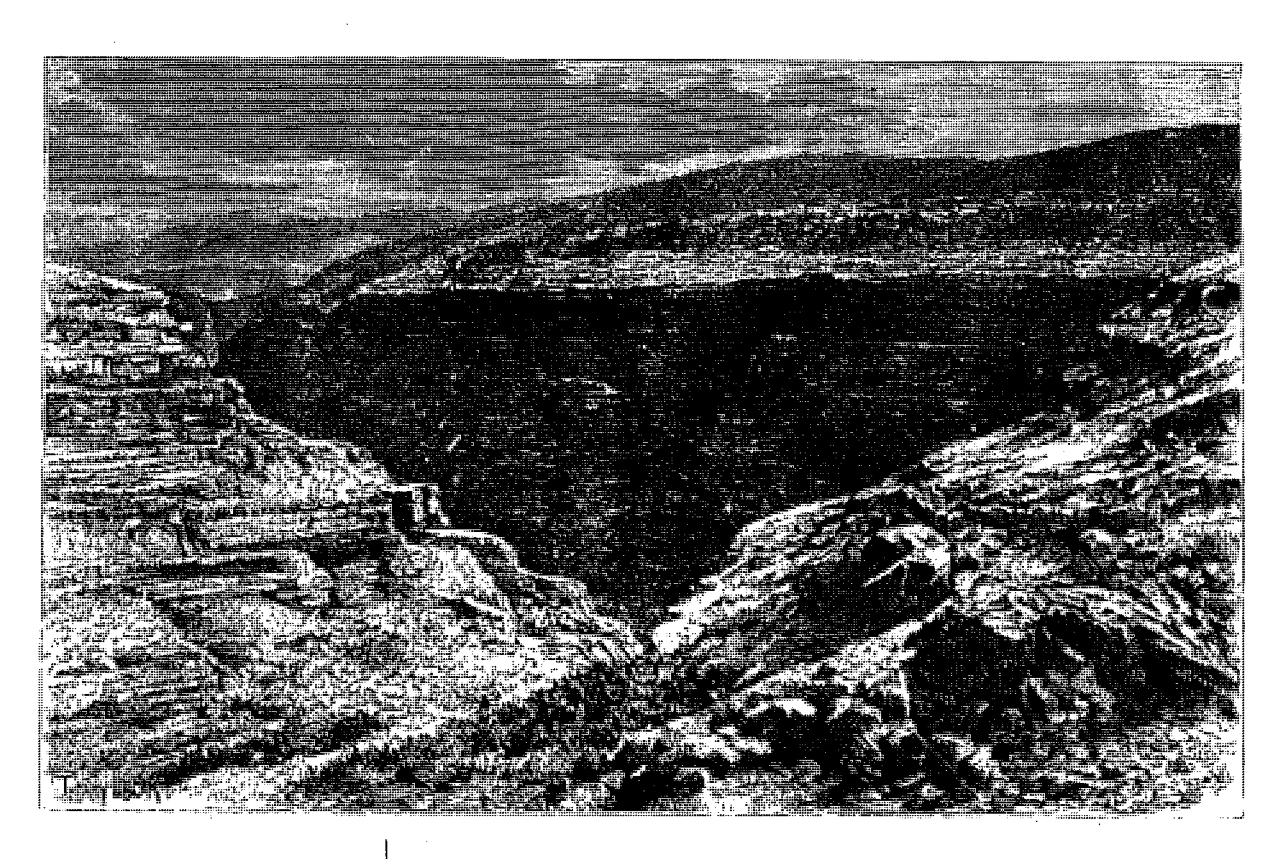
الفصل الرابع عشر



مار سابا وعين جدّي

كانت خطة الرحلة تقضي بالإنطلاق من القدس نحو الشاطىء الجنوبي للبحر الميت والإلتفاف حوله على الخط الساحلي شرقاً من الكرك حتى غور الأردن ثم الصعود شمالاً على ضفاف النهر ، أو شرقاً باتجاه وادي الغور . ولكن ولسوء الحظ وبسبب الإضطرابات الأمنية في تلك المناطق ما بين القبائل والسلطة العثمانية ، وحرصاً على حسن تحقيق أهداف الرحلة دون التعرض للخطر ودون تقديم تضحيات لا مبرر لها كان لا بدّ من اتباع خط سير جديد ، وذلك باتباع الشاطىء الغربي ثم العودة شمالاً عبر جرش بعد استتباب الأحوال الأمنية .

من باب يافا نغادر القدس نزولاً نحو وادي جيحون عبر طريق وعرة مهدّتها سيول المطر ، وتحيط بها يميناً ويساراً بساتين مزروعة بعناية بأنواع مختلفة من الخضار منها



مضيق وادي النار (سدرون)
رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية

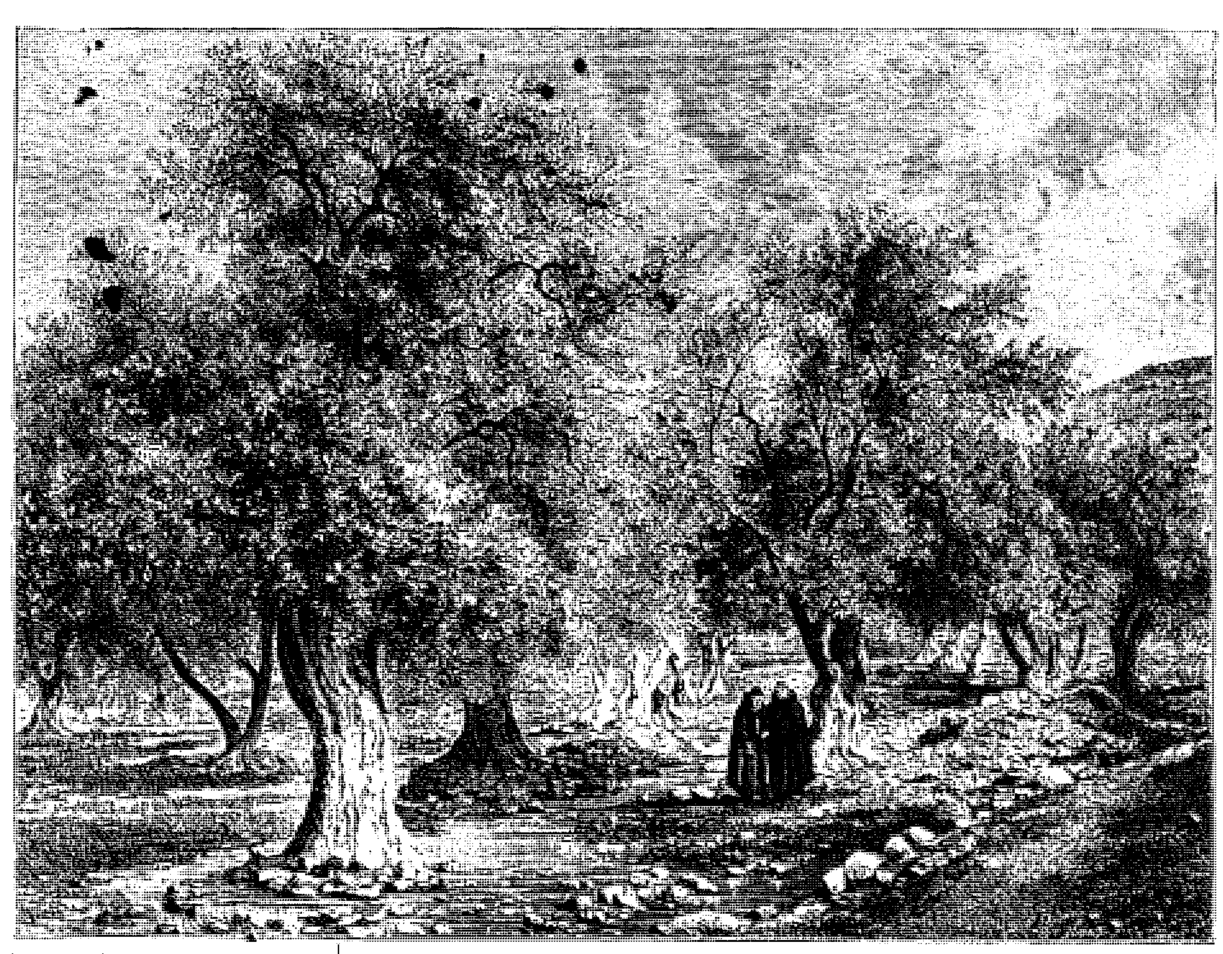


بدويات التعامرة ـ رسم سيروي ـ عن صورة فوتوغرافية

الملفوف والقثّاء والبطيخ ، وإلى جانبها حقول خصبة ترتفع فيها أشجار زيتون باسقة وارفة الأغصان .

بعد ساعات من السير في عمق الوادي تتجه الطريق صعوداً نحو منطقة عارية تماماً ليس فيها سوى الصخور الصوّانية ثم تتجه عبر هضاب الكتف الشمالي للوادي ، حيث نلتقي بمجموعات من الحجاج الروس العائدين من مار سابا . وبعد قليل تتجه الطريق نزولاً من جديد نحو وادي (سدرون : Cedron) المعروف باسم «وادي النار» وذلك بسبب الحرارة المرتفعة التي تخيّم عليه دائماً .

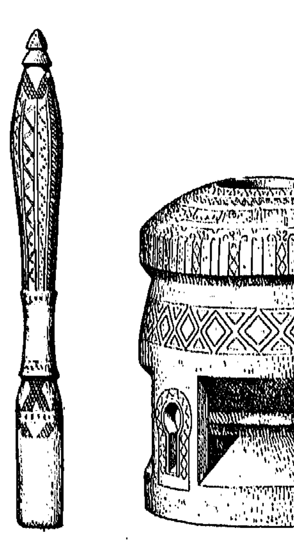
فوق مرتفع قريب نشاهد مخيماً لعرب التعامرة فنقترب منه لزيارته ولشرب حليب النوق الذي يُقدم عادة ترحيباً بالضيوف . خيام هؤلاء البدو منخفضة ومصنوعة من قماش سميك أسود مخطط بالأبيض ، ومنسوج من وبر الماعز ، وتقوم من

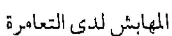


زيتون وادي سدرون

رسم لنغلو

عن صور فوتوغرافية

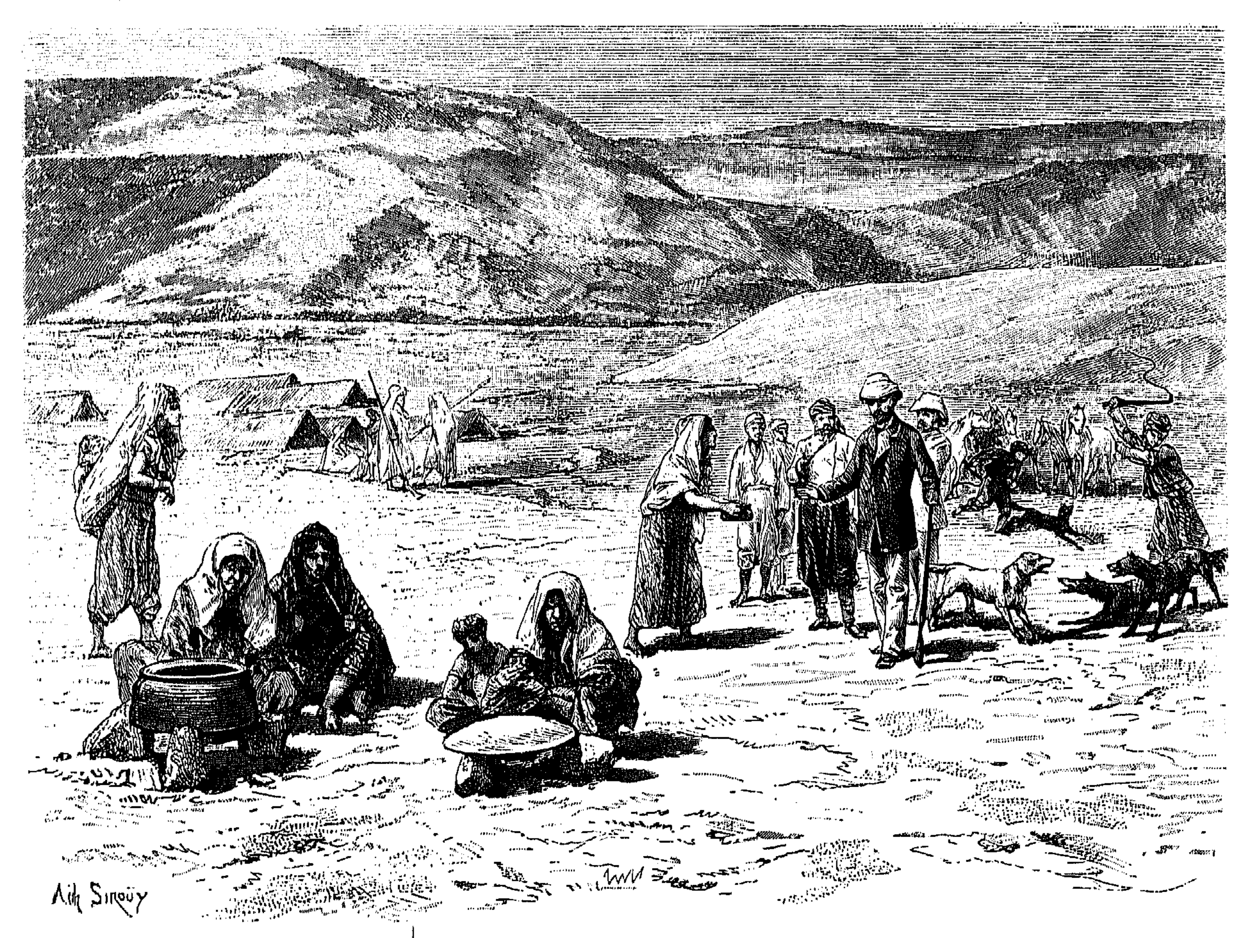




المهابش لدى التعامرة

الداخل على دعائم خشبية صغيرة ، أما مدخل الخيمة فيكون دائماً نحو الشمال . ينتشر عرب التعامرة في مناطق واسع تمتدّ ما بين الخليل وبيت لحم والقدس والبحر الميت ، وهم لكثرة عددهم يضمّون خمسماية رجل قادر على حمل السلاح . وعلى الرغم من أنهم يملكون الكثير من القطعان إلاّ أنه لا يمكن وصفهم بالرحّل أو الرّعاة فيهم مثلاً يزرعون كل عام بعض حقول القمح ويحفظون المحاصيل في المطامير ، وهي حفر عميقة محفورة ومخبّأة بعناية وفن فائقين . أما قطعانهم فتتألف عموماً من الماعز والخراف السوداء والسمراء .

نساء التعامرة لا يضعن البراقع على وجوههن ، وعملهن الأساسي غالباً ما يكون طحن القمح وصنع الخبز فوق صاج حديدي نصف دائري موضوع فوق الجمر الملتهب . كما ينصرف بعضهن الى صنع الزبدة ، أو السمن ، وذلك بخضّ الزبد ، أو الحليب الطازج ، الموضوع في وعاء معلّق غالباً ما يكون من جلد التيس . أما الرجال فغالباً ما يكونون جميعاً في المرتفعات والجبال يرعون قطعانهم ويحرسونها ، بعضهم يحمل بنادق طويلة ذات قنادق مطعّمة بالفضة ، وبعضهم الآخر يحمل رماحاً وتروساً مميّزة .



مخيم التعامرة ـ رسم سيروي ـ عن صورة فوتوغرافية

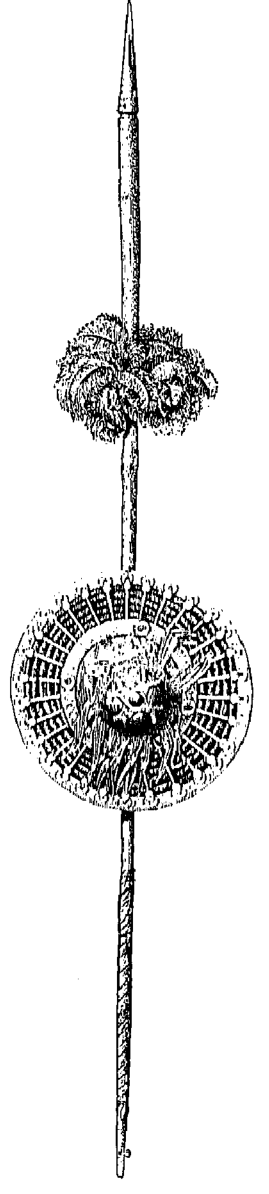
دير مار سابا

الطريق الى دير مار سابا صعبة ووعرة وتمر عبر الهضاب شبه الصحراوية المحيطة بوادي النار ، حيث الحرارة المرتفعة دائماً توحي بخيالات تتحرّك معها الصخور الملتهبة الصمّاء والنباتات الصحراوية القليلة .

وفي مكان مشرف على الأعماق الموحشة لوادي النار يقع دير مارسابا معلقاً على الجوانب شبه العمودية لهذا الوادي . إنه عبارة عن مجموعة مستطيلة الشكل من المباني القديمة والجميلة الغريبة البناء والمتداخلة في بعضها البعض ، تنفصل عن بعضها بسطوحها وشرفاتها وتتصل وتترابط عبر سلالم وممرات لا تحصى . في أعلى الدير يقوم برج كبير مربّع الزوايا ، سميك الجدران ، ويشرف على جميع الأراضي المجاورة . تحيط بأبنية الدير أسوار منيعة ، وهي من الشمال والغرب تنتصب عمودياً فوق الوادي العميق . مدخل الدير عبارة عن باب أو فتحة قائمة على ارتفاع لا يمكن تجاوزه إلاّ بواسطة سلّم متحرّك يوضع عند الحاجة ، أما البوابة فحديدية ، مزدوجة ، منخفضة وضيّقة . بعد ذلك تأتي مجموعة من السلالم الشديدة الانحدار تؤدي الى بوابة حديدية أخرى تليها أيضاً سلالم تؤدي الى باحة مبلّطة تقوم في وسطها قبة صغيرة كثيرة الزخرفة ، وهي على ما يقال قبراً فارغاً كان يضمّ رفات القديس سابا التي نقلت منذ زمن طويل الى البندقية . يجتذب هذا الضريح سنوياً الكثير من الحجاج اليونان والروس ، وتقوم وراءه كنيسة القديس نقولا التي حفر بعض اجزائها في الصخر . الكنيسة الرئيسية في هذا الدير واسعة وذات أهمية كبيرة . يعود بعض اجزائها الى عصور قديم وربّما الى عهد جوستينيان . أما زينتها وزخرفتها فغنية جداً وذلك بفضل عناية الحجاج والأباطرة الروس . من أبرز ما فيها مجموعة من اللوحات البيزنطية الغريبة المرسومة فوق خلفيات مذهّبة ، وتمّثل المراحل الأساسية في حياة القديس سابا . ويبدو أن بعض هذه اللوحات قد استبدل من قبل بعض الهواة بأخرى مزيفة رسمت في روسيا . صحن الكنيسة واسع جداً ويقوم على أعمدة من الرخام . ومن العقود تتدلى مصابيح ذهبية وفضية مجلوبة من بلاط بطرسبرغ . كما أن الحكومة الروسية قدمت الى الدير جرسين ضخمين من البرونز يتردد صداهما القوي عبر وادي النار وصولاً الى شواطىء البحر الميت .

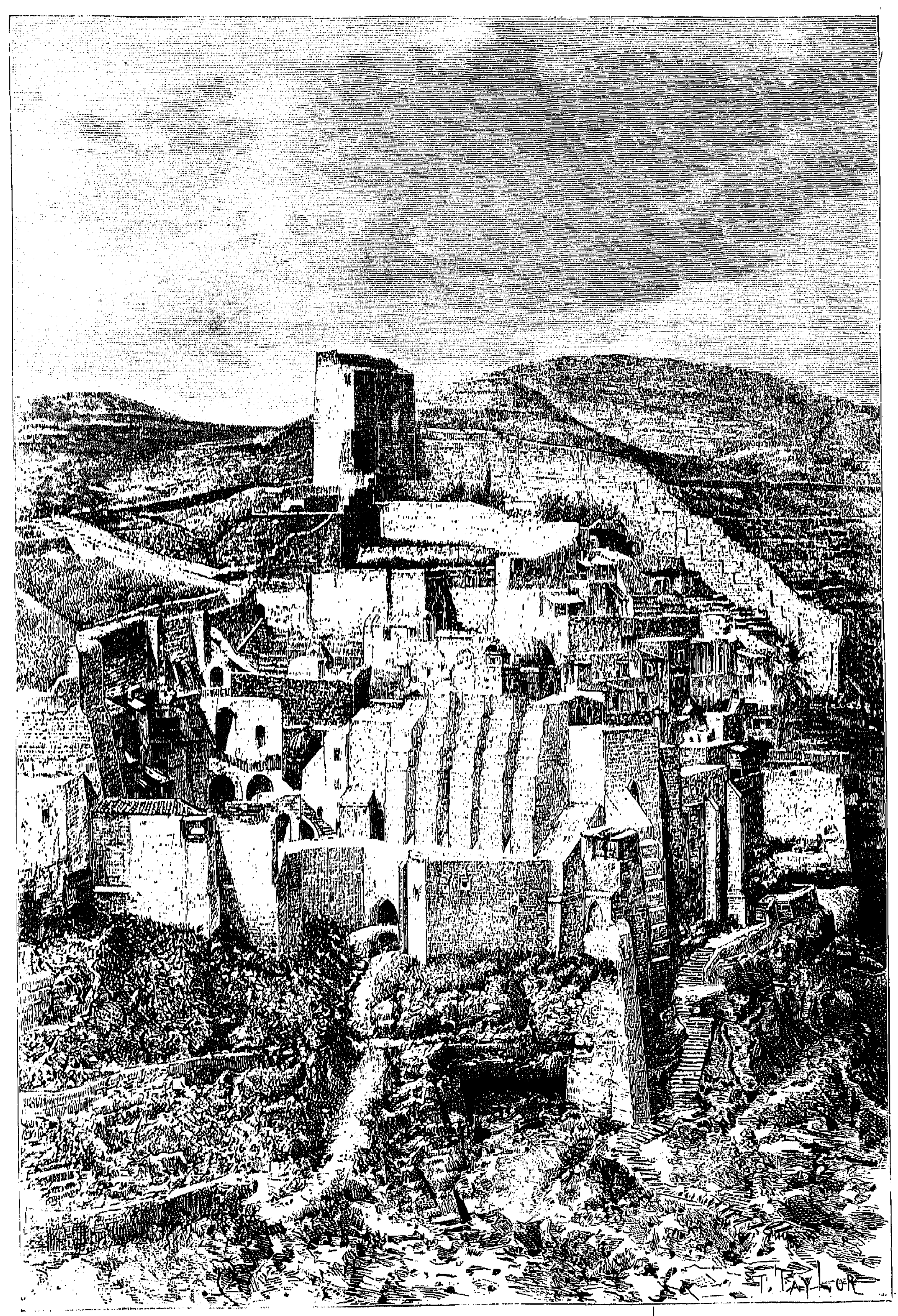
عند الطرف الشمالي للدير ، وفوق سطح تحوّل الى حديقة ترتفع شجرة نخيل فريدة ، من النوع الذي لا تحتوي ثماره على بذور . ويؤكد الرهبان أن هذه الشجرة قد زرعها القديس سابا نفسه . في الجهة الجنوبية تقع الحجرة التي كان يسكنها هذا القديس ، وهي محفورة في الصخر ومبلّطة بفسيفساء حديثة .

الى يمين الغرفة باب يقود الى الغار الذي كان يعيش فيه أسد أليف مع القديس سابا ، ويقال إن الأسد جاءه وقت القداس ؛ كما يروى أنه ، ولمرتين على التوالي ، وكلما كان النعاس يثقل عيني ذلك الناسك كان الأسد سحبه الى خارج الغرفة الى أن أمره بالرقود بسلام في احدى الزوايا . وتضيف الأسطورة انه منذ ذلك الوقت عاش القديس والأسد معاً بصداقة ووئام .



رمح وترس عند التعامرة

رسم للمؤلف



دير مار سابا
رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية

«شحرور مار سابا»

من طرائف دير مار سابا أن الطيور البريّة التي تملأ جوانب الوادي السحيق قد ألفت الرهبان الذين لديهم من الصبر ما يكفي للعناية بها وتربيتها . من ذلك نوع من الحمام الضخم والجميل ، ينتشر بالآلاف ويبني أعشاشه بين الصخور التي لا يمكن الوصول اليها . وهناك طائر فريد جداً بضخامته وبشكله الشبيه بطائر الس لامالى (أو السمّن) ، والذي يسميه الكثيرون خطأ «شحرور مار سابا» ، وهو في الحقيقة من عائلة وسيطة بين الصفاريّات والغربان (أميدروس تريسترامي : Amydrus Tristrami) ذو لون أزرق مائل الى السواد ولمّاع ، أجنحته صفراء صدئة ، منقاره طويل حاد ومحني .

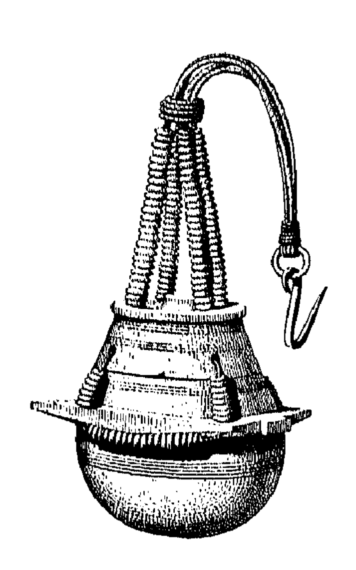
يطير هذا الطائر بسرعة فائقة مطلقاً صفيراً حاداً ، ويغتذي من الحشرات والحراذين الصغيرة والجراد والتين .

إنه طائر لطيف وجدير بالاهتمام والتربية كي يصبح من الطيور الأليفة . من ميزاته الهامة نظراته الذكية والمعبّرة التي توحي بالقدرة على تعلّم بعض الأشياء كما هي الحال مع الببغاء . ومن الجدير بالذكر أن النماذج الحيّة التي نقلناها الى مختبرات متاحف الأحياء في فرنسا استطاعت سريعاً التأقلم مع حياة الأسر في الأقفاص ومع نظام غذائي جديد . ومن أطرف ما حدث في هذا المجال أنّها وفي معرض إحجامها عن أنواع مختلفة من الطعام كانت تنظر بشغف واهتمام الى بعض أحواض السمك . وكانت النتيجة أن هذه الطيور ومنذ ذلك الحين أضحت تغتذي من الأسماك الصغيرة الحيّة التي تقدم اليها ، فتقطّعها بمناقيرها الحادة الى قطع صغيرة ثم تلتهمها بنهم . هذا مع العلم أن بيئتها الأولى لم تكن تحتوي على أسماك إطلاقاً ! . .

(ديدان مار سابا)

فوق صخور وادي النار تزحف ديدان ضخمة سوداء يتراوح طولها ما بين خمسة عشر وعشرين سنتيمتراً . لدى ملامستها تفرز هذه الديدان سائلاً لزجاً وسريع الإثارة للهرش والحكاك . يتكوّن هذا الحيوان من حلقات أو أجزاء تتراوح ما بين ست وسبعين وثمانين . قد يصل طولها الى مئة وثمان وخمسين مللمتراً بعرض يقارب الثمانية مللمترات . تكون الحلقات سوداء داكنة يفصل بينها خطوط صفراء ضيّقة .

وتتواجد هذه الديدان بكثافة غريبة في وادي النار حتى أنها قد تغطي بعض الصخور كلياً مما يجبر المشاة على سحق المئات منها مع كل خطوة .



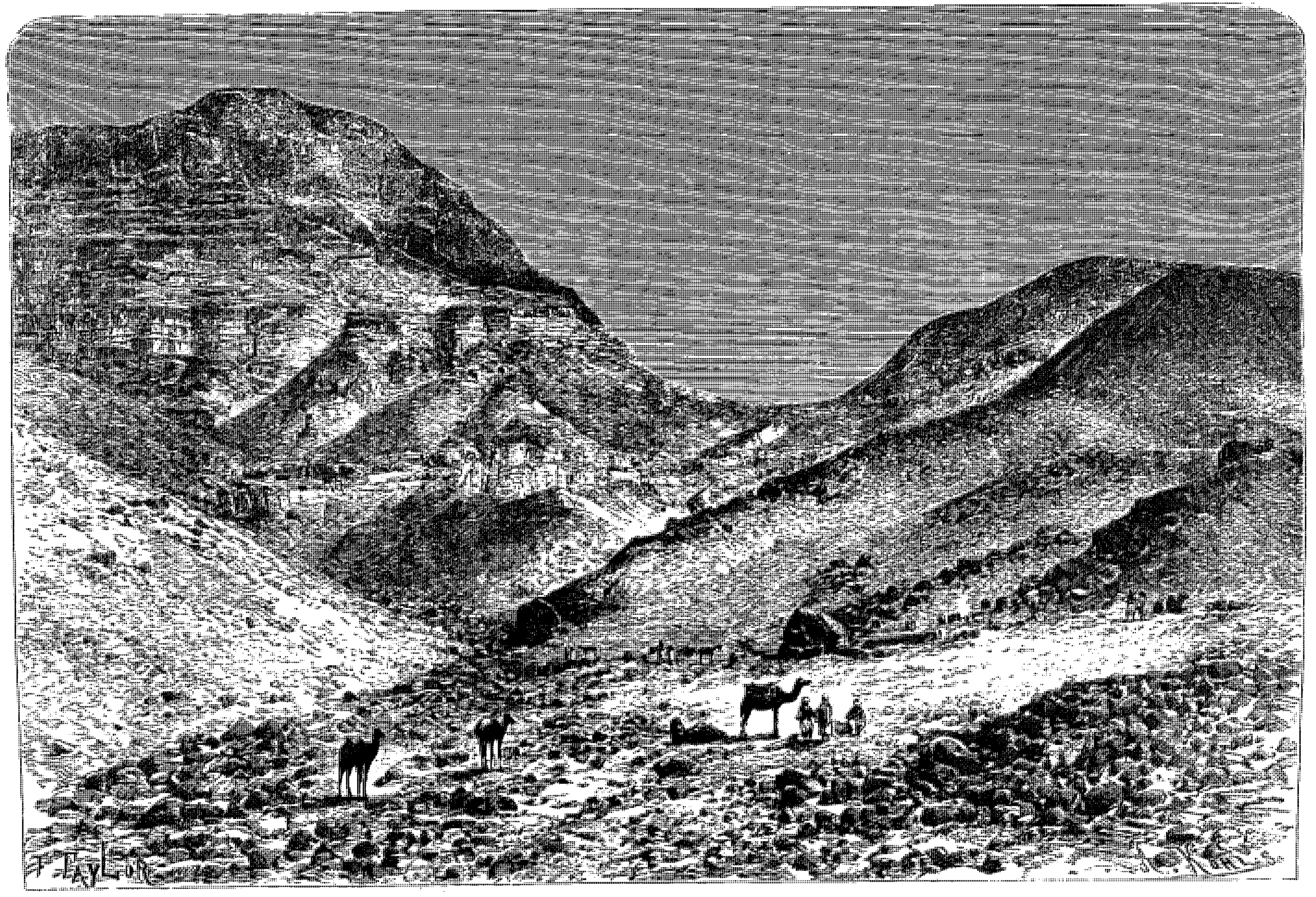
إناء الزبدة عند التعامرة

رسم للمؤلف



زيزفون (أشجار شوكية)

رسم لتيلور - عن صورة فوتوغرافية .



سهل بالقرب من عين جدي - رسم لتيلور - عن صورة فوتوغرافية

الرحلة من دير مار سابا صعبة وشاقة ، أقلّ ما فيها الحرّ الشديد وأشعة الشمس التي تصبح محرقة مع ساعات الصباح الأولى . وبعد المرور في سهل صحراوي مقفر يعرف باسم البقيعة تهبط الطريق نحو واد موحش وعميق هو وادي القنيطرة . وفوق قمة جبل يرتفع الى يسار الطريق يرتفع بناءً أبيض يقال انه قبر النبي موسى .

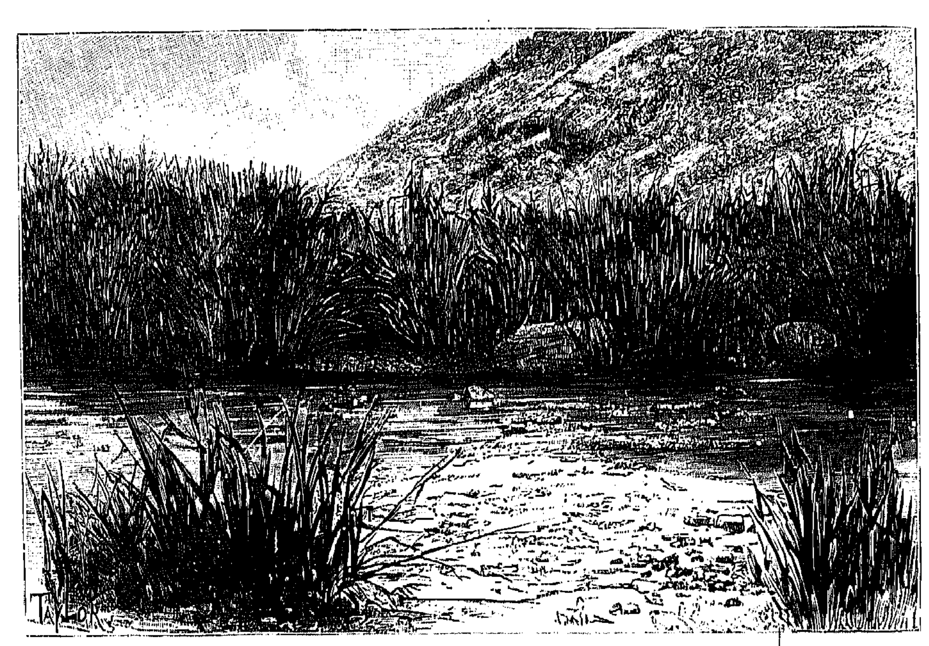
ومن وادي القنيطرة ، تحت سفوح جبل النبي موسى الى وادي الدبور وسط سهل متموّج شديد الانحدار نحو البحر الميت الذي أضحينا نطلّ من قريب على مياهه الشديدة الزرقة .

وتكوّنت تربة هذا المنحدر من رواسب البحرية حين كان مستوى المياه فيها أكثر ارتفاعاً ، إضافة الى رواسب وجروفات السيول المنحدرة من المرتفعات المحيطة . وفي بعض الأماكن نرى الأرض بيضاء كالثلج بسبب الترسبات الملحيّة الكثيفة التي كوّنت طبقة تبلغ سماكتها عدة مللمترات .

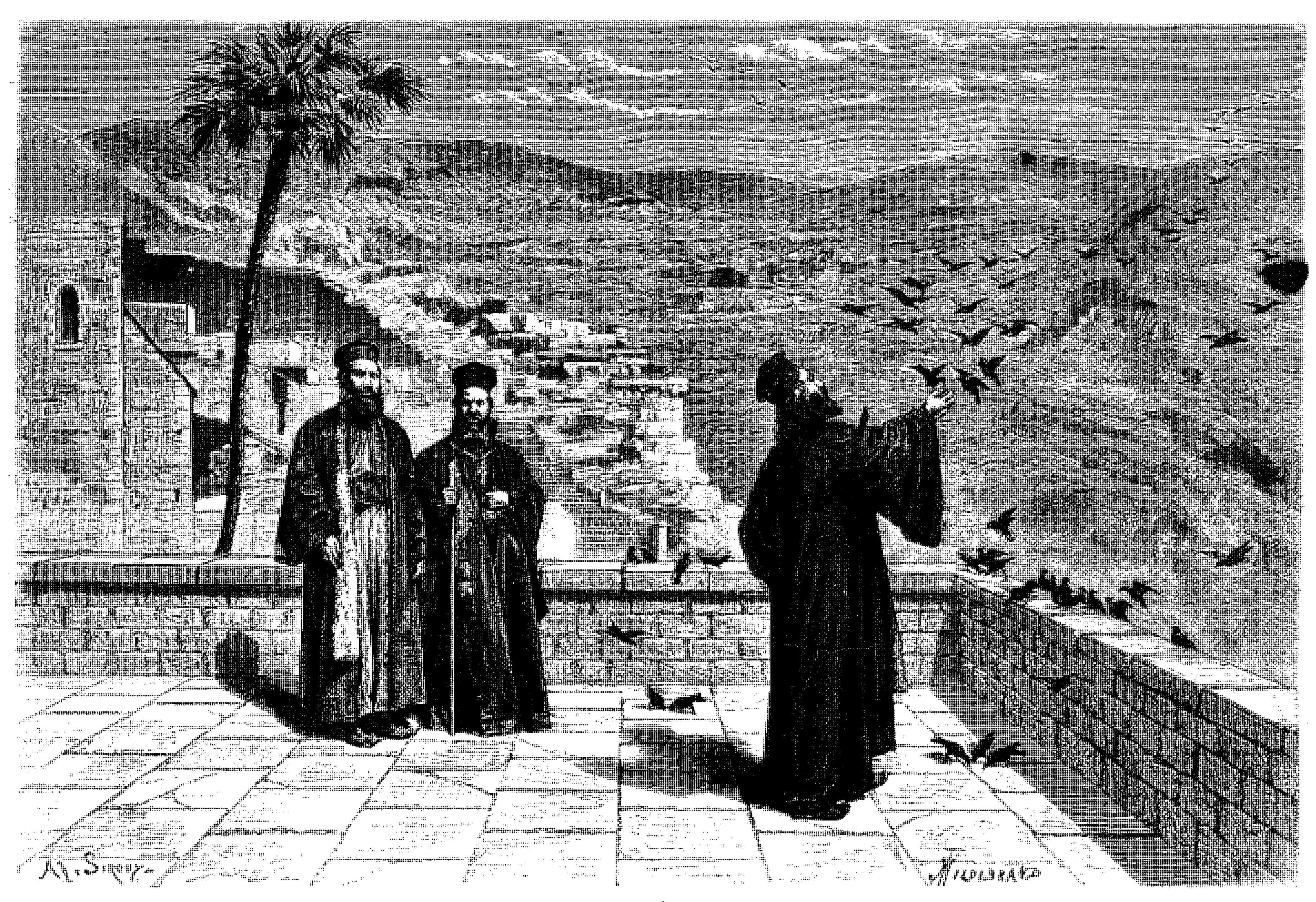
من مظاهر الحياة القليلة في تلك المناطق وجود بعض الجداول المائية الجارية بين مجموعات من الأشجغار الشوكية المحاطة بقضبان الخيزران والقصب .

حسب الخرائط الانكليزية يعرف هذا السهل باسم «الجهير» ولكن يبدو أن سكان المنطقة يطلقون عليه اسم «الصغير» . إنه مثلث الشكل ، يحدّه شرقاً البحر الميت وغرباً الهضاب المتصلة بهضاب ، أو نجاد ، القدس وبيت لحم ، أما جنوباً فينتهي بالرأس المميز المعروف باسم «رأس الفشخة» البالغ ارتفاعه بضعة مئات من الأمتار في حين أن قاعدته في عمق البحيرة .

في تلك التربة الرطبة نجد أعداداً كبيرة من نبتة صغيرة وجميلة من نوع النباتات المركبة الأزهار . انها «زهرة أريحا» ، وهي بيضاء اللون كثيرة الوبر وتكون ملتصقة بالأرض . أهم ميزاتها انها ذات حساسية شديدة للرطوبة . فعندما تكون جافة ، ولدى تعرضها للرطوبة ، تتفتح وريقاتها المتراكبة والملتفة وتنبسط خلال ثوان قليلة .



نبع عين الفشخة



رهبان دير مار سابا يطعمون الحمام وطائر الأميدروس - رسم لتيلور - عن صورة فوتوغرافية

في تلك البيئة ومن بين الشجيرات الشوكية والعوسج تنطلق أسراب من الطيور الجميلة من نوع الحجل ، ولكنها تتميز بحجمها الضخم الذي يبلغ ضعف حجم السماني ، وبلونها الرمادي المائل الى الصفرة ، اضافة الى أن الذكر منها يحمل على عوارضه إقليداً أو خطاً ، أبيضاً ناصعاً كالثلج . ألوان هذا الطائر مماثلة تماماً لألوان البيئة المحيطة حتى لتكاد تدوس عليه الأقدام دون الانتباه إلى وجوده . يعرف هذا الطائر باسم «حجل البحر الميت» وهو غذاء لذيذ ، كما يسهل اصطياده حيّاً بالأيدي فهو لدى مطاردته يهرب نحو الثقوب بين الصخور وإذا حوصر يبقى جامداً في مكانه مكتفياً بتخبئة رأسه وقسم من جسمه في أحد الشقوق أو بين صخرتين .

نصل أخيراً الى شاطىء البحر الميت ، تلك البحيرة الغامضة الأسرار ذات المياه الزرقاء الصافية في ظاهرها ، أما طعمها فمزيج رهيب من الأملاح الرسوبية ومياه البحر وزيت النفط ! أما إذا لامست الجسم فان هذه المياه قد تسبب أحمراراً في الجلد قد يصل الى درجة الطفح والتقيّح . ولكن ليس صحيحاً ما يروى عن تسمّم الهواء أو ما شابه ذلك . يبقى أنه ليس على شاطىء البحر الميت ، أو في مياهه أي وجود لكائنات توحي بالحياة ، اللهم سوى مرور أسراب الطيور الآتية من الجوار .

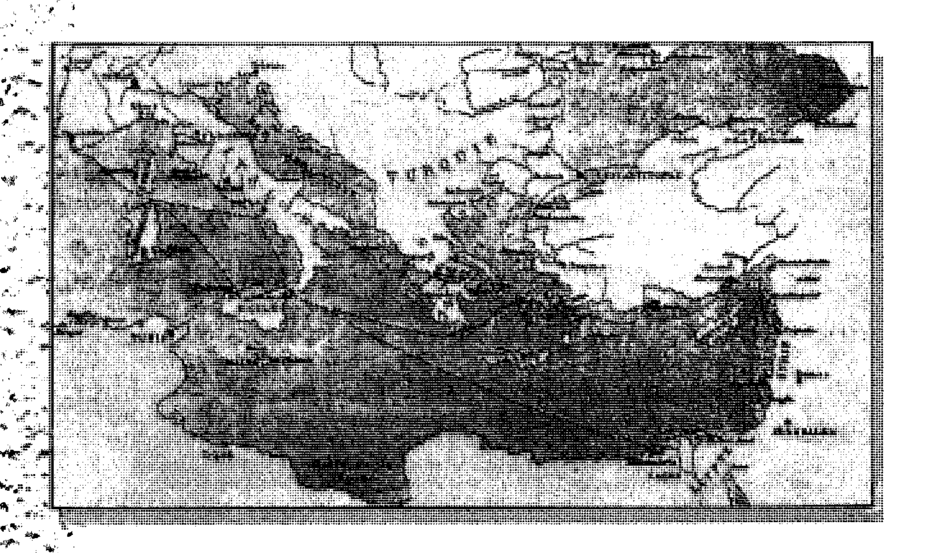
بعد مسيرة ساعتين على رمال الشاطىء نصل الى نبع جميل يعرف باسم «نبع عين الفشخة» وهو ذو مياه صافية نقية تتفجّر من باطن الأرض عند أقدام صخرة كبيرة ، في مكان غير بعيد من البحر . مياه عين الفشخة غزيرة جداً وهي لدى تفجرّها تكون ذات حرارة مرتفعة تبلغ سبعاً وعشرين درجة . أما مذاقها فعلى عذوبته يبقى محتفظاً بنكهة خفيفة جداً من الكبريت والملح .

من «عين الفشخة» تستمر الرحلة باتجاه رأس الفشخة البالغ ارتفاعه أربعماية وخمسين متراً عن سطح البحر . هذه المرحلة من الرحلة بالغة الصعوبة والمشقة عبر طريق وعرة تعترضها الصخور وتحفّ بها المهاوي والمنزلقات ممّا يجعل سلوكها شبيهاً بتسلق جبال الألب .

في تلك المرتفعات ، قريباً من القمة نلتقي ببعض العرب مستقلين في الظلّ وهم يراقبون قطيعاً صغيراً من الوعول الجميلة الشديدة الشبه بوعول جبال الألب ، والتي تعرف باسم وعول سيناء . انها تعيش في تلك المناطق الوعرة متنقلة بخفة ومهارة وسرعة فوق الصخور وبين المنحدرات . يبلغ طول قرون بعضها متراً ونصف المتر وتغتذي من النباتات المحدودة النامية في تلك الأقفار .

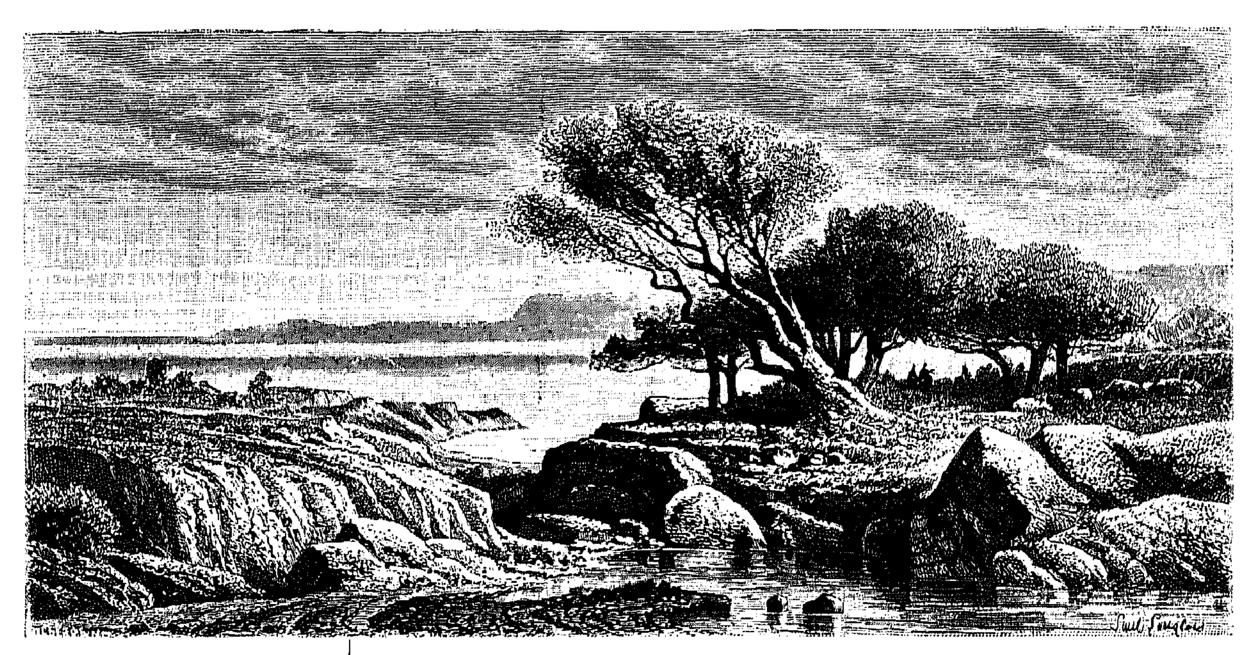
للإمساك بوعول سيناء يجب اصطيادها بالبنادق . أما القبض عليها وهي على قيد الحياة فلا يكون إلاّ بالتمكّن منها بعد ولادتها مباشرة لأنها بعد أيام قليلة تضحي قادرة على العدو بسرعة يستحيل معها الإمساك بها .

الفصل الخامس عشر



مسّادا والبحر الميت

الرحلة من عين جدي الى «مسّادا» شاقة ، ويزيد من صعوبتها وعورة الطريق وارتفاع الحرارة الهائل . بعد المرور بآثار مدينة عين جدي القديمة وأنقاضها يُضحي الشاطىء حَصَوياً صعباً تتصاعد منه في بعض أماكنه أبخرة كبريتية قد تكون ناتجة عن طبقة غير عميقة من المياه الكبريتية الجارحة تحت الحصى . وبعد وادي الخليل يضيق الشاطىء ثم ينفرج عن سهل واسع من الهضاب الرملية ذات اللون الرمادي المخضوضر . أغرب ما في هذه الهضاب أنها تبدو من بعيد وكأنها عبارة عن مدينة كبيرة بساحاتها وشوارعها ومبانيها المختلفة . من الصعب تفسير كيف تمكّنت العوامل المناخية والطبيعية من تكوين تلك الأشكال الفريدة في تلك الطبقات المتراكمة من الكلس والملح والجصّ . ولكنّ هذا يبقى دليلاً شبه قاطع على أن مستوى المياه في البحر الميت كان في الماضي القديم أكثر ارتفاعاً ، وأن هذا السهل كان في الأصل جزءاً من القاع .



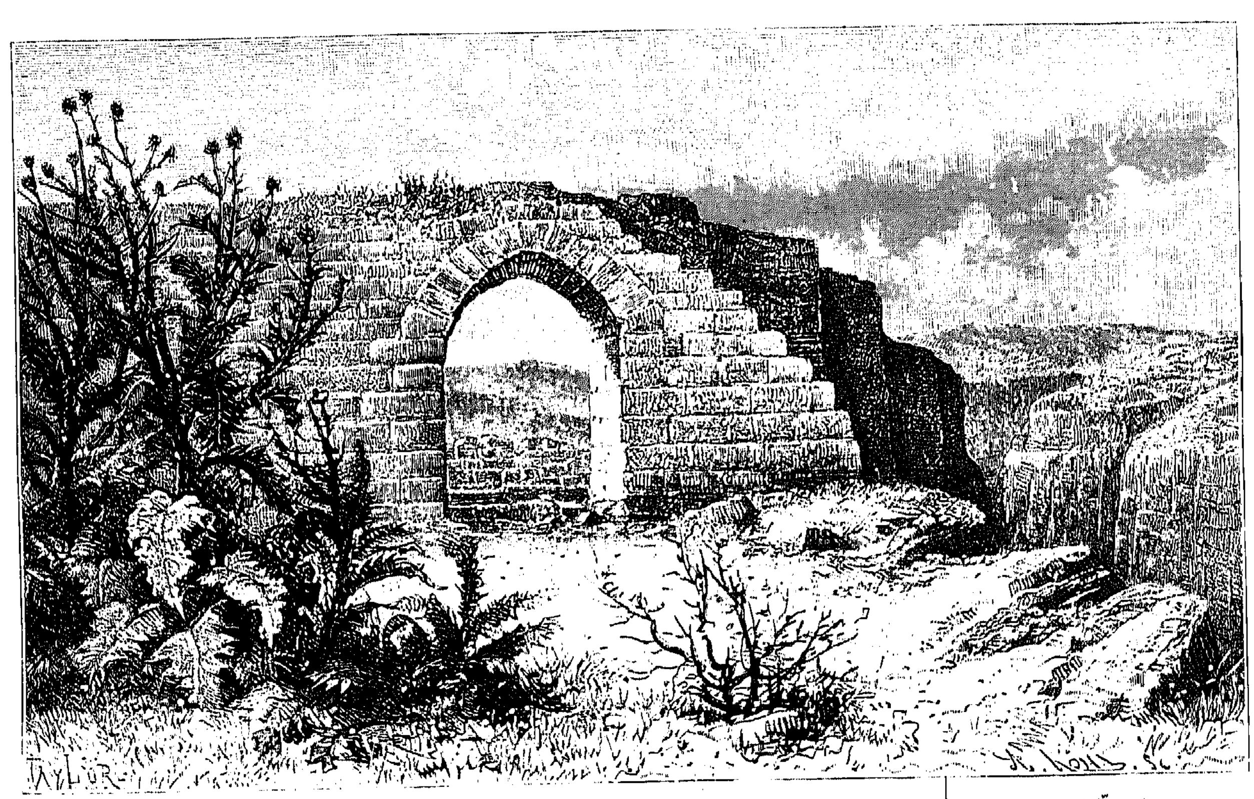
نهر عين جدي
رسم د . لنغلو
عن صورة فوتوغرافية .

عند طرف هذا السهل يرتفع جبل صخري وعر ذي شكل هرمي كثير الشقوق والتضاريس ، وعند قمته ما تزال تقوم بعض الآثار والانقاض المتبقية من مدينة «مسادا» القديمة ، آخر معاقل اليهود في حروبهم القديمة مع الرومان .

للوصول الى تلك الآثار لا بدّ من عملية تسلّق صعبة عبر ممرات ضيقة ووعرة تحف بها المساقط والمنزلقات الخطرة .

أوّل ما نقع عليه من آثار تلك المدينة القديمة هو المدخل الحجري الذي يعلوه عقد كبير ما زال محافظاً على تماسكه . يؤدي هذا المدخل الى المسطح القائم عند القمة والبالغ خمسماية وخمسين متراً طولاً وما بين ماية وثمانين ومئتين وثلاثين متراً عرضاً ، ويحيط به من كلّ الجوانب هوّة شاهقة يبلغ متوسط عمقها ثلاثماية وستين متراً . جوانب القمة مدعّمة بأسوار وجدران أقيمت عند الأطراف . نحو الشمال ، وتحت مستوى القمّة بما يقارب الخمسين متراً يقوم برج كبير مربّع الزوايا ، ودونه بقليل برج آخر دائري يبلغ قطره ثلاثين قدماً .

ليس معروفاً حتى الآن ما يحتوي عليه البرجان إذ ليس من سبيل للوصول إليهما ، اللهم إلاّ بواسطة فريق من المتسلّقين المحترفين والمزوّدين بأجهزة وأدوات خاصة . ويرجّح أنه كان هناك بئر ودهاليز تحت الأرض كانت تؤدي في الماضي من

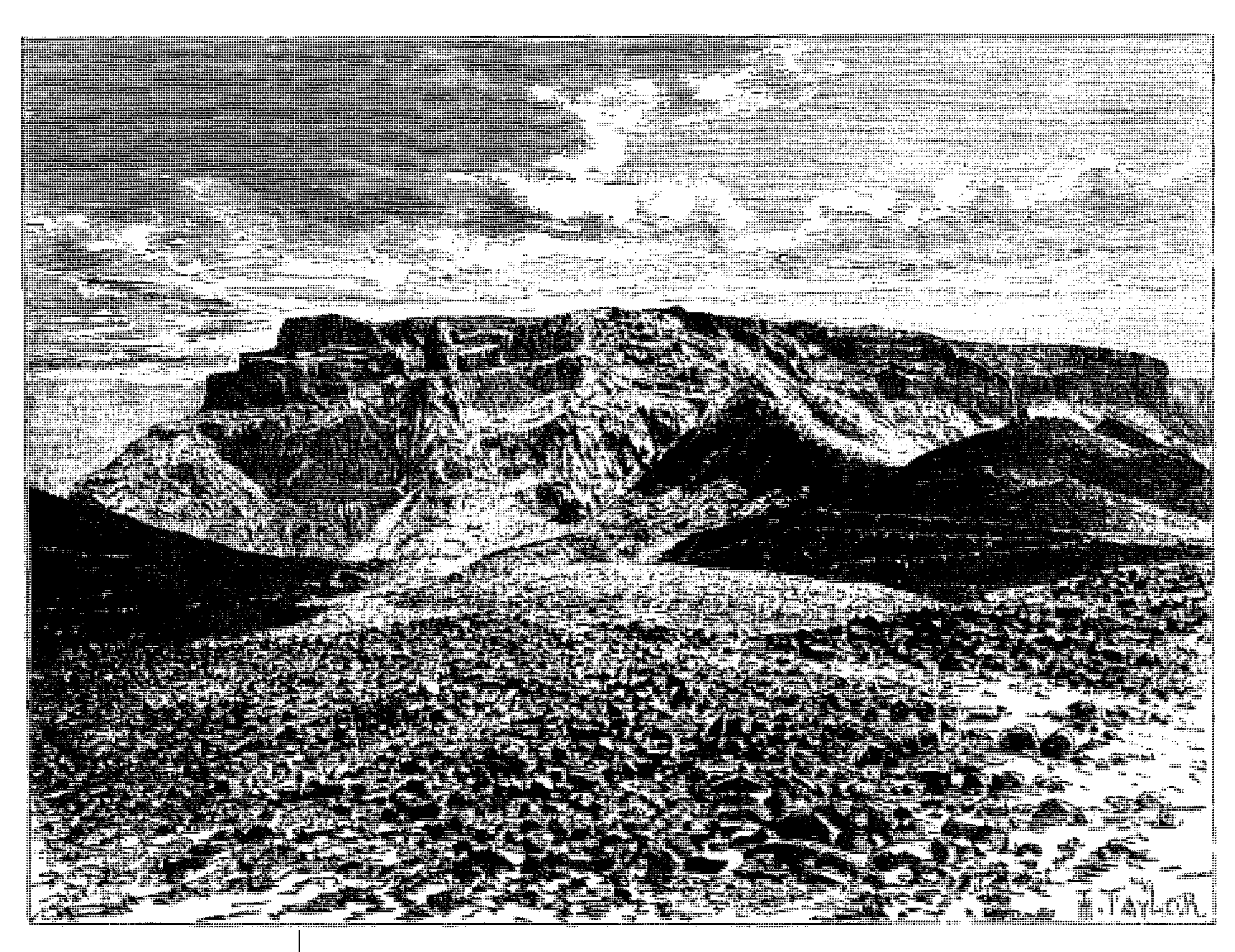


مدخل مسّادا
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .

القمة الى البرجين ، ولكنها طُمرت وزالت معالمها . نحو الجنوب بئر كبيرة وبقايا أسوار يبدو أنها بنيت على عجل أيام الحصار الروماني . وفي الوسط ما تزال تقوم آثار وخرائب بيزنطية ، يبدو أنها بقايا معبد قديم كانت تزينه زخرفات رخاميّة . وعلى الرغم من أن التاريخ لا يذكر أن الرومان قد سكنوا في هذه المدينة بعد دمارها ، إلاّ أن الآثار تشير الى أن العمران قد استجدّ فيها بعد الخراب ، كما أن الصليبيين حلّوا فيها أيام سيطرتهم .

تشرف هضبة «مسّادا» على منظر رائع للاطراف الجنوبية للبحر الميت محاطاً بالصحارى الصخرية المترامية حتى البحر الأحمر . شرقاً يبدو البحر الميت منقسماً الى حوضين وذلك بواسطة شبه الجزيرة المعروفة باسم اللسان .

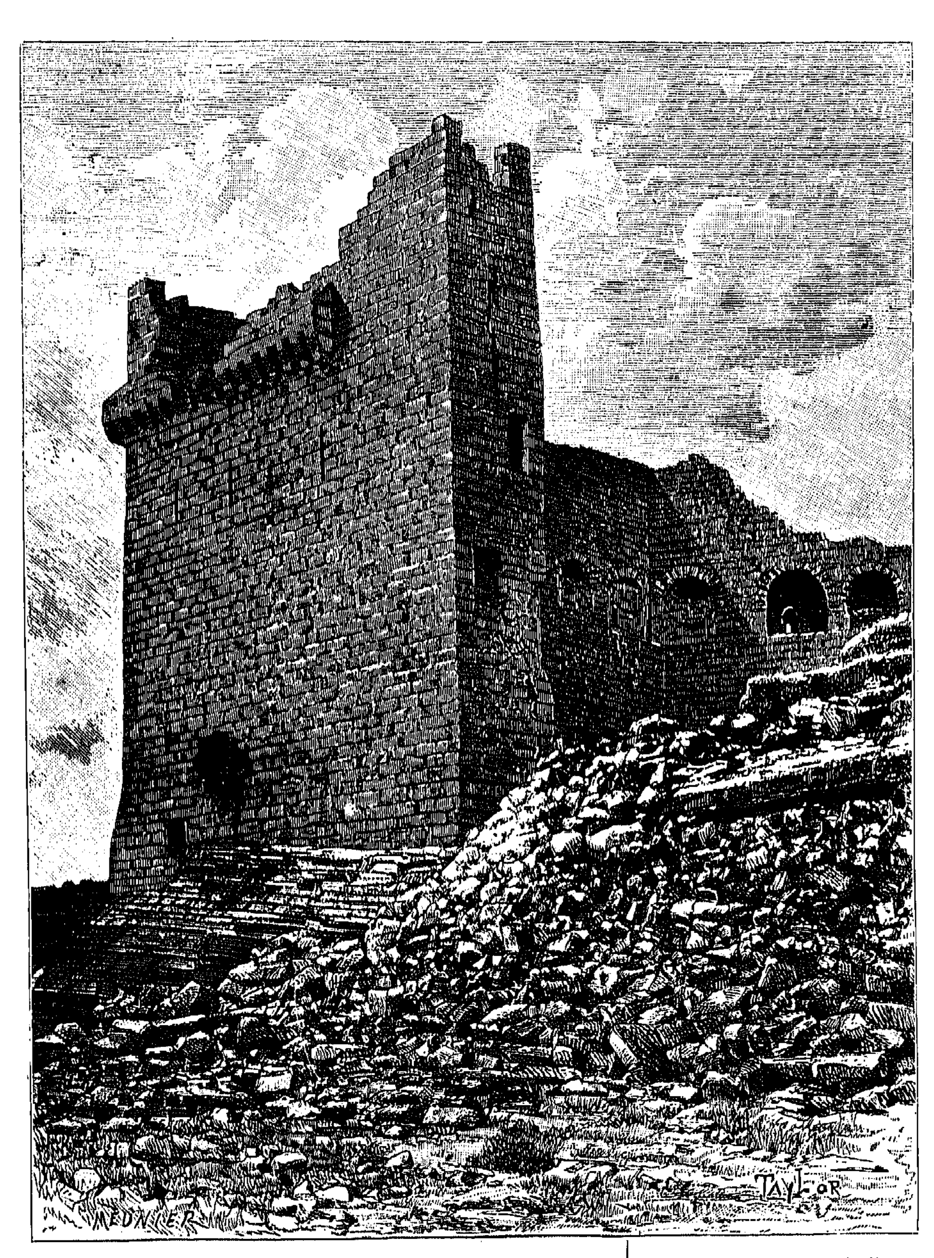
الى الجانب الآخر من البحيرة يبدو من بعيد الجبل الصخري المعروف باسم الكرك والذي تقوم عليه قلعة ما تزال صامدة منذ القرون الوسطى ، ولكن تاريخها ما يزال محاطاً بكثير من الغموض .



مسادا وهضبة لوكه
رسم لتيلور
عن صورة فوتوغرافية

تقوم مدينة الكرك على قمة هضبة ذات جوانب شديدة الانحدار . نحو الجنوب ترتفع قمة صخرية أقيمت فوقها القلعة ، والى الشمال قمة أخرى تتخلّلها هوّة عميقة يرتفع وراءها بناء شاهق ذو سلالم ودهاليز تربط طبقاته المختلفة .

هذا البناء ، الذي جرى ترميمه في القرن الثالث عشر ، يحمل اسم برج الملك الظاهر بيبرس ، كما تظهر النقوش فوق جدرانه .

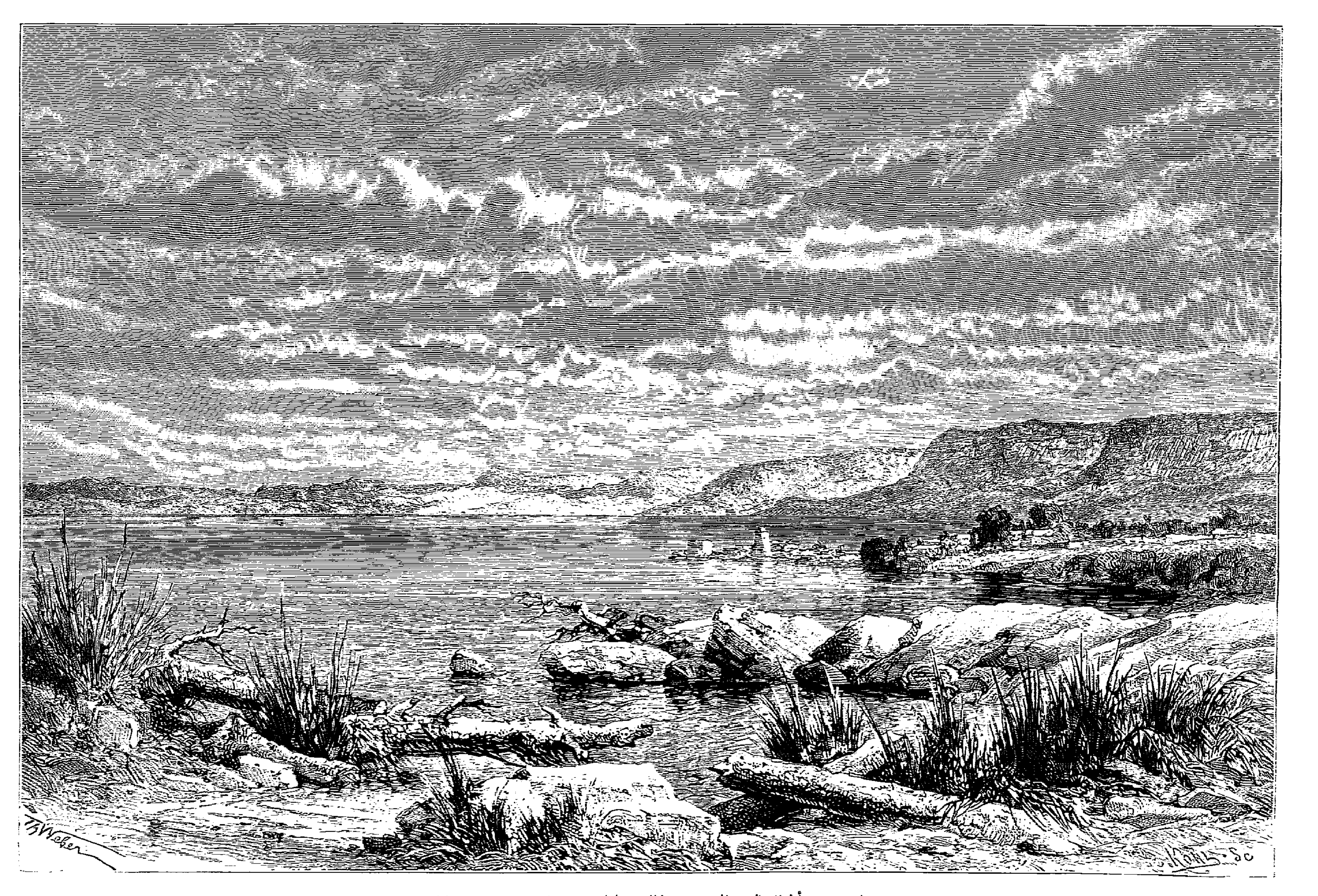


قصر الكرك وبرج الملك الظاهر بيبرس ـ رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .

من «مسّادا» عودة الى عين جدي للراحة من عناء تلك المنطقة الوعرة والملتهبة . «عين جدي» قد تصبح في المستقبل منتجعاً ومركزاً هاماً للعلاج بالمياه المعدنية وذلك بعد أن تكون قد وصلت اليها الطرقات ووسائل الاتصال وغيرها ، لا سيما وأن البحر الميت سيكون قريباً محط اهتمام الكثيرين للإفادة من كنوزه المعدنية الكثيرة ، ربّما بعد خمسين عاماً .

البحر الميت هو ثالث المنخفضات الكبرى التي يصبّ فيها نهر الأردن . عمق هذا البحر ومكوّناته والظواهر الجيولوجية الهامة التي تجري على ضفافه كلها تجعل منه واحدة من أهمّ البحيرات في العالم .

من أسمائه التي عرف بها البحر المالح وبحر الصحراء وبحر الشرق وبحر الأسفلت ثم البحر الميت ، كما يعرفه العرب اليوم باسم بحر لوط . يشغل هذا



جبل سودوم وأطراف البحر الميت من ضفاف مسادا ـ رسم ث . وبير ـ بحسب المؤلف

البحر الجزء الاكثر انخفاضاً من صدع كبير يعرف باسم الغور ويمتد من حرمون الى البحر الأحمر . جنوباً تمتد فيه شبه جزيرة اللسان فاصلة بين حوضه الكبير الشمالي وحوض الجنوب الصغير وشبه الدائري . وهو ينخفض عن مستوى البحر المتوسط بما يقارب الاربعماية متر .

يبلغ هذا البحر أربعين ميلاً طولاً وتسعة أميال عرضاً ، طرفه الجنوبي عبارة عن سهل منخفض سبخي من المستنقعات ، تغمره المياه مع ارتفاع مستوى البحيرة في موسم الأمطار .

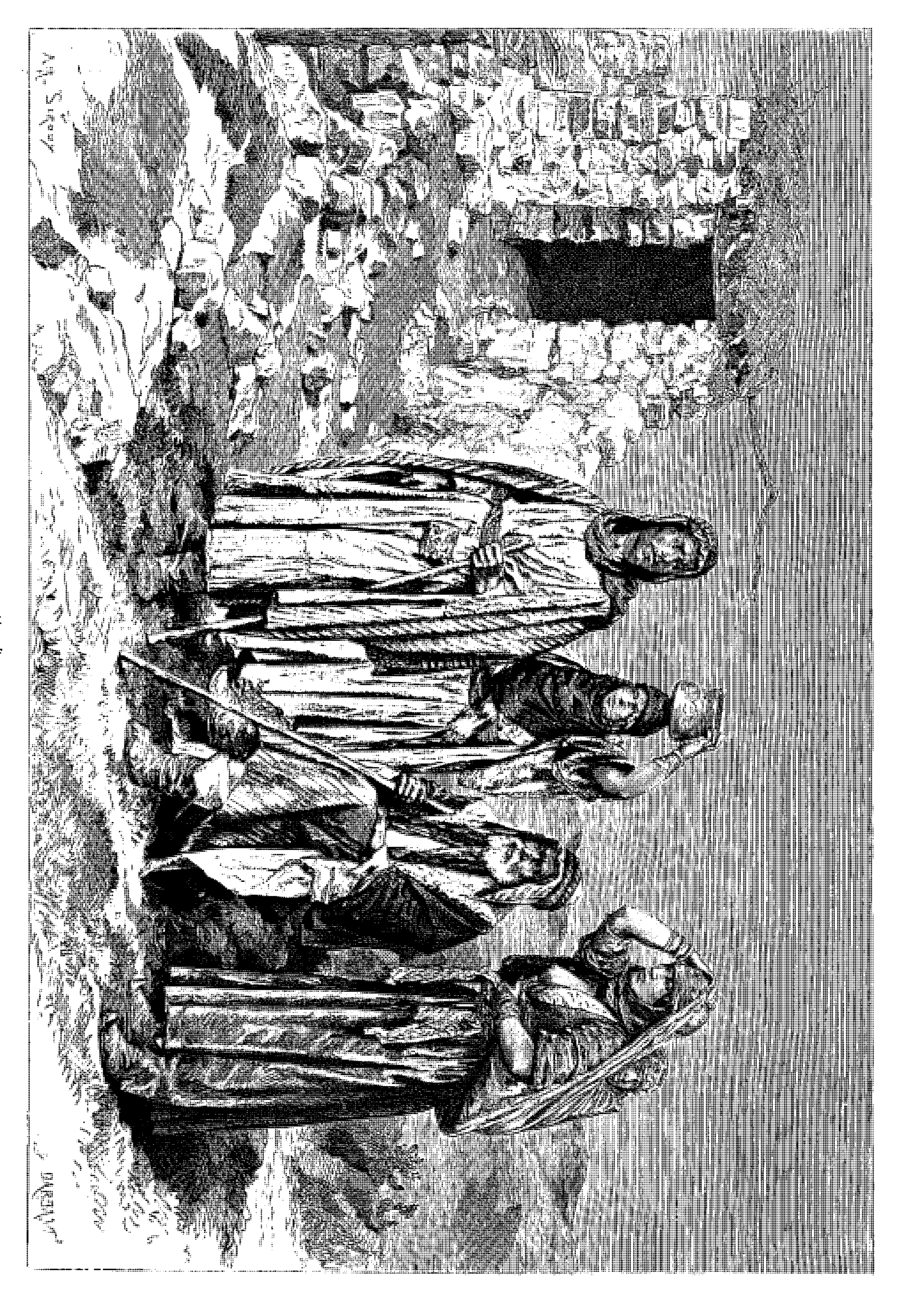
عمق البحر الميت ليس ثابتاً إذ قد يختلف مابين فصل وآخر وقد يصل هذا الاختلاف الى ما بين عشرة أقدام وخمسة عشر قدماً . كما أن هذا العمق يتغير ما بين موقع وآخر . فهو يبلغ في الوسط ألفاً وثمانين قدماً في حين يبلغ ما بين عين الترابة ومصب نهر الزرقا قرابة ألف وثلاثماية وثمانية أقدام . أمّا جنوبي شبه جزيرة اللسان فلا يتجاوز العمق الاثني عشر قدماً .

مياه البحر الميت ، وعلى الرغم من صفائها الظاهر ، ليست ذات شفافية كبيرة إذ لا يمكن رؤية القاع حتى على عمق بسيط . في الظروف المناخية العادية تكون صفحة الماء ذات لون أزرق جميل ، تستميل أحياناً الى خضرة قد تكون ناشئة عن المواد الملحية الذائبة أو الطافية على شكل ذرات صغيرة . إنها أكثر مياه العالم كثافة ، وهي ذات مذاق ملحي رهيب وتترك في الفم طعماً مراً وزيتياً ، وهذا ناتج عن أملاح المنغنيز والصودا الذائبة فيها بكميات كبيرة ومختلفة باختلاف فصول السنة .

ليس في مياه البحر الميت شيء من أشكال الحياة . وقد تكون أحماض وأملاح المنغنيز هي السبب في ذلك إذ أن ارتفاع نسبة وجودها تحول دون حياة العضويات في تلك المياه .

ولكن هذا لا يمنع أننا قد نقع على بعض الكائنات الحية في بعض المصبات المائية المحيطة بالبحر الميت . من ذلك أسماك صغيرة جميلة وكثيرة الحيوية . تبلغ هذه الأسماك خمسة سنتمترات طولاً وهي ذات لون رمادي فضيّ مخضوضر عند الظهر . وهي سرلوديّة في تكاثرها ، أي أن بيوضها تتكامل وتنمو في مبيض الأنثى قبل خروجها .

هذه الأسماك الصالحة للعيش في أحواض التربية ، والتي تتحمّل الأملاح المعدنية في أماكن تواجدها ، لا تلبث أن تموت بمجرد وصولها الى مياه البحر الميت .



عرب العدوان

الفصل السادس عشر

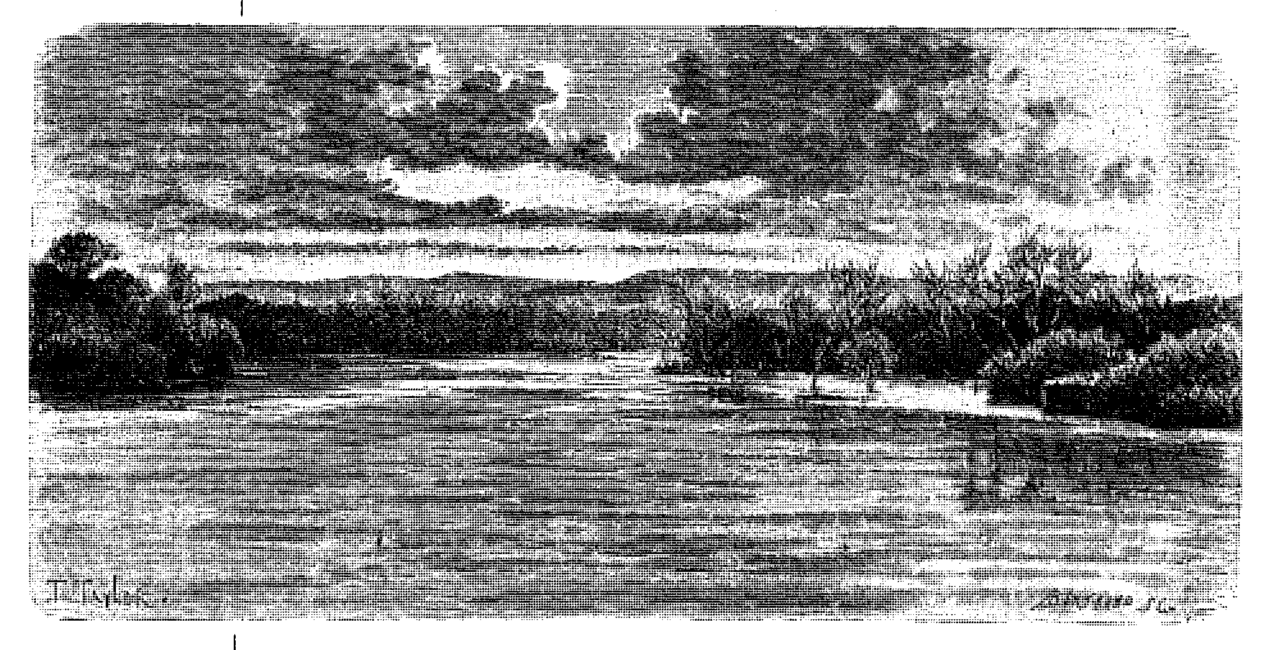


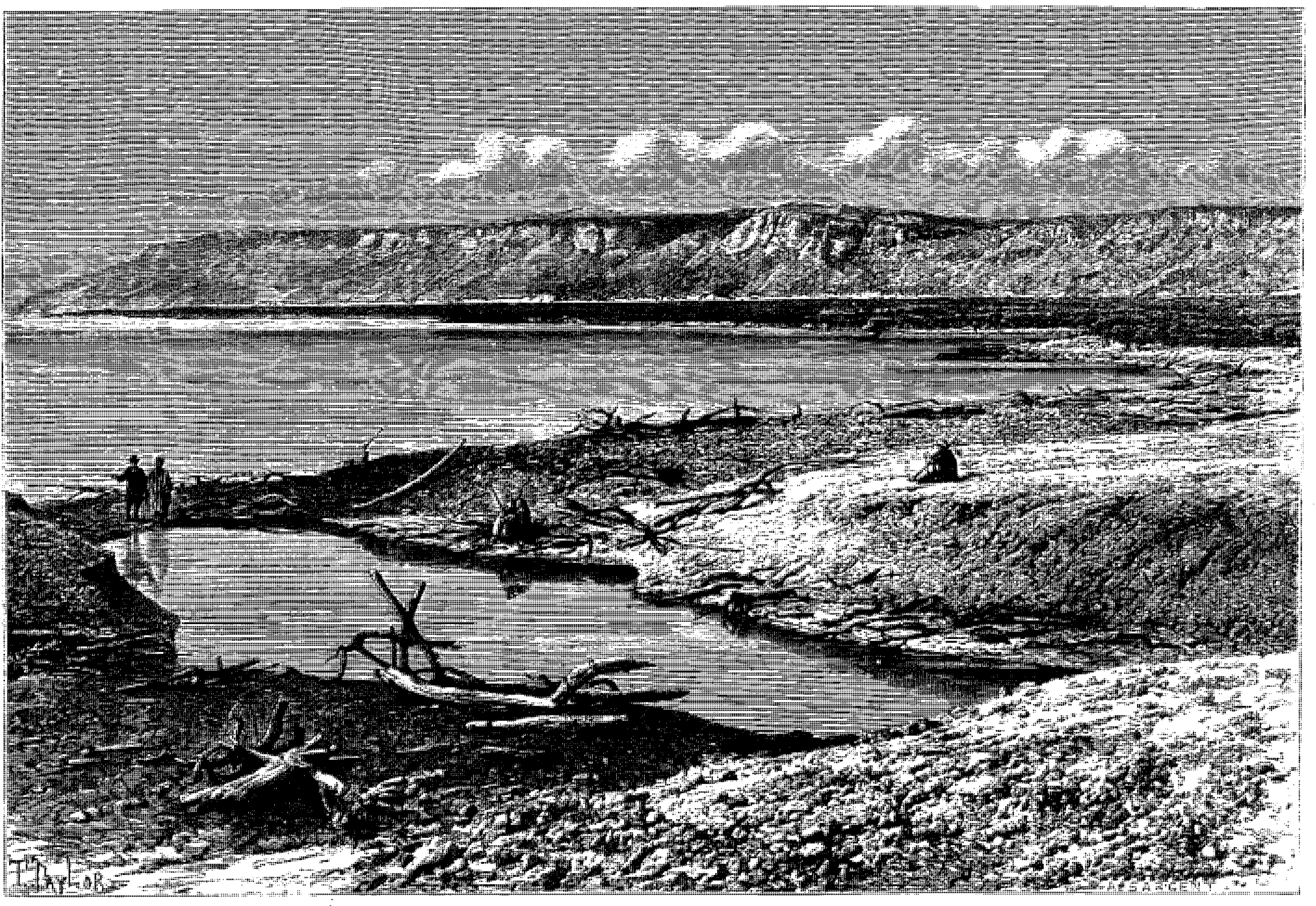
نهر الأردن وأريحا

الرحلة نحو مصبّ نهر الأردن على ضفاف البحر الميت جميلة وتتخللها مشاهدات هامة وفريدة على الرغم من بعض الصعوبات الناشئة عن المناخ إضافة الى المستنقعات التي تغطي بعض أجزاء الطريق على ذاك الشاطىء الرمليّ المنخفض . طيور كثيرة ومختلفة تتجوّل في انحاء المنطقة ، منها البريّ ومنها البرمائي ، أما أجملها فمجموعات البط والبلشون ، أو مالك الحزين التي تتّخذ من نباتات القصب والخيزران مخبأ لها .

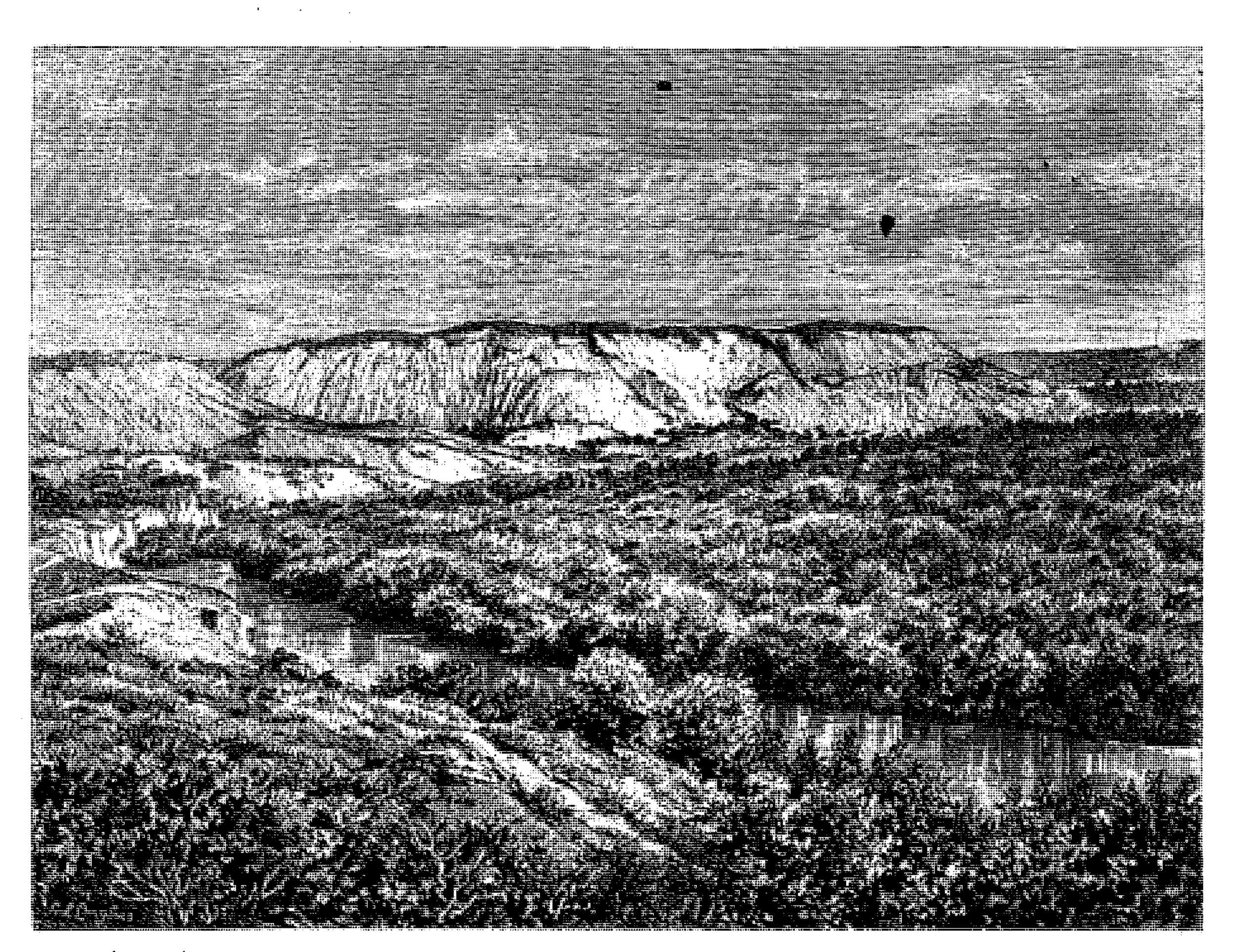
على مسافة كيلومتر تقريباً داخل اليابسة ، إلى الجهة الشمالية الغربية ينبع نبع ماء يعرف باسم «عين الصغير» . أطرف ما في هذا النبع تلك الأسماك الصغيرة التي تعيش في مياهه الزرقاء الصافية في مظهرها ، ولكنها في الحقيقة تحتوي على نسبة مرتفعة من الأملاح والكبريت إضافة الى تجاوز حرارتها نسبة عشرين درجة . يذكر هنا أن هذا النبع يقع على مستوى ثلاثماية وخمسين متراً تقريباً دون سطح البحر المتوسط .

نهر الأردن قرب مصبه
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .





الطرف الشمالي للبحر الميت - رسم لتيلور - عن صورة فوتوغرافية .



منبسط نهر الأردن في أعالي جرش
رسم لنغلو .
عن صورة فوتوغرافية .

في ذاك الموقع يمتدّ أمامنا الطرف الشمالي للبحر الميت مكوّنا حوضاً اهليلجياً شبه دائري يصب فيه عند طرفه نهر الأردن مكوّناً دلتا محاطة بالمستنقعات وجذوع الأشجار التي جرفها معه النهر . عند هذا المصبّ الذي تمتزج فيه مياه الأردن العذبة بمياه البحر الميت الشديدة الملوحة تكثر الأصداف والأسماك الميتة التي لا تستطيع البقاء على قيد الحياة بمجرّد وصولها إلى البحر الميت الذي يلفظها جثثاً هامدة فوق رمال الشاطىء وعلى جزيرات الجذوع الطافية لتتحوّل طعاماً للطيور والكواسر المختلفة .

على الرغم من أن عمق النهر عند مصبّه لا يتجاوز المتر إلاّ أنه لا يمكن اجتيازه لأن القاع عبارة عن طبقة من الطمي والوحول التي سرعان ما تبتلع من يطأ عليها من بشر أو حيوان . كما أنه لا يمكن السير بمحاذاة النهر مباشرة لأن ضفافه مغطاة بغابات متشابكة لا يمكن اختراقها . لذلك تتجه الطريق شمالاً عبر سهل رملي متموّج تغطيه طبقة ملحيّة جافة سرعان ما تتكسّر وتتشقّق تحت قوائم الخيل وأقدام المشاة .

نجتاز بعد ذلك بحيرة شبه جافة لتتجه بعدها الطريق شرقاً عبر الآجام

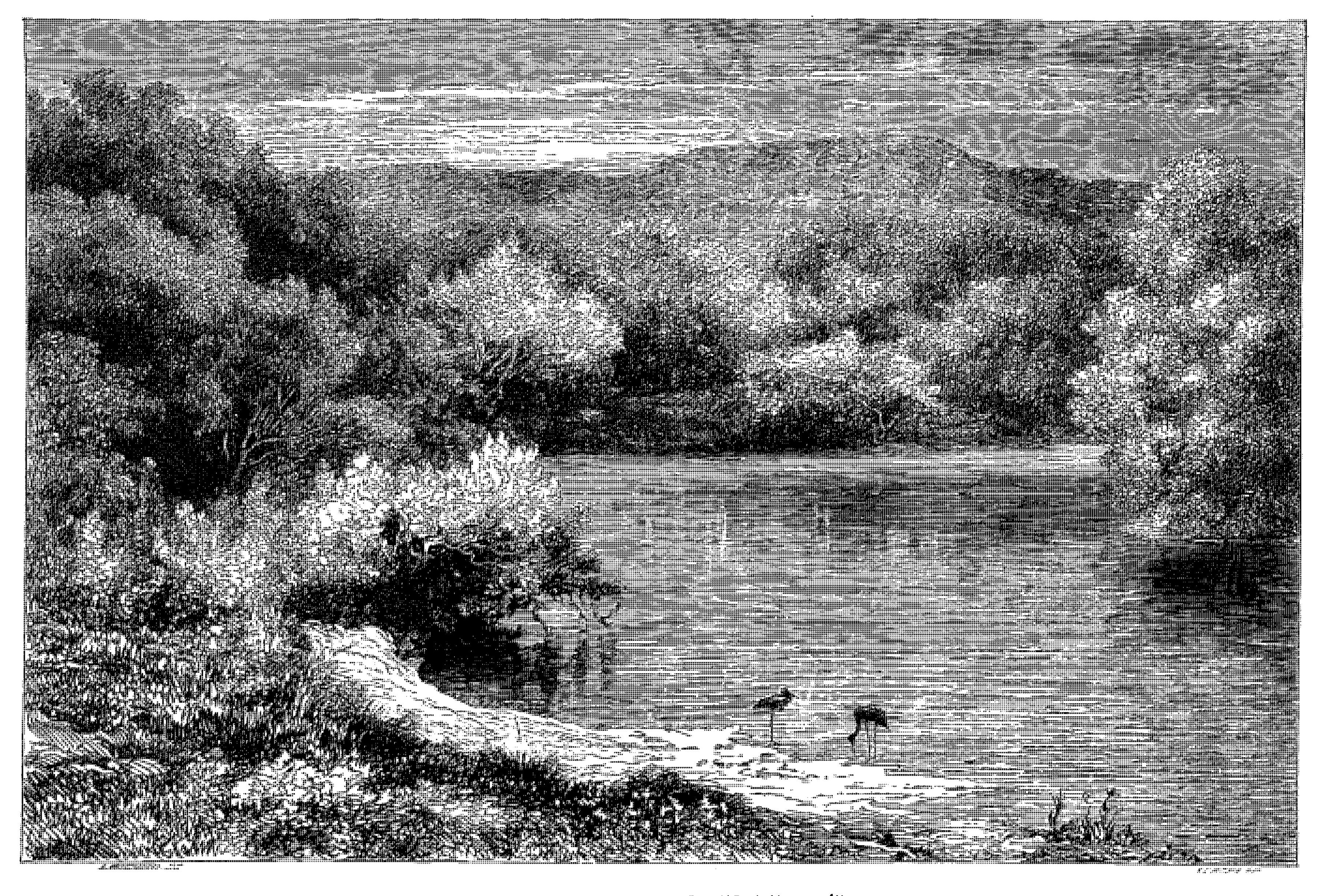


مخاضة حجلة
رسم لنغلو .
عن صورة فوتوغرافية .

المتشابكة وصولاً الى مكان يعرف باسم «الحلو» حيث جرت العادة أن يعمد الحجاج والمسافرون إلى الاستحمام في مياه النهر المقدس .

بين الأدغال والأشجار المتشابكة ووسط تلك الخضرة الكثيفة تجري مياه الأردن بسرعة وهدوء جارفة معها التربة والمواد العضوية المختلفة ، وعلى الرغم من ذلك تبقى منعشة لذيذة الشرب . يبلغ عرض هذا النهر ما بين أربعين وخمسين متراً في هذا الموقع ، في حين يصل عمقه إلى ما بين عشرة أقدام واثني عشر قدماً . أمّا قوّة جريانه فقوية الى درجة لا يستطع مقاومتها إلاّ السبّاح الماهر . كما أنّ اجتياز النهر في بعض المعابر المرصوفة بالحجارة والصخور يبقى شديد الخطر بسبب الأشجار الطافية التي تحملها المياه ، والتي إذا اصطدمت بالعابرين اثناء إنجرافها السريع فقد تؤدي بهم إلى التهلكة . ضفاف النهر فخارية هشة ، لذلك كثيراً ما تجرف المياه الأشجار القريبة التي يصل بعضها سريعاً إلى البحر الميت في حين يتشابك بعضها الآخر ويتراكم مكوّنا جزيرات شجريةّ تثبت في المياه لبضع سنوات .

من أسماء نهر الأردن الشرياط الكبير والحوض الكبير ، أما المنطقة التي يعبر فيها ويسقيها فتعرف باسم غور الأردن . إضافة الى الغابات والأدغال الخضراء المحيطة به ، تشرف عليه ، لا سيّما من جهة الشرق أراض مرتفعة كوّنتها في الماضي رواسب البحر الميت . الأسماك كثيرة جداً في نهر الأردن وقد يستحيل أن تسحب منها شباك فارغة . ولكن بدو الغور لا يصطادونها ولا يأكلونها ممّا يفسّر تكاثرها الغريب في تلك المياه . تبقى الطيور الصائدة للأسماك ، وهي كثيرة في المنطقة ، وحيدةً في الاستفادة من تلك الثروة السمكيّة .



نهر الأردن عند المخاضة المعروفة - رسم دوبيني - عن صورة فوتوغرافية.



تل جلجول
رسم لنغلو
عن صورة فوتوغرافية .

نهر الأردن هو أهم أنهار فلسطين من حيث ضخامة كتلته المائية . انه ذو مجرى جارف في معظم أماكنه ، يعدّل من ذلك خزانان كبيران هما بحيرة الحولة وبحيرة طبريّا . قوة جريان المياه عائدة الى الانحدار الكبير الذي يشكّله مجرى النهر . فمن سفوح حرمون حتى بحيرة الحولة تبلغ نسبة الانخفاض أربعماية وسبعة وثلاثين متراً . ومن الحولة حتى طبريا مئتين وأربعة وسبعين متراً . ومن طبريا الى البحر الميت مئتين وثلاثة أمتار . من كلّ هذا الانخفاض هناك خمسماية وعشرون متراً فقط فوق سطح البحر والباقي دون مستوى البحر المتوسط . وادي الأردن خصب جداً لا سيما في أجزائه العليا حيث تمتد السهول الخضراء المزروعة ، وفي طليعتها سهول القمح والقطن .

على امتداد نهر الأردن هناك عدّة مخاوض أو معابر ، يمكن بواسطتها العبور من ضفة الى أخرى ، ولكن هذه العملية تضحي شديدة الخطورة خلال فصل الربيع حيث تزداد نسبة ارتفاع المياه وقوة جريانها . أهم تلك المعابر عند أسفل النهر «معبر الحلو» ، وهو أوّل ما نصل اليه ، ثم معبر «مخاضّة حجلة» حيث يستحمّ اللاتين ، ويأتي بعده معبر «قصر الجهود» حيث يستحمّ الروم .

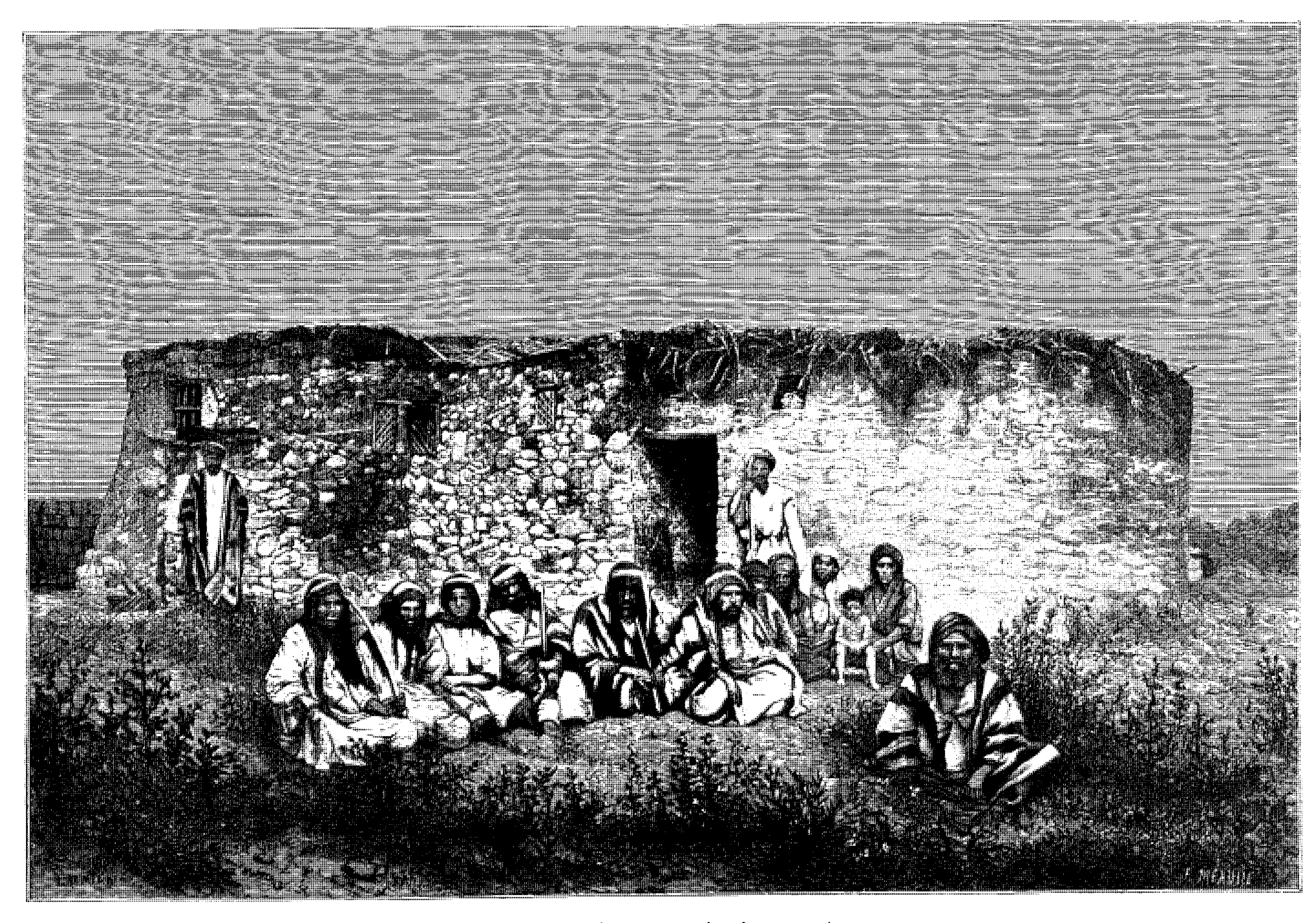
احتفالات الاستحمام في نهر الأردن لدى طوائف الروم أهم بكثير من تلك التي يقيمها اللاتين . فهم يعتبرون المعمودية في مياه النهر المقدس من أهم الشعائر الدينية التي القيام بها في ختام الحج إلى الأراضي المقدسة .

إنهم يأتون إلى ضفاف النهر في قوافل تضمّ حجاجاً من بلدان مختلفة ، من اليونان وروسيا ومصر وغيرها يسيرون ليلاً على أضواء المشاعل لزيارة أريحا . وعند الفجر ينزل رجال الدين في الماء حتى صدورهم ، يتبعهم المؤمنون والمرضى والعميان ، رجالاً ونساء وأطفالاً مرتدين ملابس بيضاء فقط .

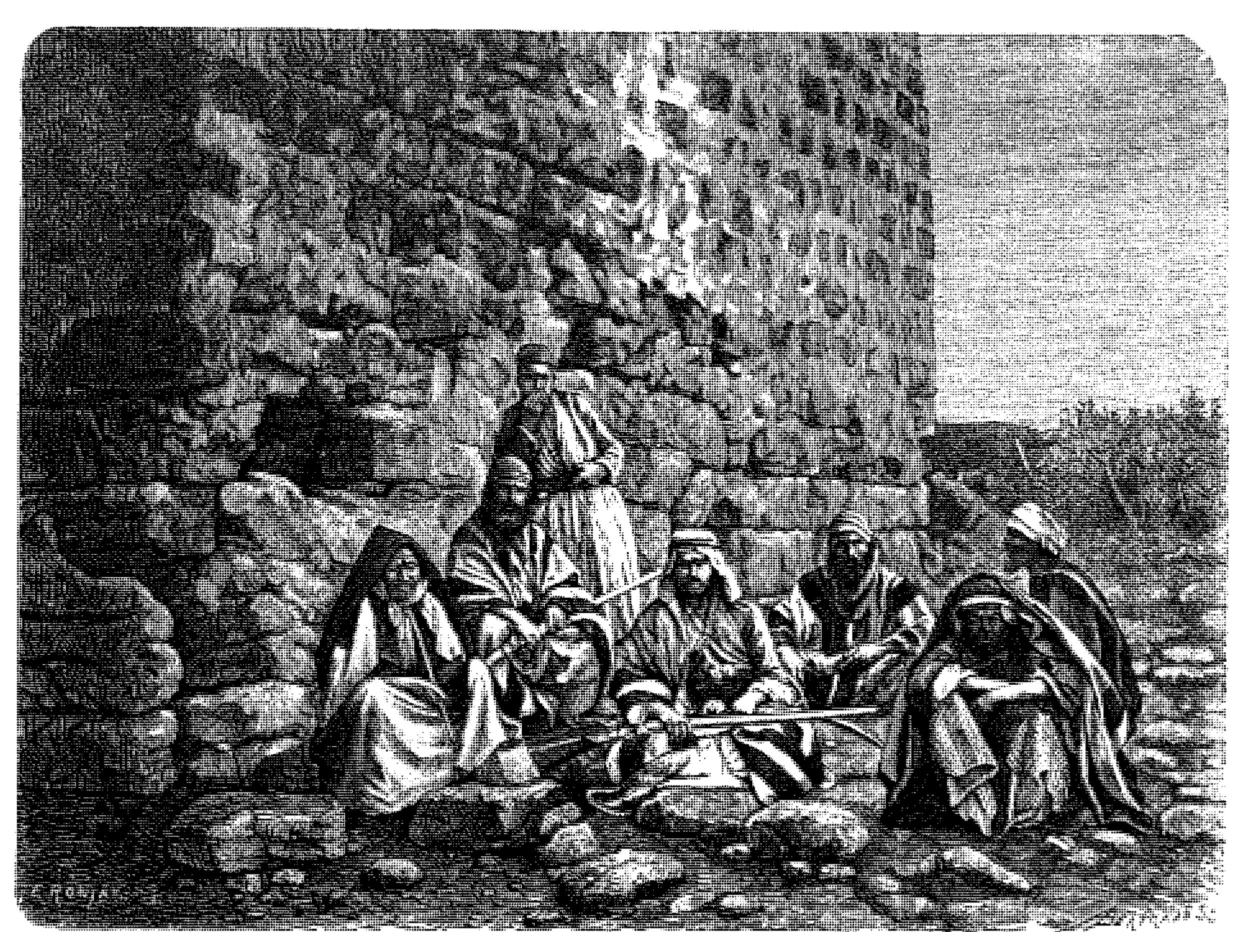
وبعد ساعتين أو ثلاث تنقضي في الصراخ والتراشق بالماء يخرج الحجاج من الماء ليتجمعوا في قافلة تتجه نحو القدس ، بعضهم يحمل آنية ملئت بالماء المقدس ينقله معه الى بلاده البعيدة ليحمل الشفاء والطهر الى بعض الأقارب والأصحاب .



قافلة من اليونان باتجاه القدس (على شاطىء الأردن) - رسم لتيلور - عن صورة فوتوغرافية



منزل ومجموعة من أهالي أريحا - رسم رونجا - عن صورة فوتوغرافية.

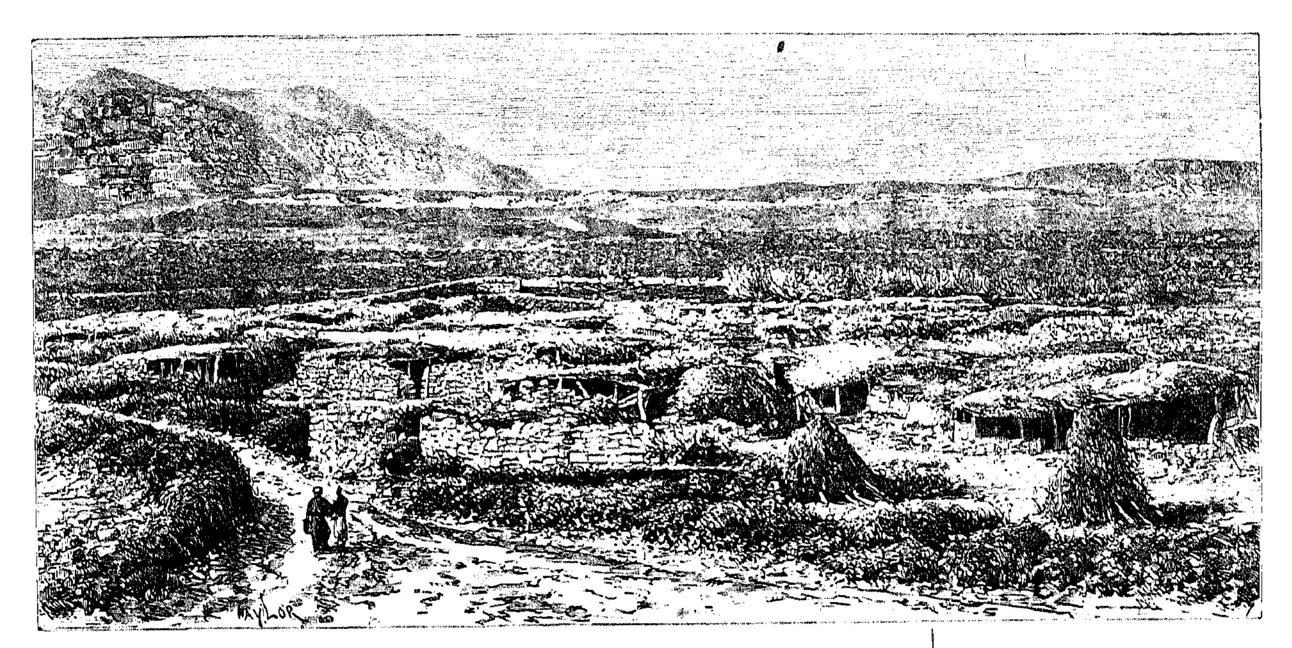


برج أريحا
رسم رونجا .
عن صورة فوتوغرافية .

بعد أدغال نهر الأردن تتجه الطريق نحو الشمال الشرقي وصولاً الى آثار وخرائب يمكن مشاهدتها من بعيد وتعرف باسم «قصر حجلا» . نصل أولاً الى نبع ماء غزير وعذب هو «عين حجلا» وهو يعتبر أفضل مياه المنطقة .

قرب النبع ترتفع أسوار دير قديم كان يقيم فيه رهبان من الروم ، وفي داخله ما تزال توجد آثار كنيسة قديمة . قرب بقايا الآثار كانت تقوم أبراج مربعة الزوايا . كل ذلك الآن خرائب خاوية ترتع فيها العقارب والأفاعي السامّة ، ومنها أفعى الغور الرملية الشديدة الخطورة .

من «قصر حجلا» نتجه الى أريحا الواقعة الى الشمال الشرقي عبر صحراء رملية تغطي بعض أجزائها طبقات ملحية جافّة . بعد ذلك تهبط الطريق نحو واد يجري في قعره نبع ماء عذب تعيش فيه بعض الأسماك وتكثر حوله الطيور . الى اليمين ترتفع تلة جلجول ، المعروفة قديما باسم «جلجال» وهي عبارة عن مرتفع كان قدامى الاسرائيليين قد أقاموا فوقه اثني عشر حجراً كذكرى لعبورهم نهر الأردن .



أريحا عام ١٨٧٨
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .

بقايا قناة وجبل الأربعين - رسم لتيلور - عن صورة فوتوغرافية .

بعد اجتياز النبع تسير الطريق على الطرف الشمالي للوادي وصولاً الى حيث تبدأ السهول الخضراء الزراعية والمتنوعة ما بين قمح وقطن وتين وذرة وغيرها .

عند تخوم أريحا نصل الى بناء ضخم قديم مربّع الزوايا يعرف باسم «قصر أريحا» ، وهو عبارة عن برج قديم يعود على الأرجح الى أيام احتلال الفرنجة لسوريا . يبلغ ارتفاع هذا البرج الخرب اربعين قدماً ويضم عدة قاعات واسعة تهدّم معظمها . سطحه محاط بحاجز منخفض وهو يشرف على منظر رائع لجزء من البحر الميت ورأس الفشخة ومصبّ الأردن وجبل الأربعين والغور . نحو الشمال الشرقي تقع قرية أريحا الفقيرة المكوّنة من مجموعة متناثرة من الأكواخ الحجرية البسيطة . وهي منخفضة تغطي سقوفها أغصان الأشجار الممزوجة بالطين .



عين السلطان قرب أريحا
رسم لنغلو .
عن صورة فوتوغرافية .

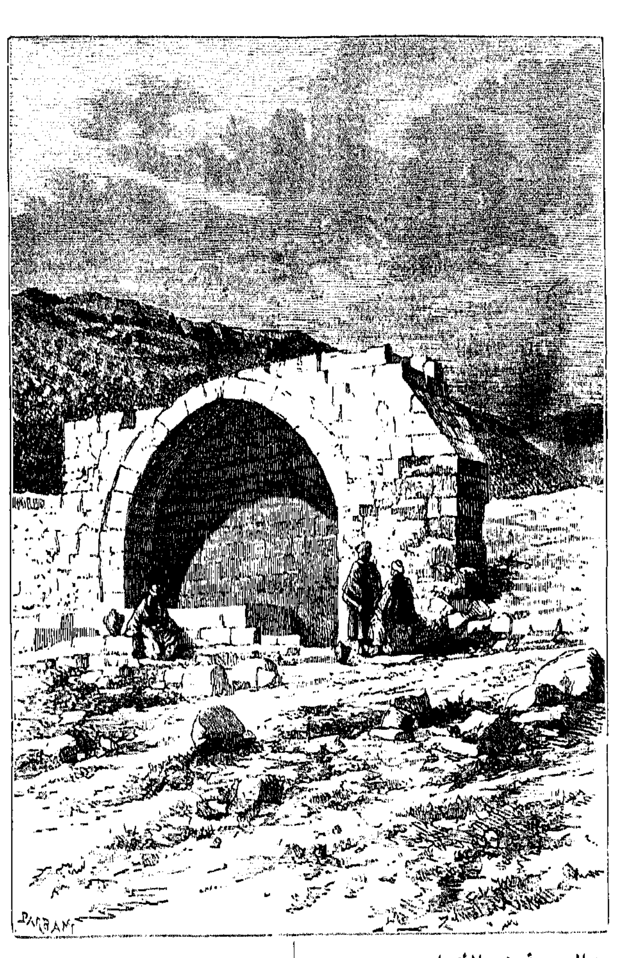
أغرب ما في هذه القرية أنها وعلى الرغم من شهرتها القديمة بأشجار نخيلها الرائعة فانها لا تضم الآن شجرة نخيل واحدة ! يبدو أن الضرائب المرتفعة التي يفرضها العثمانيون على الأشجار المثمرة ، بما فيها النخيل ، جعلت الأهالي هنا لا يكتفون بعدم زراعة أشجار جديدة بل انهم عمدوا الى اقتلاع القديم تفادياً لدفع الضرائب . يبدو أن أريحا القديمة لم تكن تقوم قديماً في نفس المكان الذي تقوم عليه هذه القرية البائسة . ويرجح أنها كانت تقوم نحو الشمال الشرقي عند سفح جبل الأربعين ، حيث تجري ينابيع غزيرة . كانت أريحا واحة واسعة تكثر فيها أشجار النخيل التي بقيت ثمارها مشهورة حتى القرن السابع بعد الميلاد . وسط تلك الواحة كانت تقوم أريحا القديمة التي اشتهرت بخصبها وبثراء أهلها .

أريحا في تلك الأيام لا تضم أكثر من خمسين أو ستين عائلة من البدو والحضر المقيمين . هؤلاء يزداد عددهم خلال مواسم حصاد القمح حيث ينضم اليهم الغوارنة ، من عرب الغور ، الذين يشاركون في الحصاد ليحصلوا على

حاجتهم من القمح . المناخ في أريحا حار جداً وغير صحي ، وهو مؤذ للأجانب خلال أشهر الصيف ، وربما في الربيع ، حيث تكثر أمراض الرئة والكبد . هذا الفساد في المناخ قد يكون عائداً الى تراجع الخضرة والتشجير التي تشكل عادة عوامل تعديل المناخ وتلطيفه .

ما بين القدس وأريحا خمس ساعات تنتقل خلالها من مناخ شبه بارد الى مناخ ملؤه الحر والرطوبة . الحرارة المرتفعة والرطوبة المؤذية تضحيان غير مستغربتين اذا تذكرنا أن أريحا تقع على مستوى مئتين واثنين وسبعين متراً تحت سطح البحر .

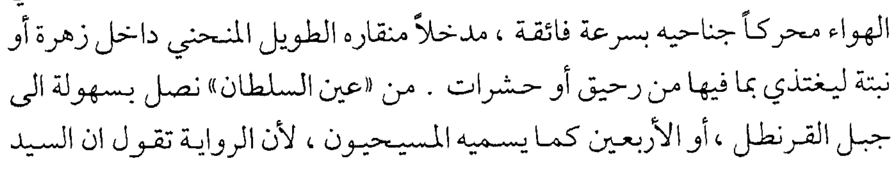
قرب أريحا نبع ماء عذب يعرف باسم «عين السلطان» ومحيطه المنعش والملطّف ملاذ للراحة من الحر والتعب . المسيحيون يعرفون هذا



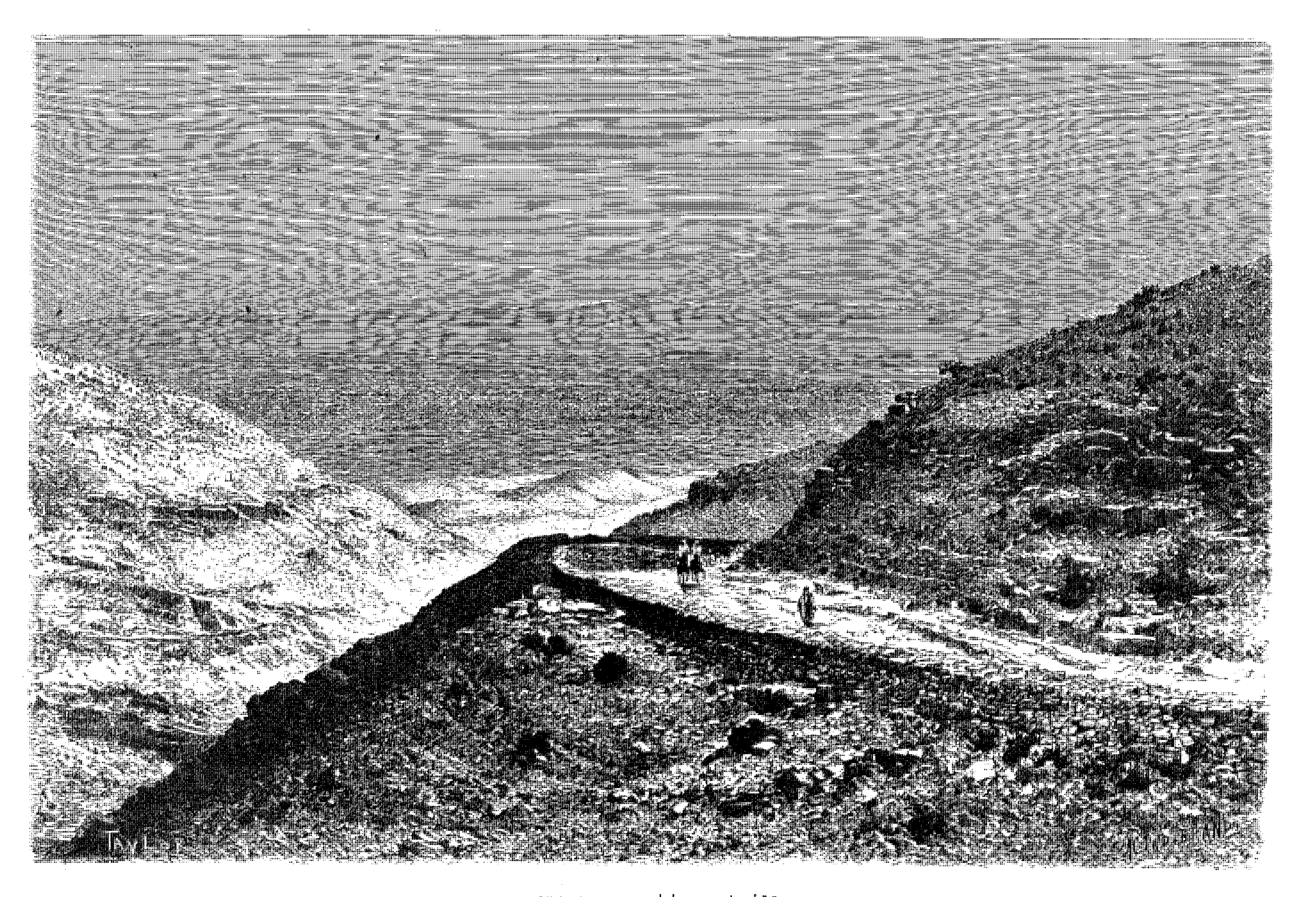
عين اليهود أو نبع الأنبياء
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .

لنبع باسم «نبع اليزية» لأن الرواية تقول أن هذا الرسول القى فيه حفنة من الملح محوّلاً مرارة مياهه الى عذوبة . . .

على مسافة قليلة نحو الشمال الشرقي ، وعند أقدام جبل الأربعين ، أو جبل القرنطل ، يجري نبع غزير آخر كانت مياهه تجري في أقنية لتصل الى طواحين كانت تديرها ، ولكنها أضحت اليوم آثاراً خربة . هذه المياه لا تستخدم المياه إلاّ لري مزروعات بسيطة مثل القثاء . تكثر الطيور في أنحاء أريحا لا سيما البلابل والحساسين التي تملأ زقزقاتها الأرجاء حاملة معها شيئاً من البهجة والحياة . من تلك الطيور الرفراف . أو صياد السمك ، الذي ينطلق في القضاء كالسهم ، أو يربض هادئاً بين الأغصان فوق الينابيع استعداداً لصيد يؤمن له غذاءه من السمك . من الطيور المميّزة هناك طائر صغير لا يتجاوز طوله بضعة سنتيمترات ، تزين عنقه ألوان زرقاء وخضراء براقة ، وفوق كتفه بقعة برتقالية جميلة . إنه شديد الحيوية والنشاط لا يمكن رؤيته تقريباً وهو يطير من زهرة الى أخرى . أطرف ما فيه مشاهدته لدى تثبيت نفسه في



الهواء محركاً جناحيه بسرعة فائقة ، مدخلاً منقاره الطويل المنحني داخل زهرة أو نبتة ليغتذي بما فيها من رحيق أو حشرات . من «عين السلطان» نصل بسهولة الى جبل القرنطل ، أو الأربعين كما يسميه المسيحيون ، لأن الرواية تقول ان السيد



عقبة أريحا - رسم لتيلور - عن صورة فوتوغرافية.

المسيح عليه السلام قد أمضى فوق قمته عزلة الأربعين يوماً .

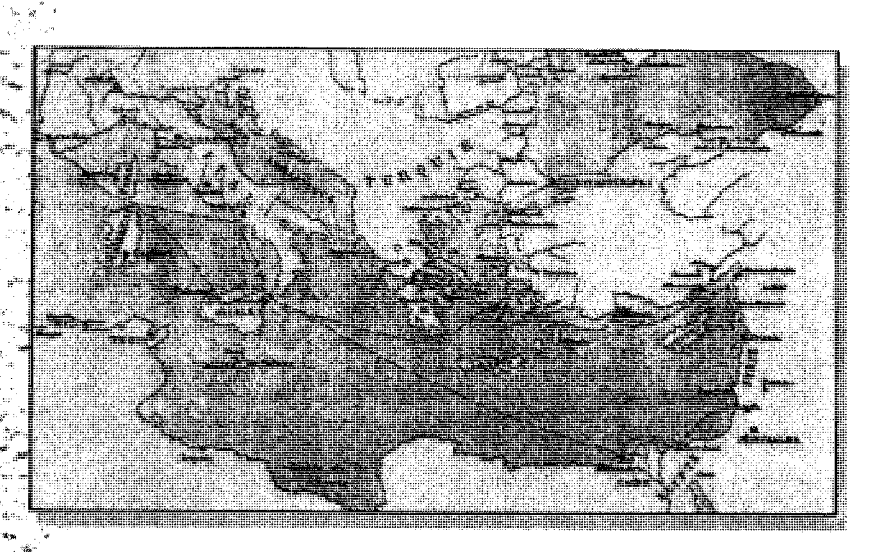
حرارة الطقس ووعورة الطريق تحولان دون المتابعة من أريحا باتجاه جرش لذلك نعود أدراجنا نحو القدس لننطلق منها نحو شمالي سوريا عبر المرتفعات حيث يسمح المناخ بمتابعة الرحلة بشكل أكثر راحة واطمئناناً . في طريق العودة الوعرة نمرّ في عقبة أريحا المطلة على مناظر رائعة لوديان أريحا وسهولها وصولاً الى أطراف البحر الميت . في تلك العقبة نلتقي بقافلة من بدو التعامرة الرّحل وذلك في عملية انتقال من المرتفعات الى وادي الأردن للاقامة شمالي جبل الأربعين .

بعد فترة تصبح الطريق أقل وحشة ووعورة مروراً ببعض حقول القمح مع استمرار غياب الاشجار في تلك البقاع . نصل الى نبع ماء عذب وجميل يعرفه العرب باسم «عين الهود» أما المسيحيون فيعرفونه باسم «نبع الأنبياء» .

ولكن يجب توخي الحذر لدى شرب مياه هذا النبع إذ يكثر فيه العلق الذي قد يسبب الاختناق لدى ابتلاعه والتصاقه في الحلق أو الحنجرة .

بعد اجتياز قرية العازرية نطل على القدس وأسوارها من جديد لتكون لنا محطة قبل استئناف الرحلة .

الفصل السابع عشر



الطريق الى جبل الطور

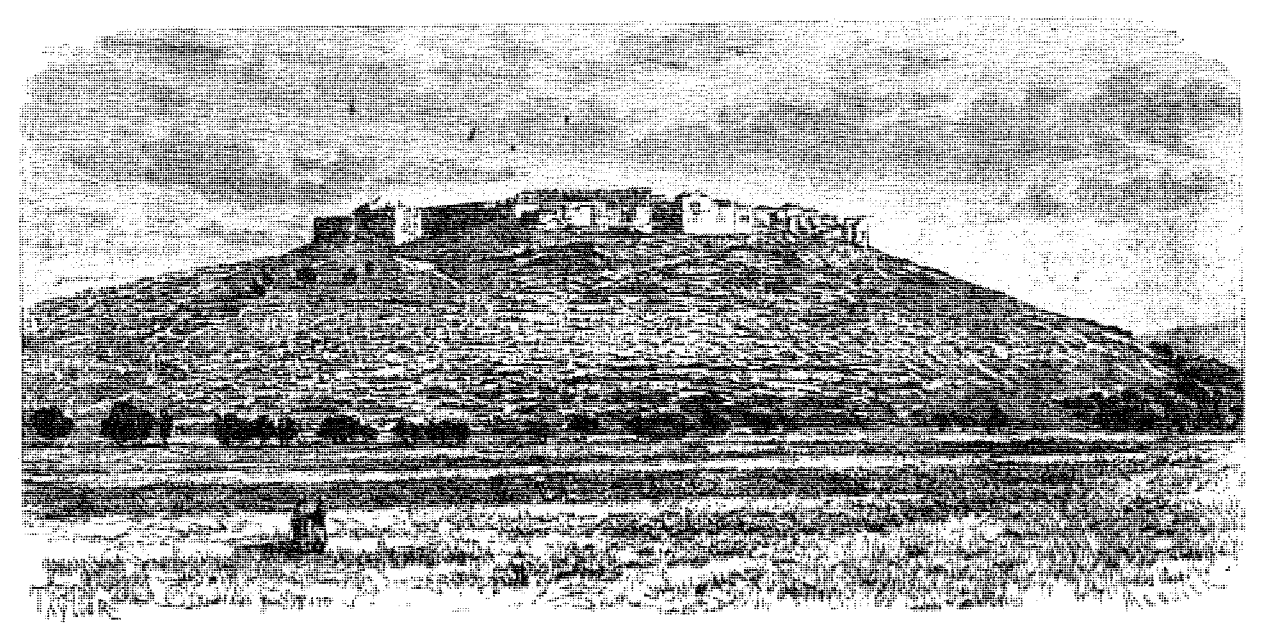
الرحلة من القدس الى الطور وبحيرة طبريا طويلة وهامّة وممتعة على الرغم ممّا يعترضها من صعوبات ، بعضها عائد الى المناخ وبعضها الآخر الى وعورة الطرقات .

تأخذ القافلة أولاً طريقها الى خارج القدس باتجاه نابلس ، ثم تنحرف يساراً بعد «عين الحرامية» في طريق جبلية تقود الى قرية جميلة قائمة على كتف هضبة وتعرف باسم سنجيل .

في اليوم التالي ، تنطلق الرحلة من سنجيل نزولاً نحو الوديان ، مروراً بخان



متسولون في جبة
رسم پ . فريتيل .
عن صورة فوتوغرافية .



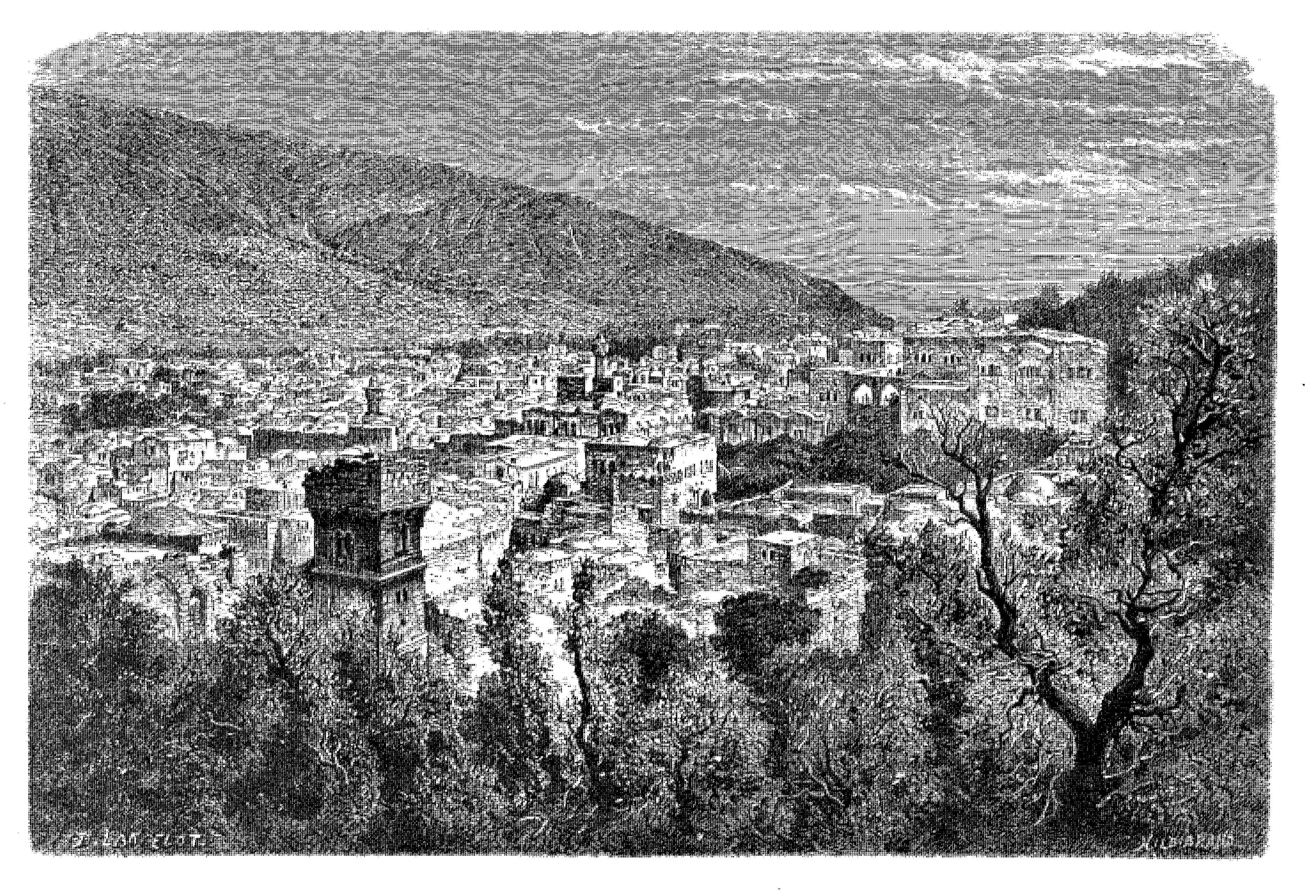
قلعة سانور
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .

اللبان وآبار يعقوب ، وصولاً الى نابلس التي سبق لنا المرور بها .

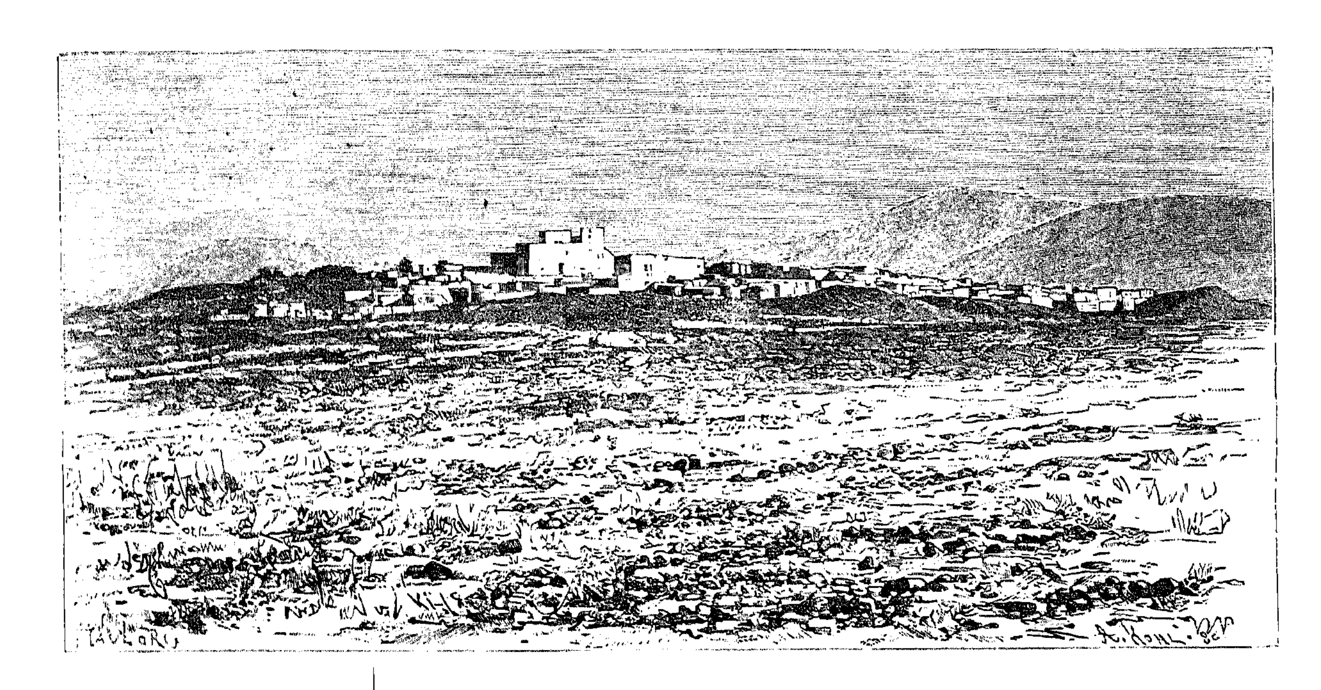
بعد قضاء الليل قرب نابلس ، نتابع الرحلة عبر طريق وعرة تتجه صعوداً عبر سفوح جبلية ، وصولاً الى قرية «جبا» القائمة عند الكتف الشرقي لهضبة مرتفعة ، تغطيها المزروعات الخضراء وأشجار التين والزيتون . عند أسفل القرية يجري نبع ماء عذب تصب مياهه في خزّان قديم ، حيث تتجمع نساء القرية لنقل الماء وغسل الملابس ، وقربهم مجموعة من الفقراء والمتسولين يرتاحون في الظلال قرب آثار سور قديم .

بعد ذلك تتجه الطريق عبر سهل خصب مزروع بسنابل القمح التي يبلغ ارتفاعها مستويات غير مألوفة . ينتهي هذا السهل في طرفه الشمالي ـ الشرقي الى تلّة مخروطية الشكل يرتفع فوق قمتها حصن قديم نصف مهدّم ويعرف باسم قلعة سانور . الطريق الى أعلى الهضبة ، حيث القلعة والقرية صعبة وملتوية نجتازُها بعناء عبر ممرات ضيقة شديدة الانحدار . نصل الى بقايا الأسوار القديمة التي ما تزال بعض أجزائها قائمة . وعند الدخول الى القرية نجدها شبه خالية إلاّ من بعض النساء والأطفال الذين سرعان ما يختفون لدى رؤية الغرباء . ويبدو ان وصولنا تزامن مع انشغال معظم السكان في الحقول .

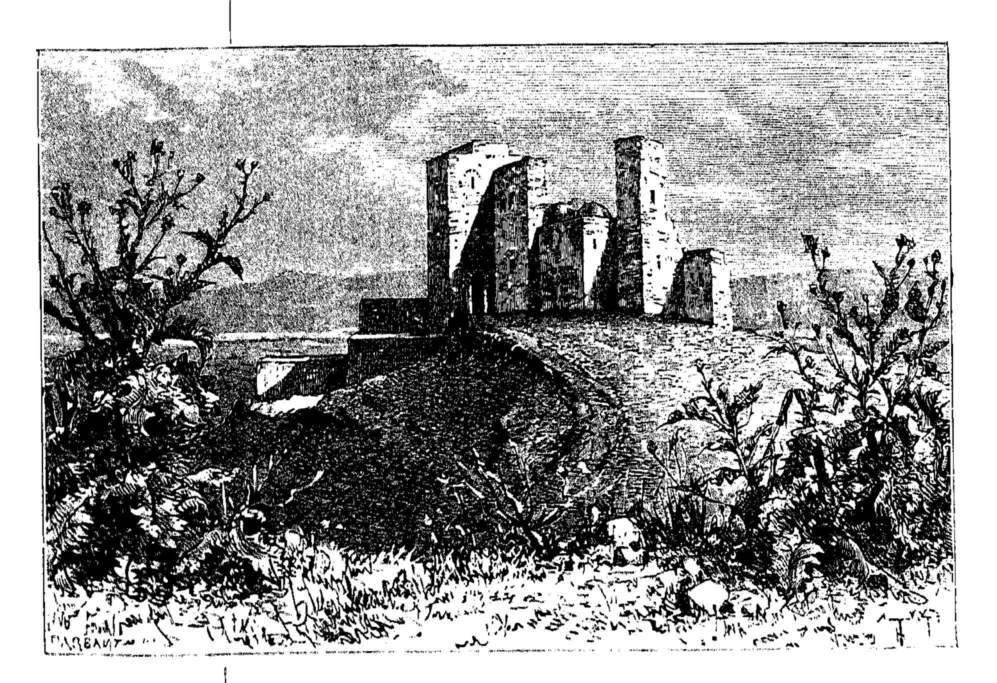
بعد زيارة سانور وقلعتها ، وهي جديرة بأعمال بحث وتنقيب مستفيضة ، نغادرها من الجهة الغربية نزولاً عبر مدرّج طبيعي تكثر فيه الصخور وتحيط به الهضاب الخضراء والغابات . يعرف هذا المنخفض عند القاع باسم «مرج الغروق» ،وهو يتحوّل معظم أيام السنة الى ما يشبه البحيرة ، أو المستنقع ، ولكن هذه المياه تشحّ وتتبخّر خلال موسم الحرّ فلا يبقى منها سوى كمية قليلة في الوسط



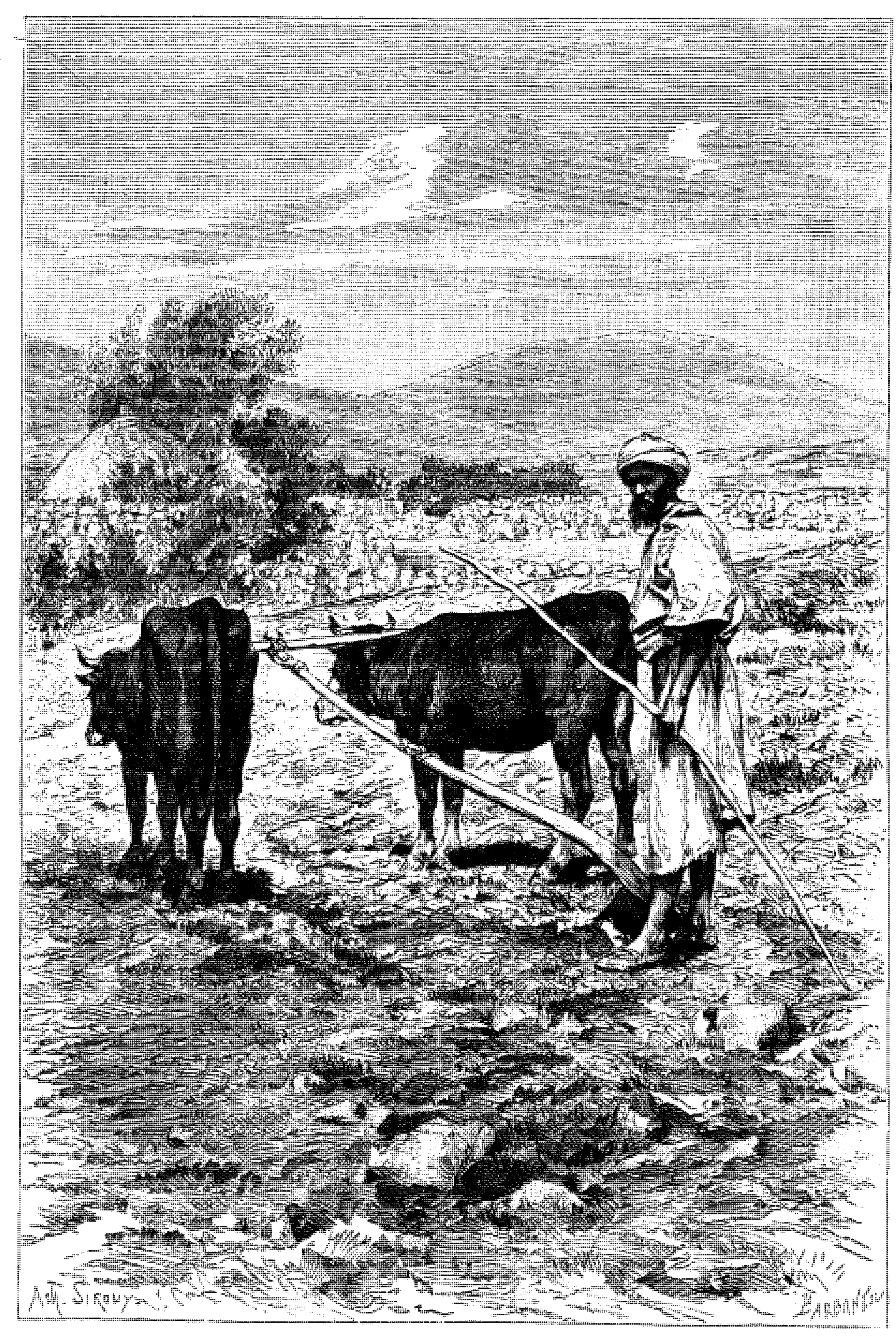
نابلس



قرية زرين
رسم لتيلور
عن صورة فوتوغرافية



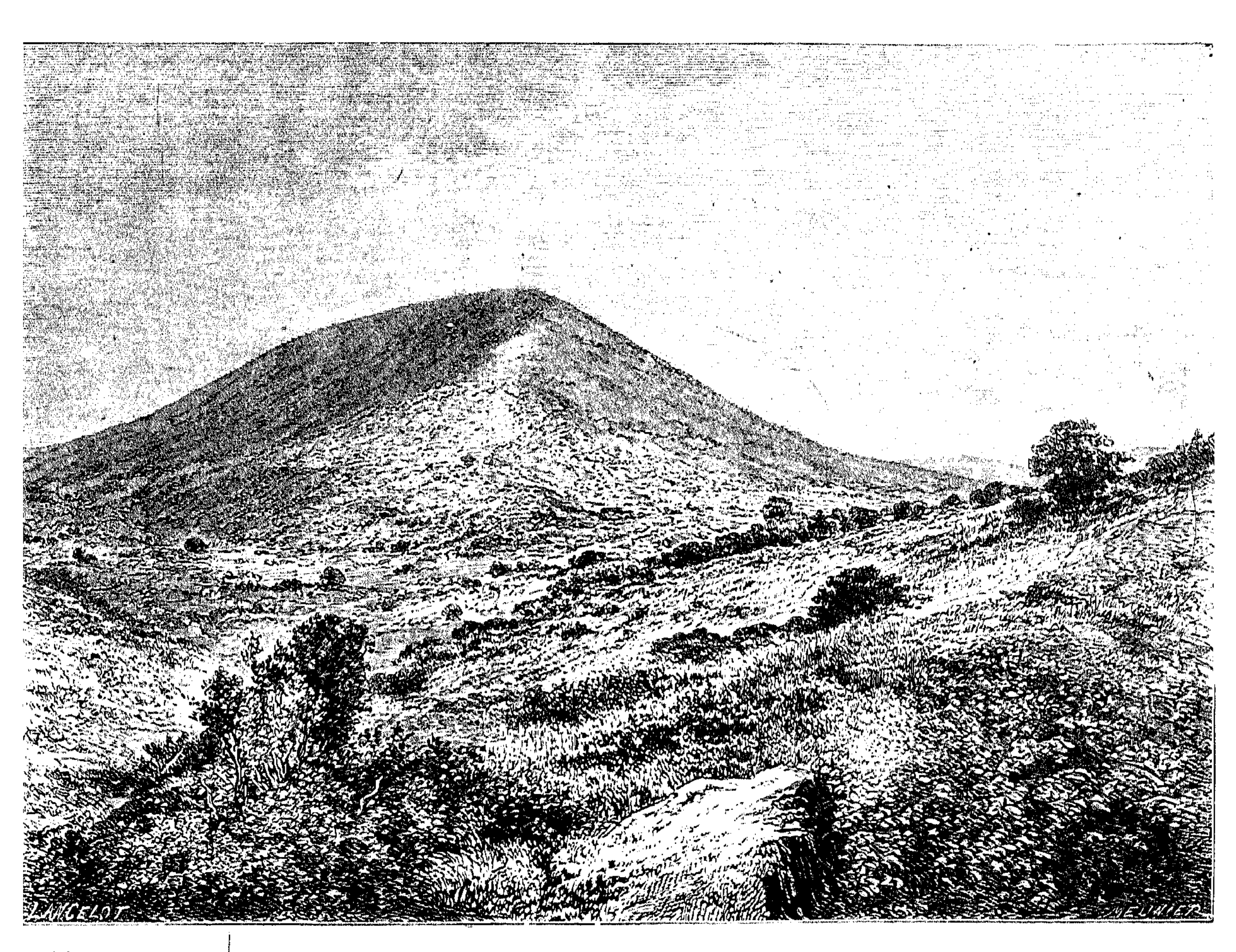
قصر زرين المربع
رسم لتيلور
عن صورة فوتوغرافية



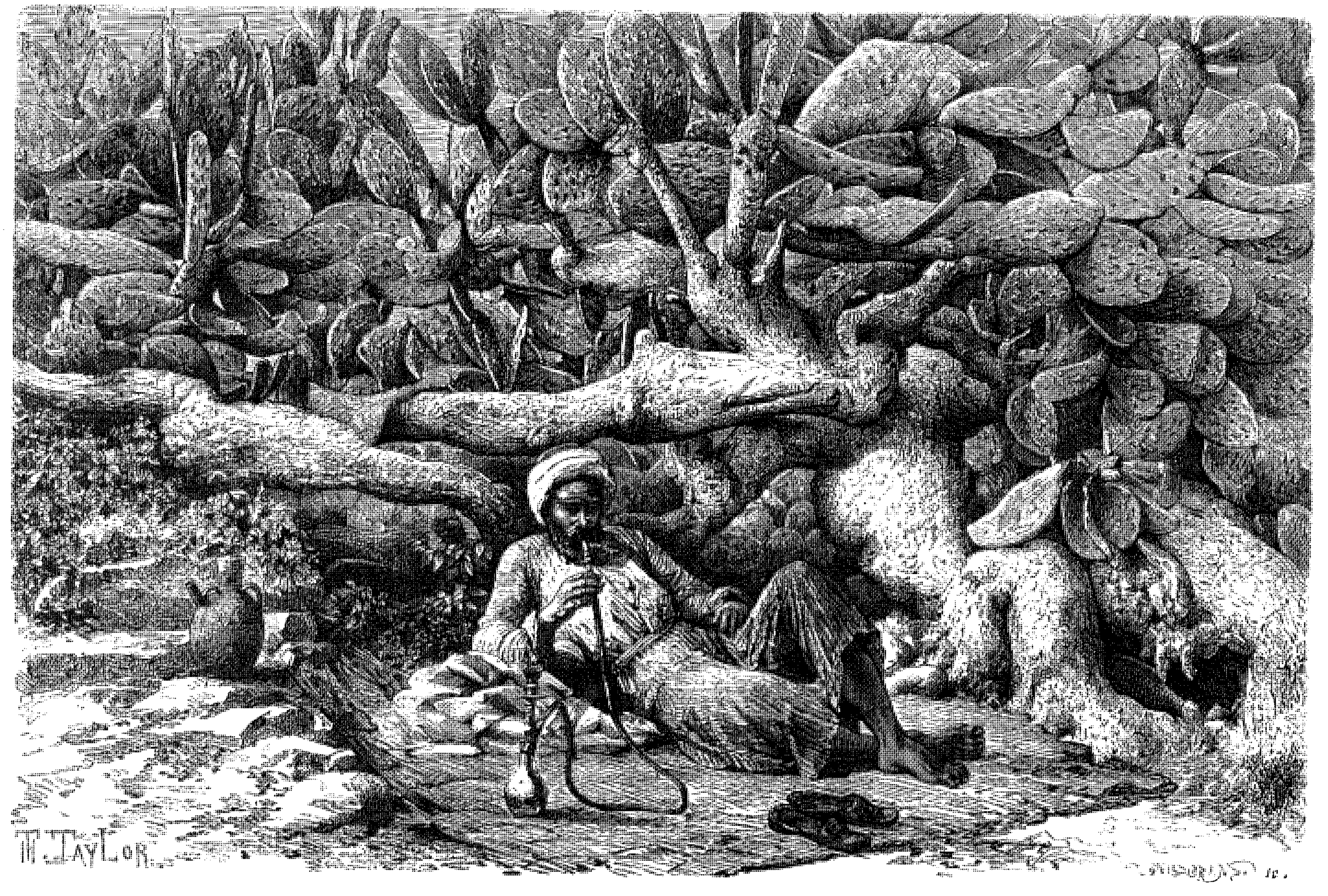
فلاح من منطقة جبل حرمون ـ رسم أ . سيروي ـ عن صورة فوتوغرافية .

الأكثر عمقاً . بعد الخروج من هذا الوادي تتجه الطريق صعوداً عبر الصخور نحو قرية «جربا» الصغيرة ، ثم عبر هضبة أخرى تقوم على كتفها قرية «القباطية» ثم شرقاً عبر موقع أثري قديم يعرف باسم «أم البطمة» ، يلي ذلك انحدار الطريق عبر واد ضيّق خال من الأشجار والمزروعات ، وفيه ترتفع الحرارة الى درجة تكاد تحرق الرؤوس وتلهب الأجساد . الى جانبي الطريق نلاحظ وجود فجوات وكهوف محفورة في الصخور ، وقد تكون عائدة الى مقابر قديمة مهجورة . بعد الخروج من هذا المنخفض الحار والوعر نجد أنفسنا فجأة وسط حقول الزيتون والبساتين المحيطة بقرية «جنين» حيث نمضي الليل قبل استئناف الرحلة في اليوم التالي .

من جنين نتجه شرقاً عبر سهول واسعة ، بعضها مزروع بالقمح وبعضها الآخر تتشابك فيه شجيرات الشوك الضخمة ، ونمرّ بقرى صغيرة وفقيرة يسكنها بعض الفلاحين ومنها قرى «العرّافة» و «الجلاّمة» ، وصولاً الى قرية «زرين» الكبيرة القائمة فوق مرتفع يقع الى الشمال بين جبال «الفقوة» وجبل حرمون الأصفر الصخري . في هذه المنطقة تنقسم مجاري المياه ما بين أنهار تجري غرباً لتصبّ في المتوسط عبر «كيشون» وأخرى تجري شرقاً عبر نهر «جالود» لتصبّ في وادي



جبل الطور
رسم لنسولو
عن صورة فوتوغرافية



سياج من الصبار قرب جنين

الأردن ، لجهة «بيسان» .

تقوم قرية «زرين» في موقع قديم كانت تقوم فيه بلدة «جسريل» التي قتل فيها أحد ملوك إسرائيل «شاوول» مع أبنائه الثلاثة . وفي القرن التاسع قبل الميلاد أضحت «جسريل» مقراً للملك «أشاب» الذي أقام فيها قصراً كبيراً .

وفي أيام الصليبيين اتخذت القرية اسم «جيرينوم» وتحوّل هذا الاسم مع العرب الى «زرين» . أما اليوم فالقرية عبارة عن منازل قليلة فقيرة ومهدّمة ، ولم يبق من آثارها سوى خرائب وبقايا برج مربع يشرف على منظر رائع للمناطق المحيطة .

من «زرين» تمرّ الطريق عبر سهل «جسريل» الممتدّ حتى بيسان ، مروراً بقرى صغيرة وفقيرة يعيش فيها بعض الفلاحين ، وتقوم عند أقدام جبل حرمون الصغير ، أو جبل الدوحي . في تلك المناطق نلتقي ببعض البدو الرحّل من «بني الصقّار» الآتين من جهات وادي الأردن لرعاية قطعانهم .

تلتفّ الطريق حول جبل الدوحي لنطلّ على منظر رائع لجبل الطور الذي يفصلنا عنه سهل واسع ، فيبدو وكأنه قبة مستديرة ومنفردة وسط نجاد خضراء ، تحيط به وتغطيه من سفوحه حتى قمته غابات وأدغال . وفي البعيد نحو الغرب نلمح في الجانب الآخر من وادي الأردن قمم الجولان وحرمون الكبير البالغ ارتفاع قممه المغطاة بالثلوج ثلاثة آلاف متر .

السهل الذي نجتازه ذو تربة بركانية سوداء وتمتد فيه بعض الحقول المزروعة فيما يبقى معظمه مهملاً دون أي زراعة ، تستخدمه قبائل «الصقّار» لرعاية قطعانها وضرب خيامها المخططة الجميلة التي تحرسها الكلاب الشرسة . بعض هؤلاء البدو يبدو غير مرحّب بنا وغير مرتاح لوجودنا في حين يبدو بعضهم الآخر مضيافاً ويعبّر عن ذلك بتقديم الحليب الينا ومحادثة مرافقينا العرب .

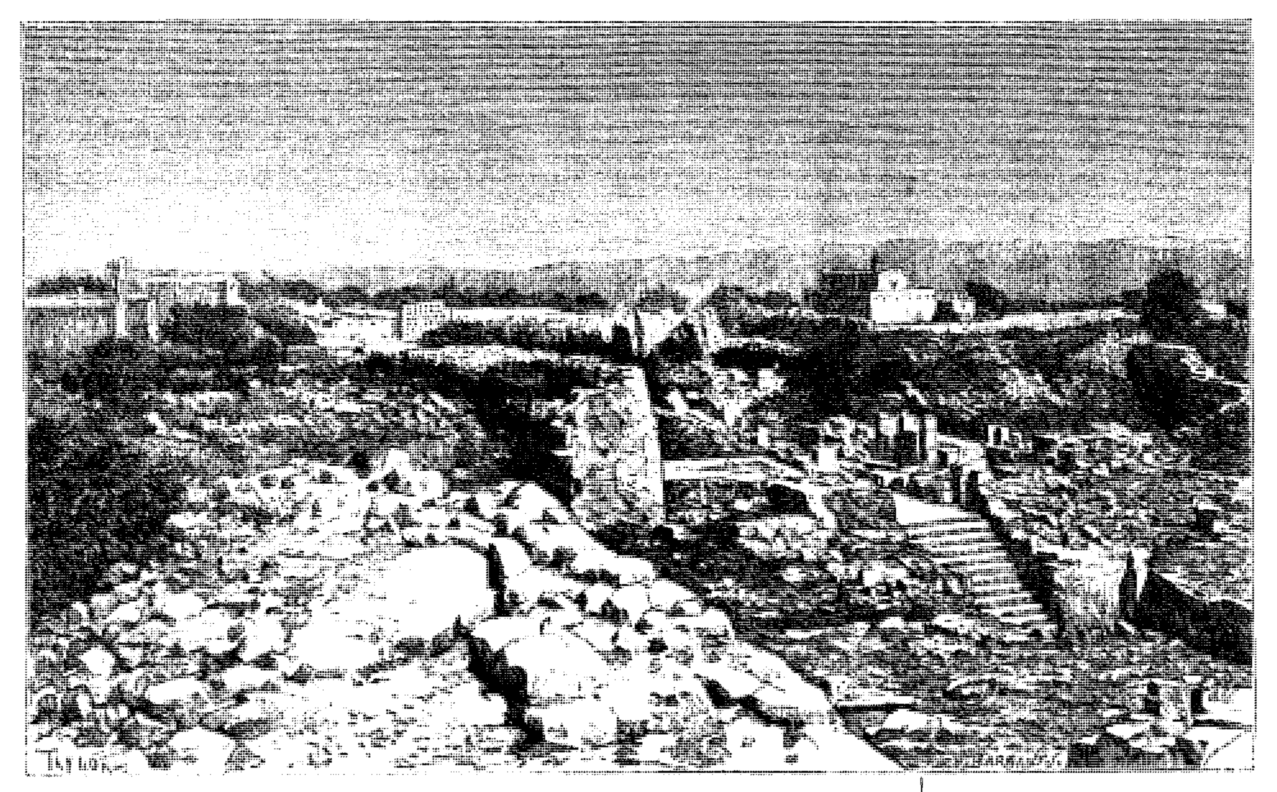
هؤلاء البدو ذو هيئات بهيّة ونساؤهم على مستوى رفيع الجمال ، قبل أن يدركهن الكبر والعجز بعد حياتهنّ الحافلة بالعمل الشاق ، إضافة الى الأمومة وإنجاب الأولاد . جميعهن تقريباً يرتدين أثواباً زرقاء تعلوها أغطية سوداء تغطي الرأس والكتفين . أكثر ما يميزهنّ تلك الأوشام الدقيقة التي غالباً ما تغطي اليدين والخدين والشفتين والذقن .

جبل الطور وحطين

بعد الطريق السهليّة الطويلة نبدأ باجتياز الوهاد المكوّنة لسفوح جبل الطور المنتصب الى يسارنا . عند سفوح جبل الطور تكثر الأشجار المختلفة من البطم والسنديان والصنوبريات المختلفة . والرحلة هناك ليست سهلة وسط الأدغال



إمرأة من الصقار ـ رسم ب . فريتيل ـ عن صورة فوتوغرافية .



كنيسة وخرائب على قمة جبل الطور
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .



جبل حطين
رسم لنسولو .
عن صورة فوتوغرافية .

المتشابكة لا سيما مع ارتفاع الحرارة الهائل في تلك المنخفضات . من المحطات الهامة مكان يعرف باسم «خان التجّار» كان قد بناه سنان باشا عام ١٥٨٧م كمحطّة على الطريق ما بين دمشق ومصر . قرب الخان نبع ماء عذب ، وفوقه بقليل آثارٌ وخرائب من بقايا حصن صغير وأبراج كانت تقوم لحماية الخان . وكلّ يوم أثنين يستقطب هذا المكان حوالي الألف نسمة من البدو الذين يأتون من المناطق المجاورة لإقامة سوق للمشاة .

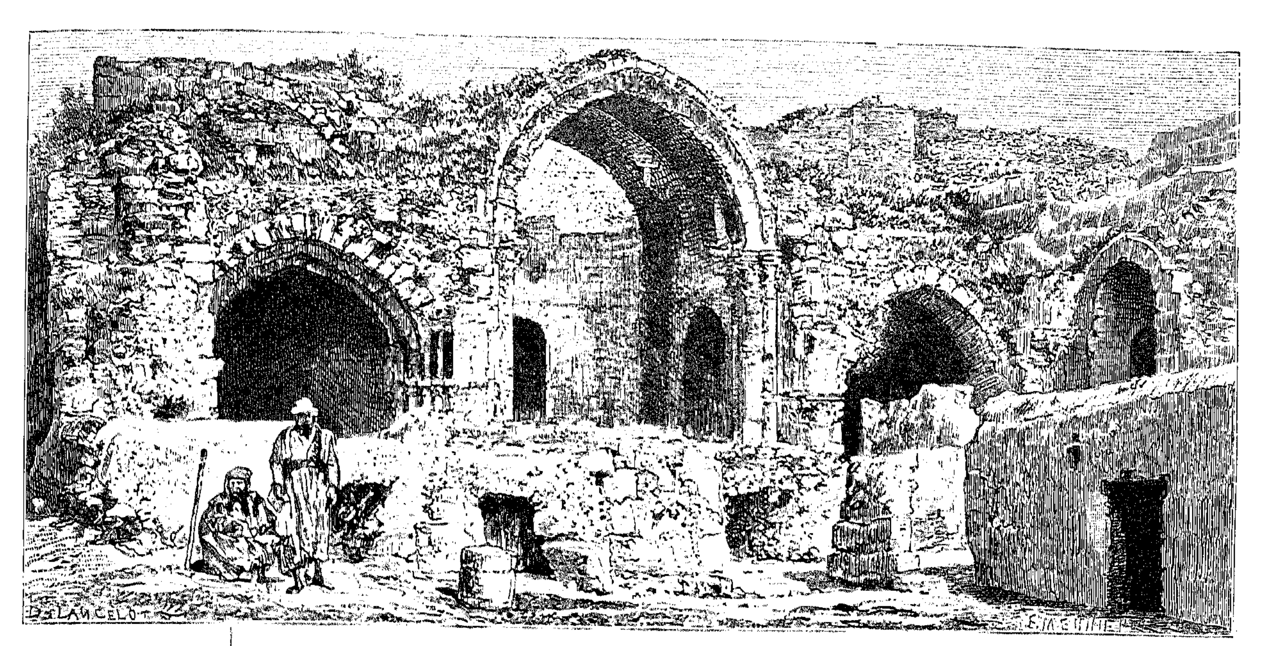
بعد قضاء الليل قرب «خان التجّار» ننطلق صعوداً في طريق ملتوية تظلّلها أشجار السنديان الضخمة لنبلغ قمة جبل الطور بعد ثلاث ساعات من السير الهادىء . يرتفع هذا الجبل ثلاثمائة وواحداً وعشرين متراً عن السهل المحيط وستماية وخمسة عشرُ متراً عن سطح البحر المتوسط وهو ذو شكل نصف كرويّ ولكنه ليس بركانياً ، تكسوه أعشاب خضراء كثيفة تمتد بين أشجار شاهقة من السنديان والبطم .

قمة جبل الطور ذات شكل إهليلجيّ بيضي ، وتبلغ ألفاً وخمسماية متراً طولاً وثمانماية متر عرضاً . عند تلك القمة ما تزال توجد آثار وخرائب قديمة تعود الى حقبات مختلفة من التاريخ ، ولكن معظمها أصبح خالياً من أية فائدة . من تلك الآثار بقايا أبراج رومانية وآثار أسوار كانت تحيط بقمة الجبل . وفي دير اللاتين الذي أقيم عام ١٨٧٣م بقايا كنيسة قديمة تعود الى القرن الثاني عشر ، وتتكوّن من ثلاثة مذابح وثلاثة صحون ، إشارة الى الخيام الثلاث التي كان سينصبها الرسول بطرس لحظة تجليّ المسيح عليه السلام فوق قمة جبل الطور أو طابور .

هذا الجبل بموقعه الهام وشكله المميز اجتذب الكثيرين على امتداد التاريخ من يهود ورومان وغيرهم ثم الصليبيين فالمسلمين الذين كانوا آخر من أستولى على المكان عام ١١١٣م .

من قمة جبل الطور ، وعندما يكون الطقس صافياً ، نطلّ على منظر رائع للمناطق المحيطة ، قريبها وبعيدها . غرباً يمتد النظر عبر السهول الواسعة التي يخترقها نهر كيشون بين الحقول المزروعة والقرى المنثورة في كل مكان وصولاً الى قمة جبل الكرمل التي تحجب وراءها البحر .

شمالاً تمتد القمم الجبليّة وصولاً الى القمة التي تقوم فوقها مدينة صفد . وفي البعيد نحو الشمال الشرقي ترتفع قمة حرمون الكبير المغطاة بالثلوج . وفي مكان قريب نطل على جبل مزدوج القمة هو جبل حطين ، أو «قرن حطين» كما يدعوه العرب . كما نشرف على جزء كبير من حوض بحيرة طبريا . من قمة جبل الطور نعود الى «خان التجّار» لننطلق شرقاً عبر هضبة مرتفعة ذات صخور بركانية . من تلك الهضبة ، مروراً بوديان مزروعة ومعابر صخرية ضيّقة نصل الى سفوح جبل

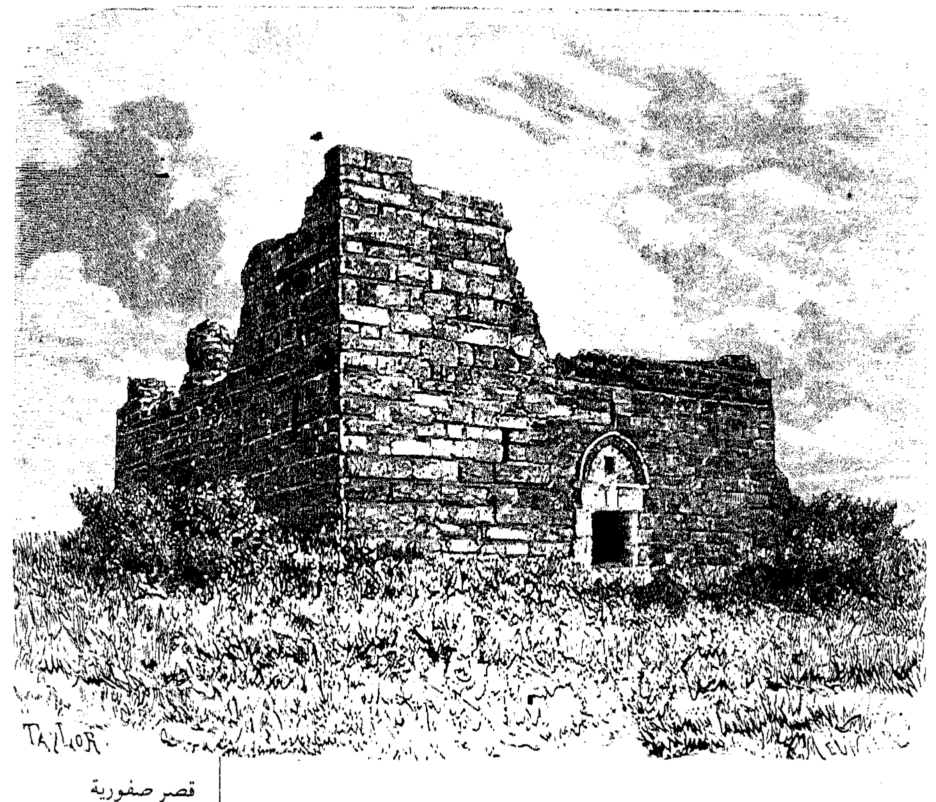


خرائب كنيسة صفورية
رسم لنسولو .
عن صورة فوتوغرافية .

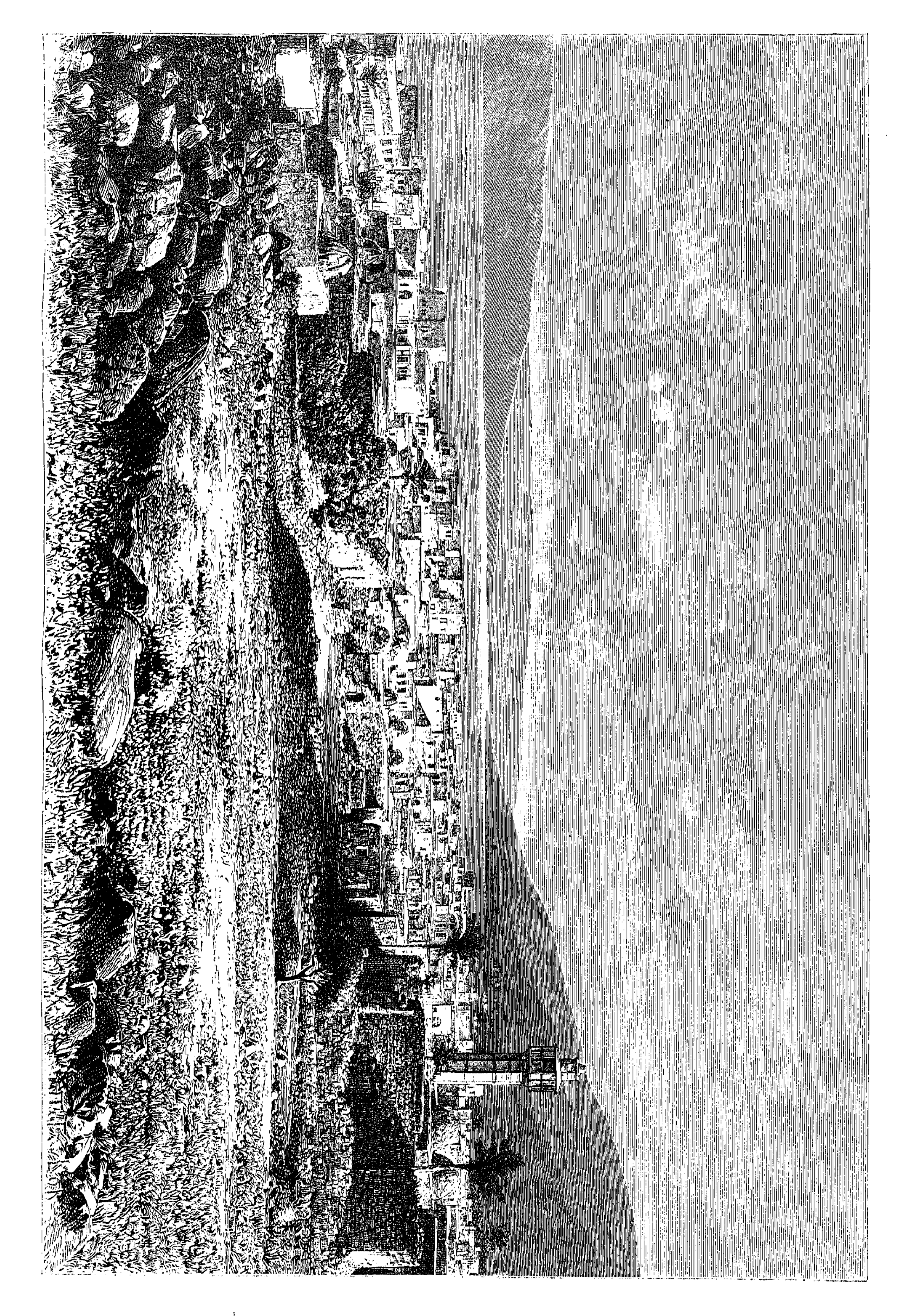
حطين البالغ ارتفاعه ثلاثماية وستاً وأربعين متراً على سطح . حول هذا الجبل ،وفوق قمته الممتدة على طول مئة وخمسين متراً جرت معركة حطين الشهيرة في الرابع من تموز عام ١١٨٧م والتي تمكن فيها صلاح الدين الأيوبي من وضع حدّ للسيطرة الصليبية في الشرق .

منذ ذلك التاريخ خرجت سوريا من السيطرة المسيحية على الرغم من أن ملوك الغرب استمروا في ارسال جيوشهم طوال سبعين عاماً بعد «حطين» ولكن دون أن يتمكنوا أكثر من النزول في بعض مناطق الشاطىء .

قرب جبل حطين يجري نبع «صفورية» الذي كان الصليبيون قد حدّدوه مكاناً لالتقاط جيوشهم استعداداً لمواجهة صلاح الدين الزاحف بجيوشه من دمشق . وفي القلعة الجميلة المعروفة بقصر صفورية أقيمت القيادة العامة للجيوش المسيحية .



قصر صفورية
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .



طبريا ـ رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية

لم يبق من هذا القصر الآن سوى خرائب وآثار أبواب وقاعات وأدراج . وفي قرية «صفورية» ما تزال توجد بعض آثار خربة لكنيسة كان قد أقامها الصليبيون في القرن الثاني عشر .

مدينة طبريا

نجتاز حطين والسهل الذي يضمّ رفات جنود وبقايا أسلحة هي آخر بصمات الصليبية في الشرق . ومع انتهاء السهل نصل الى منحدر مشرف على منظر رائع لبحيرة طبريا بامتدادها الأزرق الرائع ، والتي تقع على ضفافها مدينة طبريا الجميلة . الى الشمال تشرف على البحيرة هضبة خضراء تربض عند قمتها مدينة صفد بمنازلها البيضاء ، وفي البعيد ترتفع قمم حرمون الكبير المتّوجة بالثلوج .

وفي الجهة المقابلة ترتفع هضاب الجولان بقممها البركانية . الى الجنوب البعيد يبدأ بالارتسام المنخفض الكبير الذي يشكّل الغور الممتدّ حتى البحر المتوسط .

الطريق الى بحيرة وعرة وشديدة الصعوبة تهبط متلوّية عبر ذاك المنحدر بين المزالق والحصى والصخور ، وصولاً الى أسوار طبريا ثم الى مرتفع من الأرض قرب البحيرة حيث نقيم مخيمنا .

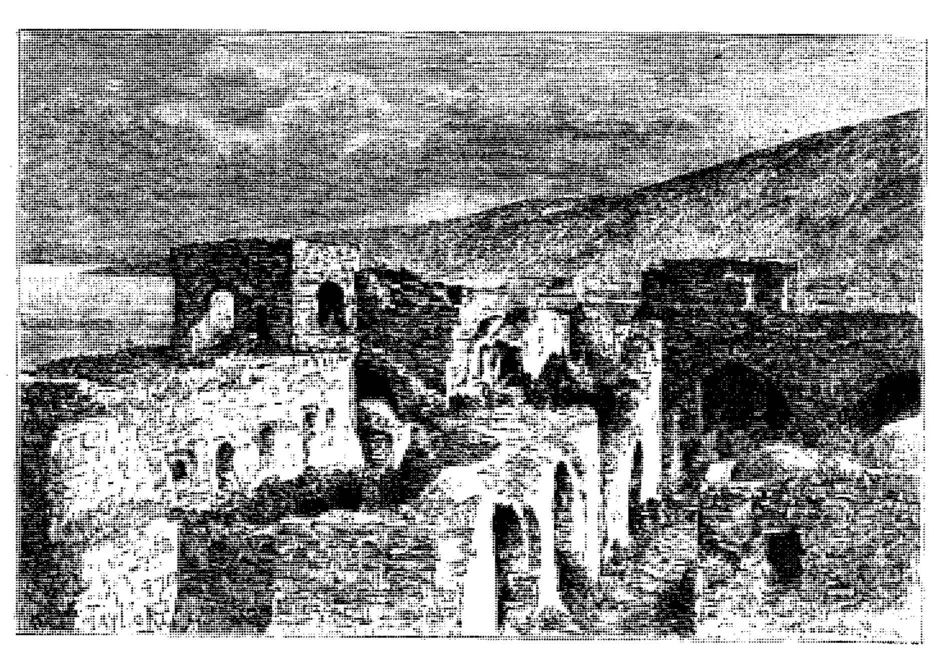
الزيارة الأولى في اليوم التالي هي لمدينة طبريا القائمة على ضفاف الماء عند طرف سهل متموّج يمتدّ ما بين البحيرة والهضاب المحيطة والشديدة الإنحدار . تتخذ مدينة طبريا شكل متوازي الأضلاع . أسوارها المحيطة متهدّمة في أماكن عديدة حيث كانت تبلغ عشرين قدماً ارتفاعاً تدعمها على مسافات مختلفة أبراج ضخمة دائرية . طبريا اليوم مفتوحة لجهة البحيرة حيث نشاهد عند الضفاف بقايا أسوار وحجارة ضخمة ، وهي إشارة واضحة الى أن الأسوار كانت تحيط بالمدينة حتى من جهة البحيرة وذلك في ماضي العزّ والازدهار . فوق مرتفع يقع شمال شرقي المدينة بقايا قصر قديم أو قلعة ، سكنها في القديم «تانكريد» و «ريمون» ، ولم يبق منها اليوم سوى بقايا أبراج وأسوار ضخمة .

إمرأة وسائق حمار
من طبريا
رسم أ . بروييه .
عن صورة فوتوغرافية .



هذه القلعة ، كما أسوار المدينة تهدّمت بالزلزال الذي أصاب

يهودية وأولادها من طبريا
رسم أ . سيروي
عن صورة فوتوغرافية .



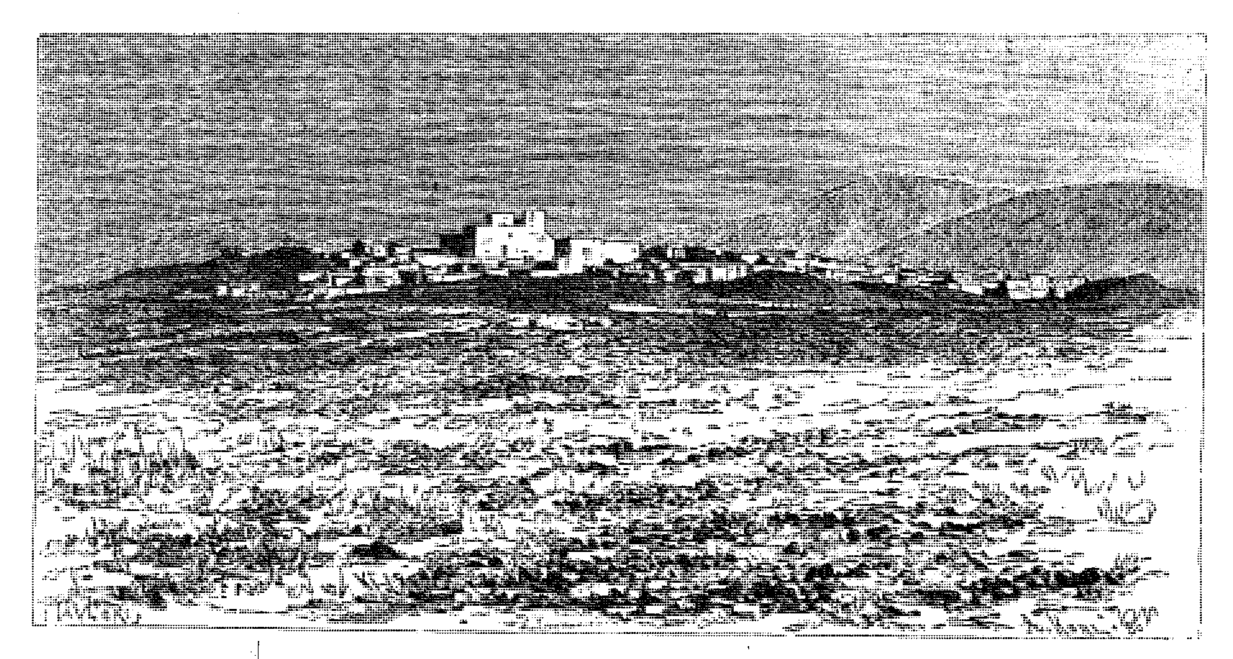
قلعة تانكريد
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .

تلك المنطقة عام ١٨٣٧م . في الشرق والشمال ثغرات واسعة في الاسوار تُمكّن من الدخول الى المدينة دون المرور في أبوابها . سكان طبريا ، كما سكان صفد ، هم الأقل نظافة وترتيباً في سورياً . انها الحال في كل المدن التي يكثر فيها اليهود الروس والألمان والبولونيون ، وهؤلاء هم الغالبية هنا . يسكن الاسرائيليون اليوم بحريّة في أي مكان من مدينة طبريا وهذا ما لم يكن ممكناً منذ زمن غير بعيد حيث كانوا يحتجزون ليلاً في أماكن معينة .

مظهر اليهود في طبريا يدلّ على ما هم عليه من بؤس ، وهم عرضة مع كلّ خريف لأنواع الحمّى والمرض . نساؤهم أكثر لطفاً من الرجال وهنّ أفضل هنداماً من نساء القدس ، وغالباً ما يعتمرون غطاءاً أبيضاً يغطي الرأس والكتفين . منازل طبريا حجرية ذات عقود وتعلوها قبب كروية . عرفت طبريا في السنين الأخيرة نسبة ملحوظة من النموّ والتطوّر ، وقد شقت فيها شوارع جديدة كما ارتفعت منازل حديثة كثيرة . إنها تضمّ اليوم ما يقارب خمسة آلاف نسمة ، ثلاثة آلاف منهم يهود ، وألف وخمسماية مسلم ، إضافة الى خمسماية من الروم .عبر الأزقة الضيقة والمتشابكة نصل الى سوق طبريا الكثيرة الحركة .

يلفت نظرنا منظر بعض النسوة يأتين الى السوق على ظهور الحمير لشراء حاجاتهنّ . في تلك السوق تتنوّع البضائع المختلفة الأشكال والمصادر . هناك الأقمشة الأميركية والانكليزية والعطور الفرنسية والأحذية البلجيكية واللحوم والخبز ،إضافة الى الأسماك الكثيرة التي توّفرها البحيرة ، أيضاً وبطيخ طبريا وعنبها ، وهما ذائعا الصيت . في بساتين طبريا ، كما في بعض أحيائها ترتفع أشجار نخيل رائعة تضفي على المدينة الصغيرة شكلاً مميزاً .

يبدو ان مدينة طبريا القديمة كانت أكثر امتداداً نحو الجنوب من طبريا اليوم . تدل على ذلك آثار عمران ما تزال قائمة قرب الينابيع الحارّة ، إضافة الى أعمدة من الغرانيت يتراوح طول الواحد منها ما بين ثلاثة وأربعة أمتار ، بقطر يبلغ قدمين .

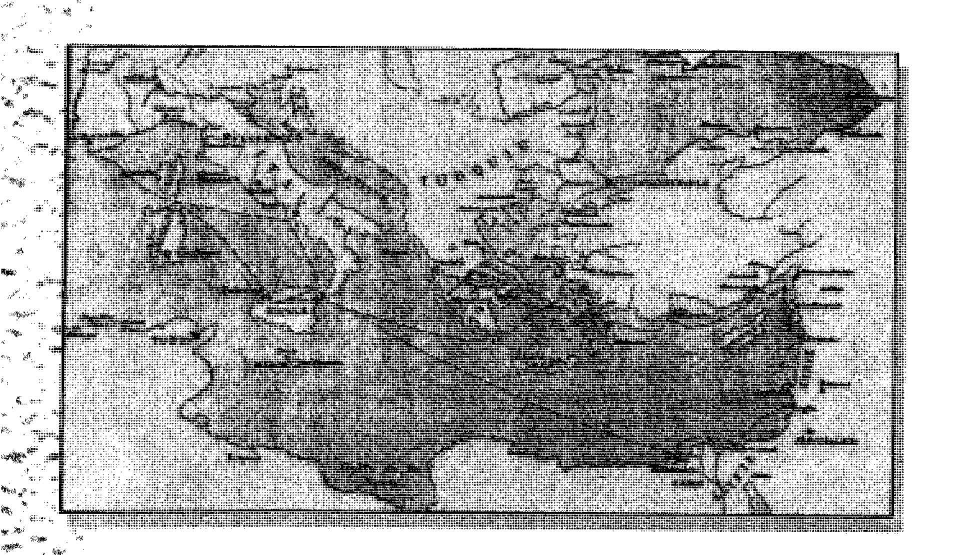


زرين وجبل جلبوة



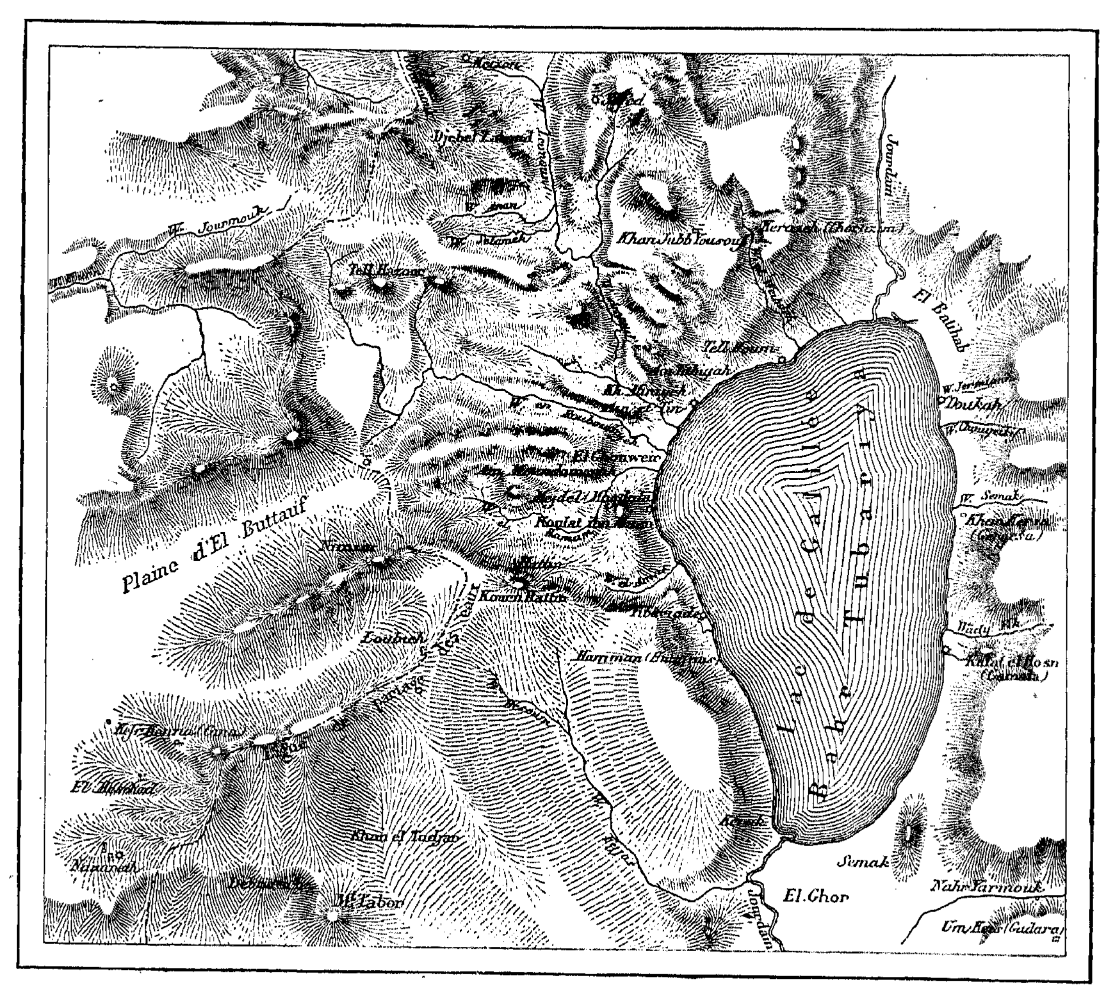
شجر البردى على بحيرة طبريا

الفصل الثامن عشر



بحيرة طبريا ومحيطها

عرفت بحيرة طبريا بعدّة أسماء على امتداد التاريخ . من ذلك مثلاً «كيناروت» كما جاء في الكتاب المقدّس ، ثم «بحر الجليل» كما ورد في العهد الجديد . ومن أسمائها الشائعة اليوم «بحر طبريا» ، و «بحيرة الغوير» ، نسبة الى السهل الواقع قربها . تقع هذه البحيرة في نفس المنخفض الأرضي الذي يضمّ غور الأردن والبحر الميت ، على مستوى مئتين واثني عشر متراً دون سطح البحر المتوسط . شكلها إهليلجي منتظم ويبلغ واحدا وعشرين كيلو متراً طولاً وتسعة كيلو مترات عرضاً .

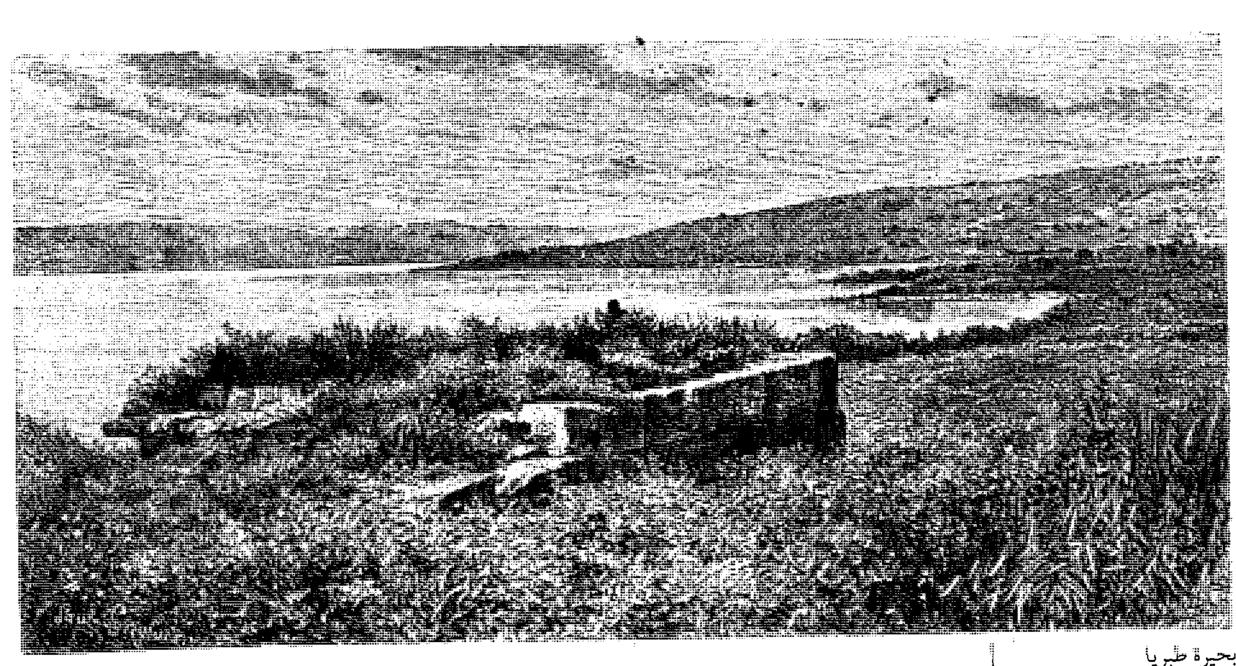


مخطط بحيرة طبريا

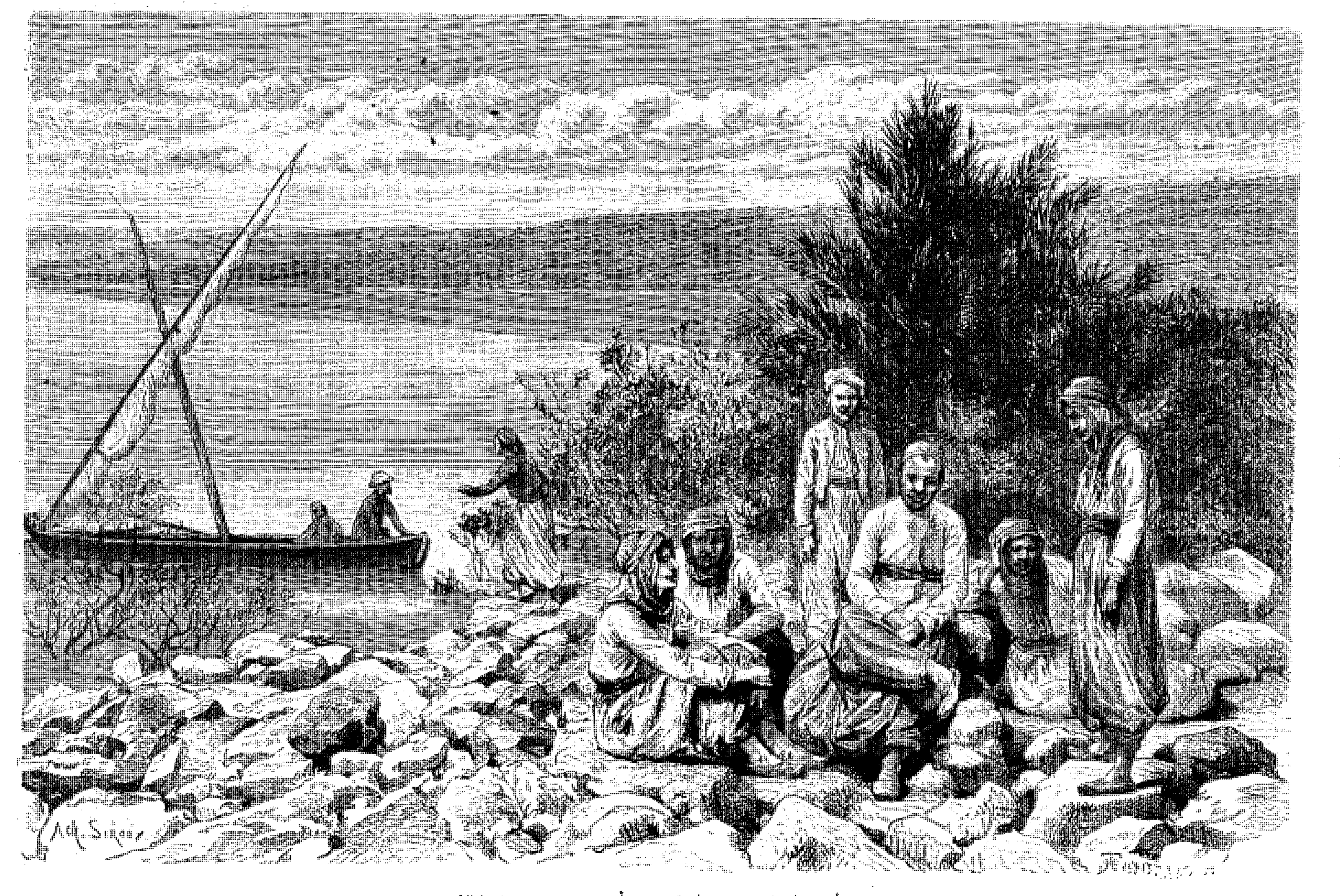
غداة الوصول الى البحيرة تركّز الإهتمام على تحضير مركب وملاحين مهرة وذلك للإبحار داخل البحيرة وسبر أشكال الحياة فيها . في البحيرة ثلاثة مراكب فقط ، وهي على بدائيتها تتمتّع بخفّة وصلابة فائقتين كما تسير بسرعة ملحوظة يساعدها في ذلك أشرعتها . مياه البحيرة ذات لون أزرق سماوي ، ولكنها ذات كثافة يستحيل معها الرؤية على عمق يتجاوز ثلاثة أو أربعة أمتار . يتراوح متوسط عمق البحيرة ما بين خمسين وسبعين متراً . ولكن وفي بعض الأماكن اكتشفنا أعماقاً قد تتجاوز المئتين وخمسين متراً كما هي الحال في وسط الحوض الكبير الشمالي قرب مصبّ نهر الأردن في البحيرة .

على بعد مئات الأمتار من الشاطىء نجد قاع البحيرة مغطى بطبقة سميكة من الطين الناعم الضارب الى الرماديّ ، وهو ناتج عن تحلّل الصخور الكلسية والبركانية إضافة الى المجروفات والرواسب التي يحملها نهر الأردن . هذا الوحل الرسوبي مناسب جداً لصناعة الفخار ، ولكن يبدو أن سكان المنطقة لا يدركون ذلك لأنهم يستحضرون حاجاتهم الفخارية من قرية راشيا الفخار القائمة عند أقدام جبل حرمون .

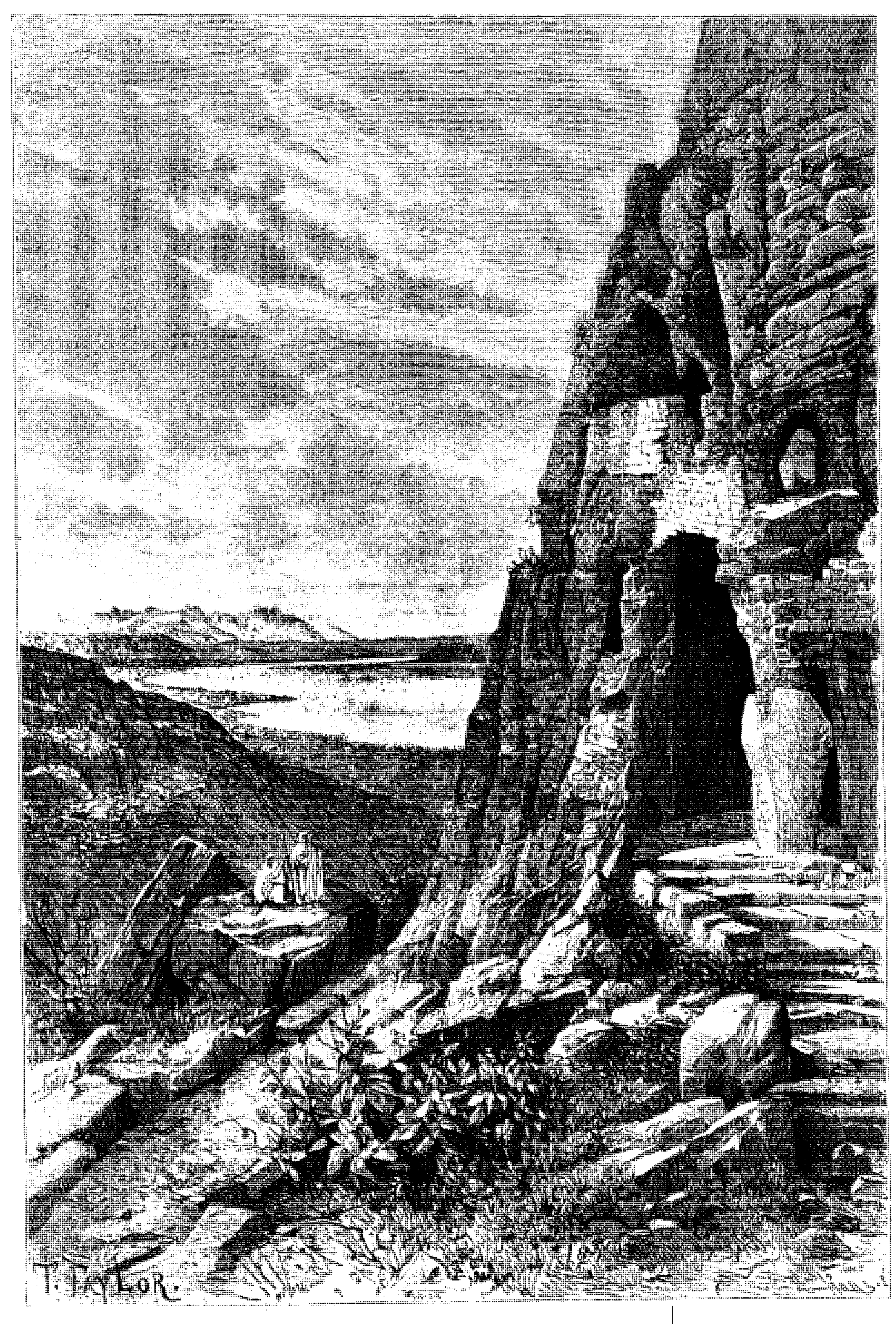
في سَبْر الأعماق ، كنا نستخدم جرّافات ندلّيها في الماء حتى تلامس الأعماق ، وبواسطتها اكتشفنا أن القاع بمجمله مغطى بالطبقة الطينية وأن الصخور لا تتواجد إلاّ عند الأطراف . الصباح هو الوقت المناسب لهذه الأبحاث قبل ارتفاع



بحيرة طبريا
رسم د . لنغلو
عن صورة فوتوغرافية



أعضاء الرحلة قرب عين طبيقة ـ رسم أ. سيروي ـ عن صورة فوتوغرافية



مدخل مغاور إربد

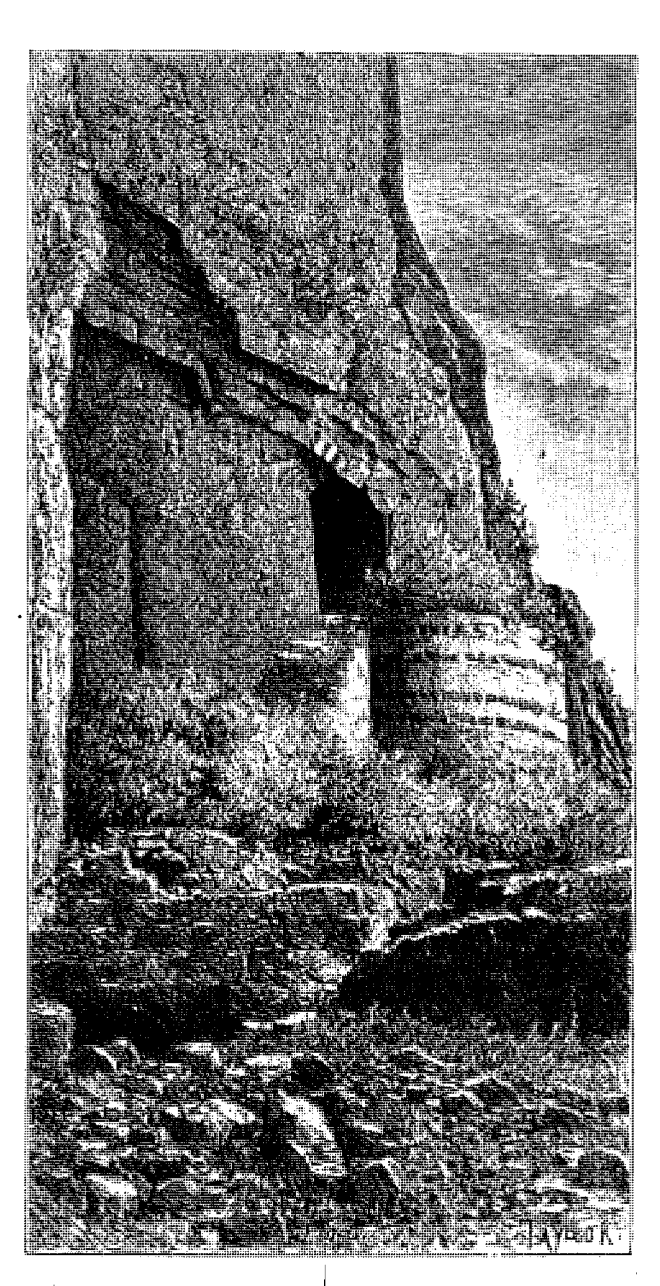
رسم لتيلور – عن صورة فوتوغرافية .

الشمس واشتداد الحرارة ، وحيث النسيم الهادىء يسمح بالتنقّل البطيء والثابت على صفحة الماء .

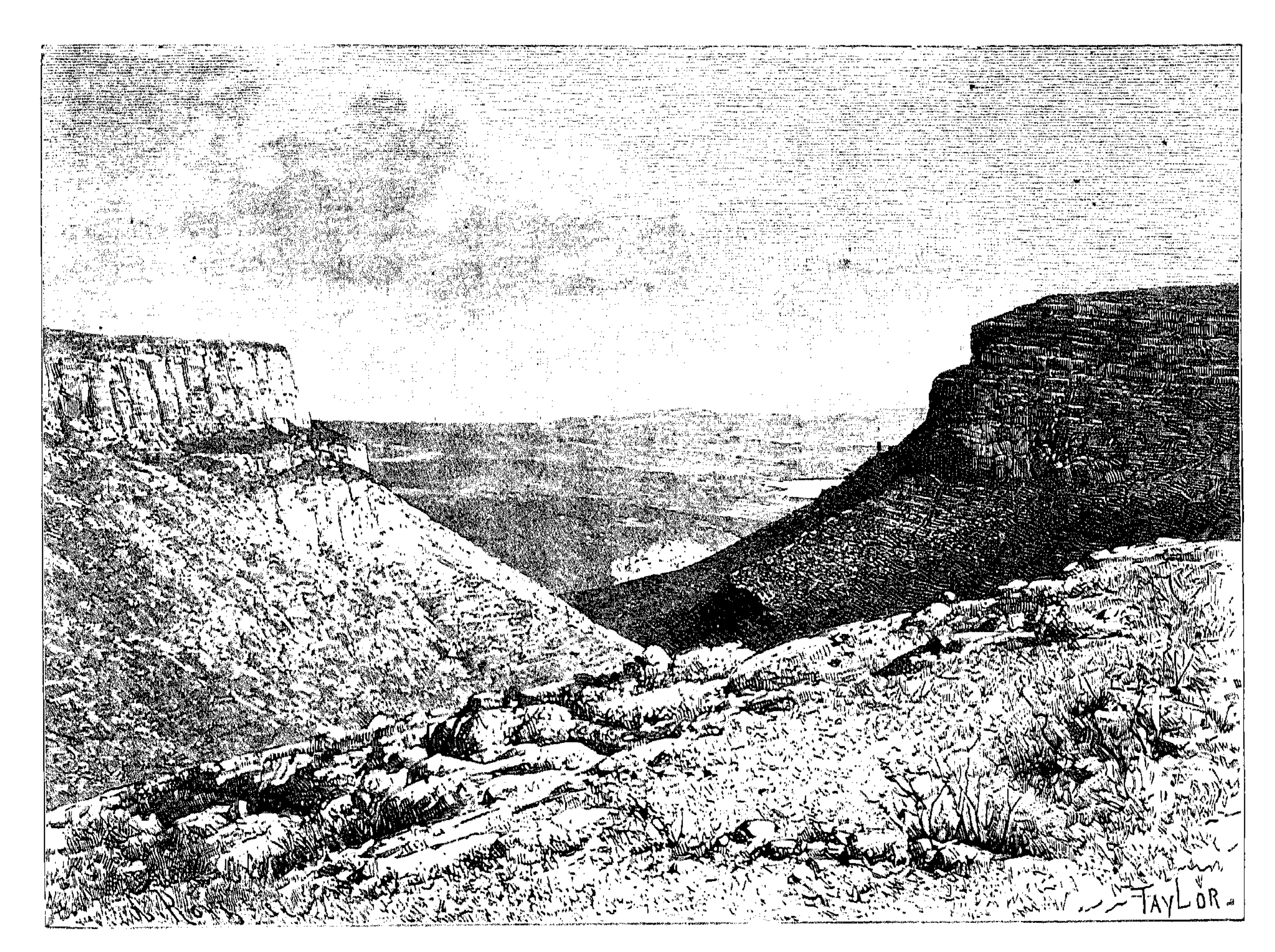
تعجّ بحيرة طبريا بالأسماك التي تشكّل جزءاً أساسياً من غذاء سكان المنطقة . وتشرف على الصيد جمعية تمتلك ستة مراكب ، ويسمح يومياً لاثنين منها فقط بالخروج دورياً الى الصيد القائم على استخدام الشباك التقليدية . هذه الشباك إما ان تلقى في الماء قرب صخور الشاطىء ، واما بواسطة المراكب في عرض البحيرة . وخلال وقت قصير جداً يمكن اصطياد آلاف الأسماك المختلفة الأشكال والأحجام .

من تلك الأسماك نوع فريد بطريقة حضانته لصغاره . فبعد أن تضع الأنثى بيوضها ، التي قد تتجاوز المئتين ، في حفرة تحدثها في طين القاع يصيبها الارهاق وتنزوي جانباً . وهنا يأتي الذكر ويبدأ بالدوران والحركة حول هذه البيوض ثم يلقّحها . وبعد دقائق يبدأ الذكر بتناول هذه البيوض بواسطة شفتيه ويضعها على دفعات في جوانب فمه الكبير بملاصقة الخدين ، حيث يحضنها الى أن يكتمل نموّها ويبلغ حجمها عدّة ملّمترات فتصبح قادرة على الحركة والإغتذاء . وحتى ذلك الحين تكتسب هذه السمكة شكلاً غريباً جداً بفمها المنفوخ الضخم وغير المتناسق مع حجمها الصغير نسبياً والذي لا يزيد عن العشرين سنتيمتراً . فترة الحضانة هذه قد تمتد لعدّة أسابيع ، وفي نهايتها تكون الأسماك الصغيرة متراصّة داخل فم الأب كحبات الرّمان ورؤوسها نحو فتحة الفم بانتظار الافراج عنها . وخلال كلّ ذلك يستمر الأب الحنون في تناول غذائه دون ان يبتلع صغاره أو يؤذيها وهنا العجب والغرابة ، كما انه لا يطلقها إلاّ بعد نموّها ، أو بعد صيده والقائه فوق التراب .

وهناك نوع آخر من الأسماك في بحيرة طبريا شديد التميّز والأهمية . إنه من نوع الجرّيّ أو الجريث ، والذي يعرفه العرب باسم البربور . تشبه هذه السمكة الأفعى ، وهي كبيرة نسبياً وقد يتجاوز حجم بعضها المتر طولاً . إنها تعيش بكثرة في بحيرة طبريا كما في الينابيع والأحواض المائية المحيطة مثل عين التين وعين طبيقة ، وهي تختبيء عادة بين الحجارة والصخور وتحت الأعشاب وجذور الأشجار . يتميّز هذا النوع



برج إربد
رسم لتيلور
عن صورة فوتوغرافية



مدخل وادي إربد
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .

من السمك بقدرته على البقاء حيا خارج الماء ولمدة قد تصل الى عدة أيام . كما انه لدى الامساك به أو اثارته بعصا يطلق أصواتاً حادة وعنيفة تشبه الى حدّ بعيد مواء هرّة غاضبة .

قرب شاطىء البحيرة وبين شجيرات القصب أعداد هائلة من السريطين أو سرطان الماء . وهي ذات أحجام كبيرة نسبياً وقادرة على العضّ بقوة إذا أمسكت دون انتباه . وبين الحصى أعداد ضخمة ايضاً من القريدس ،وهي تقفز بسرعة وتختفي لدى الاقتراب منها . جميع أسماك طبريا صالحة للأكل ، وكثرتها جعلت البحيرة مرتعاً خصباً للطيور الصائدة للأسماك كالبجع والطيور المتوّجة وغيرها . خلال إقامتنا كانت حرارة البحيرة بمستوى أربع وعشرين درجة فوق الصفر وذلك بسبب التكثّف الحراري الشديد في ذلك المنخفض من الأرض . أما حرارة الطقس في الظلّ فكانت دائماً تقريباً بمستوى خمس وثلاثين درجة . ولكنها كانت ترتفع أحياناً الى ما يزيد على ثلاث وأربعين درجة مع هبوب رياح الجنوب ، أو

الخمسين ، مما يجعل الطقس لا يطاق .

شواطىء طبريا مأهولة بالسكان منذ أقدم الحقبات على ما يبدو . يدل على ذلك أدوات حجرية مختلفة من أسلحة ومطارق وسكاكين وجرار اكتشفت بين التراكمات الصخرية لوادي السمك المجاور .

في أماكن عديدة قرب طبريا ينابيع مياه كبريتية حارّة ، تنبع وسط الصخور البازلتية . منها نبع معروف باسم «الحمّام» في عين «طبيقة» على مسافة نصف فرسخ من المدينة . عند ذلك النبع ما تزال توجد آثار بناء قديم ذي عقود وقبب . وبين الأنقاض ما نزال نجد بعض العجّز والمرضى الباحثين عن الشفاء في تلك المياه .

قرب هذا النبع ، نحو الشمال ، حمّام آخر بناه ابراهيم باشا عام ١٨٣٣ . وهو عبارة عن ممرّ مظلم يقود الى قاعة كبيرة تقوم على عقود وأعمدة رخامية ، وفي وسطها حوض رخاميّ أبيض تصب فيه مياه حارة جداً ، ومن حوله غرف صغيرة يستخدمها المستحمّون .


جرة من طبريا ـ رسم للمؤلف

من المحطات المهمّة والمميّزة على ضفاف نهر الأردن قرب مصبه في بحيرة طبريا ، جسر روماني قديم يعرف باسم جسر القناطر ، أو جسر السمك . كان هذا الجسر يمتدّ عبر النهر فوق قناطر ضخمة مبنيّة من الحجارة المختلفة الأحجام ، إضافة الى الباطون أو الخرسانة . لم يبق من هذا الجسر اليوم سوى خرائب وانقاض تجد فيها طيور اللقلاق ملاذاً آمنا وبعيداً عن فضول المسافرين والعابرين .

إربد ، المجدل ، صفد ، عين تين

من طبريا نتوجّه نحو إربد لزيارة مغاراتها الشهيرة القائمة في وادي الحمام . بعد طريق متعرّجة بين حقول القمح ، صعوداً عبر طريق صعبة ووعرة ، نصل الى مفترق يقود يساراً نحو حيفا ، ويميناً نحو حطين فوادي الحمام . ونتابع الطريق يميناً عبر هضبة تقع الى الشمال الشرقي من مدينة طبريا . هذه الهضبة على ارتفاعها الملحوظ عن سطح البحيرة لا ترتفع أكثر من عشرة أمتار عن مستوى البحر المتوسط .

من فوق تلك الهضبة نطل على قرية حطين وقريتها القائمة عند السفح محاطةً بغابة حقيقية من أشجار الزيتون . بعد ذلك ننعطف شمالاً لنبدأ بالإنحدار عمودياً نحو وادي الحمام عبر ممرات تزداد ضيقاً ووعورة كلّما توغلنا في الوادي حيث الحرارة المرتفعة وأشعة الشمس الحادّة تحوّلان الرحلة الى عذاب حقيقي .



عرب الغوارنة
(صالح ووطفة)
رسم رونجا
عن صورة فوتوغرافية

مع الوصول الى قعر الوادي نشاهد على جدران جانبه الأيمن ، تلك المغاور الكبيرة المدعّمة بالأسوار والجدران ، والمعروفة باسم قلعة إبن معن .

التسلّق نحو المغاور عملية بالغة الصعوبة عبر ممرات ومنزلقات ضيقة تكثر فيها الصخور والأعشاب المرتفعة .

مع الوصول الى مستوى المغاور ندخل الى أكبرها عبر سلّم صخري ينتهي الى منخفض محفور في جدار سميك .

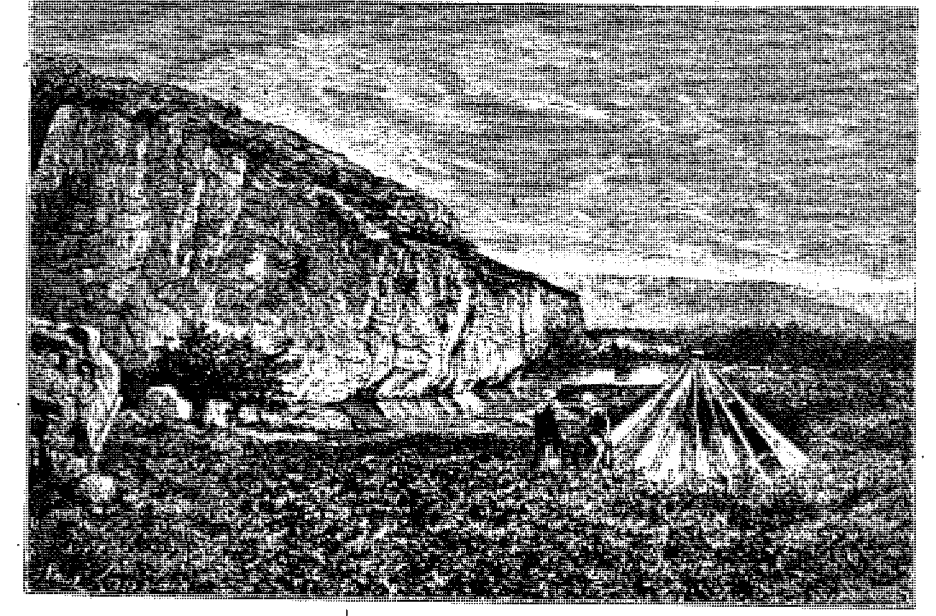
بعد ذلك نعبر في ممرّ يبلغ عشرين متراً طولاً ، وهو ذو سقف دائري يقوم فوق عقود حجرية دقيقة البناء . ينتهي الممر الى قاعة كبيرة مربعة الأضلاع ، يبلغ كل

منها أربعين متراً بارتفاع يقارب العشرين متراً .

في إحدى الزوايا فتحة تؤدي الى سلّم حلزوني يقود نحو المغاور العليا . السلالم والدهاليز والممرات التي تربط ما بين تلك المغاور ذات فن معماري دقيق يدل على القدرة والمهارة ويدعو الى الإعجاب . في أماكن مختلفة نجد خزانات للماء تصبّ فيها أقنية كانت تأتي بالماء الكافي لمن كانوا يسكنون تلك المغاور المعلّقة ، إذا جاز التعبير . في أعلى تلك المغاور أبراج دائرية مبنية من الحجارة البيضاء والسوداء . من فوق تلك الأبراج منظر رائع يطلّ على أطراف بحيرة طبريا وجبال صفد والمناطق المحيطة .

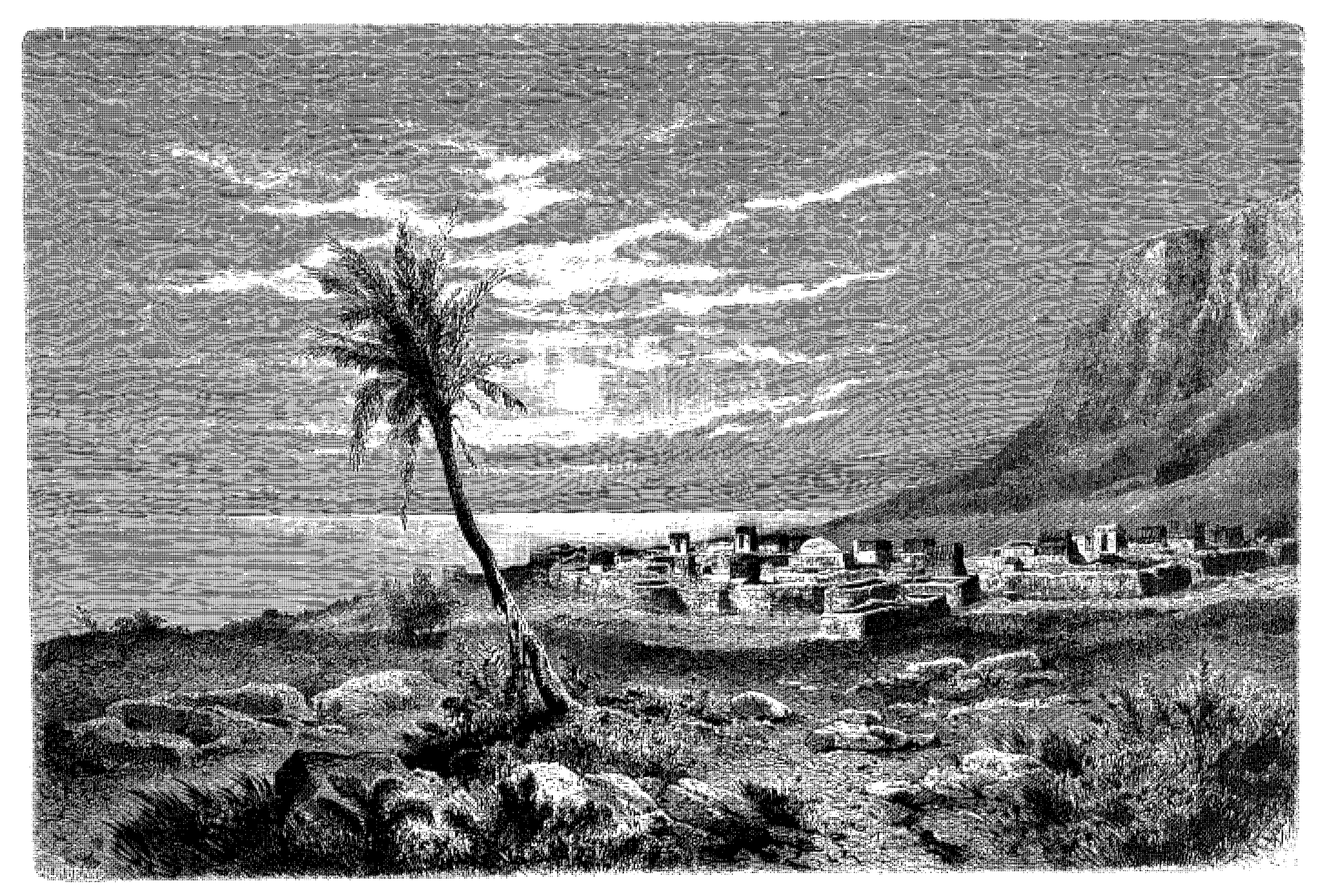
لقد كان لهذه المغاور أن تلعب دوراً هاماً في جميع الحروب التي شهدتها هذه المناطق منذ أقدم حقبات التاريخ .

وبعد الغزو الروماني تعرّضت هذه المغاور لحصار شديد من قبل الرومان وذلك بعد ان لجأ اليها مجموعات من اليهود الفارين من وجه الغزاة الجدد . منذ ذلك التاريخ كان لهذه المغاور ان تكون ملجأ للفارين من الغزاة وغيرهم . هندسة بعض الأبواب والممرات ، وكذلك الأسود التي تعلو بعض الجدران ، كلها تشير الى ان بعض أعمال الترميم قد أجريت في تلك المغاور خلال العهود الصليبية ، وربما في أيام صلاح الدين الأيوبي .هذا الموقع الهام ، ومنذ أقدم حقبات التاريخ ، كان وما يزال محطة هامةعلى الطريق ما بين عكا ودمشق .



عين التين أو بيت صيدا
رسم لنغلو
عن صورة فوتوغرافية

من مغاور إربد نعود أدراجنا نزولاً نحو قعر الوادي ، حيث تركنا خيلنا والأحمال ، لنكمل طريقنا قافلين الى طبريا عبر الوادي مروراً بأراض سهلية بعضها مزروع بالقمح ، وبعضها الآخر متروك دون زراعة وتغطيه أشجار الزيزفون والجنّيبات الشائكة المختلفة . بعد ساعة من الوقت تصل بنا الطريق الى قرية المجدل ، أو «مجدالا» كما ذكرت في الانجيل المقدّس ، وهي قرية مريم

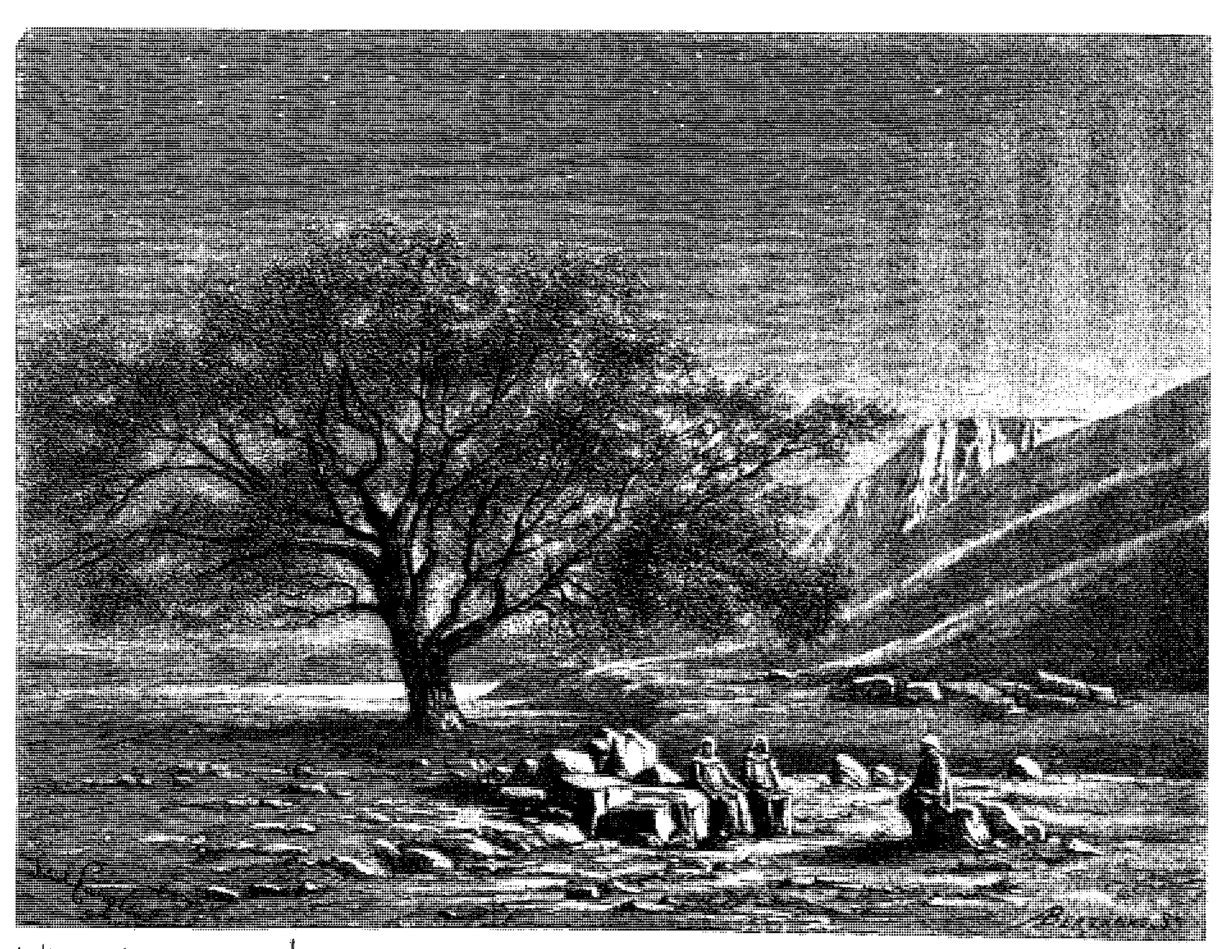


المجدل وقت هبوط الليل – رسم ت. ويبير – عن صورة فوتوغرافية

المجدليّة . انها اليوم عبارة عن قرية فقيرة على ضفاف البحيرة ، تحيط بها بعض البساتين المزروعة بالبقول ، وترتفع في وسطها شجرة عنّاب وحيدة ، على الرغم من أن هذه المنطقة كانت في الماضي من أكثر الأراضي خصباً وغنى بشتى أنواع المزروعات . من المجدل نعود الى قرية طبريا عبر طريق وعرة تمرّ بين الصخور والأدغال على ارتفاع بسيط من مستوى البحيرة .

بعد ايام من الراحة نتوجّه من طبريا نحو صفد ، فنمرّ مجدداً بقرية المجدل ثم ننعطف شرقاً مغادرين شاطىء البحيرة باتجاه المرتفعات لنصل بعد قليل الى حوض رائع ينبع في وسطه نبع متدفق المياه ويعرف باسم «عين المدوّرة» . يحيط بالحوض سور دائري يبلغ قطره خمسة وثلاثين متراً ، ويتراوح عمق الماء فيه ما بين قدمين وثلاثة أقدام . انها مياه صافية وعذبة تتدفق من الحوض عبر قناة لتسقي الأراضي المحيطة .

من «عين المدورة» مروراً بوادي العمود ، ووادي الليمون ، وصولاً عند المساء الى صفد حيث نضرب خيامنا في بستان جميل الى الغرب من تلك المدينة الجميلة التي سيأتي وصفها حين نعود اليها مرة ثانية بعد أيام .



شجرة العناب الكبيرة في المجدل
رسم لنغلو
عن صورة فوتوغرافية

نغادر صفد في اليوم التالي عبر طريق تنحدر مستقيمة نحو شمال بحيرة خان جبّ يوسف . نمرّ أولاً بواد مزروع بأشجار الزيتون والتين والرمّان ، ثم ننعطف شرقاً عبر واد عار ومتعفر إلاّ من الصخور والكواسر الباحثة عن طعامها ، لنتّبع بعد ذلك طريقاً رومانية قديمة مرصوفة بالحجارة والصخور وصولاً الى خان جب يوسف . هذا الخان عبارة عن بناء ضخم سميك الجدران ، وهو مبنيّ من حجارة سوداء بركانية وأخرى بيضاء كلسية . وهو مجهزّ بسلالم ما تزال محافظة على تماسكها وتؤدي الى السطح العالي والمشرف على منظر رائع لبحيرة طبريا وجبال الطور وحرمون . هذا الخان مجهز أيضاً بخزان كبير للماء ، أضحى جافاً الآن ، إضافة الى بئر بعمق عشرة أمتار محفورة في الصخور ، ولكن ليس في قعرها الآن سوى مياه قليلة وصخور تسرح بينها الأفاعي .

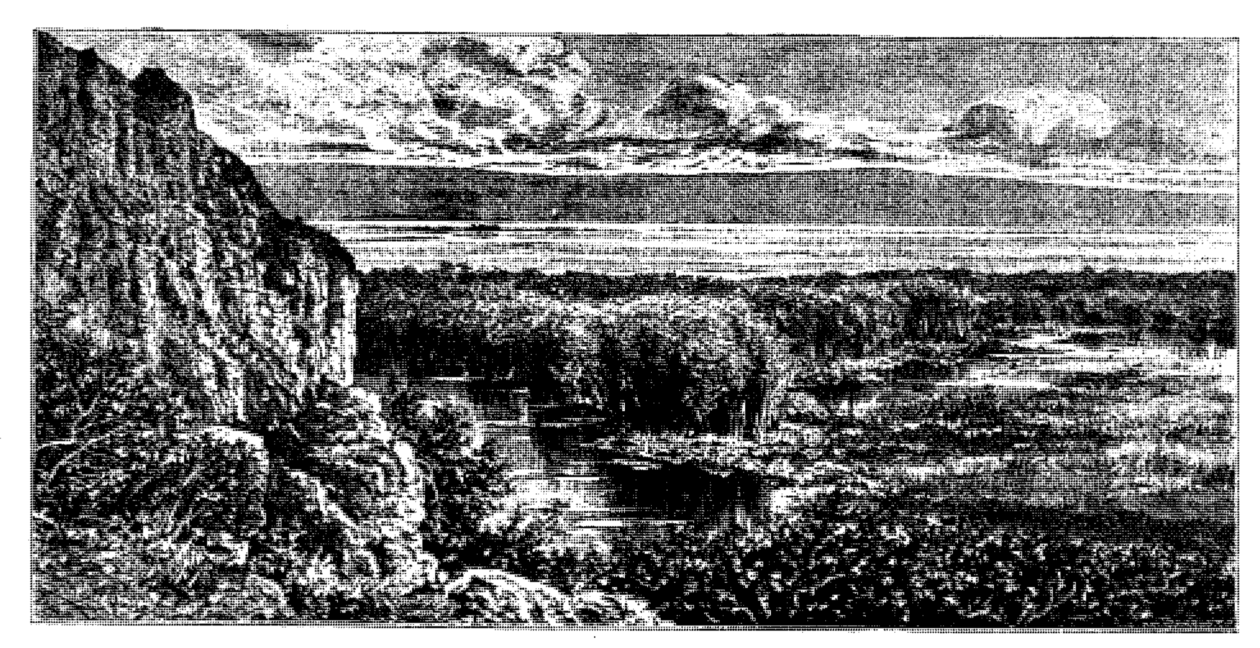
نغادر الخان متبعين الطريق الرومانية نفسها عبر الوديان والوهاد بين الأعشاب المرتفعة والأشجار المختلفة وصولاً عند المساء الى خان المنية ، الواقع على ارتفاع أمتار من نبع عين التين ، والمبنيّ من الحجارة السوداء والبيضاء التي أضحت في معظمها ركاماً . من خان المنية نتابع الطريق باتجاه البحيرة مجدداً حيث يمتد السهل المعروف باسم الغوير ، أي الغور الصغير ، والذي يسكنه الآن قبائل عربية تعرف باسم الغوارنة . يمتد هذا السهل من المجدل الى خان المنية ، ومن شاطىء البحيرة حتى جبال المغر والمنصورة وصفد ، وتكثر فيه المجاري المائية ممّا يجعله صيفاً محتفظاً بنسبة من الرطوبة الكافية لأنواع مختلفة من المزروعات .

نتابع الطريق فنجتاز المجدل ليلاً وصولاً الى مخيمنا في طبريا لننعم بالراحة في ذلك الهدوء الكليّ العابق بالسحر والجمال .

بعد أيام ننطلق عبر البحيرة باتجاه وادي السمك . ومن هناك نستمر بابحارنا في محاذاة الشاطىء الذي تغطّيه الأشجار والأعشاب المرتفعة . انها مناطق مقفرة إلاّ من بعض قبائل البدو . في أماكن مختلفة شاهدنا بعض أشجار النخيل النابتة في الماء على عمق قد يتجاوز المتر أحياناً . ان هذا دلالة على ان الأرض في هذه المنطقة قد انخفضت في السنوات الأخيرة لأنه لا يعقل ان تكون اشجار النخيل قد نبتت في الماء على مسافة ثمانية أو عشرة أمتار من الشاطىء الحالي . نتابع إبحارنا قرب الشاطىء مروراً بأراض خضراء تعرف باسم البطيحة ، وصولاً الى موقع يعرف باسم «تل حوم» ، وهو قد يكون الموقع القديم لقرية «كفرناحوم» القديمة . قرب الشاطىء بقايا كنيس قديم مبنيّ من الحجر الأسود ، تحيط به آثار مبان أخرى . كلها محاطة بأدغال وأعشاب مرتفعة يستحيل معها الوصول اليها لاكتشاف ما فيها . ونستمر في إبحارنا لنصل بعد ساعات الى «عين طبيقة» التي تتفجرّ مياهها بغزارة مصحوبة بمجرى مياه حارّة وكبريتية تبلغ حرارتها إثنتين وثلاثين درجة فوق الصفر . انها تنبع عند قاعدة برج دائري لتجري وتستقر في البحيرة .

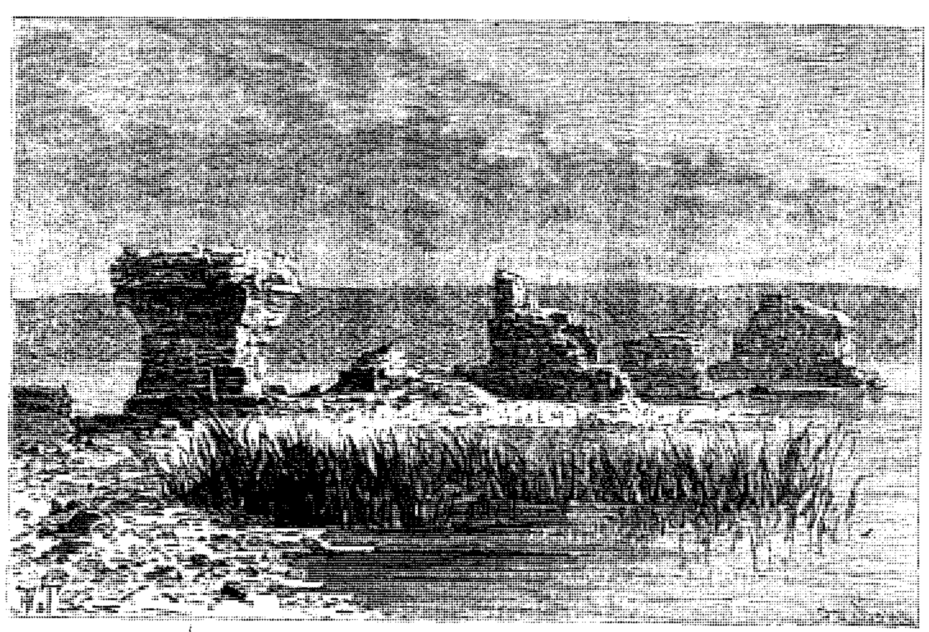
قرب النبع مجار مائية تقود المياه نحو ثلاثة طواحين ، ما تزال واحدة منها تعمل ، ويقيم فيها بدوي عجوز ومعه شقيقته ، واللذان بعد اطمئنانهما الى حسن نوايانا سمحا لنا بتصويرهما . إنهما صالح ووطفة ، وهما من الغوارنة .

من هذا الموقع نعود للانطلاق براً لنصل بعد قليل الى «عين التين» وهي قد تكون الموقع القديم المذكور في الإنجيل المقدّس تحت اسم «بيت صيدا» . مياه هذا النبع صافية وعذبة وتنبع عند أقدام صخرة ضخمة تحيط بها أشجار التين . من «عين التين» نتوجه مجدداً الى «خان المنية» حيث ينتظرنا منذ ساعات رفاق الرحلة الذين جاؤوا براً عبر قرية المجدل ، وحيث سنقضي الليلة الأخيرة في محيط بحيرة طبريا .



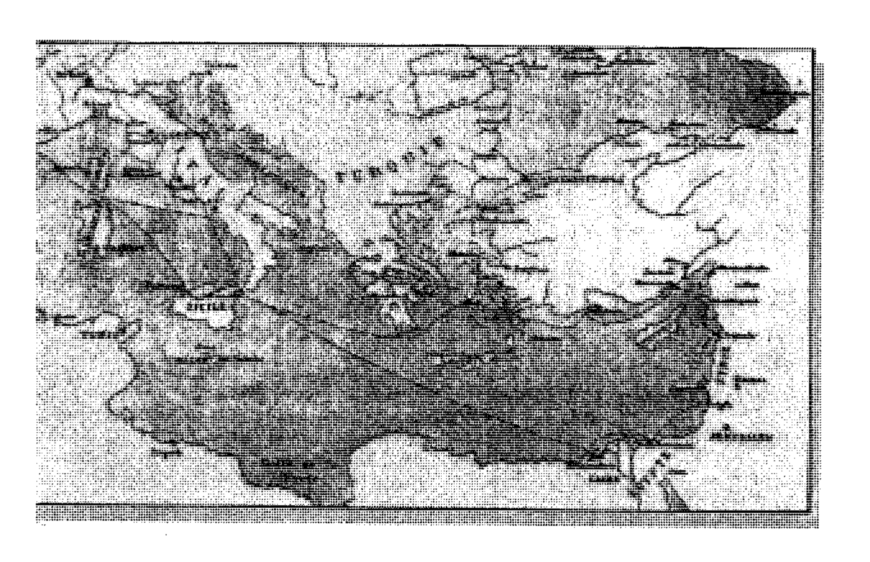
نبع عين التين واشجار البردا في بحيرة طبريا

رسم لنغلو



أنقاض جسر روماني في سيماك

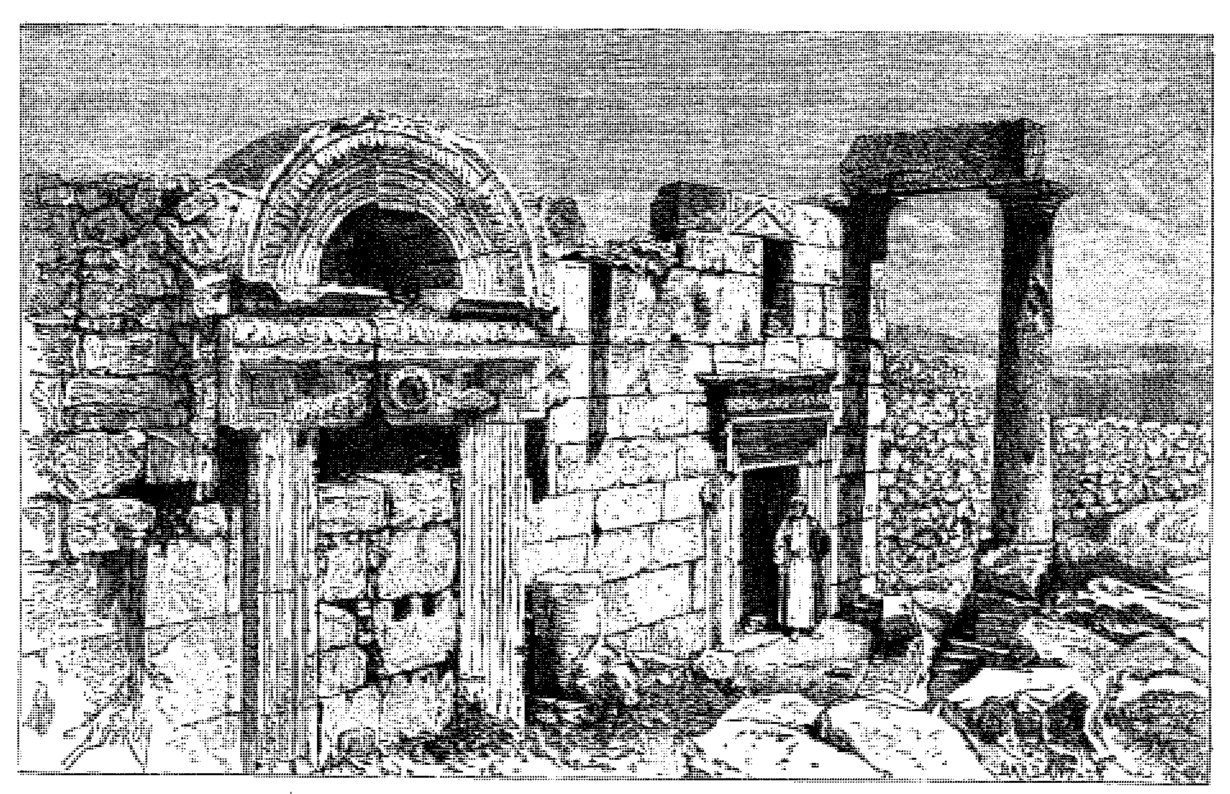
الفصل التاسع عش



صفد، هونين، بانياس وحاصبيا

من خان المنية نتوجه في اليوم التالي صعوداً نحو صفد لنقيم خيامنا فوق هضبة مشرفة على واد أخضر تكثر فيه المياه وتظلّله أشجار خضراء متنوعة ما بين زيتون ورمّان وتين ، إضافة الى أشجار الميس الرائعة . هذا الوادي هو منتزه سكان صفد الذين يكثر بينهم اليهود الآتون من المانيا وبولونيا وإسبانيا . في أعلى الهضبة بقايا قلعة قديمة أضحت أنقاضاً وخرائب ، كما ان السكان استغلوا حجارتها في إعادة بناء منازلهم التي هدّمتها الزلازل .

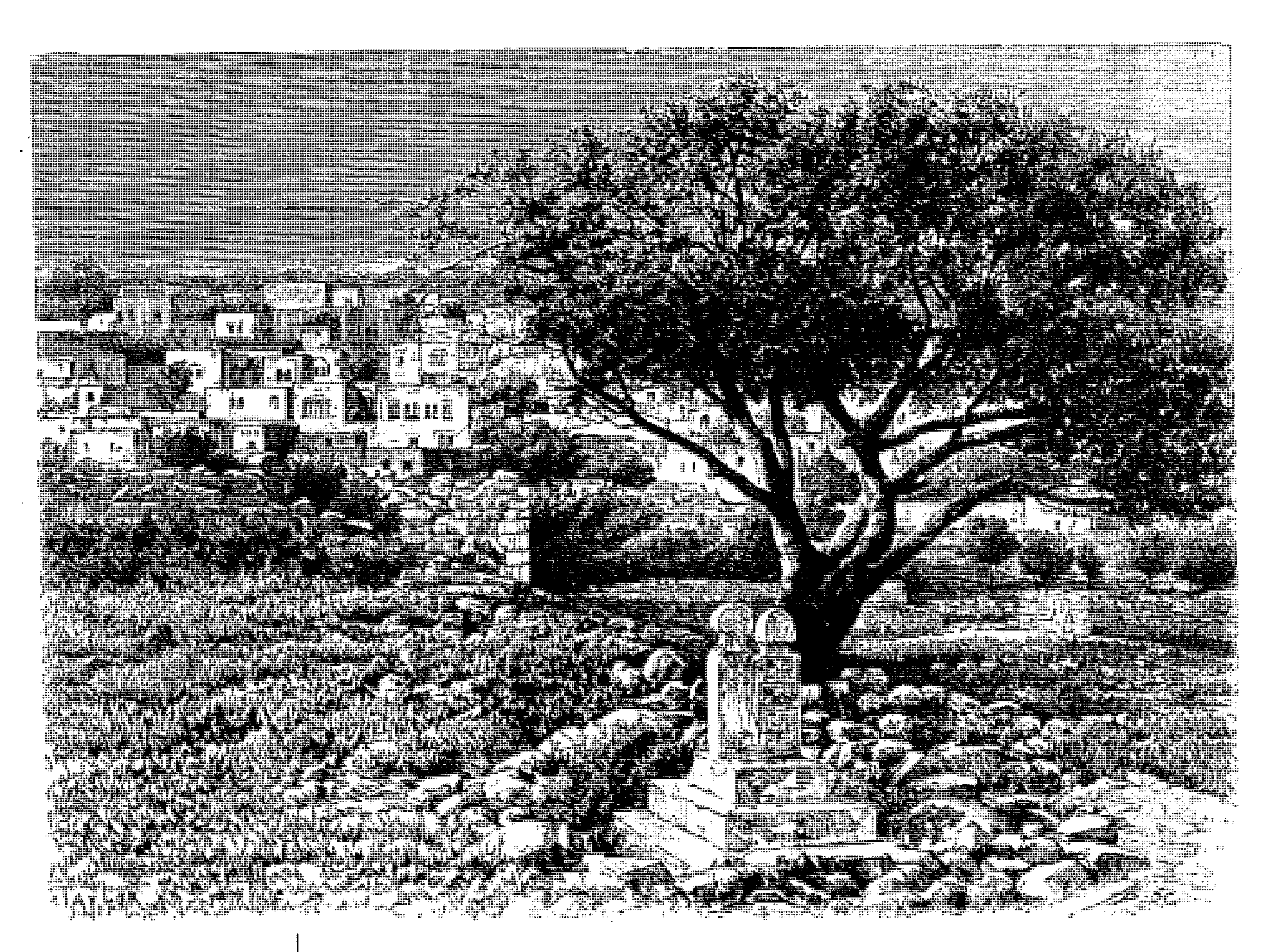
تقع صفد على ارتفاع ثمانمائة وخمسة وأربعين متراً عن مستوى البحر المتوسط ، وعلى ارتفاع الف متر من بحيرة طبريا . المناخ فيها جميل وهواؤها



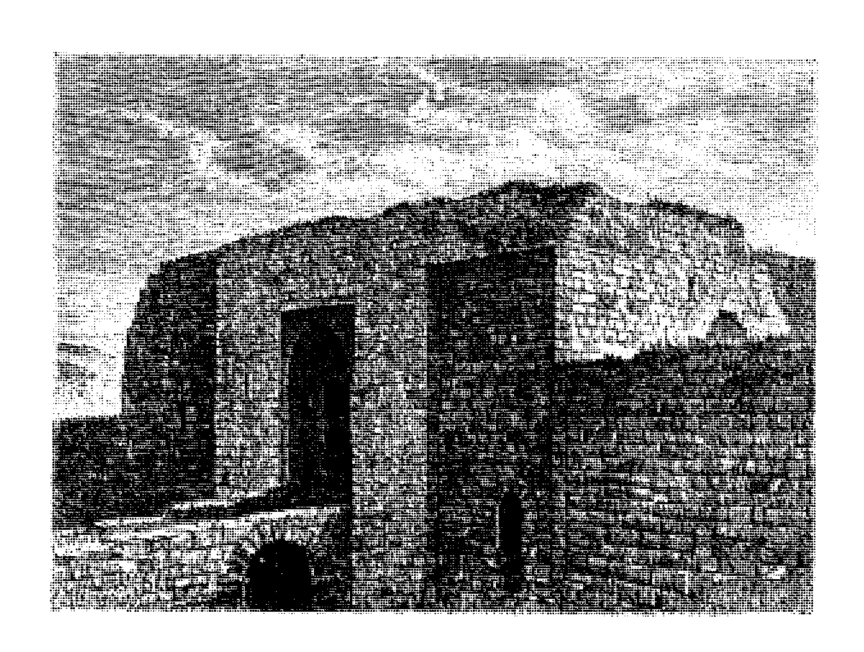
آثار كنيس في كفر بيريم
رسم أ . ديروي
عن صورة فوتوغرافية

المنعش يزيل ما عانينا من تعب وارهاق في تلك الوديان والأراضي الخفيضة . تقوم مدينة صفد فوق ثلاث هضاب تفصل بينها منخفضات تجري فيها المياه العذبة . ويقع الحيّ اليهودي فوق الهضبة نفسها التي تقوم عليها القلعة القديمة التي بناها الصليبيون عام ١١٣٨م ، واستولى عليها صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٨م . دمّرت هذه القلعة عام ١١٢٠م ، وأعيد بناؤها عام ١٢٤٠م ليعود فيدمرها السلطان بيبرس عام ١٢٦٦م . منازل اليهود متلاصقة ومبنية تقريباً فوق بعضها بعض بسبب انحدار الأرض ، يفصل بينها أحياناً بعض الأسوار والحدائق الصغيرة . أما الشوارع فأزقة ضيقة ومتعرّجة تكثر فيها السلالم والمزالق الوعرة والوحول .

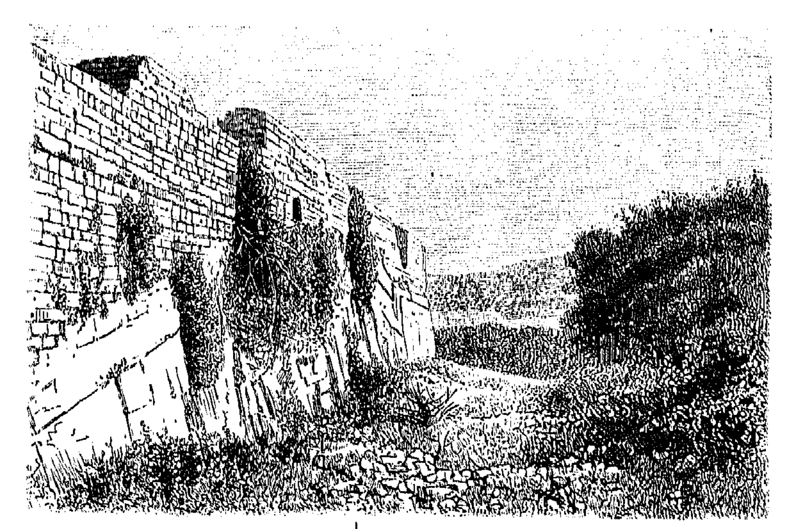
جميع المنازل مبنيّة من الحجارة والعقود ، داخلها بسيط وغير متقن ، تميزها الستائر التي تغطي النوافذ ، دلالة على الأصل الأوروبي للسكان الذين يبدو عليهم البؤس والفقر والمرض . أحياء المسلمين الواقعة غرباً وشمالاً أفضل بناءاً ،



صفد
رسم لتيلور
عن صورة فوتوغرافية .



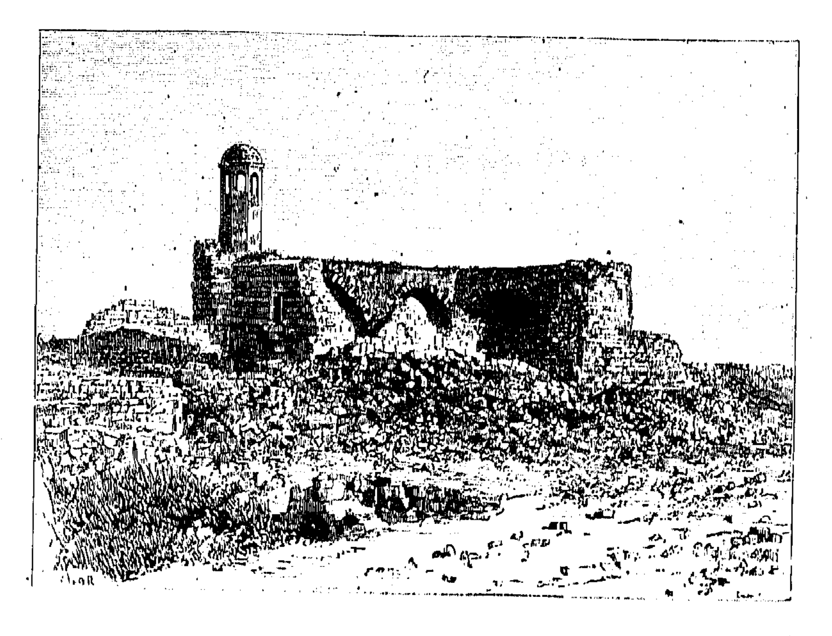
مدخل قلعة هونين
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .



جدار قلعة هونين
رسم لتيلور
عن صورة فوتوغرافية

ومنازلهم أكثر اتساعاً تفصل بينها الأشجار المثمرة . قرب منازل المسلمين تقع المدافن والقبور البيضاء تظلّلها الأشجار وتحيط بها الأزهار والنباتات الخضراء الجميلة .

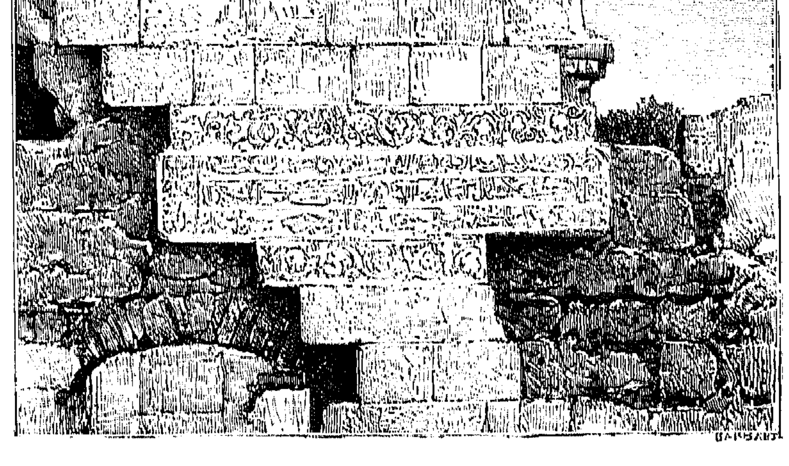
صفد مدينة قديمة وذات تراث عريق ، وقد عرفت في القديم بمطابعها وبمدارس حاخاماتها ، ولكنها تهدّمت بشكل كلّي تقريباً في زلزال عام ١٨٣٧م الذي قتل فيه أربعة آلاف يهودي وألف مسلم تقريباً .



آثار جامع هونين
رسم لتيلور - عن صورة فوتوغرافية .

تبدو صفد اليوم وكأنها تعاود النهوض من مأساتها . يبلغ عدد سكانها الآن خمسة آلاف وخمسماية نسمة تقريباً ومعظمهم من اليهود بنسبة الثلثين .

بعد يومين من الراحة ننطلق في زيارة سريعة الى «ميرون» و «كفربيريم» الى الشمال الشرقي من صفد . في «ميرون» بقايا جدران وآثار قديمة تعود الى كنيس قديم تقع قربه قبور بعض مشاهير الحاخامات . وفي «كفربيريم» آثار كنيس آخر ما زال محتفظاً ببعض أجزائه . أما سكان هذه القرية فجميعهم اليوم من الموارنة ولا وجود بينهم لأيّ يهودي .



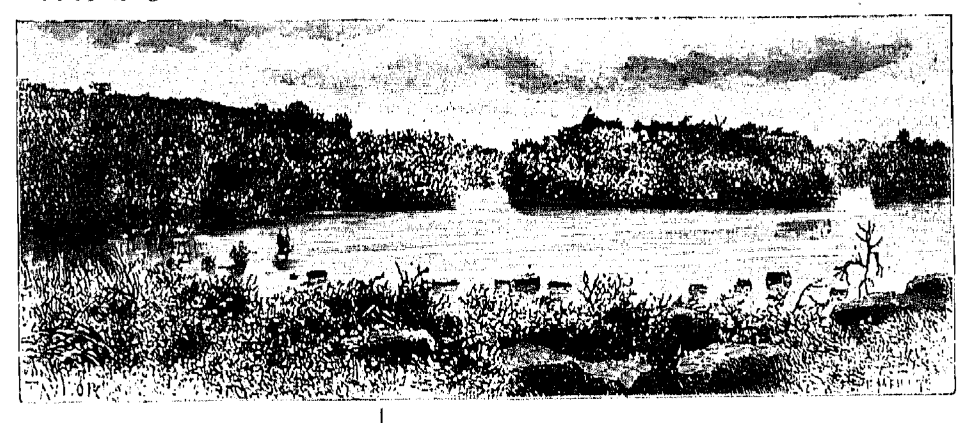
تفصيل عمراني في جامع هونين
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .

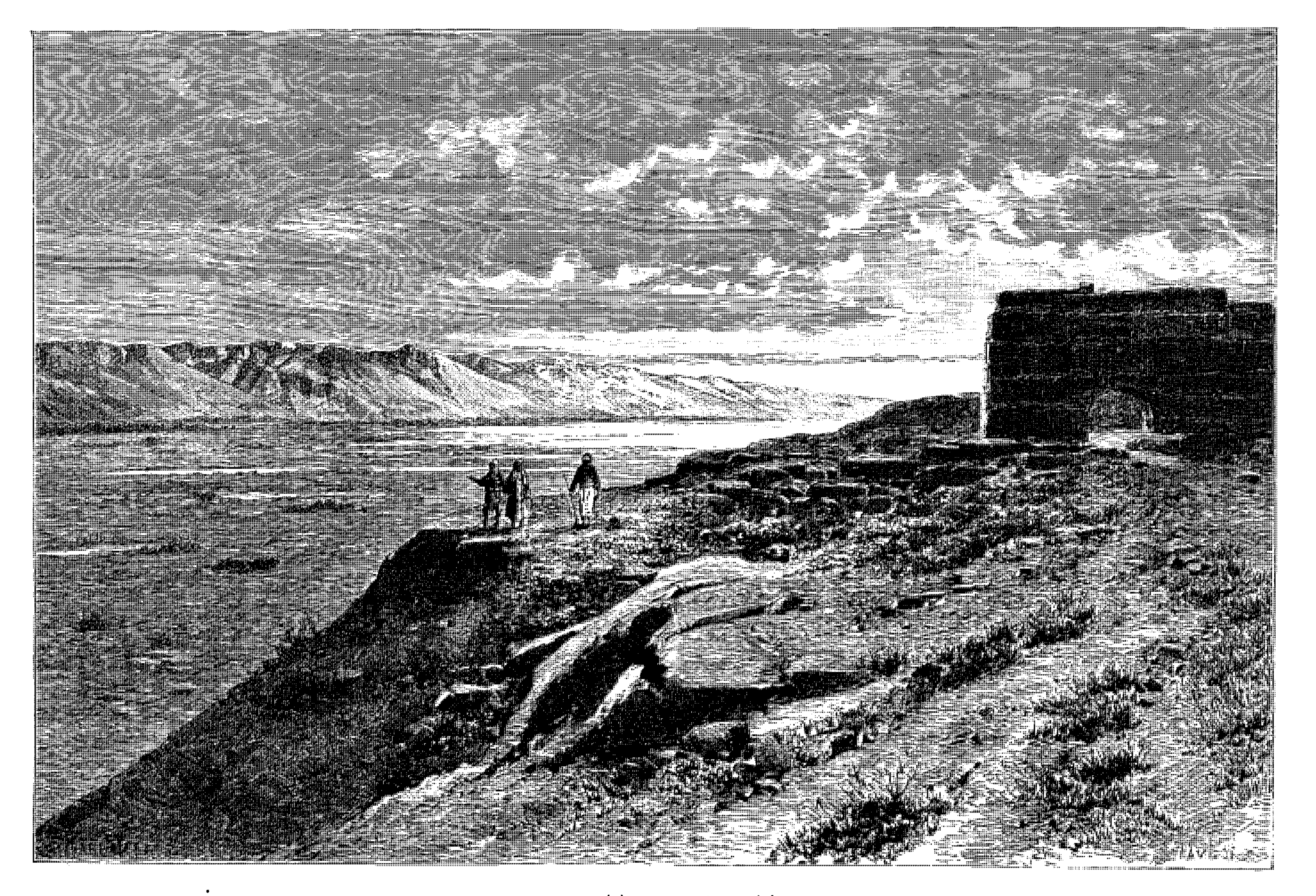
بعد هذه الزيارة السريعة نعود الى صفد لنقضي فيها الليلة الأخيرة قبل متابعة الرحلة .

هونين

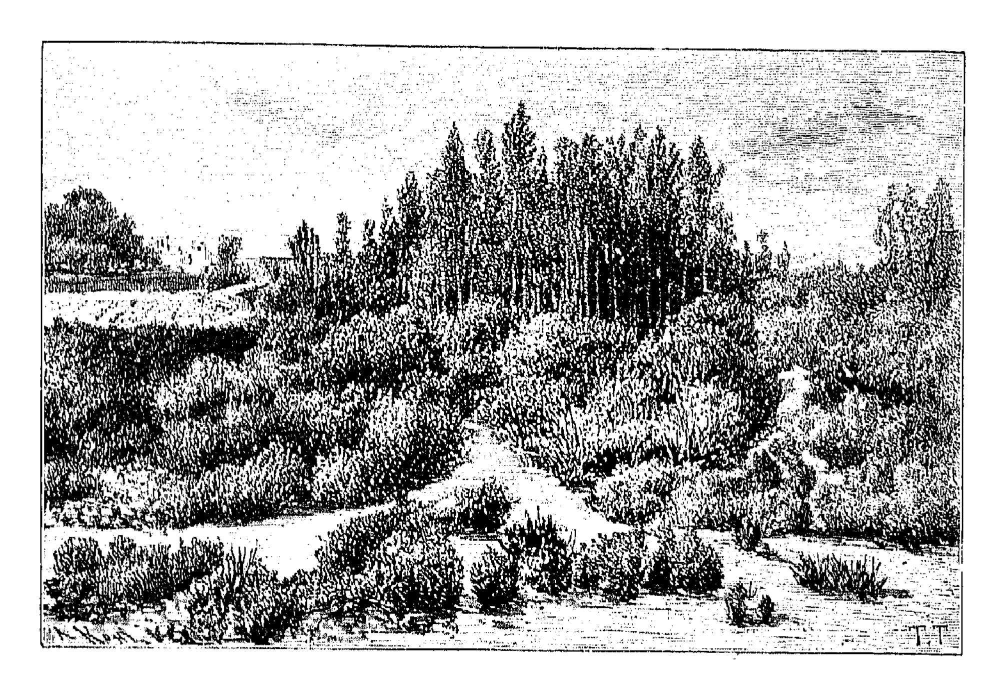
بعد محطة صفد تستمرّ الرحلة شمالاً عبر هضاب ووديان مختلفة مروراً ببضعة قرى صغيرة منها أولاً قرية علما الواقعة على ارتفاع خمسماية وسبعين متراً ، والتي نبقى فيها لقضاء الليل ، ثم قرية «ديشون» القائمة على كتف هضبة على ارتفاع ثلاثماية وستين متراً ، والتي تتميّز بان جميع سكانها من البدو الجزائريين الذين رافقوا عبد القادر الجزائري الى منفاه . من ديشون الى قادس على ارتفاع ثلاثماية وخمسين متراً ، ومنها عبر حقول القمح الى قرية «ميس» الواقعة على ارتفاع يجاوز الخمسماية وثلاثين متراً . ثم تستمرّ الطريق عبر الوديان والهضاب التي يجاوز ارتفاع بعضها التسعماية متر مثل قمة المنارة (٩٢٥ متراً) وصولاً الى الهضبة المرتفعة التي

حوض مائي بالقرب من تل القاضي
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .





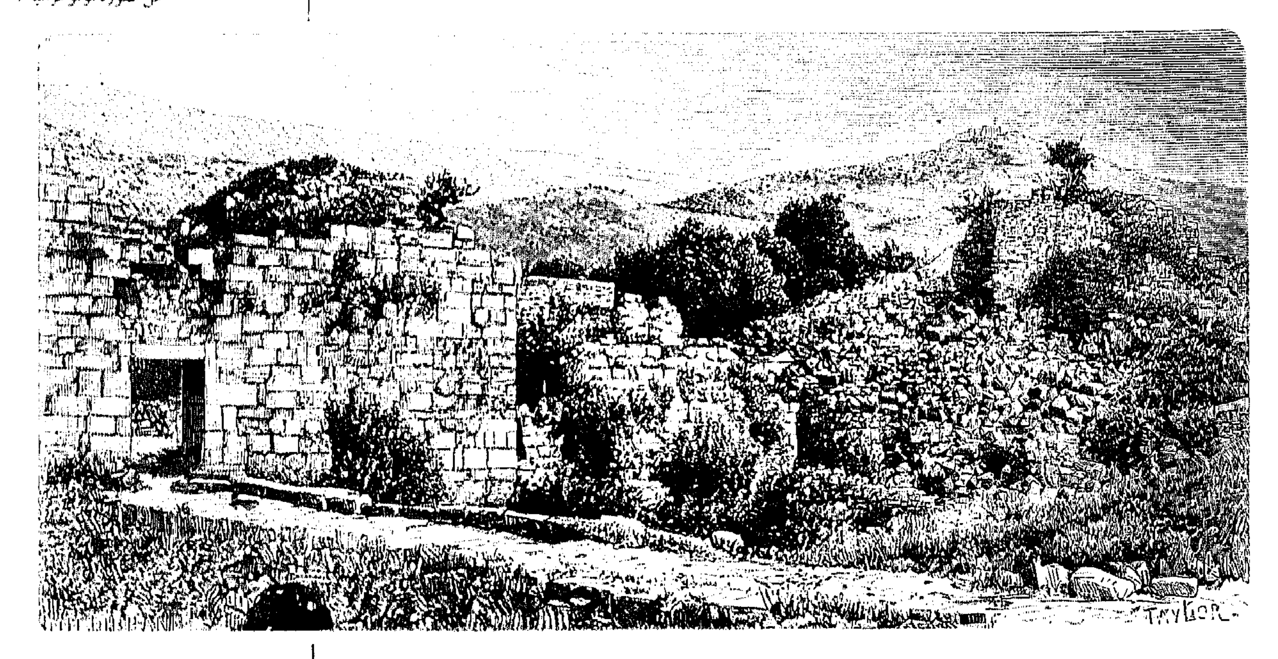
بحيرة الحولة من جهة هونين - رسم لتيلور - عن صورة فوتوغرافية .



نهر الأردن في بانياس
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .

تقوم عليها قرية «هونين» المشرفة على وادي الأردن . يبلغ عدد سكان هذه القرية أربعماية نسمة تقريباً ، وهم يقيمون في منازل بسيطة قائمة غربي الهضبة حيث تشرف عليها آثار حصن صليبي قديم رمّمه العرب لاحقاً ويعرف باسم قلعة هونين . من جهة الشمال تحمي القلعة خنادق عميقة محفورة في الصخور ، وتعلوها أسوار سميكة . في داخل الحصن ما تزال توجد آثار قاعات كبيرة تعلوها العقود الحجرية ، ولكنها مهملة وتستخدم زرائب للماشية . إضافة الى ذلك هناك مئذنة يعلوها منور ثماني الجوانب . وحول المئذنة آثار مسجد قديم ما تزال على حجارة جدرانه بعد الكتابات والنقوش العربية الجميلة . جنوبي قرية هونين بركة ماء يستخدمها السكان لسقاية مواشيهم التي تشكّل ثروتهم الوحيدة .

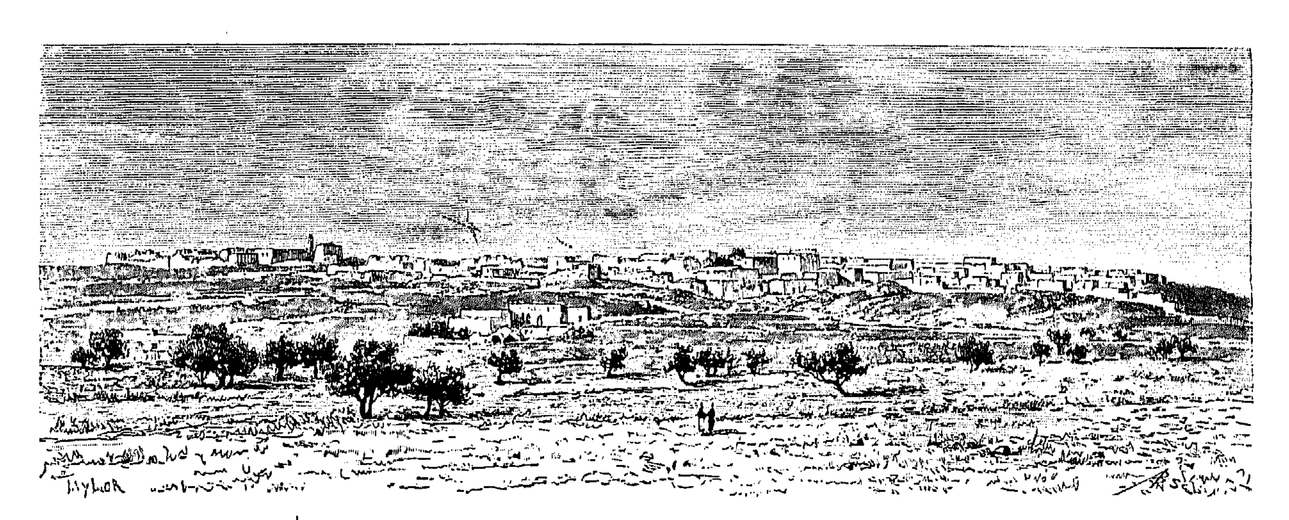
بقايا أسوار بانياس
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .



وتستمرّ اقامتنا في هونين عدّة أيام نقضيها في استرداد العافية والنشاط في ذاك المناخ المنعش بعد لهيب طبريا ورطوبتها وثقل مناخها . ونستغل هذه الاقامة المطولة لزيارة بحيرة الحولة التي نهبط نحوها عبر طريق تتجه نحو الجنوب الشرقيّ عبر حقول القمح والمراعي التي يقيم في بعضها عرب الغوارنة مع قطعان ماشيتهم . في الطريق الى البحيرة نمرّ بنبع ماء جميل يعرف باسم «عين الملاّحة» التي تصبّ في حوض دائري تعيش فيه الأسماك . عند ضفاف بحيرة الحولة تبدو المياه شديدة الصفاء تسبح فيها آلاف الأسماك ، إضافة الى طيور البط والبجع ، ولكن المتعة لا تكتمل بسبب آلاف الحشرات الشديدة التكاثر في تلك المنطقة الخفيضة الحارة والرطبة .

تختلف مساحة البحيرة وامتدادها ما بين فصل وآخر . الحوض الأوسط الأساسيّ ، والذي يبقى مليئاً بالماء حتى في فصول الحرّ ، عبارة عن مثلث قاعدته نحو الشمال ورأسه نحو الجنوب بامتداد يقارب ستة كيلومترات ، طولاً وعرضاً ، وذلك خلال فصول الحرّ ، أما في الشتاء فقد تزداد مساحة المياه بنسبة كبيرة . أما عمق البحيرة فيتراوح في جميع الأماكن ما بين تسعة وعشرة أمتار . هذه المياه على صفائها غير صالحة للشرب لكثرة ما فيها من ترسّبات عضوية مختلفة . ينخفض مستوى بحيرة الحولة عشرة أمتار تقريباً عن مستوى البحر المتوسط . من هذه البحيرة تجري المياه بسرعة نحو بحيرة طبريا وذلك لأنها ستنخفض أكثر من مئتي متر على امتداد ثمانية عشر كيلومتراً فقط .

من هونين ننطلق مجدداً في رحلتنا لنتوجّه نحو دمشق عبر بانياس وسفوح حرمون . تنطلق الطريق من شمال القرية عبر الوديان والهضاب والسهول حيث



هونين
رسم لتيلور ،
عن صورة فوتوغرافية .

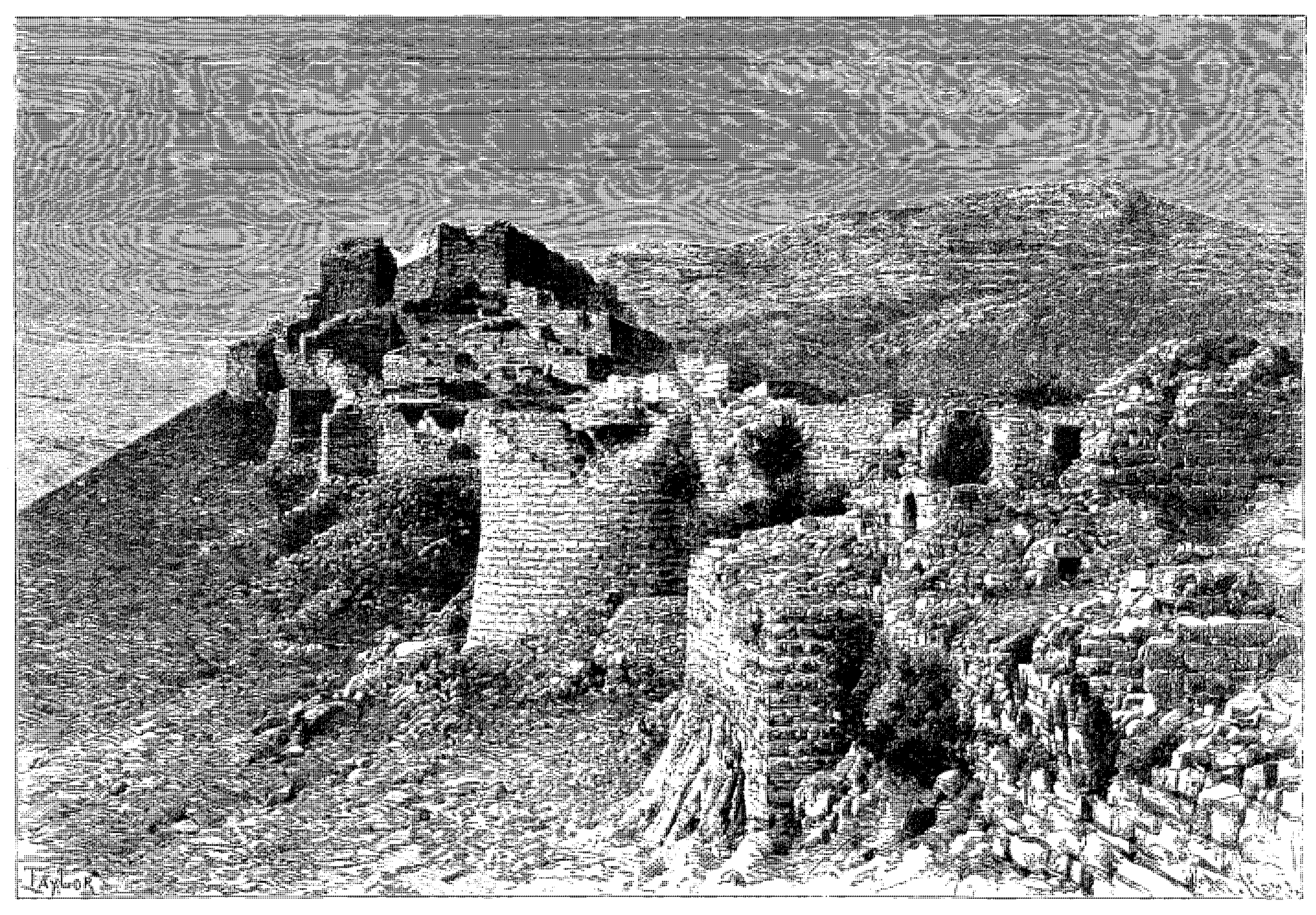
حرمون . تنطلق الطريق من شمال القرية عبر الوديان والهضاب والسهول حيث نجتاز العديد من الأنهار منها نهر البراغيث ، أو عين الدردارة ، ثم نهر الحاصباني الذي نعبره فوق جسر روماني قديم ثلاثيّ القناطر ويعرف باسم جسر الغجر . الطريق بمجملها وعرة وخطرة ويزيد من صعوبتها اشتداد حرارة الشمس في تلك المناطق الخفيضة . وفي أحد المنخفضات نصل الى حوض مائي بيضيّ الشكل تصبّ فيه مياه غزيرة تأتي صافية وعذبة من مرتفع قريب يعرف باسم «تل القاضي» حيث يوجد نبع قديم يعرف باسم «دان» ، والوارد ذكره في الإنجيل المقدس . تلتقي مياه هذا النبع مع مياه النبع القائم عند سفح الجبل ليكوّنا معاً مجرى نهر اللدان ، المعروف أيضاً باسم نهر الأردن الصغير ، والذي يعتبره عرب تلك المناطق المنبع الأصلي لنهر الأردن لأن كمية مياهه تبلغ ثلاثة أضعاف مياه نهر الحاصباني وضعفي مياه ينابيع بانياس التي ترفده على مسافة كيلومتر واحد جنوباً .بعد النزول من تل القاضي نستمر في السير باتجاه بانياس ، تلك البلدة الجميلة المحاطة بالنباتات الخضراء والتي تكثر فيها المساقط والمجاري المائية .

تقع بانياس على ارتفاع خمسماية وثلاثين متراً تقريباً عن سطح البحر ، منازلها الخمسون حجرية وحسنة البناء تعلو سطوحها أكواخ ، أو عليّات ، من أغصان الأشجار ، ينام فيها السكان ليلاً هرباً من حرّ المنازل والجدران ، لا سيما وان بانياس محاطة بجبال عالية تمنع عنها مجاري الهواء . في تلك القرية ما تزال هناك آثار أسوار وأبراج قديمة تدل بوضوح على الأهمية التاريخية لذاك الموقع الذي كان مقراً مفضلاً لأمراء سوريا وملوكها . شمالي بانياس ، عند سفوح حرمون الكبير ، ترتفع آثار هامّة من بقايا قلعة السبيبة المشرفة على المدينة . احتفظت بانياس باسمها اليوناني القديم كما هو تقريباً «بانيا» أي مقرّ الإله «بان» كما زعم القدامى .

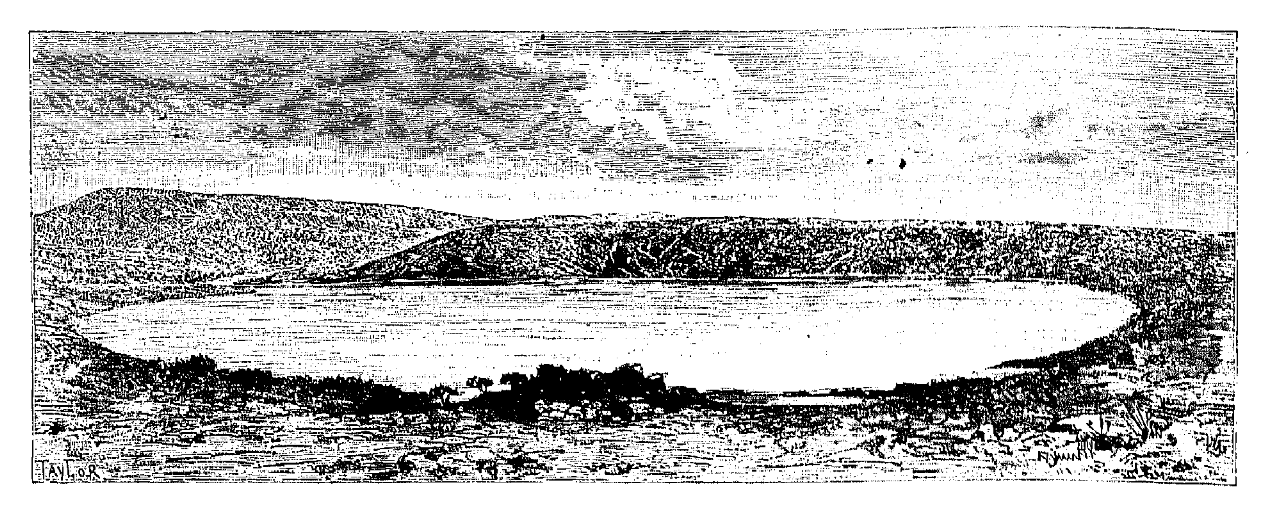
قرب المغارة التي يزعم القدامى انها مقر الإله «بان» تنبع جداول مائية سرعان ما تتحول في جريانها لتكوّن نهر بانياس الذي يتجه نحو الجنوب الغربي حيث يلتقي بنهر اللدان الآتي من تل القاضي ، وذلك في موقع يعرف باسم تل يوسف ويقع تحت حونين . على مسافة قليلة شرقاً آثار كنيسة قديمة يقال إن فيها قبر مار جرجس ، وهي تحولت الى مسجد للمسلمين . من ذاك الموقع نتجه صعوداً لمدة ساعة تقريباً وصولاً الى قلعة السبيبة ، وهي من أهم المواقع الأثرية في سوريا . القلعة ذات شكل بيضيّ يبلغ ثلاثماية متر طولاً وثمانين متراً عرضاً . تمتد الأسوار على امتداد محيط الجبل ، بعضها قديم وبعضها الآخر حديث يعود الى أيام الحملات الصليبية . في داخل القلعة ما تزال هناك قاعات كبيرة ذات عقود وخزانات ضخمة كانت تستخدم لجمع الماء الضروري للاستخدام .

من تلك القلعة نطلّ على منظر جميل لوادي الأردن وصولاً الى بحيرة الحولة . في الجهة المقابلة نشرف بوضوح على قلعة الشقيف ، حصن الصليبيين المنيع .

نهر اللدان أو نهر الأردن الصغير ـ رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية .

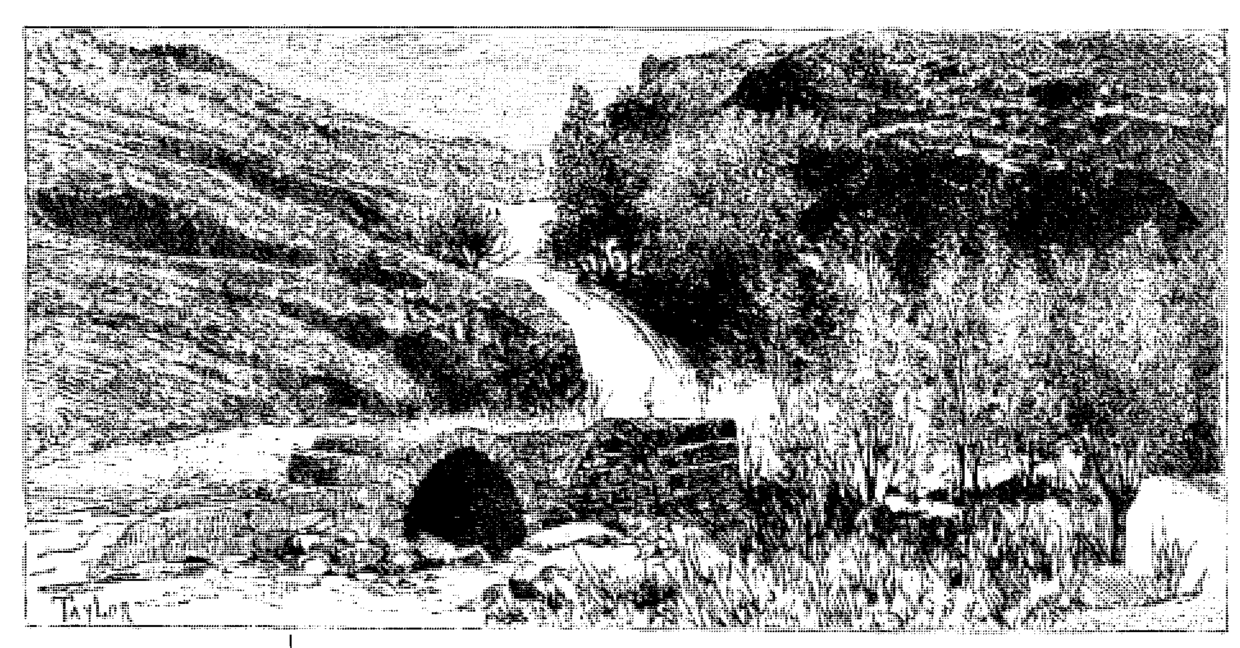


حصن الصبيبة في بانياس ـ رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية .



بحيرة فيالا أو بركة عسرام
رسم لتيلور
عن صورة فوتوغرافية

بعد زيارة بانياس ننطلق مجدداً لنسير باتجاه دمشق عبر الهضاب والوديان وصولاً الى قمة مرتفعة تقوم عليها مجدل شمس الجميلة على ارتفاع ألف ومابة وثلاثين متراً ، حيث نقيم مخيماً نبقى فيه عدة أيام للتمتع بالمناخ المنعش بعد حرّ الطريق وعنائها . اثناء اقامتنا في مجدل شمس ننطلق في زيارة سريعة الى «بركة عسرام» المعروفة قديماً باسم بحيرة «فيالا» والمعتبرة ايضاً أحد منابع نهر الأردن . تقع هذه البحيرة في منخفض من الأرض تحيط بها الصخور البركانية ، وهي عبارة



شلالات بردى
رسم لتيلور
عن صورة فوتوغرافية

عن حوض بيضيّ الشكل يبلغ محيطه ستة كيلومترات . ليس في محيط البحيرة أي نبع ظاهر لمياهها التي يبدو انها ناتجة عن تجمّع السيول والأمطار . هذه البحيرة خالية من الأسماك ، ولكن تكثر فيها الضفادع المختلفة ، وهي تقع على ارتفاع ألف

وعشرين متراً عن سطح البحر .

من مجدل شمس ننطلق صعوداً عبر الجبال والوهاد لنبلغ قمماً مرتفعة تتجاوز في ارتفاعها ألفاً وثلاثماية متر ، لنهبط بعدها نحو قرية المزرعة الأقل ارتفاعاً ، والتي يجري قربها نهر عذب وصاف يعرف باسم نهر الجنّاني ، وصولاً الى قرية السحتة التي نرى فيها وللمرة الأولى مظهر البناء الدمشقيّ . فالمنازل سوية السطوح وجدرانها من الطين والقش ، وجميعها ذات لون أصفر يجعلها تمتزج بالبيئة المحيطة .

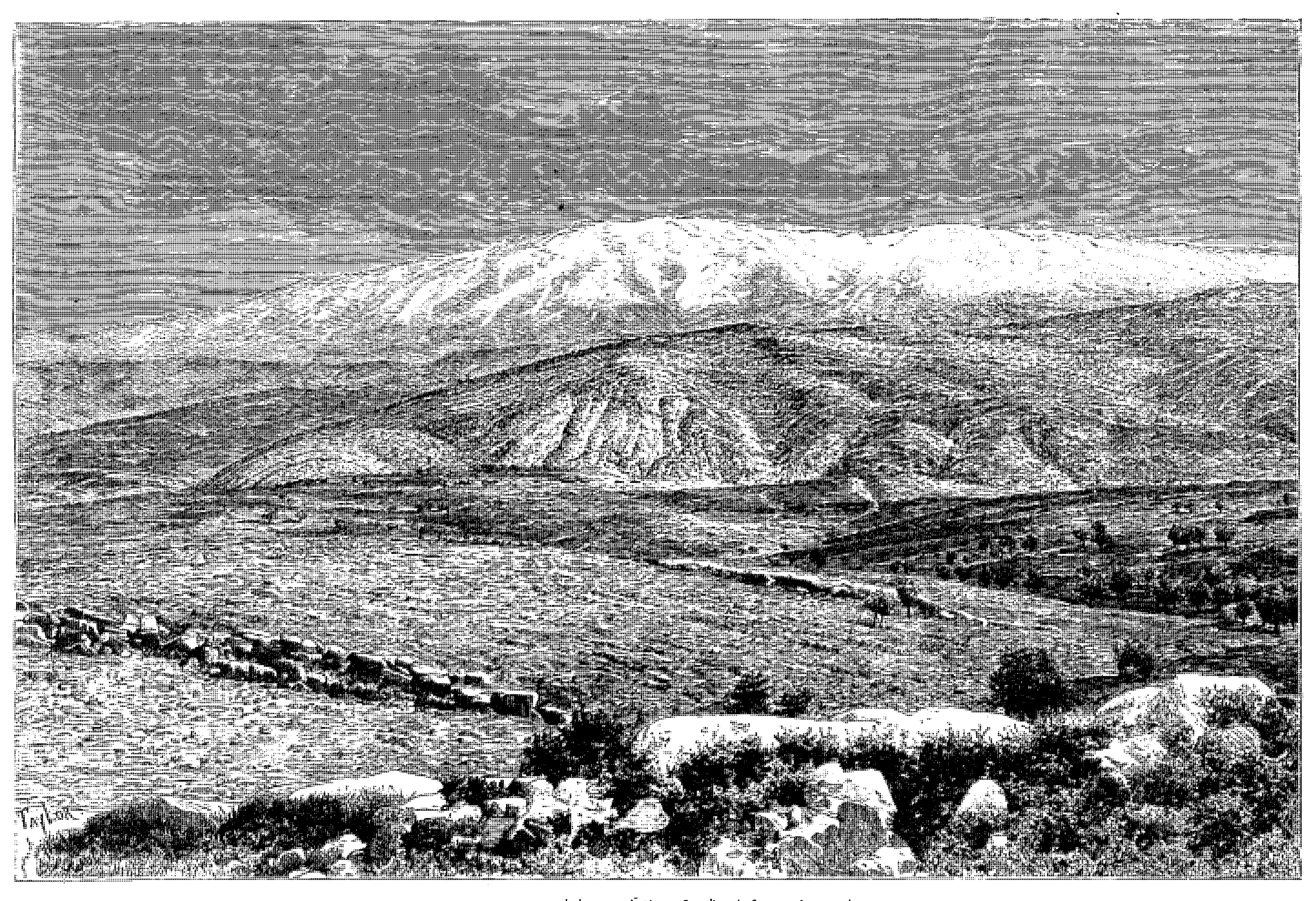
وتستمر الرحلة عبر أراض شبه جرداء ترتفع الى يسارها قمم حرمون المكلّلة بالثلوج ، وتمتد الى يمينها سهول صحراوية تصل الى حوران . بعد ذلك تمر الطريق في حقول خصبة تسقيها المجاري المائية الآتية من الأنهار القريبة ، ثم نعبر بعض القرى الصغيرة وصولاً مع المساء الى قرية «أرطوز» حيث نقضي الليل قرب نبع ماء تحيط به الأشجار والنباتات الخضراء .

بعد ليلة حارّة ومرهقة بسبب الحشرات الكثيرة نعاود السير باتجاه دمشق التي اضحت قريبة ، والتي نطلّ عليها بعد ساعات في موقعها الرائع وسط واحة خضراء حيث ترتفع مآذنها وتلمع قببها الجميلة تحت أشعة الشمس الملتهبة . ندخل المدينة عبر البساتين والحدائق ، على ضفاف نهر بردى .



ر
عن صور

نشاهد في دمشق بيت الدراويش ، أو المولويّة ، وهو عبارة عن بناء كبير تعلوه المآذن ولكن لا وجود للدراويش فيه بل هو مخصّص للمسافرين والعجّز الذين لا مأوى لهم . في دمشق تكثر المآذن والمساجد المحاطة بالكثير من أشجار الحور الخضراء ، كما تكثر فيها المقاهي والمنتزهات في الهواء الطلق . من مبانيها المميزة بناء يعرف



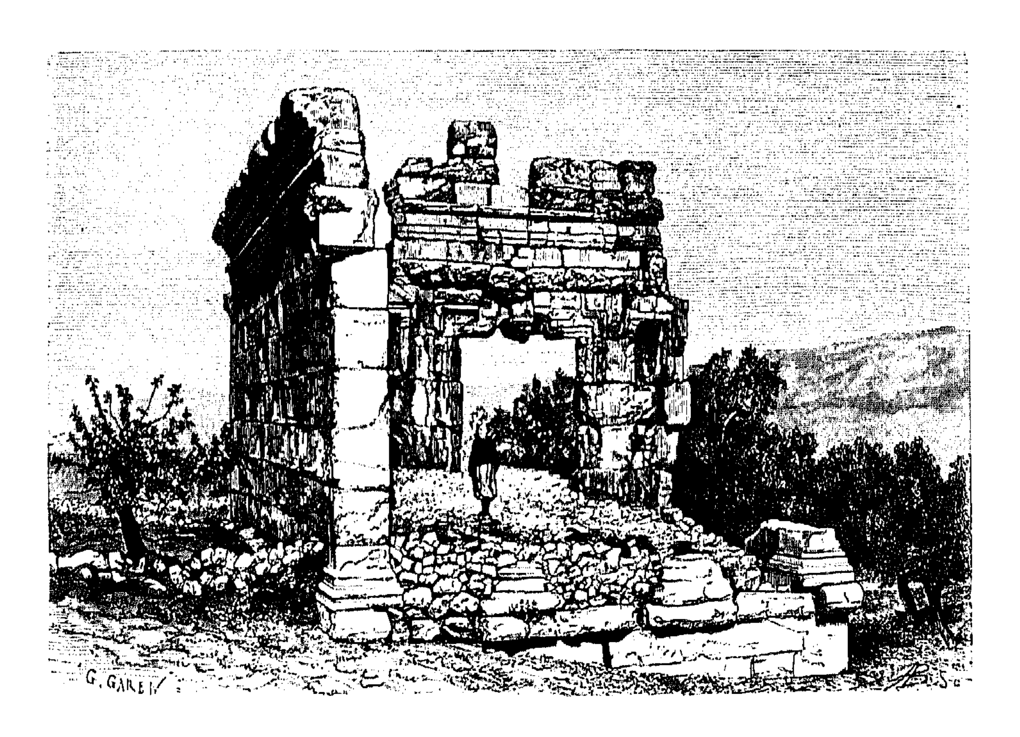
جبل حرمون من جهة وادي التيم قرب راشيا ـ رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية .

باسم «الصلايح» وهو يعتبر مقراً للأوروبيين الهاربين من حرّ المدينة القديمة وغبارها . نهر بردى الذي يعبر هناك بمياهه الغزيرة يبلغ عرضه حوالي عشرين متراً وتمتد فوقه عدة جسور يكثر فوقها المتنزهون لا سيما في الليل . بعد راحة عدة أيام في دمشق نعود أدراجنا الى قرية المزرعة ، عبر الطريق نفسها التي سبق لنا سلوكها ، وذلك لاجتياز جبل حرمون ، نزولاً بعد ذلك في وادي الأردن الأعلى ،ثم الالتفاف حول ذاك الجبل المقدّس .

من قرية المزرعة ننطلق نحو سفوح حرمون عبر طرق صعبة المسالك وصولاً الى قرية «عرني» حيث نقضي الليل . في اليوم التالي نعاود السير مع الصباح الباكر عبر الصخور والمنحدرات الخطرة وصولاً الى ارتفاعات تجاوز الألفي متر ، حيث ما تزال الثلوج تغطي الأرض ، الى ان نبلغ قمة الجبل على ارتفاع الفين وتسعماية وعشرة أمتار ، والتي تنقسم الى ثلاثة رؤوس أو قمم تفصل بينها المنخفضات .

القمة الأولى نحو الشمال وتشرف على سهل البقاع . والثانية التي نقف عليها تقع نحو الجنوب ، والتي يمكن رؤيتها بوضوح من دمشق . أما الثالثة فتقع نحو الجنوب الغربي وتشرف على واد سحيق يعرف باسم كفر الدوار .

بعد التمتع طويلاً بالمناظر الخلاّبة من أعلى تلك القمم الشاهقة نعود أدراجنا نزولاً عبر الممرات المتعرّجة وصولاً الى قرية «شيبا» ومنها الى «الهبارية» . قرب هذه القرية ما تزال تقوم آثار معبد فينيقي قديم تهدّم معظمه بسبب الزلازل الأرضية ، مع بقاء جدرانه السميكة منتصبة باستثناء الجهة الشمالية منه . نتجه بعد ذلك نحو الشمال الغربي فنمرّ قرب قرية صغيرة تعرف باسم «عين جرفا» على ارتفاع سبعماية وتسعين متراً ثم نعبر بعض الحقول وكروم العنب قرب قرية حاصبيا حيث نبقى لقضاء الليل .



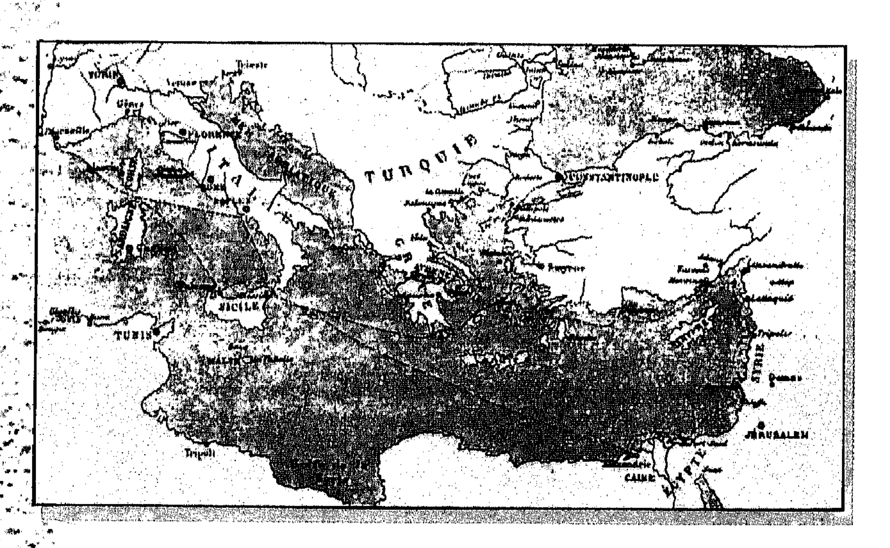
المعبد الفينيقي في الهبارية
رسم ج . غاران
عن صورة فوتوغرافية

تقع حاصبيا على ارتفاع ستماية وسبعين متراً . يبلغ عدد سكانها حوالي خمسة آلاف نسمة . وهي ذات موقع جميل ومنازلها مبنيّة على شكل مدرّج عند منحدر وادي التيم .

من حاصبيا ننطلق مجدداً عبر الوديان والهضاب وصولاً الى قرية راشيا ، على ارتفاع ألف وثلاثمائة وثلاثين متراً . قرب راشيا نزور موقعاً اثرياً يعرف باسم «الركلة» ما تزال فيه بقايا معبد فينيقي قديم كان مكرساً باسم «بعل حرمون» .

في اليوم التالي ننطلق من راشيا باتجاه دمشق مجدداً ، فتتجه الطريق نزولاً نحو بحيرة صغيرة تعرف باسم بحيرة «كفركوك» التي نسير قرب ضفافها وصولاً الى «عين ميسلون» ومنها الى «ديماس» حيث نقضي الليل . في اليوم التالي ننطلق مع الصباح الباكر لنجتاز قبل اشتداد الحرّ السهل العاري المعروف باسم «صخرة دمشق» الخالي إلاّ من الصخور الجرداء . بعد ذلك تتجه الطريق شرقاً ونبدأ بالنزول في المنخفض الذي تجري فيه مياه نهر بردى ، غير بعيد من مدينة دمشق .

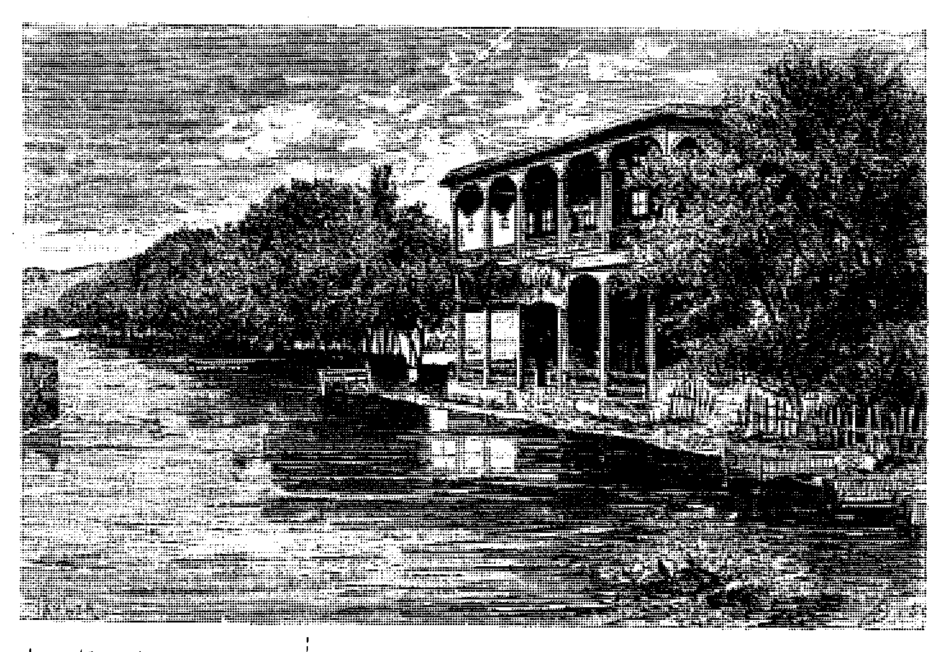
الفصل العشرون



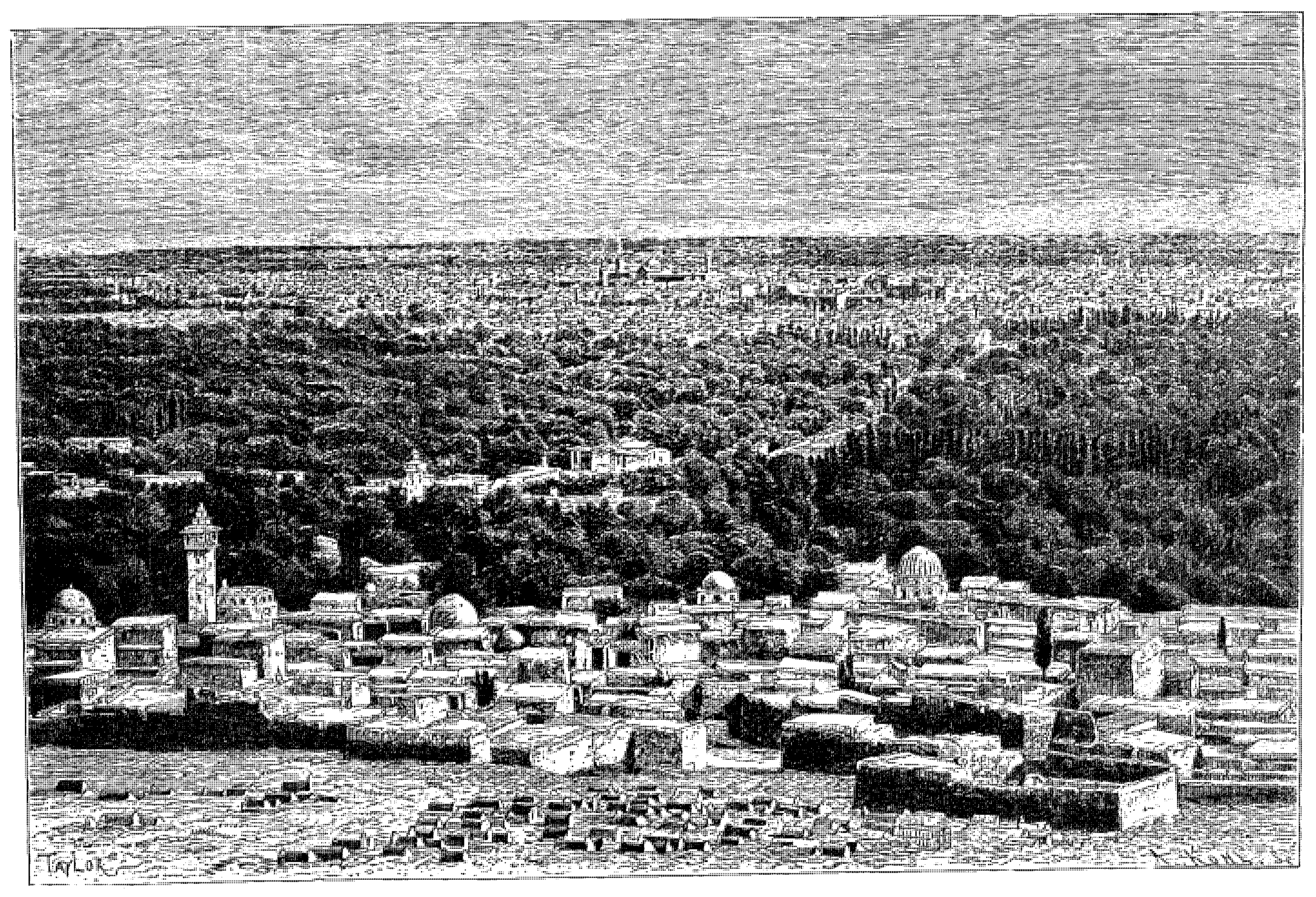
مدخل دمشق وحدائقها

نسير على ضفاف بردى حتى قرية دمّر الجميلة حيث نعبر فوق جسر الى الضفة الأخرى وصولاً الى هضبة تشرف على منظر رائع لمدينة ألف ليلة وليلة الغارقة في واحة خضراء من الحدائق والبساتين الطافية فوق محيط غير متناه من الرمال والصحاري . ونستمرّ في السير مروراً بقرية الصالحيّة ، المحاطة بدورها بحزام رائع من الحدائق والبساتين لنصل أخيراً الى أسوار دمشق القديمة .

منازل دمشق مبنيّة عموماً من الآجر ، أو القرميد ، تعلوها سطوح من الصلصال المرصوص ، ومطلية باللون الأصفر الذهبي . إنها غالباً ذات طابق واحد ، بسيطة في مظهرها الخارجيّ وشديدة الإتقان والفخامة في الداخل . أما الخشب الضروري للبناء وصنع الأثاث فيأتي من أشجار الحور التي تملأ ضفاف بردى والأقنية الكثيرة المتفرعة منه . حزام دمشق الأخضر عبارة عن بساتين رائعة ومتنوعة ما بين لوز وتين وإجاص ورمّان . أما أكثرها تميّزاً فهي أشجار المشمش التي تبلغ أحجاماً هائلة وتعطي ثماراً ملأت شهرتها البلدان . كروم العنب بدورها مزدهرة وهي ممتدة على الأرض لمسافات واسعة ، وقد نجدها تتسلّق الأشجار العالية . أما ثمارها فيستهلك بعضها فاكهة طازجة ، ويجففّ بعضها زبيباً ، في حين يحوّل بعضها الآخر دبساً يحل محل السكر النادر في تلك الأصقاع .



حدائق ومقاهي على ضفاف نهر بردى
رسم لتيلور
عن صورة فوتوغرافية



منظر عام لدمشق - رسم لتيلور - عن صورة فوتوغرافية

تنتشر في أحياء دمشق الحدائق العامة والمقاهي القائمة عند ضفاف بردى . انها منتزهات جميلة تظلّلها الأشجار الوارفة وتخترقها المجاري المائية الكثيرة ، كما انها مجهزة بأعداد كبيرة من المصابيح التي تضاء ليلاً حيث يأتي المتنزهون للتمتّع بالطبيعة والانتعاش . من المناظر المميّزة تلك المقاعد المرتفعة التي يجلس عليها الدمشقيون في تلك المتنزهات للراحة وتدخين النارجيلة وشرب القهوة .

نهر بردى عصب الحياة في دمشق . فمياهه تسقي البساتين والحدائق المحيطة بها ، كما تتوزع أقنية ومجاري تصل مياهها الى منازل دمشق وأحيائها . شرقيّ دمشق وغربيّها ، وعلى مسافة يوم واحد تقريباً ، مجموعة من البرك الكبيرة المليئة بالأسماك والمحاطة بأدغال كثيفة يصعب اختراقها . وبين دمشق وتلك البحيرات تمتدّ منطقة خصبة تعرف باسم الغوطة التي تكثر فيها القرى الصغيرة المحاطة بأشجار الحور والجوز . كما تكثر على ضفاف بردى الطواحين وأكواخ الصيادين والمشاتل الخصبة حيث تنتشر شتول المشمش واللوز والكرز والليمون والبرتقال والرمّان والتوت والجوز والزيتون والتفاح والعنب وغيرها . ترتفع هضبة دمشق حوالي ثمانماية متر عن سطح البحر ، وهي باردة شتاء ، في حين تضحي شديدة الحرارة صيفاً حين تأتيها رياح الصحراء العربية وبلاد ما بين النهرين .

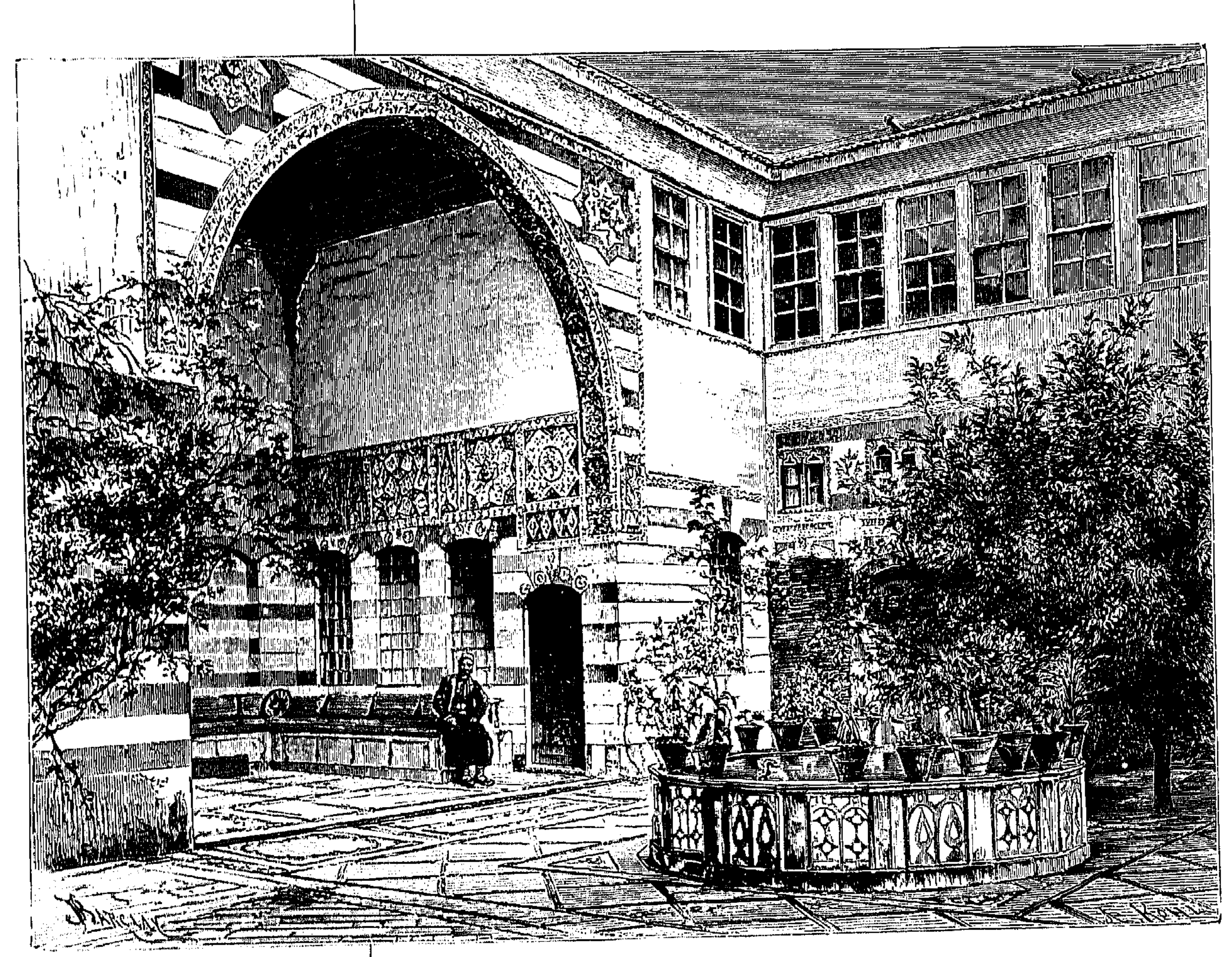


قاعة الاستقبال في بيت دمشقي
رسم س . باركلي .
عن صورة فوتوغرافية .

هذه الحرارة المرتفعة ، على الرغم من ارتفاع الموقع الطبيعي ، هي التي تسمح بنموّ أشجار البرتقال والنخيل وغيرها من النباتات المثمرة التي تحتاج الى الشمس والحرارة كي تزدهر وتثمر .

أكثر المحاصيل تميّزاً ، وكما سبق وذكرنا ، هو المشمش الذي يجفّف معظمه الى درجة معينة تحفظ له شيئاً من الرطوبة ثم يكبس بقوّة ليحول الى عجينة صفراء محمرّة تحوّل بدورها الى مادة تعرف باسم «قمر الدين» المشهور في جميع بلدان المنطقة .

في السهل الصحراوي الواقع الى الشرق من دمشق ، بعد منطقة البرك ، يعيش الكثير من البدو الذين يقطفون نباتات الصود ، أو الصودا ، الضرورية لصنع الصابون ويأتون لبيعها في دمشق مع طيور الصقر المدرّبة والمستعملة في صيد الغزلان .

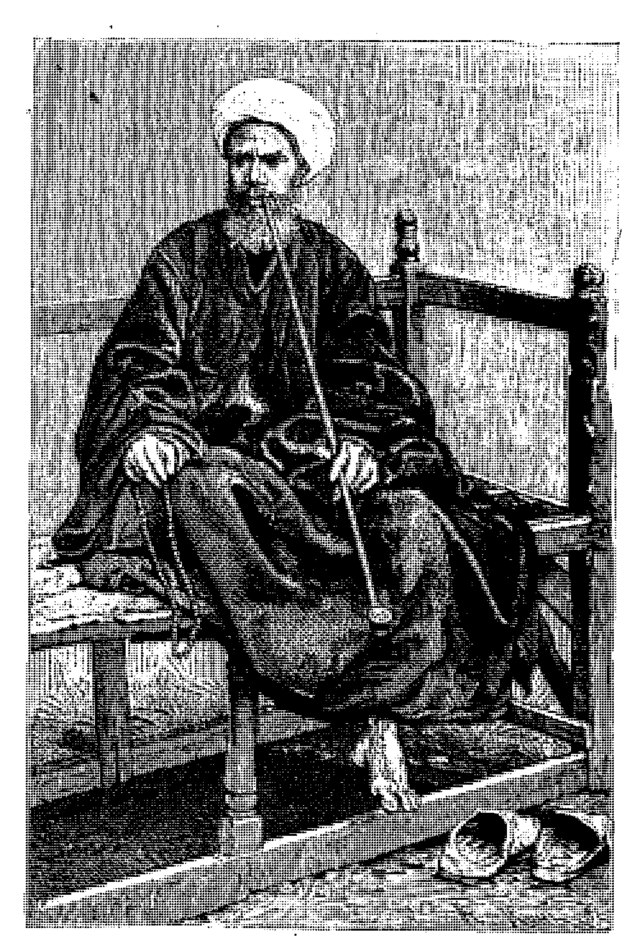


«ليوان» في بيت دمشقي – رسم س . باركلي
عن صورة فوتوغرافية .

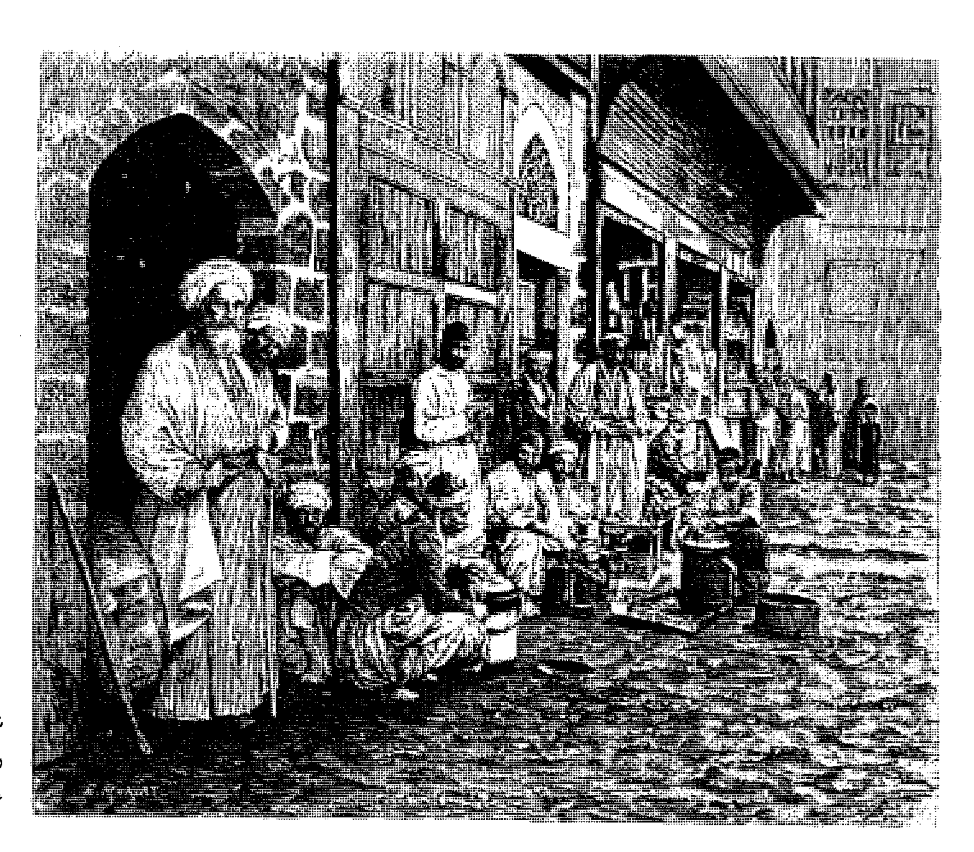
منزل دمشقي

في دمشق عدد كبير من القصور الرائعة التي قد يوحي مظهرها الخارجي بأنها مجرد منازل بسيطة أو فقيرة . إنها ذات هندسة داخلية مميزة تعرف بالطراز الدمشقيّ ، مما يجعلها مختلفة عن غيرها من المدن والبلدان القريبة .

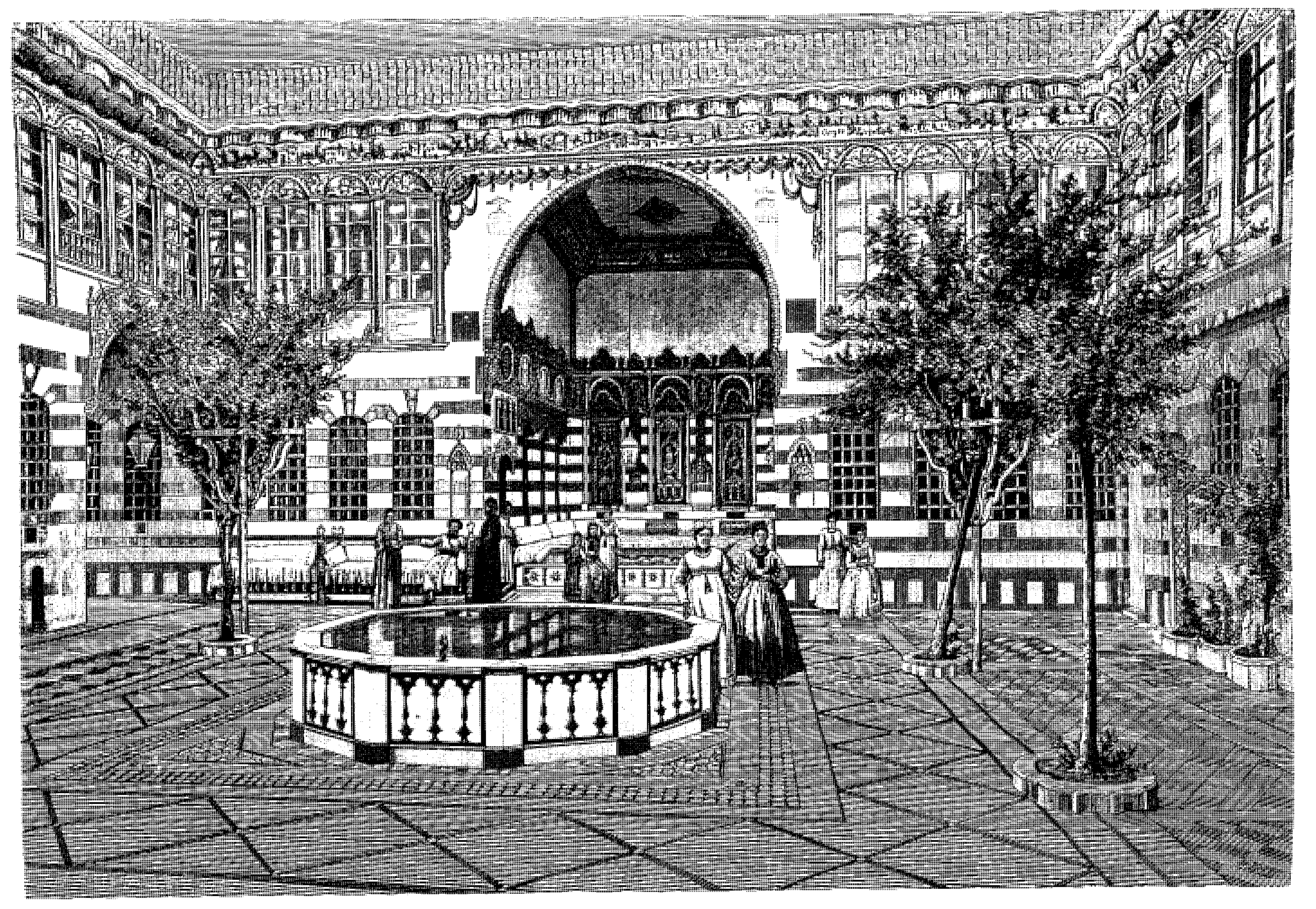
ندخل الى أحد تلك المنازل عبر مدخل شديد البساطة من الخارج ، وهو ذو انعطافات تحول دون رؤية داخل المنزل من الشارع . يؤدي هذا المدخل الى باحة داخلية تحيط بها أحواض الزهر والورد المختلفة وأشجار الغار والبرتقال . في وسط الباحة أحواض رخامية ترتفع في وسطها نوافير الماء ، ومن حولها أحواض القرنفل التي يحبّها الدمشقيون كثيراً . وعلى الأرض تجري أعداد من طيور الحمام والحجل التي ألفت العيش في تلك المنازل . تحيط بهذه الباحة مجموعة من غرف الاستقبال الواسعة ، إضافة الى «السلملك» اي قاعة استقبال الغرباء . هذه القاعات المفصولة عن الباحة الخارجية بعدّة درجات من



دكة (مقعد عالي) في إحدى حدائق دمشق
رسم رونجا .
عن صورة فوتوغرافية .



شارع من شوارع بازار دمشق
رسم رونجا
عن صورة فوتوغرافية .



باحة بيت يهودي في دمشق - رسم كاتيناتشي - عن صورة فوتوغرافية



امرأة من دمشق تضع «الخرجة»

الرخام ذات فخامة وغنى وزينة يصعب وصفها . فالسقوف من خشب الجوز تزينها أشكال مختلفة من الخطوط الذهبية والفضيّة والحمراء والخضراء المتمازجة ضمن رونق عربيّ جميل . وفي أعلى الجدران الرخامية المتعددة الألوان نوافذ زجاجية ذات نقوش وألوان رائعة . أما الأرض فمرصوفة بالحجارة الرخامية المختلفة والنادرة في غالب الأحيان . غالباً ما يكون «السلملك» مفصولاً عن قاعة الاستقبال الكبرى بدرجة أو اثنتين ، وقد يكون دونه حاجز ، أو درابزين ، مخرّم . وسط القاعة حوض ماء يتوسطه عمود صغير تخرج منه نافورة ماء خفيفة ترطّب الجوّ في مواسم الحرّ . ولكن يبقى ان الوصف عاجز عن الإحاطة بكلّ ما في تلك المنازل من غنى وجمال وفخامة .

من مظاهر هذه البيوت الرائعة أيضاً مكان يعرف باسم «الليوان» وهو عبارة عن قاعة مفتوحة على الباحة الخارجية ، ذات مدخل عريض وقوسيّ ويعلوها سقف خشبي كثير الزينة والرسوم . وتحيط بها مقاعد عريضة ملاصقة للجدران ، وهي تستخدم لقضاء السهرات في الخارج حين لا تسمح غزارة الندى بالبقاء في العراء .

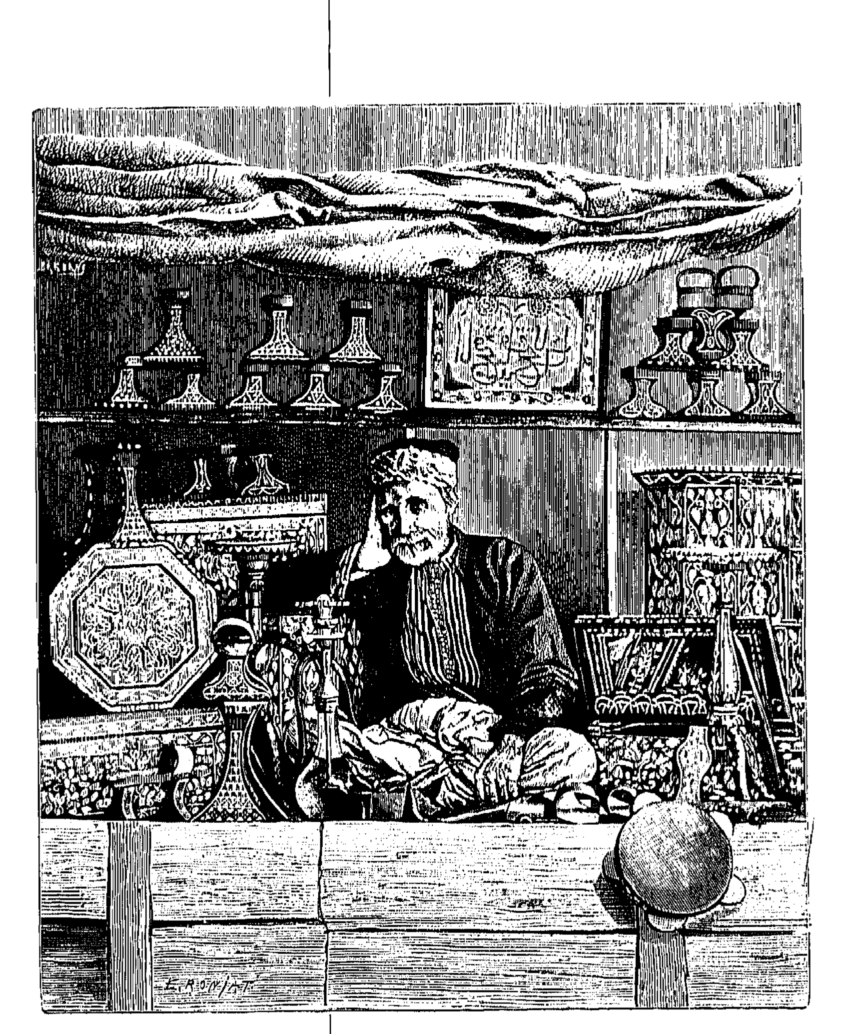


فتاة دمشقية تنتعل القبقاب
رسم رونجا .
عن صورة فوتوغرافية .

الاسواق القديمة ـ البازار ـ

قبقاب إمرأة دمشقية

بعد القصور وفخامتها تأتي أسواق دمشق القديمة ، أو «البازار» ، في كونها مدعاة للإعجاب والتقدير . تحتل الأسواق مساحة واسعة من الأرض ، وهي عبارة عن شوارع وأزقّة متداخلة وفي جميع الإتجاهات ، تتصل ببعضها بعض عبر مفارق وممرات مظلمة وتكثر فيها الخانات والأروقة المختلفة التي تظلّلها أغصان أشجار الحور الوارفة المتداخلة . المحلات التجارية عبارة عن دكاكين صغيرة لا تتجاوز مساحة الواحد منها عدّة أمتار وهي ذات واجهات مفتوحة مباشرة على الشارع . انها عموماً ذات أرضية خشبية ترتفع حوالي المتر حيث يجلس التاجر يرتشف القهوة ويدخّن النارجيلة ، أو يسجّل حسابات يومه على ورقة يضعها فوق يده اليسرى حاملاً بيده اليمنى مرقماً يغمّسه بين وقت وآخر في محبرة نحاسية مثبّتة تحت حزامه الحريري . البضائع الموجودة في السوق كثيرة ومتنوعة ومن أهمّها الأقمشة المختلفة والسروج والأحزمة والسجاد . وبشيء من الصبر وبعض الوقت قد تجد في هذه السوق بعض التحف النادرة التي لا يكشف التجار عن وجودها إلاّ بعد التأكد من جديّة الزبون وكثرة نقوده . من الأسواق المميّزة سوق الصاغة . وهو عبارة عن رواق طويل مظلم تكثر فيه العقود وتنتشر على جانبيه مجموعة من المحالّ الصغيرة التي ينصرف فيها صاغة مهرة الى صياغة أشكال مختلفة من الحليّ والمجوهرات الفريدة والرائعة . من ذلك بعض اشكال السلاسل الشديدة الدقّة ، وحاملات فناجين القهوة ذات النقوش المميّزة ، إضافة الى أشكال مختلفة من الحلق والخواتم والأساور والعقود . بعد انتهاء الصياغة تحفظ تلك المصوغات في صناديق صلبة وآمنة بانتظار الزبائن المناسبين . إضافة الى الحليّ التقليدية التي تتزين بها نساء دمشق ، نجدهن يتميّزن بما يعرف باسم «الخرجة» ، وهي عبارة عن حلقة أو زرّ ، من الفضة أو الذهب المطعّم بالفيروز . وهي تعلّق بخرم في الأنف .



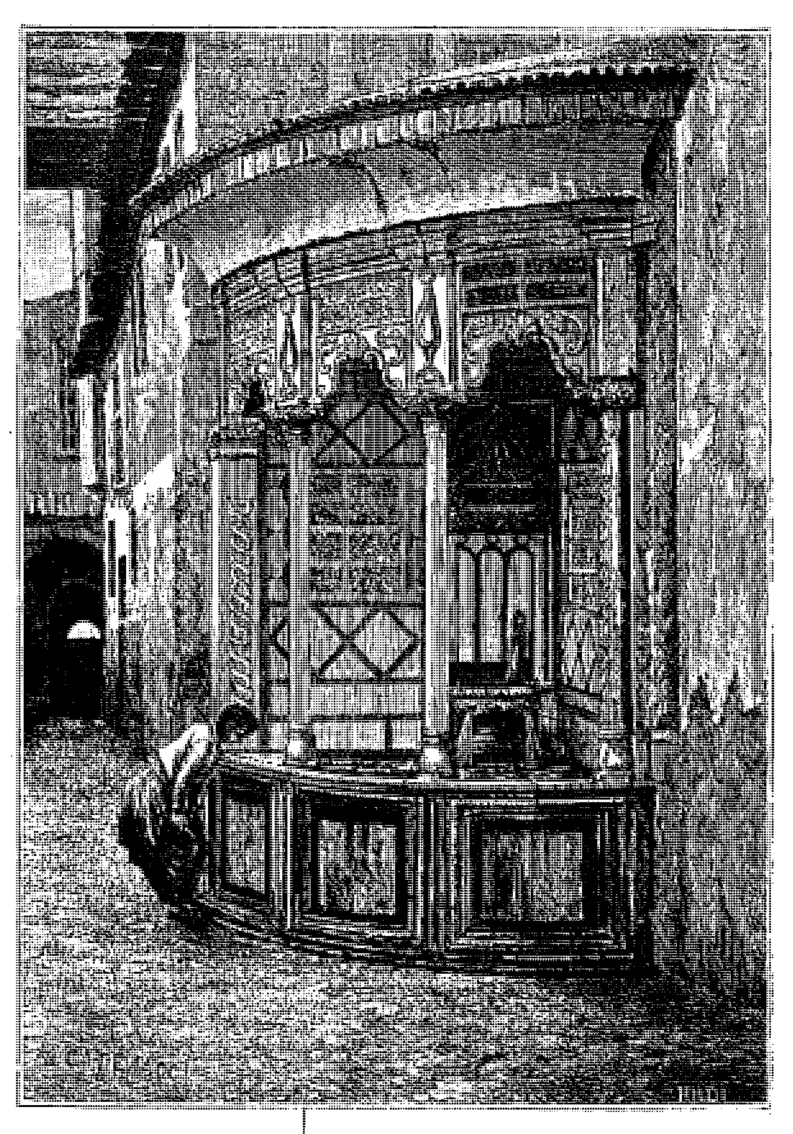
بائع سكملات
رسم رونجا .
عن صورة فوتوغرافية .

في تلك السوق يمكن عادة مشاهدة نساء الطبقات الراقية والثرية يتنقّلن محجبات بين المحال بمعاطفهنّ الطويلة البيضاء . وقد يعمدن في بعض الأحيان الى رفع الحجاب جزئياً للتمكّن من معاينة المجوهرات المعروضة بدقة ووضوح . نساء الطبقات الثرية شديدات العناية بهندامهن وملابسهنّ ، ولكن ولسوء الحظ ، كثيرات منهنّ انصرفن الى اصطناع الملابس الأوروبية وبطريقة خالية من الذوق الرفيع . أما نساء الطبقة المتوسطة فقد حافظن على الزيّ السوري التقليدي الجميل ، والذي سبق وشاهدناه في مدن أخرى لا سيما بيروت .

من العادات المميزة للنساء الدمشقيات انتعال القبقاب الخشبي في منازلهن . وقد يصل ارتفاع هذا القبقاب في بعض الأحيان الى عشرين سنتيمتراً . وأغرب ما في الأمر تمكنهنّ من التنقل براحة واتّزان وخفة بين أرجاء منازلهن الواسعة المرصوفة غالباً بالرخام الناعم . في بعض الأحيان يكون القبقاب قطعة فنيّة حقيقية تزينها النقوش الدقيقة والتطعيمات الصدفية المختلفة .

قرب سوق الصاغة ، وفي رواق طويل آخر ، تجري صناعة طاولات صغيرة مميزة تعرف باسم «سكملة» . تكون هذه الطاولات ثمانية الأضلاع ، تزينها النقوش الدقيقة المختلفة وغالباً ما تكون مطعمة بالعاج والصدف . بين الخشب ومثلّثات العاج أو الصدف يجري ادخال خيوط دقيقة من القصدير ممّا يضفي على «السكملة» المزيد من الجمال والدقة .

من الأسواق الهامة أيضاً سوق الكتب التي يمكن ان يُعثر فيها على مخطوطات قديمة على قدر كبير من الأهمية ، لا سيما بعض مخطوطات القرآن الكريم ، والتي لا يرضى التجار بإظهارها إلاّ بعد جهد جهيد . الأسلحة القديمة من سيوف وغيرها



عين ماء قرب البازار
رسم هـ . كاتيناتشي
عن صورة فوتوغرافية .

نادرة الوجود جداً وكذلك الخزفيات القديمة البيضاء ذات النقوش الزرقاء ، أو الزرقاء ذات النقوش البيضاء . ولكن هذا لا يمنع انها ما تزال تزيّن وبكثرة الزوايا والجدران في القصور الفخمة .

في دمشق ما تزال تنتشر الحمامات العامة القديمة . انها عبارة عن قبة مركزية واسعة يتوسّطها حوض كبير . حول الحوض تنتشر مجموعة الغرف الصغيرة المجهّزة بمقاعد طويلة ، ويستخدمها الزبائن للراحة وخلع الثياب . أمّا الإستحمام فعبارة عن مراحل عديدة تبدأ بغرف البخار المتفاوتة الحرارة ، مروراً بالفرك بالصابون والتدليك العنيف ، ثم حمامات الماء البارد والساخن ، لينتهي المستحّم الى قاعة الاستقبال الأولى حيث يرتاح ويرتشف القهوة .

من المحطات الهامة في أسواق دمشق بناء قديم وجميل من الحجارة الضخمة البيضاء والسوداء ويعرف باسم «خان أسد باشا» . إنه مستودع ضخم تحيط بقبّته المركزية الواسعة أروقة كثيرة وممرات وسلالم تقود الى غرف ومحلات مختلفة تتكدّس فيها البضائع من شتى الأشكال والألوان . بناء هذا الخان على كثير من الدقة والمهارة ، تتجلّى فيه براعة الهندسة العربية ، لا سيما الطراز الدمشقيّ .

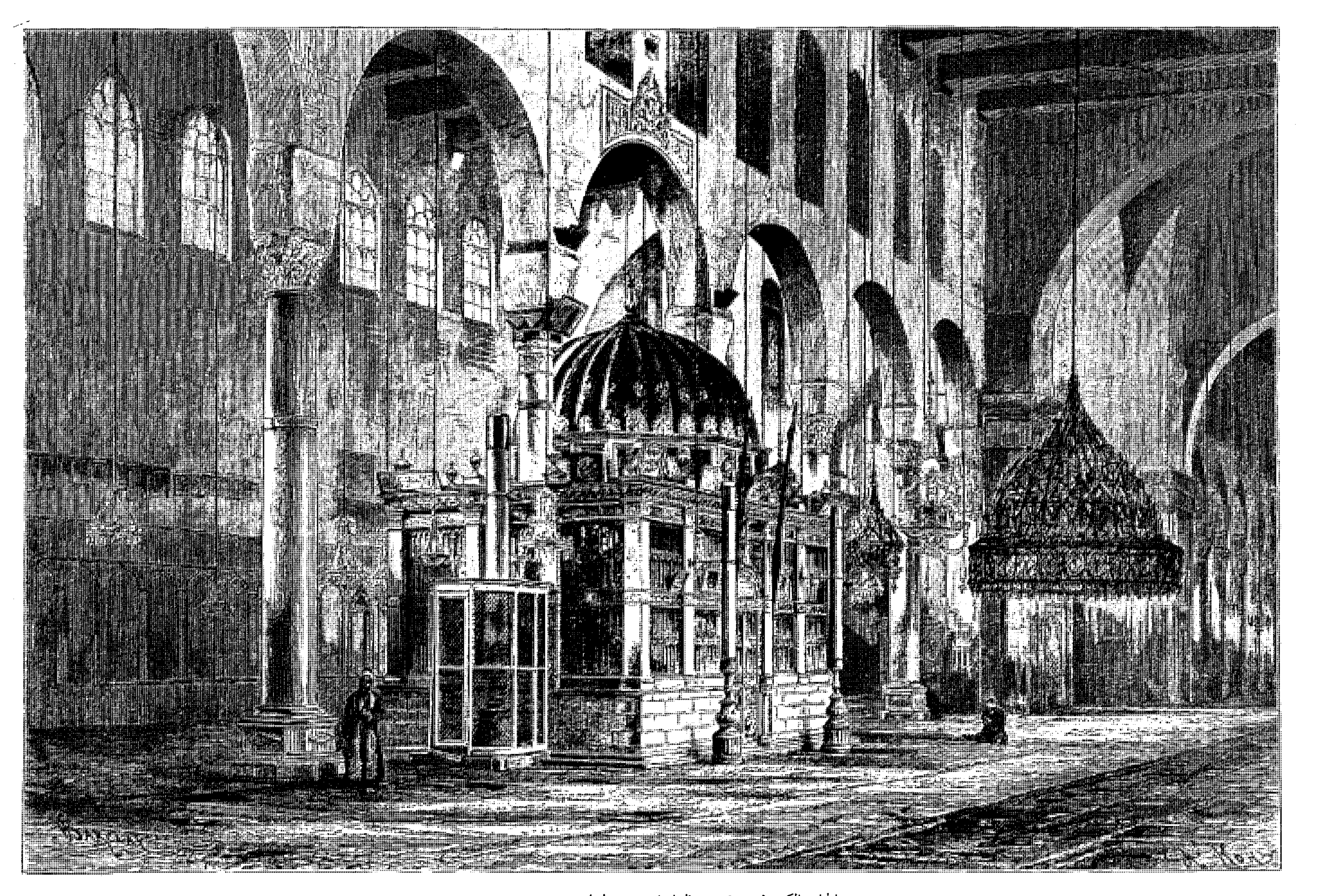
مدخل الخان عبارة عن باب كبير مقوّى بالحديد والمسامير البرونزية والأقفال والسلاسل الضخمة . في احدى دفّتي الباب الكبير فتحة صغيرة منخفضة لا يمكن المرور عبرها إلاّ بالانحناء . الى جانبي المدخل من الخارج كوّتان مزدانتان بالنقوش الجميلة ، وفي كلّ منهما عين ماء عذب .

وفي شارع آخر قرب الخان عين ماء أخرى ذات بناء مميّز ، وتقوم عند زاوية أحد المفارق . واجهة العين وسقفها مدعمّان بعمودين دقيقين ، وجميعها ذات نقوش وزخارف جميلة دقيقة ، أما الحوض فمن الرخام المتعدد الألوان ، في حين تتدفق المياه من عمق الكوّة الواسعة .

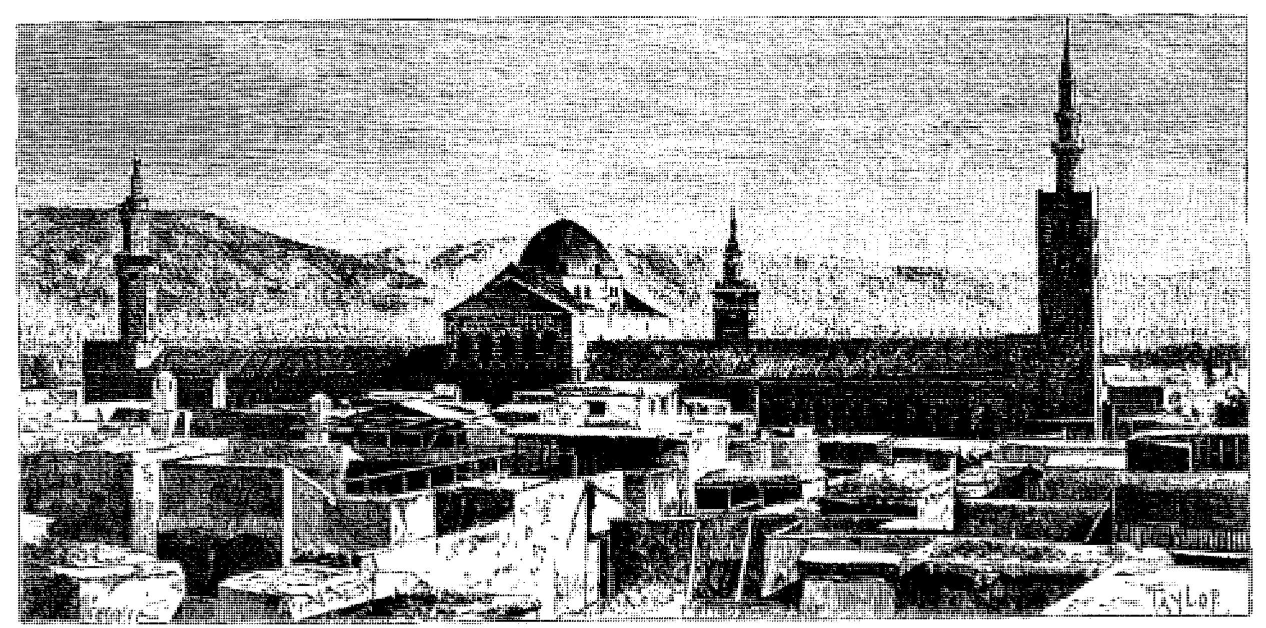
أسواق دمشق وأحياؤها دائمة الحركة ، يتعالى فيها ضجيج المارّة وأصواتهم المرتفعة ، والدمشقيون ذوو طبع مرح ويحبون البقاء في أجواء الفرح والمتعة . عند المساء ، وفي شتى انحاء دمشق تسمع أصوات الموسيقى الآتية من الحفلات التي تحييها العائلات أو مجموعات الأصدقاء في المنازل ، حيث الطرب والرقص والمرح بعد عناء النهار .

واذا كان الرقص وقفاً على الرجال دون النساء ، فإن العائلات الثرية تستقدم في المناسبات السعيدة ، كالولادة والختان والزفاف ، راقصات ومغنيات سافرات الوجوه لا ينطبق عليهن ما ينطبق على نساء العائلات من شروط الحجاب والرّصانة . ترافق الراقصات والمغنيات موسيقى القانون والدفوف والصنّاجات .

من أهم المواقع التي يجب زيارتها في دمشق مسجد الجامع الكبير والمعروف



الجامع الكبير في دمشق من الداخل - **رسم لتيلور** - عن صورة فوتوغرافية



المسجد الأموي
الكبير في دمشق
رسم تيلور
عن صورة فوتوغرافية

خان اسد باشا ـ رسم هـ . كاتيناتشي
عن صورة فوتوغرافية .



باسم الجامع الأموي ، والذي كانت زيارته ، ومنذ زمن غير بعيد ، محظورة على غير المسلمين ، وهو يقع عند طرف البازار ، أو أسواق دمشق القديمة .

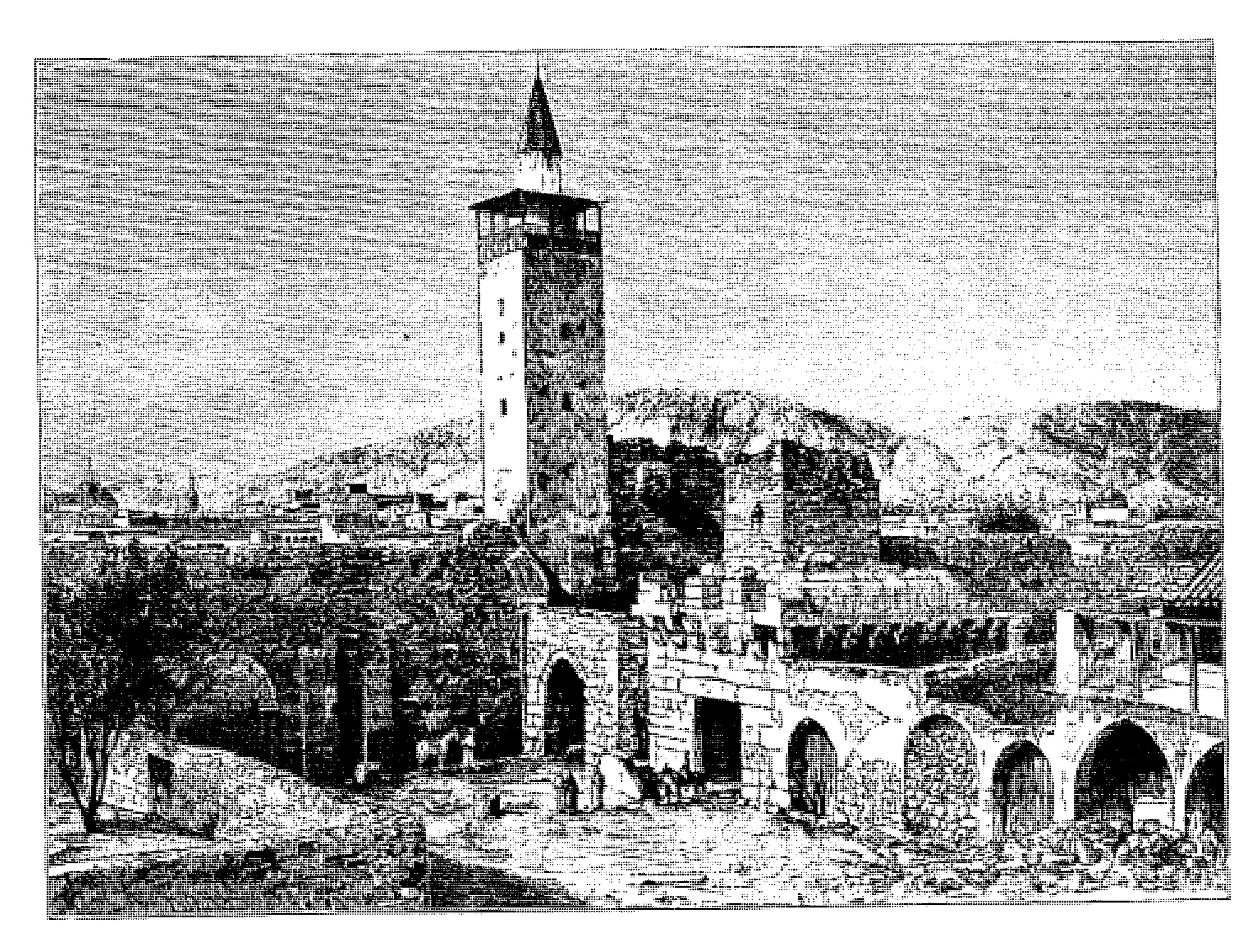
كان هذا الجامع في الأصل كنيسة رومانية قديمة لا يُعرف تماماً تاريخ بنائها . وقد جرى ترميمها عام ٣٩٥م ، ثم جرى اقتسامها بين المسلمين والمسيحيين الى ان حولها الوليد بن عبد الملك بكاملها الى مسجد جامع للمسلمين عام ٧٠٥م .

أمام الجامع ساحة كبيرة مرصوفة بالرخام وتحيط بها أروقة واسعة تقوم على دعائم مربعة ذات زينة وألوان وزخارف جميلة . أما المسجد ، الذي يقع عند طرف

رواق وأعمدته داخل المسجد الأموي
رسم هـ . كاتيناتشي
عن صورة فوتوغرافية .

نهر بردى عند مدخل دمشق
عن صورة فوتوغرافية .





الباب الشرقي
رسم لتيلور
عن صورة فوتوغرافية .

الساحة ، فما يزال يحتفظ بكثير من السمات الأساسية التي بني عليها . يبلغ طول الصحن الأساسي للمسجدماية وواحداً وثلاثين متراً بعرض يبلغ ثمانية وثلاثين متراً . وتعلوه قبة كبيرة ومئذنتان عاليتان .

يميّزه من الداخل ثلاثة صفوف من الأعمدة التي يبلغ ارتفاع الواحد منها سبعة أمتار ، إضافة الى ما يكسوه من رخام وبسط وسجاد نادر وجميل . أمّا الإضاءة فتوفرها مجموعة ضخمة من المصابيح التي تتدلّى من جسور السقف . على الجدار الغربي نقشت أسماء الخلفاء الراشدين ، ابو بكر وعمر وعثمان ، رضي الله عنهم ، وعلى الجدار الجنوبي بعض آيات القرآن الكريم .

في المسجد مرج صغير محاط بالشباك الحديدية والشمعدانات الضخمة ، وهو قائم فوق سرداب ، لا يمكن الدخول اليه ، ويقال إن فيه رأس يوحنا المعمدان محفوظاً في صندوق ذهبي صغير ، وهو القديس الذي كُرّست له الكنيسة في التاريخ القديم .



باحة الجامع الكبير في دمشق - رسم كاتيناتشي - عن صورة فوتوغرافية

عند طرف الساحة قبة ثُمانية الأضلاع تقوم على أعمدة قديمة البناء والنقوش ، وفي داخلها مكتبة تحفظ فيها نسخ القرآن الكريم والكتب الدينية المختلفة . وفي مكان غير بعيد قبة أخرى تعرف باسم قبة النافورة ، وهي تغطيّ حوض ماء يستخدمه المصلّون للوضوء . وهي تقوم على دعائم متصلة بعقود ذات أعمدة صغيرة يرتفع فوقها السقف .

عند الطرف الشمالي للمسجد يمكن الصعود الى مئذنة مربعة الزوايا عبر سلّم طويل من مئة وتسع وخمسين درجة . من على شرفة تلك المئذنة يمكن الاشراف على منظر رائع للمسجد والمدينة والأسوار القديمة والحقول والبساتين .الجامع الاموي الكبير في دمشق موقع أثري رائع وبالغ الأهمية ولكنه يبقى دون مسجد عمر القائم في القدس .



بدو من حوران في دمشق
رسم رونجا
عن صورة فوتوغرافية .

في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة تقع القلعة القديمة التي يحتمل إنها بنيت أيام الرومان . إنها عبارة عن بناء ضخم مربّع الأطراف تحيط به الأسوار الضخمة إضافة الى إثني عشر برجاً عالياً . لم يكن بالامكان زيارة هذه القلعة من الداخل ، وهي الآن عبارة عن ثكنة ومخزن للأسلحة . ولكن يبدو انها تضم أجنحة وقاعات كثيرة تفصل بينها الساحات والسلالم ، إضافة الى عدد كبير من الممرات والدهاليز . الاجزاء الحديثة البناء من هذه القلعة تعود الى عام ١٢١٩م ، وقد بناها الملك الأشرف .



قبور أمراء الفتح الإسلامي
رسم لتيلور
عن صورة فوتوغرافية .

شرقي دمشق ما تزال الاسوار القديمة قائمة تدعمها عدة أبراج دائرية . بناء هذه الأسوار وأجزاؤها تدلّ على حقبات مختلفة . فالقواعد والدعائم السفلى رومانية قديمة ، تعلوها أجزاء بنيت بعد الفتح الاسلامي ، ثم ترميمات غير متقنة قام بها الأتراك .

في الأسوار عدة أبواب قديمة ، أحدها «الباب الشرقي» ويقع لجهة الشرق كما يدلّ اسمه ، بناؤه روماني قديم وهو عبارة عن ثلاثة أقسام . القسم الأوسط البالغ اثني عشر متراً عرضاً مغلق بجدار ، وكذلك القسم الصغير الجنوبي ، ويبقى الثالث فقط مفتوحاً للعبور . فوق البوابة ترتفع مئذنة مربعة الاطراف في أعلاها شرفة مسقوفة تطلّ على منظر جميل للمدينة وجوارها . وفي مكان قريب نشاهد قبة كنيسة قديمة للروم ، ولكن ليس فيها ما هو مميّز .

داخل دمشق القديمة ساحات عديدة ذات طابع جميل ومميّز ، تظلّلها أشجار الدلب والسرو الضخمة وتنتشر من حولها المحلات والمنازل المختلفة ذات البناء القديم والمميّز .

شمالي المدينة وعلى مسافة بسيطة ، تقع قرية الصالحية الجميلة القائمة عند سفوح الجبل المعروف باسم «قاسيون» . طرقات الصالحية محاطة بالأشجار الوارفة ، وتخترقها مجاري المياه الصافية والعذبة . تعتبر هذه القرية ملاذاً للهاربين من حرّ دمشق وغبارها وضجيجها . وخلال دقائق يمكن الوصول منها الى قمة الجبل المطّل على المدينة ومحيطها .

جنوبي دمشق تقع المقابر المعروفة باسم «الميدان» ، وهي قائمة وسط قرية يقصدها بدو الصحراء والرعاة والأكراد والقوافل الآتية بالقمح من حوران . في تلك المدافن توجد قبور السيّدة فاطمة واثنتين من نساء النبي ، عليه الصلاة والسلام ، كما يقال ، وترتفع فوقها قبب مبنيّة حديثاً من الدبس والأرجيل ، أما زيارة داخل هذه المدافن فتبقى محظورة .



الأمير عبد القادر الجزائري
في دمشق
رسم روبُجا
عن صورة فوتوغرافية .

عند طرف القرية باب قديم بناه الخليفة الأموي معاوية ، ويعرف باسم باب «قيسان» ، وقريباً منه ضريح يقال انه يضمّ رفات القديس «جورج» ، وهو ذات مكانة رفيعة عند مسيحيي المنطقة . في الجوار ايضاً مساجد جميلة من الحجارة البيضاء والسوداء ترتفع فوقها القبب والمآذن الجميلة ، وتضم رفات أمراء الفتح الاسلامي ، ابي عبيدة ابن الجراح وعائلته .

النزهة في شوارع الميدان وساحاتها وأزقتها الضيقة جميلة وممتعة ونتعرف خلالها الى أهالي حوران والصحراء السورية الكبرى ، الآتين مع عائلاتهم أو مع القوافل ، حاملين معهم غلالهم ومحاصيلهم المختلفة من قمح وجلود حيوانات وغزلان وقطعان خراف، يقودها الأكراد .

وهم غالباً ما يحملون معهم اسلحتهم من بنادق طويلة ذات فتائل ورماح وخناجر ومسدسات مطعّمة بالفضة «طبنجات» .



مطرة خزفية زرقاء اللون

شرقي دمشق ، على الضفة اليمنى لنهر بردى ، يقع بناء قديم وجميل يعرف باسم «التكيّة» ، وكان قد بناه السلطان سليم عام ١٥١٦م كي يكون مستشفى وملجأ لفقراء الحجاج . إنه عبارة عن مربّع ضخم تحيط به الأسوار ، وتحيط بمدخله منازل بسيطة يقيم فيها «الدراويش» ، وفي وسطه ساحة كبيرة تحيط بها أشجار الجوز الضخمة . في الجهة الخلفية قاعات وغرف تغطيّها القبب وتستخدم كمحلات ومخازن ، كما يقيم في بعضها «الجركس» وغرباء

آخرون . المسجد هناك ذو زينة ونقوش وزخارف غنية ، ترتفع فيه أعمدة قديمة ، وعند كل من طرفيه ترتفع مئذنة رائعة .

في المباني المحيطة «بالتكيّة» يمكن مشاهدة الحفلات التي يقيمها الدراويش حيث يؤدون رقصات الدوران الشهيرة وهم يرتدون الملابس الطويلة الفضفاضة .

في جوار دمشق ، قرب قرية دمّر ، نذهب لزيارة المقرّ الذي يقيم فيه الأمير عبد القادر الجزائري ، والقائم عند ضفاف بردى بين الحقول والبساتين الخضراء والأشجار الوارفة .

اثر هذه الزيارة ، وبعد معالجتنا لأحد أبناء الأمير ، أهدانا رسمه اعترافاً منه بحسن الصنيع .

تاريخ دمشق قديم جداً ويتصل بأعمق الحقبات القديمة التي عرفتها الإنسانية ، والعرب محقّون حين يقولون إنها من أقدم مدن الدنيا ذلك ان موقعها في تلك الواحة الخضراء الكثيرة المياه وسط الصحاري الممتدّة والجبال الوعرة جعل منها مقصداً للبشر منذ أقدم حقبات التاريخ .

وهي كغيرها من المدن القديمة تعرّضت للكثير من الصروف والظروف المختلفة وتتابعت عليها الحروب والزلازل والعمران والدمار .

عام ١٤٠١م تعرّضت دمشق للدمار وذلك على يدي تيمورلنك وجيوش التتار . ذاك الغازي المدمّر الذي لم يحفظ الحياة إلاّ لصانعي السلاح والخزافين الذين كانوا يصنعون آنية خزفية ذاع صيتها وفاقت في جودتها ما كانت تنتجه بلاد فارس وسمرقند .

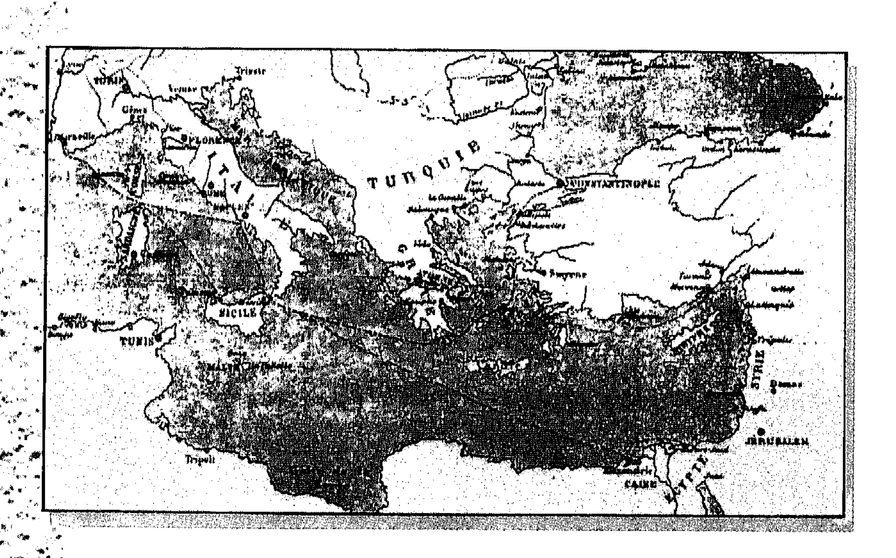


راقصة وعازفة من دمشق



تكية الدراويش في دمشق – رسم كابناتي – عن صورة فوتوغرافية

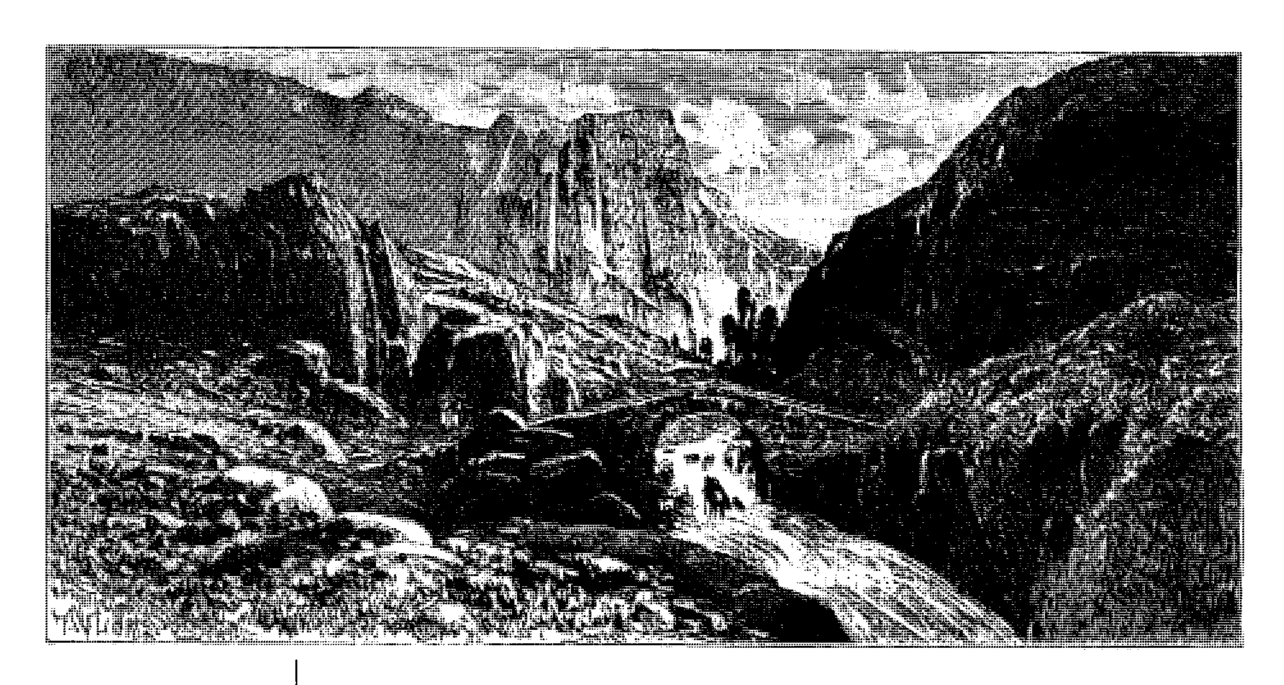
الفصل الواحد والعشرون



بعلبك

بعد زيارة دمشق ومواقعها الأثرية وبعض ضواحيها الجميلة نغادرها باتجاه بعلبك . بعد المرور بقرية دمّر نصل الى مضيق مقفر تقع قربه قرية صغيرة تعرف باسم سوق وادي بردى ، حيث نقضي الليل .

في اليوم التالي نتابع الطريق على الضفة اليمنى لبردى ثم نعبر الى الضفة اليسرى فوق جسر قديم يقوم فوق قنطرة واحدة . ثم تنطلق الطريق عبر سهل الزبداني الذي يُشرف عليه غرباً جبل الزبداني الذي تصل قمته الصخرية الى حوالي ألفي متر ، في حين ترتفع شرقاً قمم الجبل الشرقي ، وأعلاها جبل بلودان البالغ الفين وثلاثة وسبعين متراً . على ارتفاع ثلاثماية متر من الزبداني تقع قرية بلودان الجميلة التي تعتبر مصيفاً ومركزاً للنقاهة للهاربين من حرّ دمشق ، لا سيما الأوروبيين منهم . شمالي الزبداني تتجه الطريق صعوداً نحو قمة عالية تشرف عليها يميناً ويساراً قمم مرتفعة مكسوّة بالثلج . من ذاك الارتفاع نطلّ على منظر رائع لحرمون ، وهناك نجتاز الخط الفاصل ما بين أحواض الليطاني المتجهة مياهها نحو مصبّها في البحر المتوسط قرب صور ، وأحواض بردى التي تصب في البرك المختلفة شرقي دمشق .

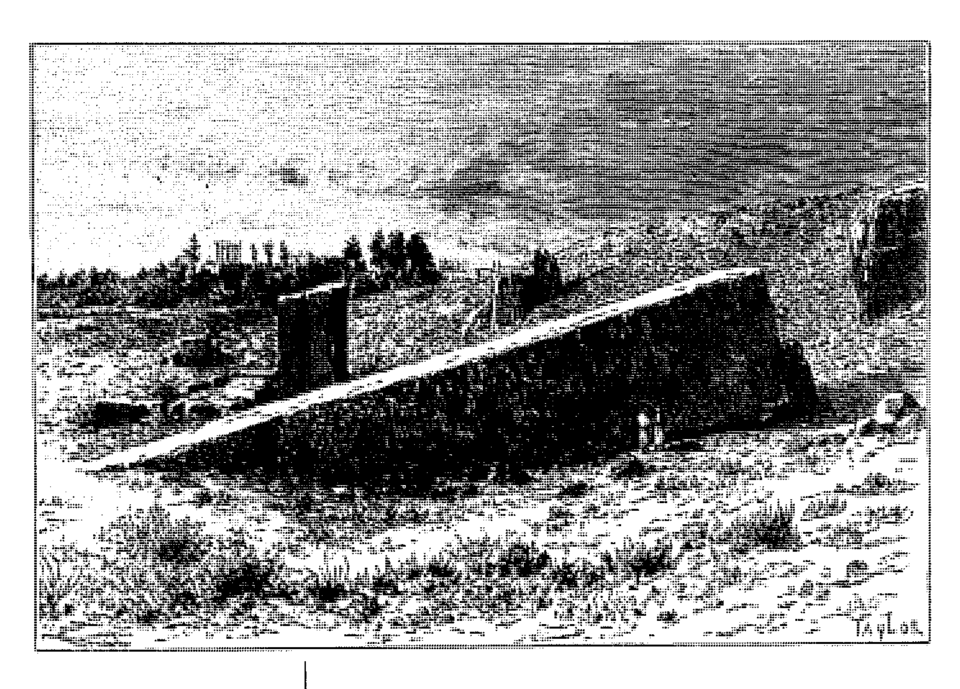


جسر فوق قرية «سوق وادي بردى»

بعد المرور بقرية «سرغايا» على ارتفاع الف وثلاثماية وسبعين متراً ، تستمرّ الطريق جبلية وعرة وصولاً الى قرية «يحفوفة» القائمة على ضفة النهر المعروف باسم «يحفوفة» أيضاً ، وهناك نقضي الليل استعداداً لمتابعة الرحلة نحو بعلبك .

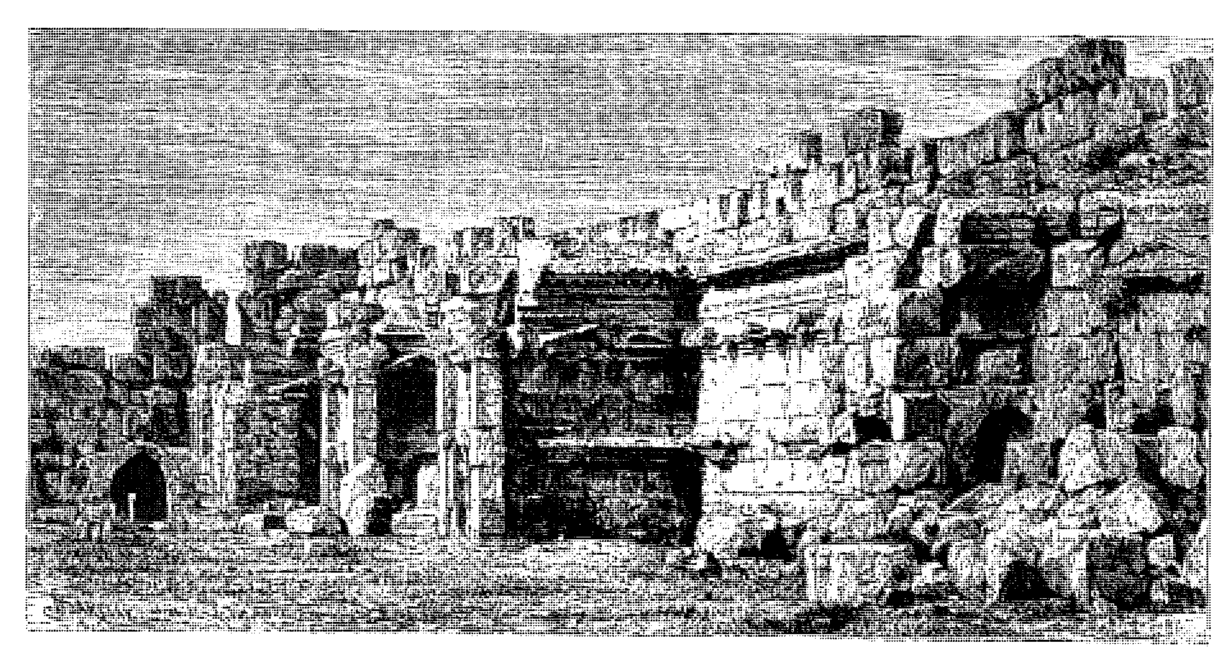
في صباح اليوم التالي نعود أعقابنا الى الوراء لمسافة بسيطة ثم نتجه شمالاً عبر طريق وعرة تنحدر عبر السفوح الجبلية الصخرية ، مروراً بهضبة جرداء تكاد تخلو من المزروعات ، ثم تنحدر الطريق عبر وادي «شابات» وصولاً في طرفه الآخر الى حيث نشرف على بعلبك وسهل البقاع الأخضر الذي تمتد في جهته الشرقية سلسلة جبال لبنان بقممها العالية المكللة بالثلوج . تمر الطريق الى بعلبك وسط المقالع القديمة الواقعة الى الجنوب من القرية وتصل الى القلعة عبر نفق تحت الأرض يؤدي مباشرة الى داخل الهيكل الكبير حيث نقيم مخيمنا .قد تكون آثار بعلبك وهياكلها وأعمدتها أجمل ما يمكن ان يوجد على الكرة الأرضية ، وتاريخها متصل بأعمق حقبات التاريخ وأكثرها قدماً ، لذلك ما تزال حلقاته شبه مجهولة في معظمها .

ويحتمل أن «هليوبوليس» كما عرفها اليونان ، كانت مشهورة بمعابدها المكرّسة للآلهة القديمة المزعومة الشمس و«فينوس» . كما ان هذه المدينة كانت تتمتع بموقع هام جداً كونها تقع قرب الطرقات الرئيسية التي تصل دمشق بحمص وحماه وحلب وبغداد وبلاد فارس من جهة وبشواطىء البحر المتوسط من جهة أخرى .



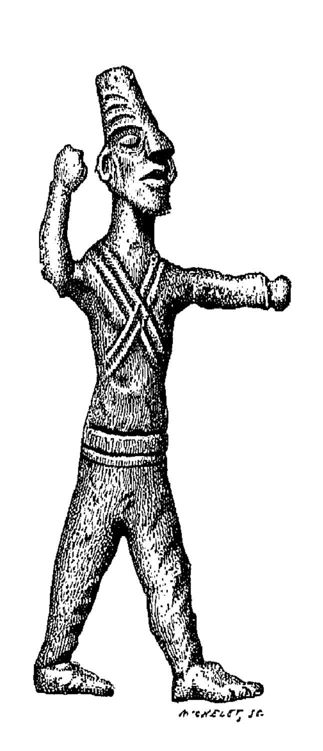
حجر الحبلى في بعلبك
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .

من الأحداث المعروفة ان الناسك الورع «انطونين» أشاد في بعلبك هيكلاً ضخماً لتكريم «جوبيتير» وربما لتكريم جميع الآلهة المزعومة آنذاك . وقد اشتهر هذا المعبد كثيراً وعرف باسم «تريليتون» بسبب الحجارة الثلاثة الضخمة المكوّنة للقاعدة .



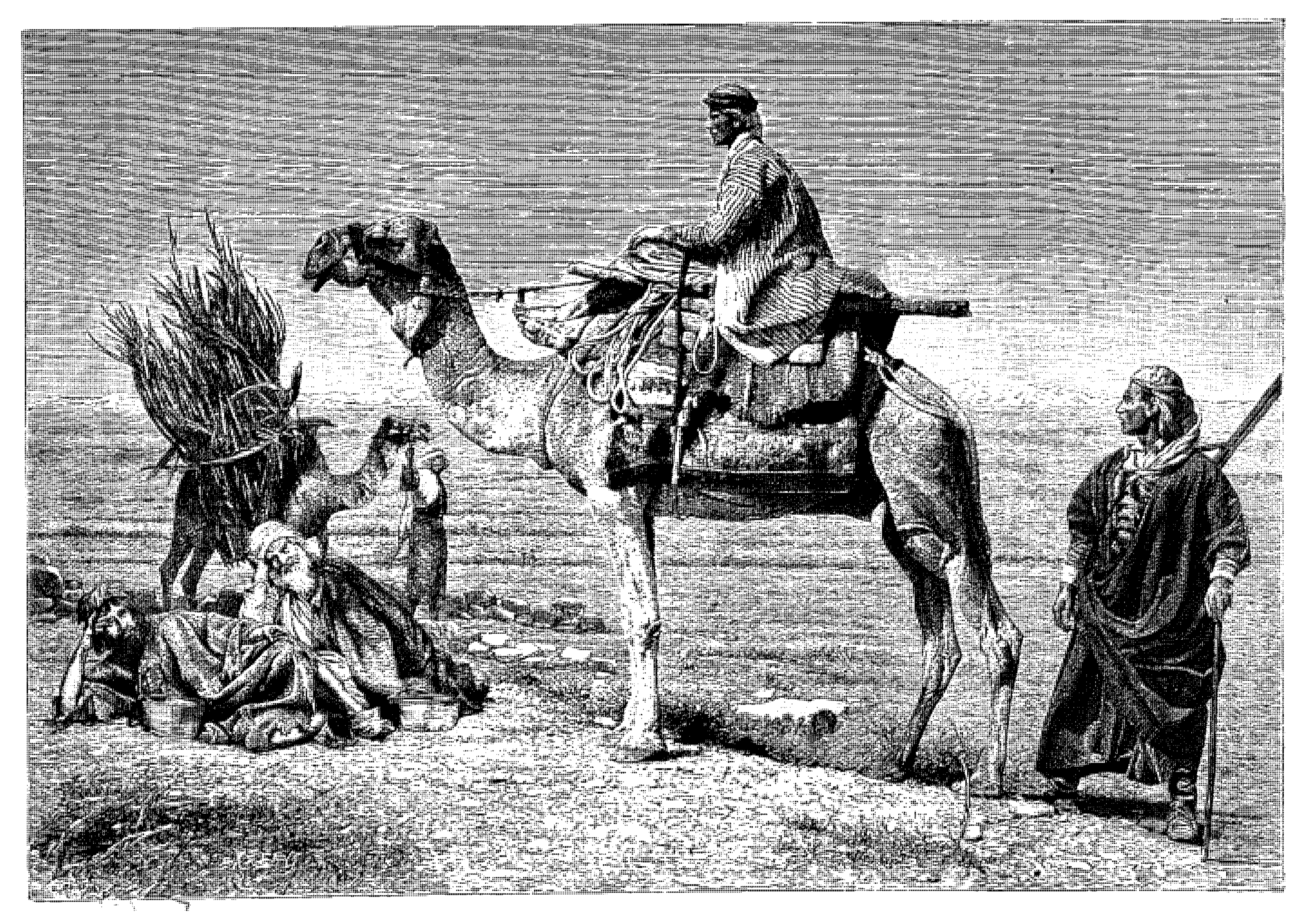
باحة المعبد الكبير في بعلبك
رسم باركلي
عن صورة فوتوغرافية .

حوّل «قسطنطين» أحد المعابد الى كنيسة ، وقام «تيودوس» بهدم أكبر الهياكل وأوسعها . عرفت بعلبك في تاريخها مراحل مختلفة بعضها مستقرّ هادىء وبعضها الآخر مضطرب حمل معه الهدم والخراب . وحين مرّت فيها جيوش الفتح الاسلامي في طريقها من دمشق الى حمص بقيادة ابي عبيدة ابن الجرّاح تعرّضت بعلبك للخراب وأقيمت على أنقاض بعض الهياكل مساجد بنيت سريعاً . عام ١٢٦٠م سيطر «هولاكو» على بعلبك ، وبعده بمئة وخمسين عاماً جاء «تيمورلنك» . ثم دخلت هذه المدينة في غياهب التاريخ حتى أواسط القرن السادس عشر حين عاد الرّحالة الى نفض الغبار عن تلك المواقع الأثرية الرائعة فإذا بها تدخل من جديد دائرة الاهتمام العالمي ، ثم قامت الحملات الصليبية عام ١٧٧٦م بقيادة «ريمون» كونت طرابلس ،ثم «بودوان» الرابع . كلمة بعلبك (بعل بك) تعني هيكل «بعل» أو منزله ، وهو أقوى الآلهة المزعومة . كانت هذه المدينة مستعمرة فنيقية قديمة أقامها الفنيقيون على طريق وادي الفرات . وتزعم

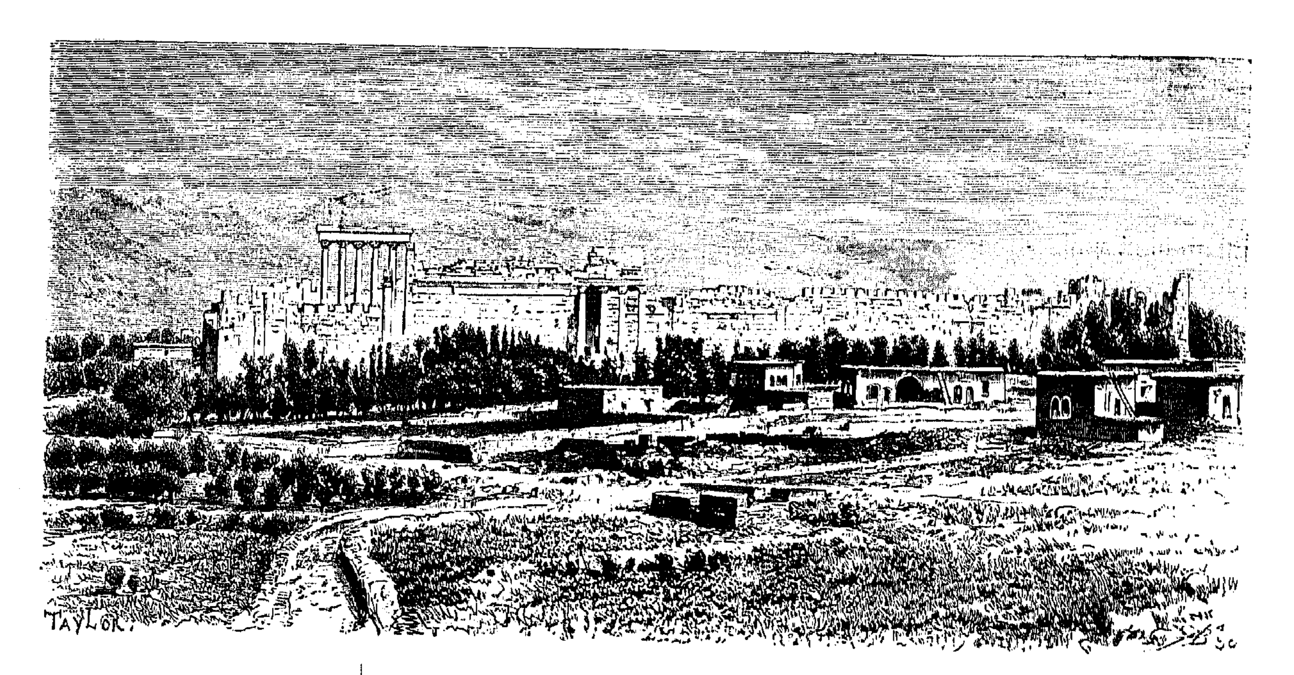




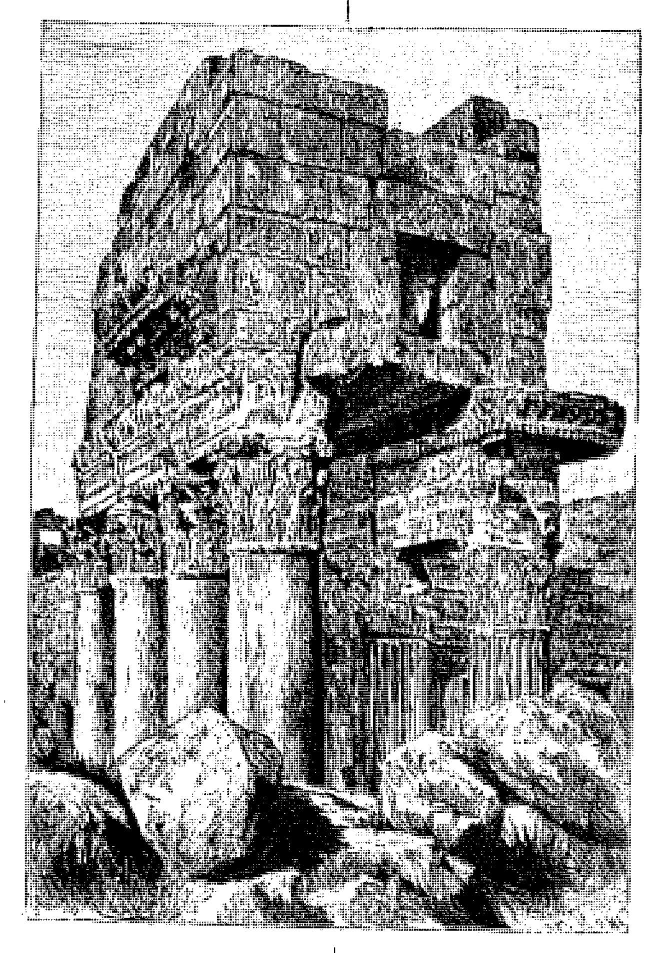
تماثيل فينيقية من البرونز
والفضة في بعلبك



سهل البقاع وعرب بعلبك – رسم رونجا – عن صورة فوتوغرافية .



قلعة بعلبك من بعيد

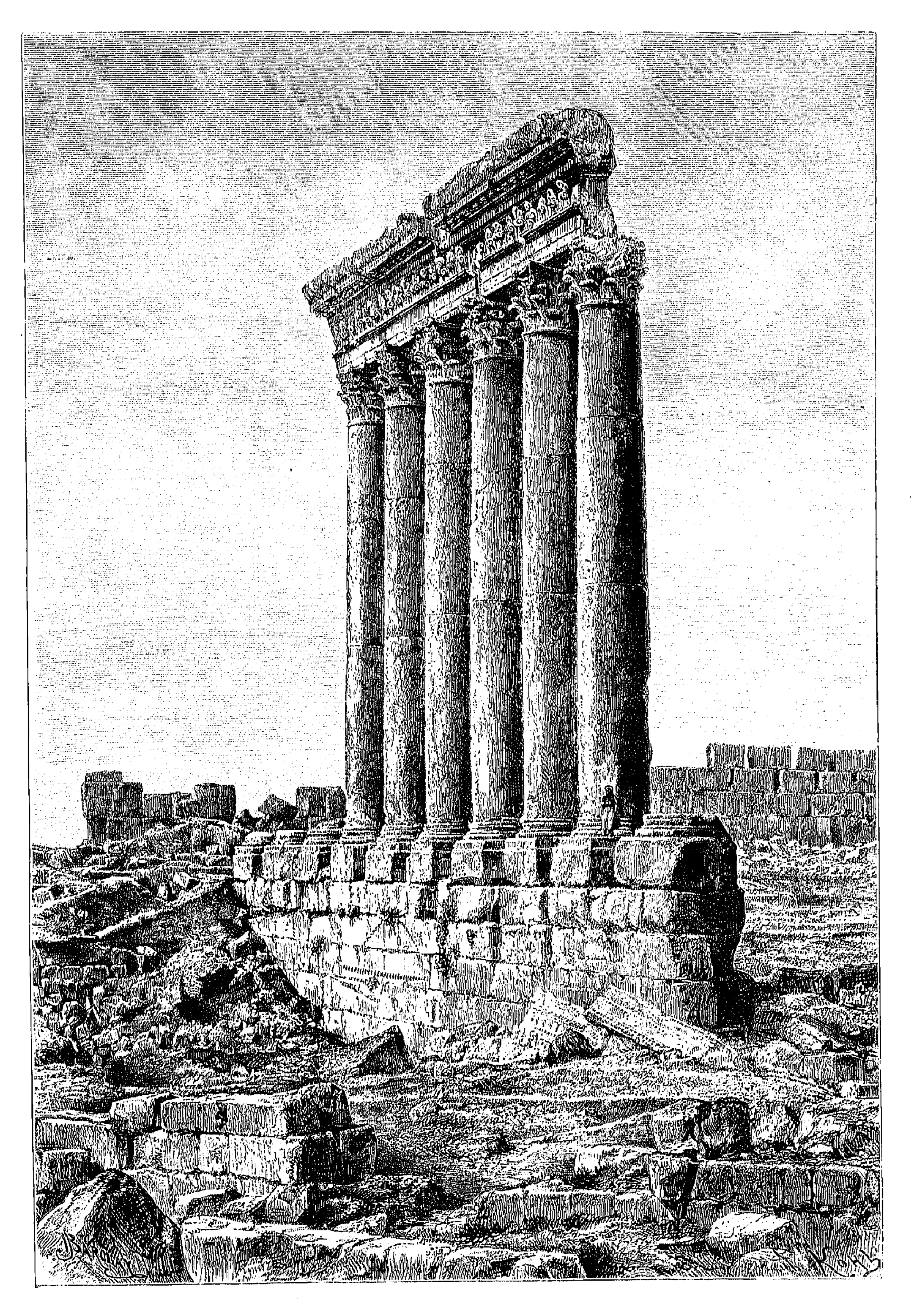


أعمدة مقدمة الهيكل

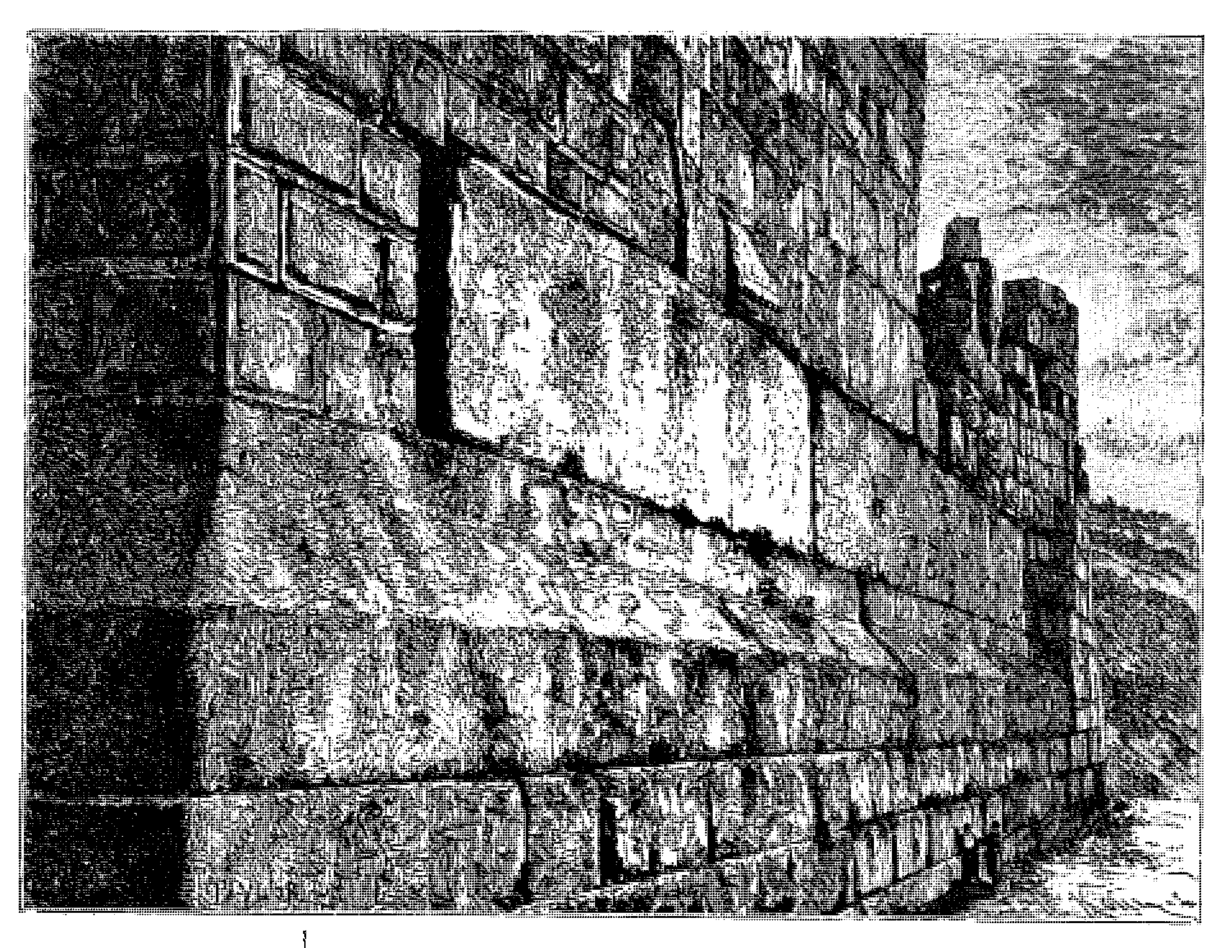
الأساطير العربية ان الملك سليمان هو الذي أنشأ بعلبك ، ولكن ليس هناك ما يثبت هذه الرواية مع ان الحجارة والمواد المستعملة في بناء جدران القلعة تشابه في ضخامتها البالغة تلك التي نجدها في قواعد هيكل سليمان في القدس . ولكن هذا لا يثبت شيئاً لأن الفينيقيين الذين ارسلوا عمالهم للمشاركة في بناء هيكل سليمان كانوا قادرين على استخدام اسلوب البناء نفسه في تنفيذ معابدهم وهياكلهم .

في الحدائق المحيطة بالقلعة كثيراً ما نجد تماثيل صغيرة وغريبة الشكل وتدل على نوع من الفن البدائي . انها في معظمها من البرونز ، وبعضها من الفضة ، وهي شكل من أشكال النذور الفينيقية التي نجد ما يماثلها في صور وصيدا وجزيرة أرواد .

تقع أهم آثار بعلبك على مرتفع من الأرض يشبه «الأكروبول» في أثينا ، ولكنه أقل ارتفاعاً منه وهو مصطنع بكامله وليس قائماً على صخرة أوجدتها الطبيعة . هذا المرتفع عبارة عن جدران هائلة مبنية من أضخم الحجارة التي عرفتها الانسانية ، وفوقها تنتصب بجلال المعابد



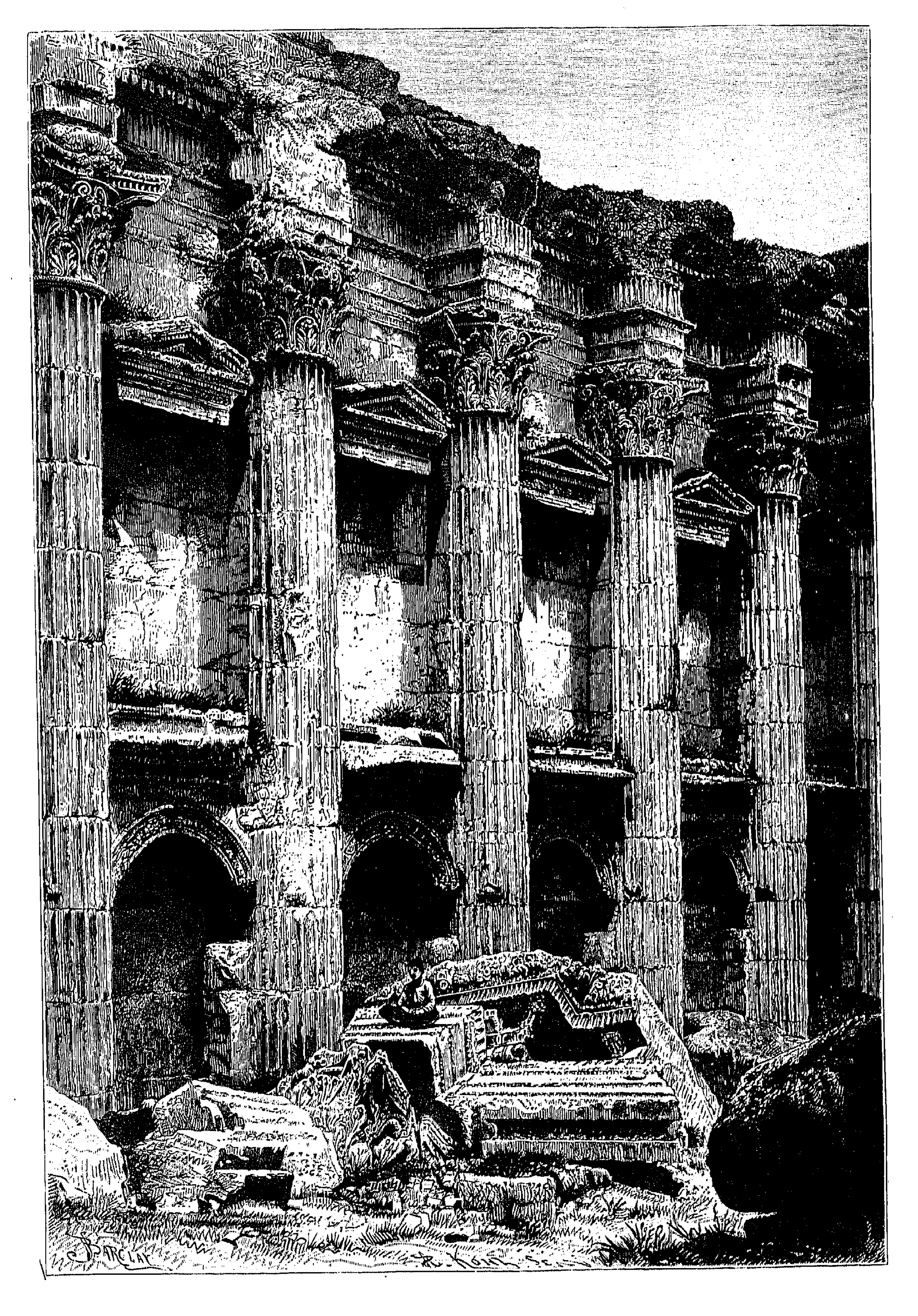
أعمدة المعبد الكبير في بعلبك - رسم باركلي - عن صورة فوتوغرافية.



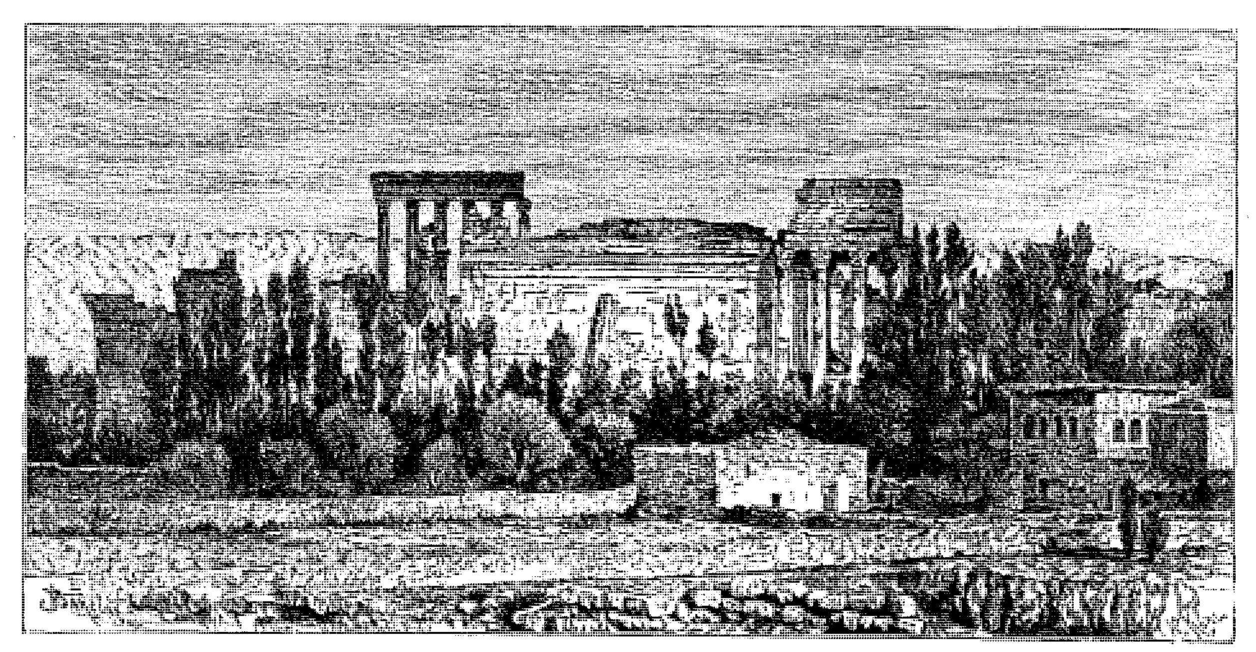
الأحجار العملاقة في أحد جدران قلعة بعلبك

والهياكل . شمالي الأسوار نجد حجارة يبلغ طول بعضها تسعة أمتار ، وهي تبدو صغيرة بالمقارنة مع حجارة الجدران الغربية حيث نجد ثلاثة قطع حجرية شديدة الضخامة موضوعة على قواعد صخرية متوسطة الارتفاع ، ويبلغ الواحد منها تسعة عشر أو عشرين متراً طولاً وأربعة أمتار ارتفاعاً ومثلها عرضاً . وليس من السهل إدراك كيف أمكن نقل هذه الكتل الضخمة ورفعها الى تلك المستويات ، وهي التي يبدو الانسان الى جانبها بحجم النملة . في الجهة الشرقية ما تزال توجد آثار سلّم عريض كان يؤدي مباشرة الى الهيكل الكبير . أما اليوم فتوجد ثغرات عديدة تؤدي الى الداخل ، إضافة الى نفق تحت الأرض يسمح بدخول الخيل ، ويبدو ان الرومان هم الذين نفّذوه واستخدموا في بناء عقده وجوانبه حجارة هياكل أكثر قدماً .يتصل هذا النفق لجهة اليسار بقاعة مربّعة وبنفق آخر ذي منافذ عديدة مسدودة بالجدران . وعبر احدى النوافذ نصل الى غرفة مزدانة بمجموعة من الكوّات الجميلة .

من الأكيد ان هذا الجزء من القلعة جدير بأعمال بحث وتنقيب دقيقة وهذا سيؤدي دون شك الى الكشف عن آثار وحقائق جديدة وهامة . منذ زمن غير بعيد جرى اكتشاف تمثال لامرأة ولكنه دون رأس لسوء الحظ ، وهو يدلّ على فنّ راق ودقيق .



المعبد الصغير في بعلبك (من الداخل) - رسم باركلي - عن صورة فوتوغرافية.

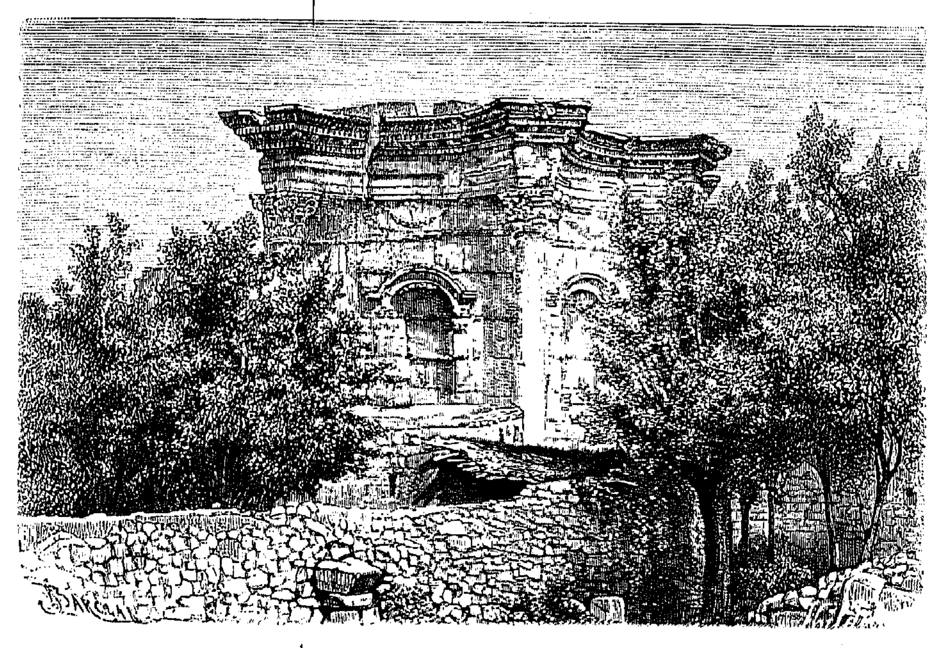


المعبد الصغير في قلعة بعلبك

تؤدي الفجوة المفتوحة في السور الشرقي الى باحتين تنتهيان الى الرواق الأمامي للهيكل الأول الذي يرتفع فناؤه ستة أمتار عن مستوى الحدائق المحيطة بالقلعة .

كان هذا الرواق مزداناً باثني عشر عموداً ما تزال قواعدها موجودة وتحمل كتابات تدل على ان البناء قد تمّ مع الناسك «انطونين» و «جوليا دومنا» . عند كل جانب برجان يضمّان قاعات مربعة ذات كوّات وعمد صغيرة . في عمق الرواق ثلاثة أبواب اثنان منهما مسدودان ، أما الثالث فيؤدي الى باحة واسعة تبلغ مائة وخمسة وثلاثين متراً عرضاً ، وتحيط بها مجموعة من العمد الصغيرة المربعة والكوّات الجميلة النقوش والتي كانت تضمّ التماثيل .

عبر ثغرة واسعة يمكن الوصول الى بقايا الهيكل الكبير وهي



المعبد الدائري في قلعة بعلبك

عبارة عن دعائم حجرية مختلفة وخربة . أهم ما فيها أعمدة ستة ما تزال منتصبة ، وهي لضخامتها يمكن مشاهدتها من أطراف البقاع والجبال المحيطة ، ويبلغ ارتفاع الواحد منها تسعة عشر متراً بقطر مترين ، كما انها ما تزال مترابطة عبر جسر ، أو إفريز ، يصل ما بين تيجانها المزدانة بنقوش رائعة . يتكوّن كل عمود من ثلاثة أجزاء متصلة بكلابات ، أو مسامير ، ملحومة بالرصاص .

على مسافة قريبة جنوباً يقع الهيكل الصغير وهو عبارة عن نصب رائعة ما تزال محافظة على حسن تماسكها . كان مدخل هذا الهيكل قائماً في الجهة الشرقية ، أما السلالم المؤدية اليه فهي قد تكون ما تزال موجودة تحت الأسوار السيئة البناء التي أقامها الأتراك ، ويحيط به رواق من الأعمدة . أمام المدخل المسقوف صفان آخران من الأعمدة ، يبلغ ارتفاع الواحد منها أربعة عشر متراً ، وفي أعلاها تيجان وإفريز ذات نقوش رائعة .

جرن الكبة مع مدقته

خارج الهيكل ، وسط الحدائق ، يقوم هيكل صغير يعرف باسم الهيكل أو المعبد الدائري . الافريز عبارة عن أقواس تستند عند زوايا ترابطها على اعمدة جميلة ، وفي الجدران كوّات تعلوها نقوش تمثّل حبالاً من الأزهار . عند قاعدة هذا الصرح مجرى مائي غزير تظلّله الاشجار ، وتجري مياهه في أقنية مؤدية الى خزانات قديمة .

على مسافة كيلومتر واحد شرقي بعلبك ، عند سفح الهضبة ، تمرّ الطريق الى الزبداني قرب المقلع الصخري الذي استخدمه القدامى لاقتلاع الحجارة الهائلة الأحجام المستخدمة في بناء جدران القلعة ، والتي لا يزال بعضها في مكانه .

من هذه الحجارة كتلة ضخمة ، يسمى حجر «الحبلى» وربما أضخم الكتل على الاطلاق ، جاهزة للنقل وتبلغ واحداً وعشرين متراً وخمسة وثلاثين سنتيمتراً طولاً ، واربعة أمتار وثلاثة وثلاثين سنتيمتراً ارتفاعاً ، وأربعة أمتار عرضاً . يقدّر حجم هذه الكتلة الصخرية الضخمة بثلاثماية وسبعين متراً مكعباً ، وقد يصل وزنها الى ثلاثين ألف طن . وإذا استطعنا تصوّر طريقة ما لجرّ هذه الكتلة ، أو ما يماثلها ، لمسافة كيلومتر ، فلن نفهم أبداً تمكّن القدامى من رفع هذه الأوزان لوضعها في أماكن قد تعلو عشرين متراً .



الممر الجبلي عند بحيرة المنيطرة «الجيا»

من الملاحظ أن قلعة بعلبك ما تزال خالية من المساكن والبيوت . حتى الرعاة نجدهم يتفادون المجيء بقطعانهم للرعاية داخلها . قد يكون مردّ ذلك الى تلك الروايات والأساطير التي منها أن الملك سليمان ، تعاونه قوى الجان ، هو الذي نقل تلك الكتل الهائلة لبناء القلعة . . .

آثار بعلبك وقلعتها وهياكلها جديرة بأن تصنّف بين أروع ما عرفه التاريخ البشري وأكثرها أهمية وعظمة ، وليست مجرّد آثار عائدة الى عصور الانحطاط كما يدّعي بعضهم . نغادرها آسفين لعدم تمكننا من البقاء فيها ما يكفي للاحاطة ببعض أسرار عظمتها . نخرج من القلعة عبر النفق وننطلق عبر سهل البقاع باتجاه سلسلة جبال لبنان . وبعد أقل من ثلاث ساعات نعبر قرية «دير الأحمر» الفقيرة وصولاً الى السفوح الأولى للجبال المغطاة بغابات كثيفة من أشجار السنديان .

هناك نمرّ بكنيسة صغيرة يقيم فيها راهب ماروني مع ابنته المنصرفة الى ضرب اللحم في جرن حجري لتحضير الوجبة اللبنانية الشهيرة والمعروفة باسم «كبّة» . بعد تلك الهضبة تنحدر الطريق باتجاه قرية «عين عطا» ، ارتفاعها الف وثمانماية متر ، والتي يقع الى يسارها في منخفض آخر بحيرة جميلة تعرف باسم «بركة اليمونة» ، منازل «عين عطا» حجرية بسيطة وقليلة الارتفاع ، ولا يتجاوز عدد سكانها ستين نسمة من الموارنة . قرب هذه القرية يجري نبع ماء عذب نقيم قربه خيامنا لقضاء الليل .

مع ساعات الصباح الأولى ننطلق صعوداً عبر طريق صخرية وعرة وسرعان ما نجد أنفسنا وسط الحقول الثلجية الباردة ، وصولاً الى القمة الجبلية المعروفة باسم جبل الأرز لنطلّ من هناك على منظر رائع لوادي قاديشا الممتد نزولاً حتى طرابلس .

ولكن ونظراً لكثافة الثلوج نجد انفسنا عاجزين عن متابعة الطريق ، التي لم تعد موجودة ، حتى اننا لم نتمكّن من الوصول الى اشجار الأرز الشهيرة لمشاهدتها عن قريب . نعود أدراجنا الى «عين عطا» ثم الى تلك الكنيسة المنعزلة حيث يعرض علينا الراهب مرافقتنا لارشادنا الى معبر نستطيع بواسطته اجتياز قمة الجبل .ننطلق من «عين عطا» عبر واد وعر على ضفاف بركة اليمونة الجميلة المحاطة شرقاً بصخور عالية شديدة الانحدار . على ارتفاع عشرة أمتار مغارة يخرج منها نبع ماء غزير تسقط مياهه



نهر الفيدار
وسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية .

فوق الصخور لتكوّن مجرى مائياً تتجمّع مياهه مكوّنة تلك البحيرة التي نشاهد في قاعها الصافي والعميق بقايا أعمدة وتيجان وأفاريز تحول قوة المياه دون معاينتها عن قرب . كما تعيش في تلك البحيرة أسماك كثيرة يجري اصطيادها صيفاً مع انخفاض مستوى المياه لتصديرها الى شتى أرجاء المنطقة وقراها .

عند الطرف الجنوبي للبحيرة تنطلق الطريق عبر هضبة تغطيها أشجار السنديان الضخمة ، ثم نعبر ممراً جبلياً يؤدي الى واد ينتهي الى بحيرة جميلة اسمها على الخريطة «لجنيا» ويعرفها سكان المنطقة باسم «المنيطرة» ، تبلغ كيلومتراً طولاً وخمسماية متر عرضاً ، مياهها صافية لا أسماك فيها بل ضفادع وثعابين مائية تهرب لدى الاقتراب منها .

نتابع الطريق الوعرة عبر المسالك الجبلية وسط الثلوج المتكاثفة شيئاً فشيئاً وصولاً الى القمة على ارتفاع الفين وثلاثماية وخمسة وعشرين متراً . عند هذه القمة يعود دليلنا الراهب أدراجه لنتابع سيرنا غرباً عبر واد صعب المسالك تغمره الثلوج المتضائلة مع انحدارنا على هذا السفح الغربي من جبال لبنان .

بعد ذلك نعبر الطريق في غابة كثيفة من أشجار العرعر وصولاً الى بداية وادي نهر أدونيس ، او نهر ابراهيم ، لنشرف من هناك عبر الأفق على مياه البحر المتوسط .

نجتاز الغابة ونتجه شمالاً ملتفيّن حول الجبل ثم نجتاز النهر فوق صخرة ضخمة كوّنت جسراً طبيعياً ، وصولاً الى قرية العاقورة حيث نقيم مخيمنا .

العاقورة قرية كبيرة تكثر فيها أشجار الجوز والتوت والأشجار المثمرة المختلفة . كما تزدهر فيها تربية دود القز ممّا يؤمن لها انتاجاً مهماً من الحرير .

في اليوم التالي نتابع طريقنا نزولاً في الوادي . بين العاقورة وقرطبا نمرّ بهيكل صغير يوناني - فينيقي يعرف لدى سكان المنطقة باسم «مغريرة» ، انه يبلغ ثمانية امتار طولاً وأربعة أمتار عرضاً . عند مدخليه بعض النقوش وليس في داخله سوى بقايا أعمدة وأفاريز . ويبدو ان سكان المنطقة يقتلعون من حجارته لاستخدامها في بناء منازلهم . في قرطبا نتمكّن من الحصول على قطعة قديمة ، أو أيقونة ، صنوبرية الشكل صغيرة وتعود الى أيام الفينيقيين . الرسم المنقوش عليها يمثّل رجلاً يمسك بكبشين يقفان على القوائم الخلفية .

من قرطبا نتابع الطريق نزولاً باتجاه الشمال الشرقي وسط الغابات وصولاً الى ممر جبلي ضيق ما تزال تحيط به بعض طبقات الثلوج ، لنصل بعد ذلك الى نهر «الفيدار» بمياهه الغزيرة التي تتخذ ، مع غيرها من مياه وادي نهر ابراهيم ، لوناً أحمر ناتجاً عن ذوبان الصخور الأرجيلية ؛ هذا اللون الأحمر كان في الماضي

موضوع اسطورة طريفة تتحدّث عن ان دماء «أدونيس» الذي مات في تلك الغابات صبغت المياه بلونها الأحمر !

نجتاز الوادي والنهر ونتابع صعوداً عبر جبل آخر تغطيه الغابات وصولاً الى قرية جميلة تعرف باسم «اهمج» وقربها نقيم مخيمنا لقضاء الليل . في اليوم التالي نتابع الطريق وسط الصخور باتجاه الشمال الغربي وصولاً الى قرية «لحفد» ، ثم عبر واد مقفر حتى قرية «حاقل» ومنها نزولاً حتى جبيل ، أو بيبلوس الواقعة على الشاطىء وسط خليج جميل من خلجان البحر المتوسط .

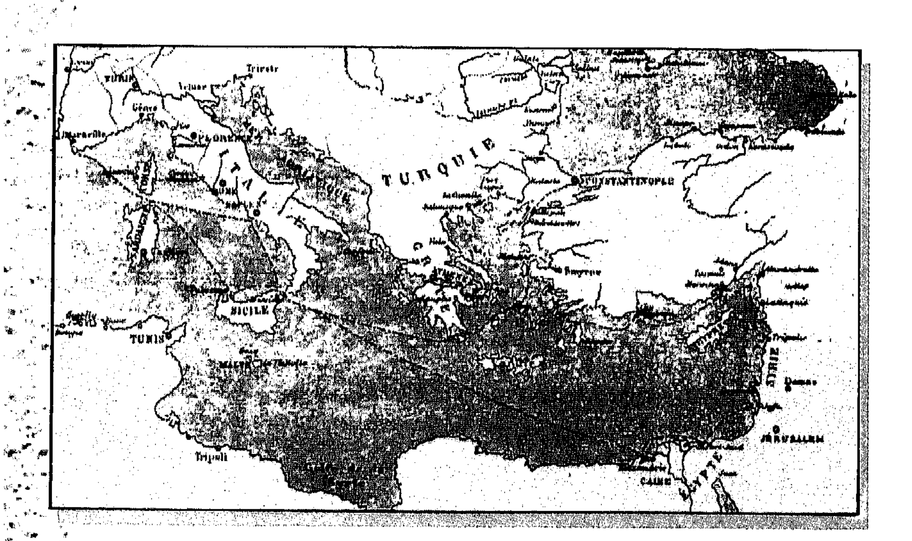


ايقونة من قرطبا
رسم للمؤلف



أرز لبنان

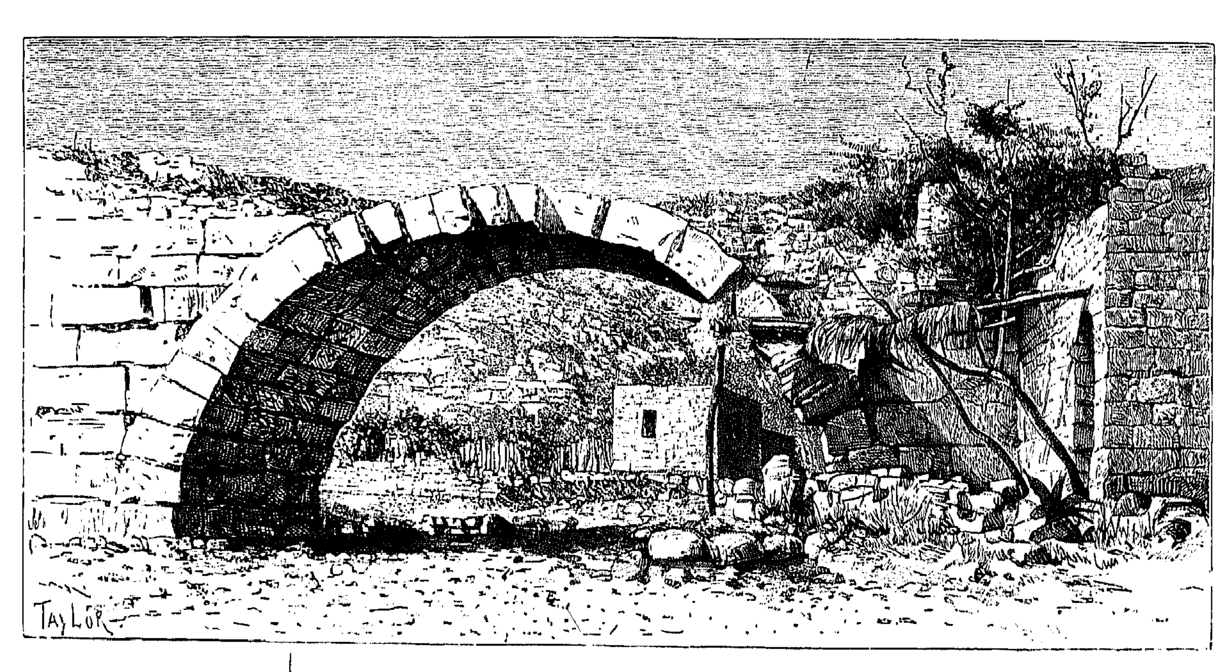
الفصل الثاني والعشرون



من جبيل الى بيروت

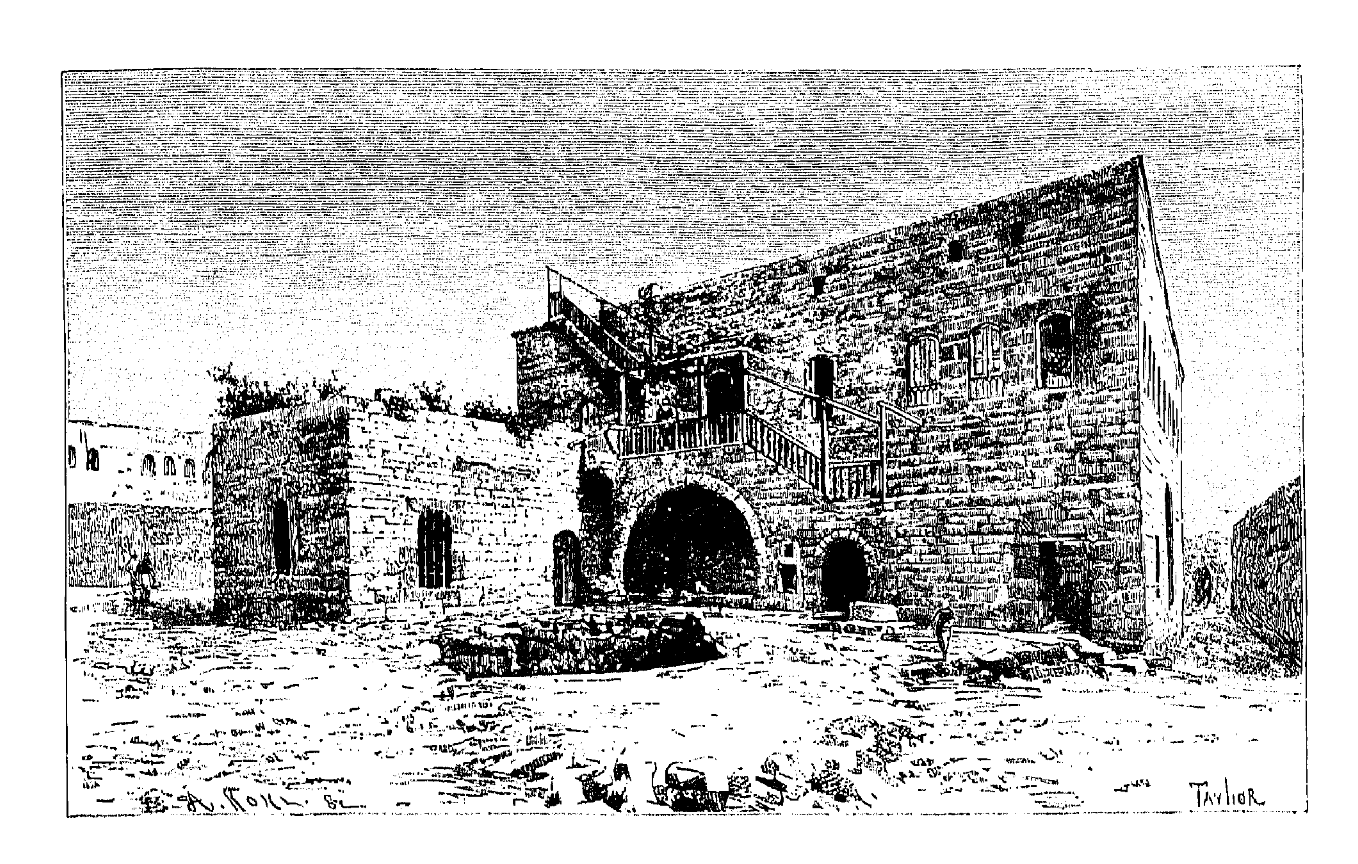
في جبيل نقيم مخيمنا خارج الأسوار قرب القلعة القديمة عند الطرف الجنوبي للمدينة . إنها «بيبلوس» كما عرفها اليونان ، مدينة البحّارة الشجعان والبنائين المهرة الذين ساهموا مع الملك سليمان في بناء هيكله الشهير في القدس .

جنوبي جبيل تقوم قلعة قديمة توحي بعض أجزائها بأنها شديدة القدم ، وهي ما تزال ذات رونق يوحي بالإعجاب على الرغم مما حلّ بها من خراب ومّما أقيم حولها من أبنية . حجارة أحد الأبراج ذات أحجام كبيرة تتراوح ما بين خمسة أمتار وستة ، لا سيما عند القاعدة ، وهي تذكّر بدعائم هيكل سليمان . ولكن الباحث والرحالة «رينان» والذي سبق له ان أقام طويلاً في عمشيت قرب جبيل ، واثق من



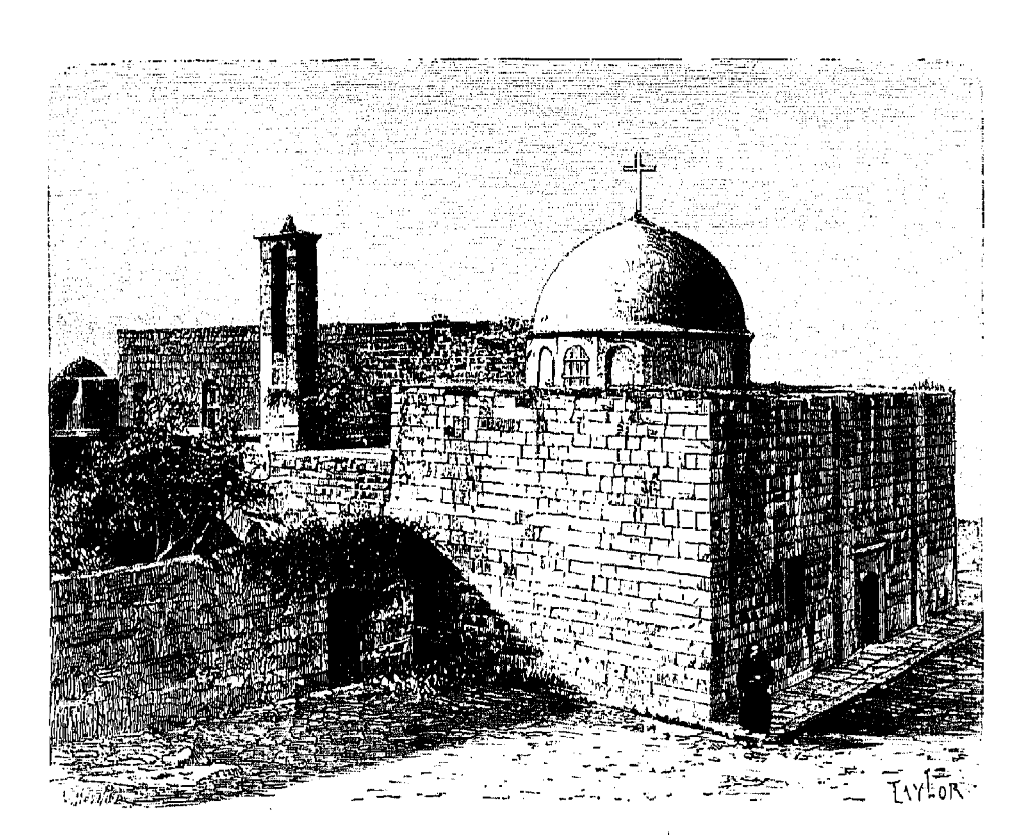
جسر روماني في المعاملتين
رسم لتيلور .
عن صورة فوتوغرافية

أن هذا البرج ، الذي صمد أمام مدافع الانكليز في حملتهم ضد ابراهيم باشا ، قد بني في العصر الاسلامي من مواد وحجارة مأخوذة من أنقاض قديمة ، وان فيه قاعات توحي بالهندسة الإسلامية .



منزل «رينان» في غزير
رسم لتيلور - عن صورة فوتوغرافية .

في أسواق جبيل القديمة أو «البازار» وفي أزقتها الضيّقة نشاهد العديد من أعمدة الغرانيت الجميلة المنقولة من مصر ، وهي على ما يبدو من بقايا حطام الهياكل والصروح الفينيقية القديمة . في هذه المدينة القديمة كنائس هامة جديرة بالاهتمام ، في طليعتها كنيسة القديس يوحنّا التي يعود بناؤها الى القرن الثاني عشر ، وكنيسة القديسة تقلا ، ثم كنيسة السيدة العذراء التي تمّ بناؤها عام ١٢٦٤م .



كنيسة غزير
رسم لتيلور - عن صورة فوتوغرافية .

في القرون الوسطى كان مرفأ جبيل محاطاً بمجموعة من الاسوار والتحصينات التي أقامها الصليبيون على عجل من حطام الهياكل القديمة. ولكن تلك التحصينات لم تعمّر طويلاً أمام الحروب وعوامل الطبيعة، وها هي الأنقاض وأعمدة الغرانيت تملأ القاع وتغلق أجزاء كبيرة من حوض المرفأ.

بين رمال الشاطىء ما نزال نجد حتى اليوم أعداداً كبيرة من القلادات والقطع الفضية والبرونزية الصغيرة، والتي لا يتجاوز قطر الواحدة منها ملمترين أو ثلاثة ملمترات. انها عبارة عن قطع نقدية قديمة خاصة بالنذور، وكان البحارة القدامى يلقونها في اليمّ لدى ركوب البحر وذلك كي تجري الرياح، وقوى الآلهة المزعومة آنذاك، كما يشتهون.

في محيط المدينة مدافن وقبور شبيهة بتلك الموجودة في صيدا وفي صور. ولكنها تتميّز عنها بتلك الأنفاق الضيّقة المحفورة عبر الصخور والعقود وذلك لايصال شيء من الضوء والهواء الى تلك الأقبية العميقة. هناك ايضاً أنفاق أخرى



دير سهل علما
رسم لتيلور
عن صورة فوتوغرافية

حفرت للتمويه بين الصخور والحقول وذلك لتضليل اللصوص الباحثين عن محتويات المدافن والقبور.

في اليوم التالي نتابع الرحلة جنوباً على الشاطىء الفينيقي الجميل. وعند مصبّ نهر ابراهيم، قرب الجسر، نقيم مخيمنا ثم نتجه نحو خليج جونية للبحث عن الأسماك الدفينة والمتحجرّة، والتي وجد بعضها منذ سنوات قرب دير ساحل علما. على جانبي الطريق العديد من المقاهي والمحلات التجارية المقامة على

الطريق البرية ما بين طرابلس وبيروت والتي تزدهر الحركة عليها لا سيما في المواسم العامرة .

تمرّ الطريق قرب برج قديم للحراسة ثم تندمج مع طريق رومانية قديمة وزلقة وصولاً الى رمال الشاطىء حيث نعبر مجرى نهرياً جافاً فوق جسر روماني قديم قائم على قنطرة واحدة مبنيّة من الحجارة الكبيرة .

على مرتفع نحو اليسار تقوم قرية غزير الجميلة بمنازلها البيضاء المنتشرة على كتف الجبل .

جسر المعاملتين عبارة عن لوحة فنية رائعة : عند طرفيه ما تزال تقوم بقايا منازل قديمة متهدّمة تجللها العرائش وأشجار التين . وتحت الجسر ترى بعض قطعان الخراف ومعها الرعاة الذين يجدون في تلك الظلال ملاذاً من حرارة الشمس الحارقة .

بين جبيل وغزير تقع قرية عمشيت ، وفيها المنزل الذي أقام فيه «رينان» مدير بعثة فينيقيا الفرنسية التي كان لها ان تحقق انجازات هامة على صعيد الاكتشافات الأثرية والتاريخية .

منازل عمشيت وغزير مماثلة لتلك التي نجدها في سائر مناطق لبنان . فهي عموماً ذات أشكال مكعبة وتعلوها سطوح طينية . الطوابق الأرضية عبارة عن مخازن وأقبية ، أما السكن فيكون في الأعلى ، حيث الهواء العليل بعيداً عن الغبار والحشرات . ويصل بين الطوابق العليا والأرضية سلالم خارجية .

في قرية غزير عدة أديرة ومدارس أسّسها الآباء اليسوعيون والكبوشيون ، والكنائس فيها ، على غرار غيرها في كسروان ، ذات أشكال مكعبة تعلوها قبّة ولا يزينها شيء من الخارج ، كما ان داخلها بسيط ويضم صحناً كبيراً ذا عقود ، إضافة الى المذبح القائم عند أحد الجانبين .

بعد السير جنوباً عبر الشاطىء الرمليّ ، بعد جسر المعاملتين ، ننعطف نحو الشرق صعوداً عبر الصخور وغابات الصنوبر وصولاً ، على ارتفاع ماية وستين متراً الى دير «ساحل علما» المنتصب كواحد من حصون القرون الوسطى فوق إحدى هضاب جبل لبنان .

هذا الدير الجميل عبارة عن مجموعة من الأبنية المختلفة والمتصلة ببعضها بعض ، ويعلوها برج صغير للجرس وهو ذو جمال مميّز . ندخل الى الدير عبر عدّة أبواب ضخمة محكمة الإقفال لنصل عبر ممرّ عقدي الى باحة مركزية يحيط بها رواق وتظلّلها شجرة زيتون .

لدى وصولنا سرعان ما تختفي راهبات الدير وينفرن من وجودنا الغريب .

دير سهل علما ــ رسم لتيلور ــ عن صورة فوتوغرافية

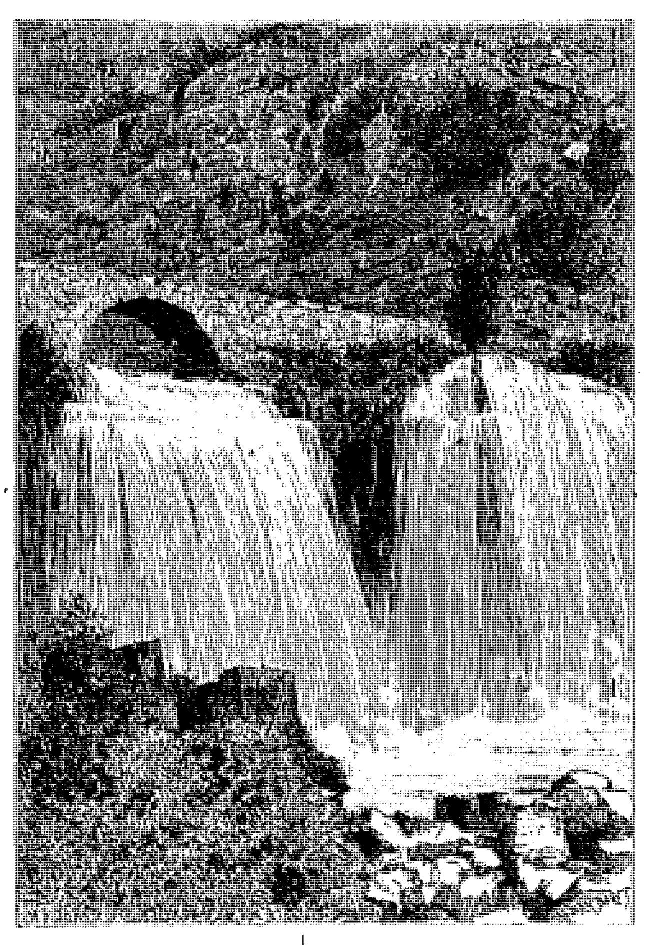
ولكن وبعد الاطمئنان الى حسن نوايانا يزول قلقهنّ ويتعاملن معنا باطمئنان ، حتى أنهن يسمحن لنا بالتقاط بعض الصور لهنّ . لا نستغرب سلوكهنّ هذا لا سيما وأنهن نادراً ما يرين رجالاً غير الراهب المقيم في الدير .

نتناول غداءاً بسيطاً في قاعة مفتوحة قرب الباحة ، نطلّ في نهايتها على منظر رائع لخليج جونية . ونهبط بعد ذلك الى الحقول الواقعة تحت الدير حيث نجد صخرة كبيرة بيضاء تتفسّخ بسهولة الى طبقات انطبعت بينها رسوم أسماك قديمة متحجرة .

نعود مساء الى مخيمنا قرب مصبّ نهر ابراهيم ، أو نهر أدونيس قديماً . قرب المخيم جسر قديم بناه المسلمون ، وهو ضيق ويقوم فوق ثلاث قناطر .

في اليوم التالي ننطلق باكراً على الضفة اليمنى صعوداً عبر الصخور والغابات الكثيفة ، وصولاً الى ارتفاع يتجاوز الثمانمائة متر حيث نطل من ارتفاع شاهق على وادي نهر ابراهيم وغاباته الصنوبرية الكثيفة والرائعة .

فوق بعض الجدران الصخرية نجد نقوشاً قديمة تحمل اسم الامبراطور «هدريان» والى جانبه صيغة حروف طالما كانت موضع حيرة للباحثين الى ان فكّ لغزها «رينان» . تلك الحروف هي : (A. G. IV. C. P) ، وكانت تعني منع استعمال أشجار بعض الغابات لأنها محفوظة لبناء سفن الاسطول البحري الامبراطوري .



شلالات جسر أفقا
رسم لتيلور
عن صورة فوتوغرافية

وتستمر الطريق عبر الغابات الممتدة فوق الهضاب والوديان ، حيث تقوم بعض القرى الصغيرة على ارتفاع يتجاوز الألف متر وصولاً الى قمة موحشة وعارية على ارتفاع الف وثلاثماية وعشرة أمتار ، ثم نهبط عبر واد يوصلنا الى مدرج طبيعي آخر محاط بالجبال الصخرية المرتفعة ، فنجتاز نهراً غزير المياه عبر جسر قديم ذي قنطرة واحدة لنصل بعد دقائق الى قرية كبيرة هي قرطبا المحاطة بحقول التوت . عند طرف القرية ، فوق مرتفع صخري ، يقوم دير قديم تحيط به شرفات عالية ويقيم فيه بعض الرهبان .

ونتابع طريقنا عبر طريق تهبط متعرّجة عبر الجوانب الجبلية وصولاً الى مجرى مياه العاقورة ، المنبع الشمالي لنهر ابراهيم ، الذي نجتازه فوق جسر ذي ثلاث قناطر غير متساوية . ثم نتجه صعوداً عبر ممرات صخرية وعرة

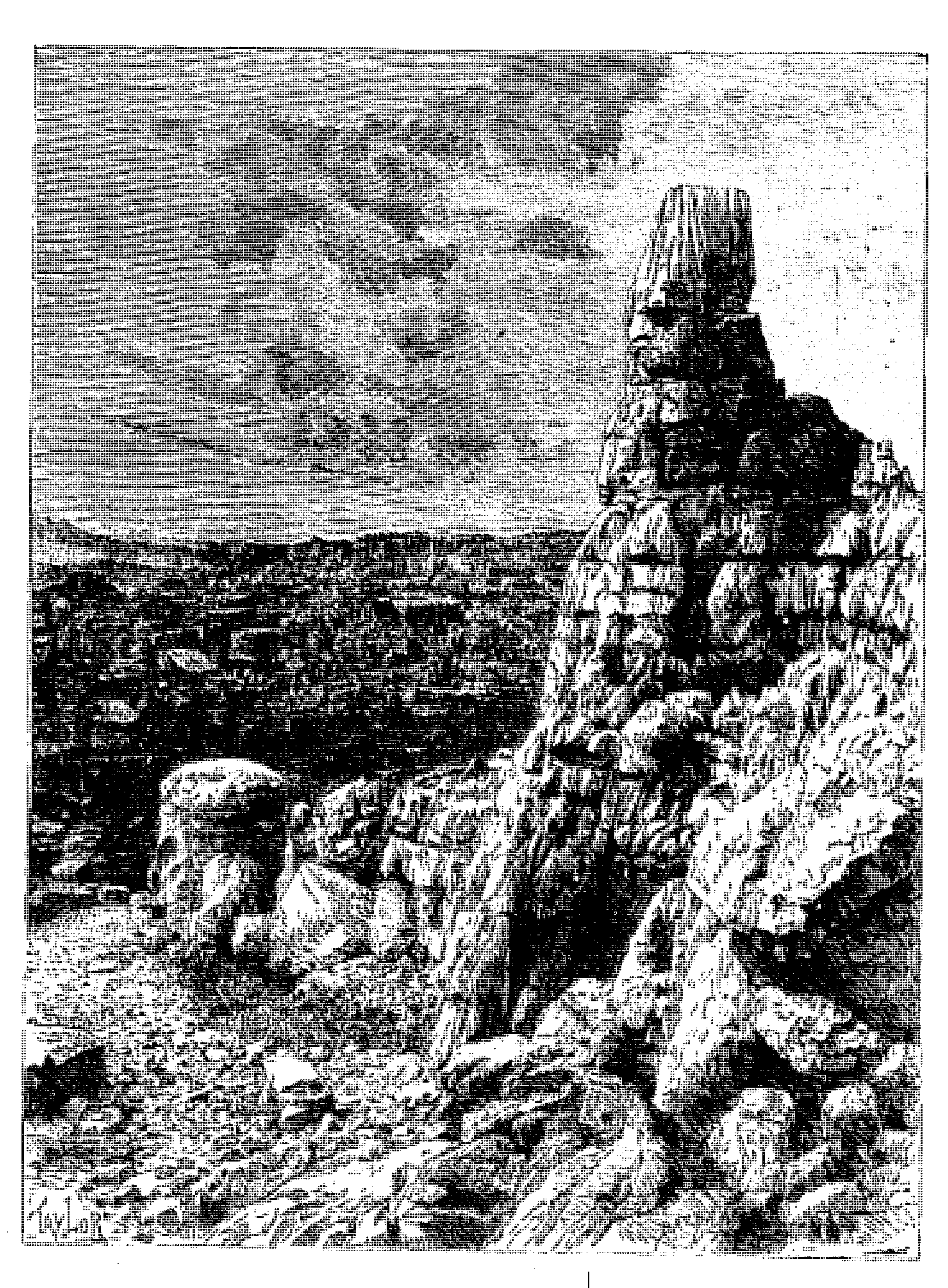
وصولاً الى الطريق التي تقود من العاقورة الى بركة اليمونة عبر ممرّ المنيطرة ، حيث سبق وعبرنا منذ أيام ، ولكننا لا نتابع فيها شرقاً بل ننعطف جنوباً عبر مرتفع مشرف على نهر ابراهيم وصولاً الى قرية المنيطرة الواقعة شمالي مدرّج أفقا قرب نبع ماء غزير وبارد ، وهناك نقيم مخيمنا لقضاء الليل .

نتابع الرحلة في اليوم التالي نزولاً نحو جسر أفقا ومغارتها الشهيرة ، والواقعين عند أسفل منخفض صخري تنتصب جدرانه بشكل شبه عمودي لتبلغ ارتفاعات تتراوح ما بين ستماية وسبعماية متر .

في الجدار الشرقي مغارة واسعة جداً شبه مربعة وتبلغ حوالي ستين متراً ارتفاعاً وعرضاً .

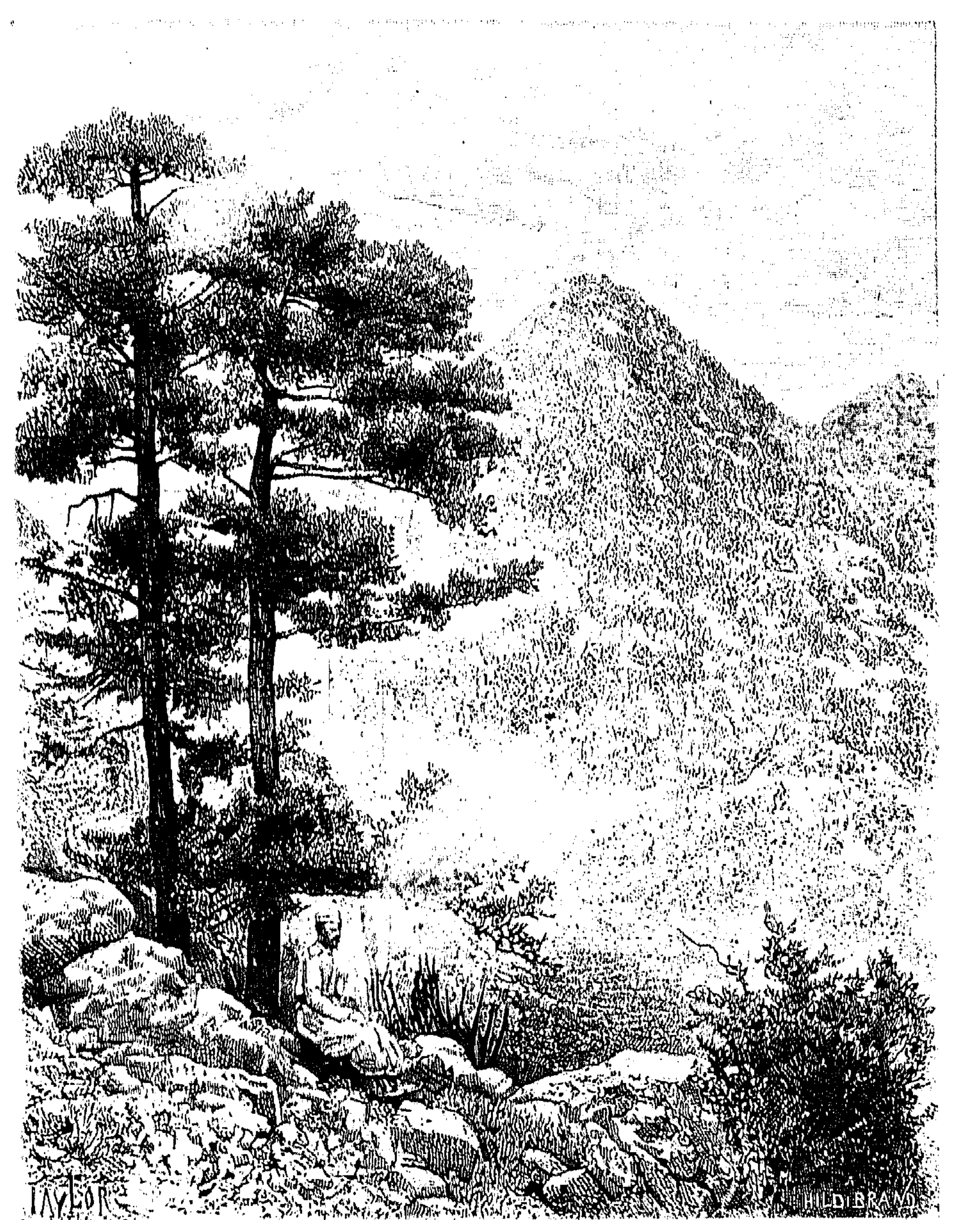
من داخل المغارة تتدفق بقوة مياه عذبة وصافية تتكسّر فوق الكتل الصخرية الضخمة مشكّلة مجرى عريضاً يسقط شلالات حتى الجسر القديم ذي القنطرة الواحدة ، والذي تعبر الطريق فوقه . تحت الجسر ثلاثة مساقط أخرى كوّنت تحت شلالاتها في الصخور أحواضاً صخرية طبيعية نظنّها لروعتها وكأنها من صنع الانسان .

واذا صدّقنا الروايات القديمة فإن في قاع تلك المياه كنزاً من القطع المعدنية



صخور ميروبا
رسم لتيلور ـ عن صورة فوتوغرافية

الذهبية والفضية وغيرها . . . ذلك انه يروى ان الناس كانوا يأتون الى ضفاف تلك الاحواض لمعرفة حظهم ، فيلقون بقطع الذهب والفضة ، أو الحرائر وغيرها ،فإن غرقت الأشياء على خفتها ، فان ذلك يعني رضى الالهة المزعومة عمّا يضمر صاحب العلاقة ، وان طفت تلك الأشياء ، على ثقل وزنها ، فان ذلك يعني عدم رضى تلك الآلهة المزعومة .



صنوبر في وادي نهر ابراهيم

رسم تيلور

عن صورة فوتوغرافية

الى يمين المغارة ويسارها نبعان آخران قويّان يختلطان عند القاع مع مياه المغارة . تلك المساقط المائية على كثير من الاهمية والقوّة والجمال لا سيما في شهر حزيران من كل عام حين تكون كمية المياه الجارية ما تزال قوية .

وفي أوقات لاحقة تخفّ قوة تلك الشلالات بشكل مفاجىء وذلك بعد نفاذ مياه بركة اليمونة التي تصل مياهها الى هذه المغارة عبر مجار جوفية . تقع المغارة على ارتفاع الف ومئتين وخمسة أمتار عن سطح البحر في حين يبلغ ارتفاع الجسر الف ومایة وخمسين متراً .

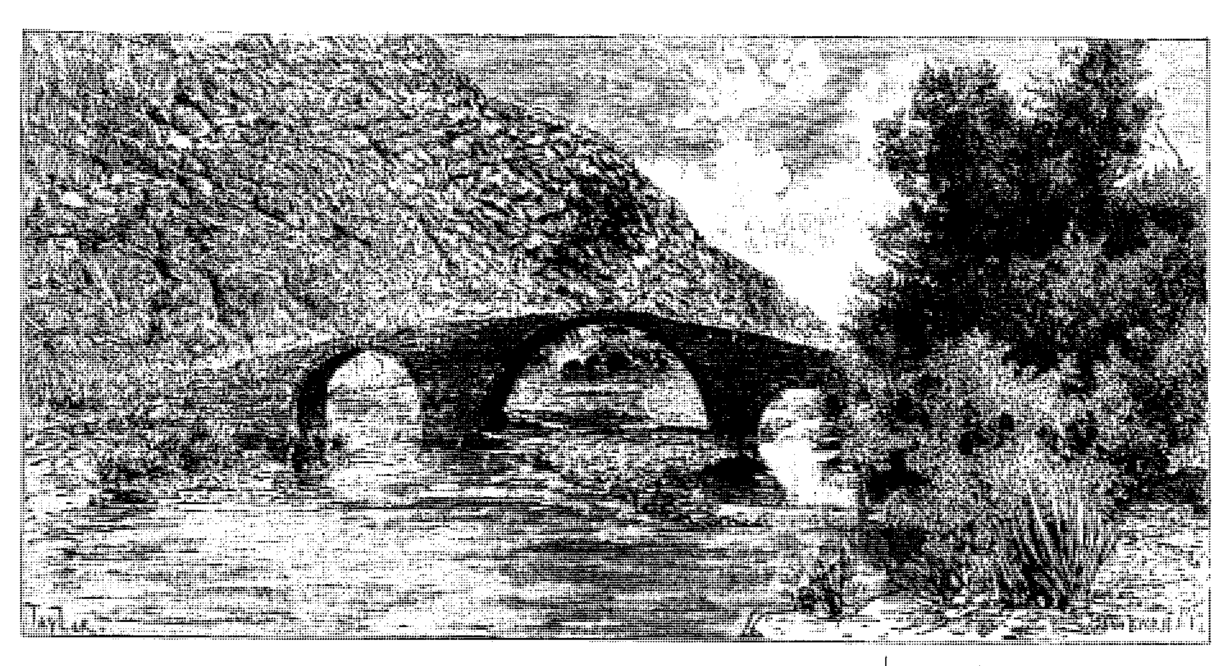
على الضفة اليسرى للنهر ، فوق مرتفع صغير ، ما تزال توجد بقايا هيكل قديم كانت تجري فيه طقوس واحتفالات احياء لذكرى «فينوس» و «أدونيس» والاساطير التي تروى عن استشهاد ذلك الصياد الشاب في سبيل آلهة الجمال

المزعومة . لم يبق من الهيكل سوى بقايا أعمدة وحجارة مختلفة الأشكال ومتراكمة فوق بعضها بعض .

ونتابع الرحلة عبر الوديان والهضاب وصولاً الى قرية «ميروبا» الواقعة على ارتفاع ألف ومئتين وخمسة وسبعين متراً . في مكان قريب نزور الجسر الطبيعي الممتد فوق «نهر اللبن» أحد ينابيع «نهر الكلب» . يعتبر هذا الجسر من أغرب الظواهر الطبيعية في لبنان بامتداده مسافة خمسين متراً بارتفاع يبلغ عشرين متراً . كما ان القنطرة الطبيعية للجسر ذات شكل هندسيّ يدعو الى الشك بأنها سوّيت على ايدي السكان الذين يعرفون هذا الجسر باسم «جسر الحجر» .

في مكان قريب يدعى «القفرة» يرتفع برج قديم بناه الامبراطور «كلود» ، إضافة الى بقايا وركام عائدة الى هيكل قديم تدل آثاره البسيطة الباقية على انه كان كبير الحجم .

عند الخروج من «ميروبا» تمر الطريق عبر متاهة غريبة من الصخور ذات الأشكال المثيرة للعجب ، فبعضها يبدو وكأنه أبراج الكنائس ، وبعضها مكعب أو



جسر نهر الكلب
رسم تيلور
عن صورة فوتوغرافية

مخروطي ، وهناك أشكال وكأنها التماثيل المنحوتة والى جانبها أقنية مختلفة الأحجام والاشكال . . . وفي كلّ ذلك لم تعمل أيدي النحاتين بل عوامل الطبيعة نفسها ، من أمطار وسيول ورياح .

ونتابع الطريق باتجاه قرية «فيطرون» الواقعة على ارتفاع ألف ومئتين وعشرة أمتار فوق قمة جبلية تفصل ما بين «وادي الصليب» جنوباً و «وادي عينطورة»

شمالاً . عند المساء نصل الى قرية «ريفون» حيث نقيم مخيمنا بين أشجار الصنوبر لقضاء الليل .

في اليوم التالي نتابع طريقنا نزولاً عبر طرق وممرات صخرية وعرة وصولاً الى «عينطورة» حيث ما تزال توجد مدرستها الشهيرة التي أنشأها في القرن السابع عشر الآباء اليسوعيون ، ولكنها الآن تحت إشراف الآباء العازاريين .

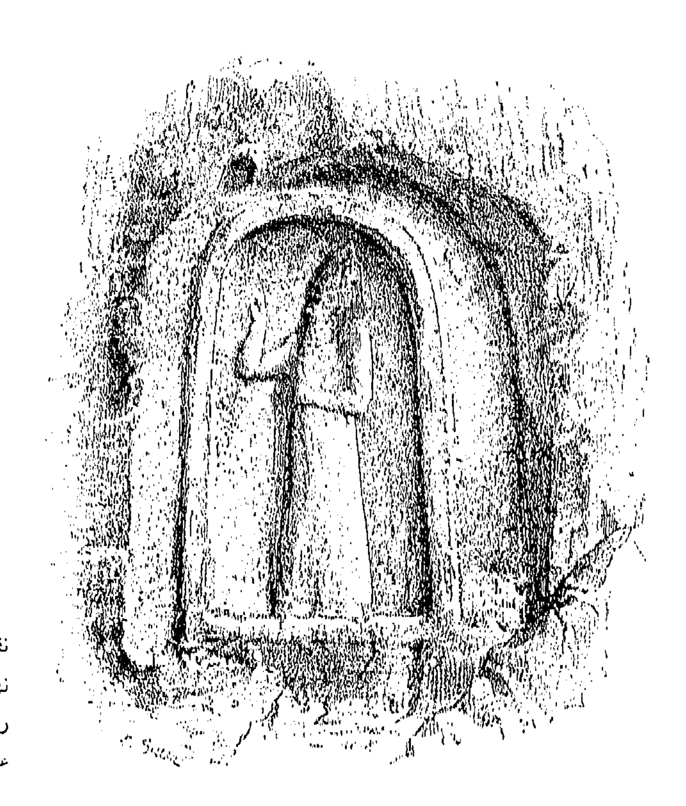
دير هذه المدرسة كبير ، وهو الآن قيد الترميم كما ستضاف اليه قاعات جديدة للدراسة والمنامة . في هذه المدرسة مكتبة ضخمة تحتوي على مؤلفات قديمة وقيّمة ، ومعرض للتاريخ الطبيعي ، وهي تضمّ الآن ، اثني عشر استاذاً وثمانين طالباً مقيماً .

تقع «عينطورة» وسط واد محاط بالتلال ، ولا تعلو عن سطحٍ البحرٌ أكثر من ألف ومئة وخمسين متراً .

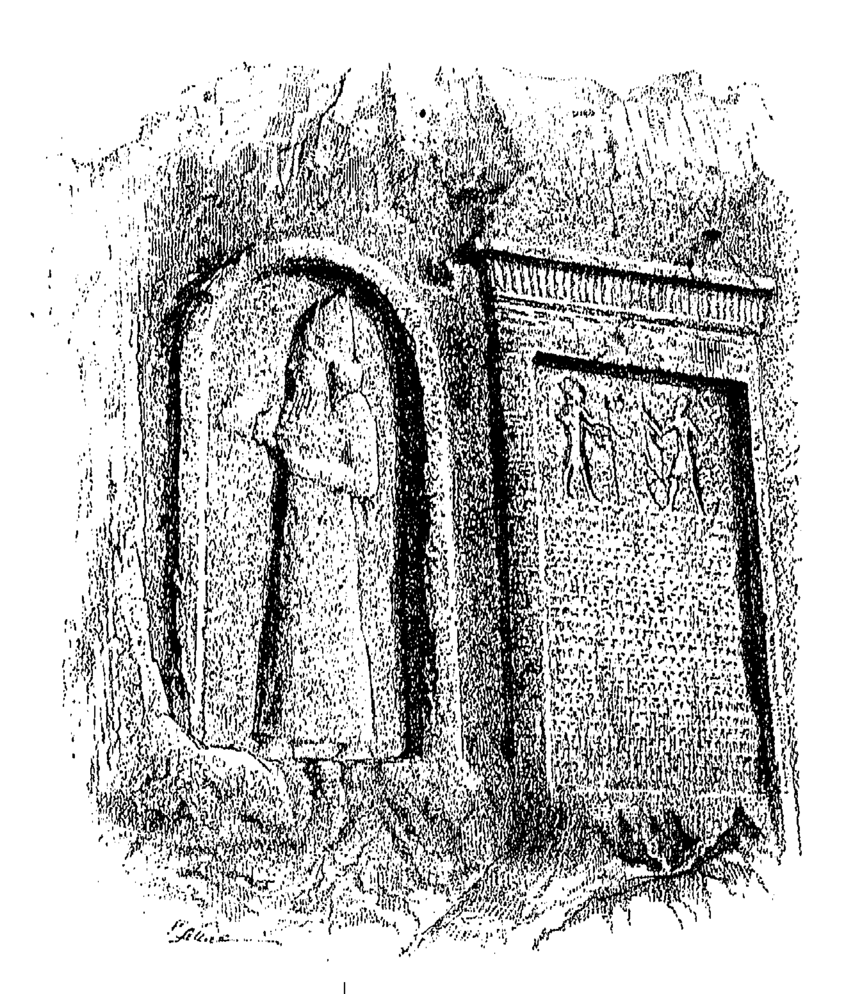
نخرج من «عينطورة» فنصعد غرباً عبر الهضاب المحيطة ثم ننحدر جنوباً عبر وادي «نهر الكلب» حيث الطريق متعرجة صخرية تظلّلها أشجار الصنوبر . وصولاً الى المغاور الشهيرة التي توقّف عندها الكثير من الرحّالة والباحثين .

المغارة الأولى الجنوبية عبارة عن فجوة واسعة في الصخور يتدفّق منها مجرى مائي غزير وعذب ، على ارتفاع ستين متراً عن سطح البحر ، وثلاثة أمتار عن مستوى النهر .

على خطوات من المغارة الأولى مغارة ثانية أكتُشفت فيها آثار هامة تعود الى ما



نقوش آشورية عند نهر الكلب
رسم پ . سيليه
عن صورة فوتوغرافية



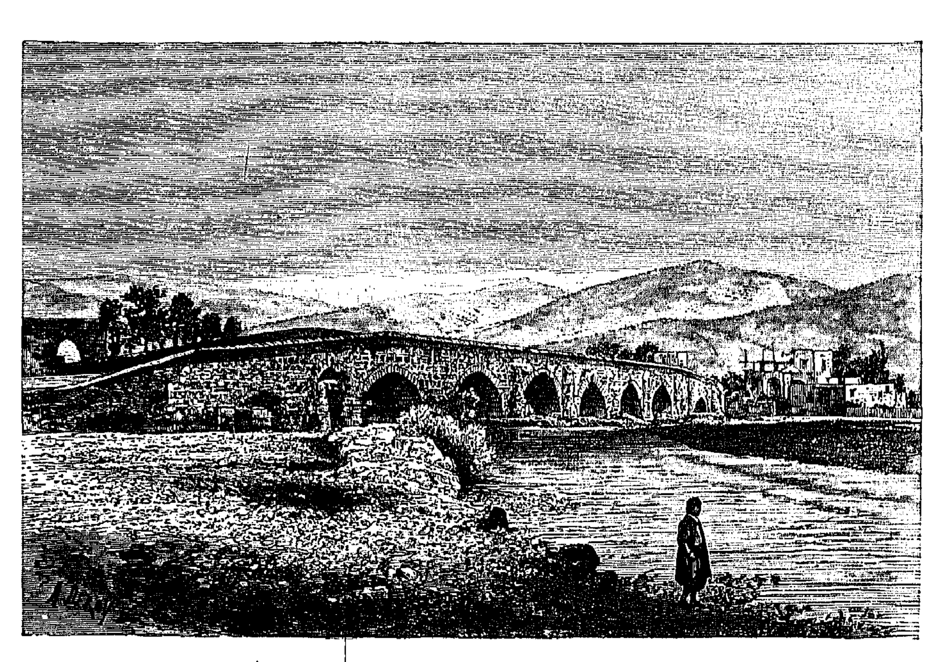
نقوش فارسية وأخرى مصرية من أيام رمسيس الثاني عند نهر الكلب
رسم پ . سيليه .
عن صورة فوتوغرافية

قبل التاريخ . تتجه فتحة هذه المغارة جنوباً وترتفع خمسة أمتار عن مستوى النهر . داخلها عبارة عن رواق طويل يبلغ خمسين متراً ، يتشعّب في نهايته ليتّصل من ناحية بالمغارة الأولى ، ومن ناحية ثانية يقود الى بحيرة باطنية تضيئها انعكاسات أرضية طبيعية تشبه السحر .

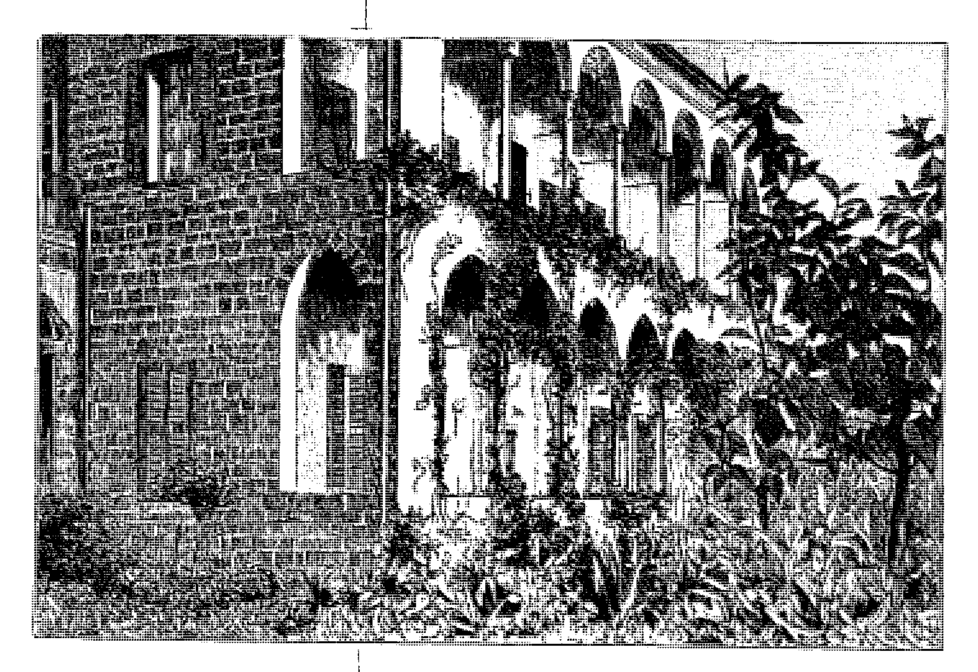
في تلك المغارة وبين صخورها بقايا عظمية لحيوانات لم تعد موجودة في لبنان ، كالخراف والماعز الوحشية والثيران الضخمة . إضافة الى أدوات صوانية قديمة كان يستخدمها السكان الأوائل ، وهي ذات صناعة أرقى من تلك الموجودة في «حانوية» قرب صور .

على مسافة قصيرة نحو الأعلى مغارة ثالثة تخفي فتحتها صخور ضخمة ويخرج منها مجرى مائي قوي . يمكن الدخول الى هذه المغارة عندما تكون المياه شحيحة ، حيث نصل الى قاعدة كبيرة تزين سقفها الهوابط الصخرية الطبيعية ، كما توجد عدّة ممرات جانبية يقود أحدها الى المجرى المائي الباطني حيث توجد بحيرة داخلية ذات مياه صافية وشديدة البرودة .

من مغاور «نهر الكلب» القديمة نعود أدراجنا صعوداً لأنه يستحيل الاتجاه جنوباً على الساحل انطلاقاً من الموقع الوعر الذي نحن فيه . ومع الوصول الى الهضبة التي تفصلنا عن «عينطورة» نعود باتجاه الساحل عبر طريق شديدة الانحدار وصولاً من جديد الى وادي نهر الكلب متّبعين ضفافه .



جسر نهر بيروت
رسم أ . ديروي
عن صورة فوتوغرافية



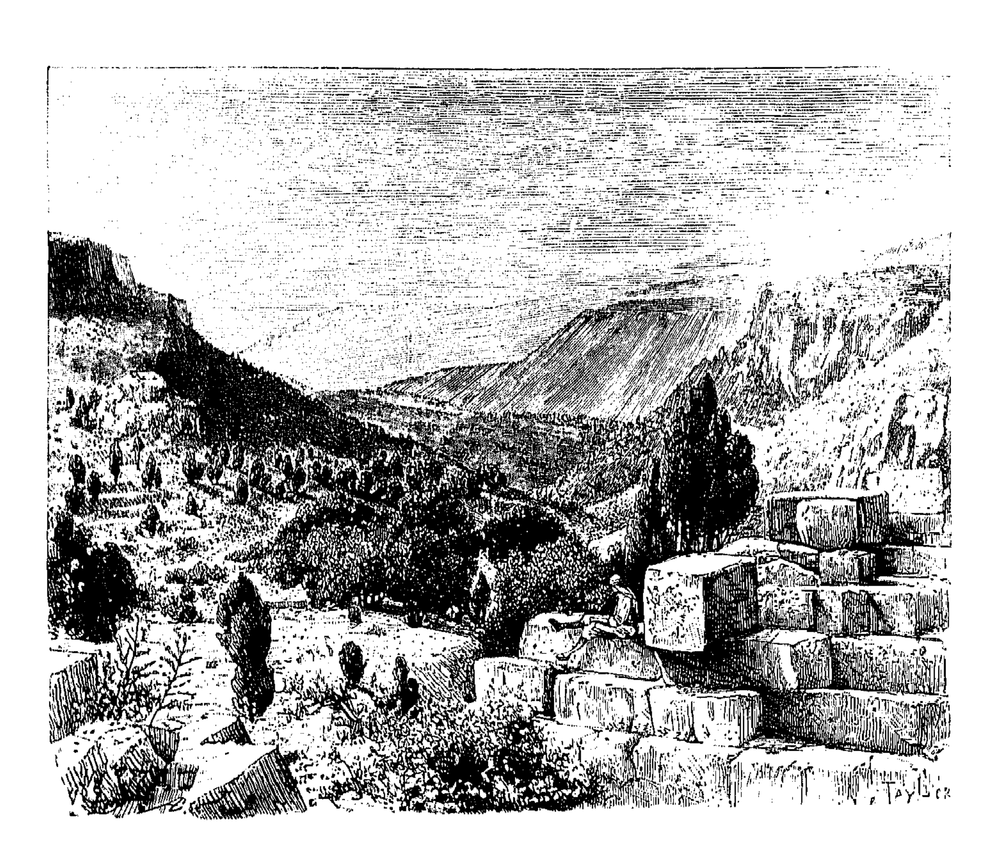
منزل الدكتور «سوكيه» في بيروت
رسم لتيلور
عن صورة فوتوغرافية

على الضفة اليسرى للنهر جدران عالية تتخلّله أقنية تجرّ المياه الى مدينة بيروت . ونحو الشمال أقنية رومانية قديمة تروي الحقول والبساتين القريبة . بعد ذلك نجتاز النهر عبر جسر قديم ذي ثلاث قناطر ، وتتخذ القنطرة الوسطى حجماً أكبر من القنطرتين الجانبيتين ممّا يجعل الجسر مرتفعاً في وسطه . شديد الانحدار عند الجانبين .

في هذا الموقع الجميل تصبّ مياه «نهر الكلب» في البحر المتوسط . شمالاً نطلّ على شواطىء جبيل التي تعلوها قمم جبل لبنان الخضراء ، وجنوباً رؤوس صخرية عالية رأى فيها القدامى شكل رأس كلب فأطلقوا الاسم على النهر .

بعد محطة للراحة نتابع الطريق عبر ممرات صخرية وعرة نمرّ بينها قرب صخور تحمل النقوش الشهيرة التي خلّفها وراءهم الغزاة القدامى الذين عبروا في هذا الموقع خلال غزوهم لسوريا وفينيقيا . من تلك اللوحات المنقوشة في الصخر نقوش آشورية وأخرى فارسية وثالثة مصريّة من أيام رمسيس الثاني ، إضافة الى ما تركه يونان الاسكندر وقدامى الرومان والصليبيون والمصريون مع ابراهيم باشا ، ثم الفرنسيون في حملتهم على سوريا . كل هؤلاء الغزاة تركوا آثاراً تدلّ عليهم في ذاك الممرّ الصخريّ .

ونتابع الطريق باتجاه بيروت صعوداً الى قمة رأس طبيعي مشرف على البحر ومياهه الزرقاء حيث السلاحف المائية ، التي يتجاوز طول بعضها المترين ، تسبح ببطء وهدوء وهي تأكل الأعشاب والطحالب البحرية .



اطلال معبد ادونيس
ووادي نهر ابراهيم في أفقا
رسم تيلور
[illegible]

وبعد المرور قرب مغاور أخرى قديمة تنحدر الطريق نحو الساحل حيث يوجد نفق قديم في الرأس الصخري تعبر منه مياه نهر الكلب صافية عذبة .

وبعد ذلك ننطلق عبر الطريق الساحلية الرملية على شاطىء الخليج نصف الدائري الممتد حتى مدينة بيروت ، وصولاً الى ضفاف نهر بيروت حيث البساتين والحدائق المحاطة بأشجار الصبّار الضخمة ، ثم نعبر الضفة الأخرى فوق جسر ذي سبع قناطر كان قد بناه الأمير فخر الدين المعني .

بعد قليل نصل الى بيروت حيث يستقبلنا صديقنا الدكتور «سوكيه» المقيم هناك منذ فترة طويلة في منزل كبير وجميل . انها نهاية رحلة جميلة وهامة حملتنا عبر سوريا كلّها بجغرافيتها وتاريخها وآثارها وسكانها وطبيعتها ، فخرجنا منها بنتائج علمية هامة ، إضافة الى أكثر من مئتين وخمسين صورة فوتوغرافية ومجموعة ضخمة من الذكريات والأشياء التذكارية المختلفة .

قبل مغادرة بيروت نهائياً نبقى فيها لبضعة أيام وذلك لمتابعة أبحاث ودراسات عن الاسفنج البحري الليفي وتكاثره ونموّه . هذه الابحاث كنت قد بدأت بها خلال السنوات الماضية في اليونان وبيروت ، ورأيت ان الظرف مناسب الآن لاكمالها .

يتواجد الاسفنج الليفي في جميع سواحل فينيقيا ، ولكنه يكثر جداً في خليج بيروت الصخري حيث نجده بكثافة ملتصقاً بالصخور الموجودة على أعماق تتراوح ما بين عشرة أمتار وخمسة وعشرين متراً . أما في الأعماق التي تتجاوز هذه الحدود فتقلّ كمية الاسفنج ، كما أنه يضحي من نوع لا قيمة تجارية له .

صيادو بيروت لا يستخدمون الخوذات وعدّة الغطس الحديثة في صيدهم للاسفنج وذلك تفادياً لحوادث ومخاطر يرون انها تنتج عن التغيّر السريع للضغط

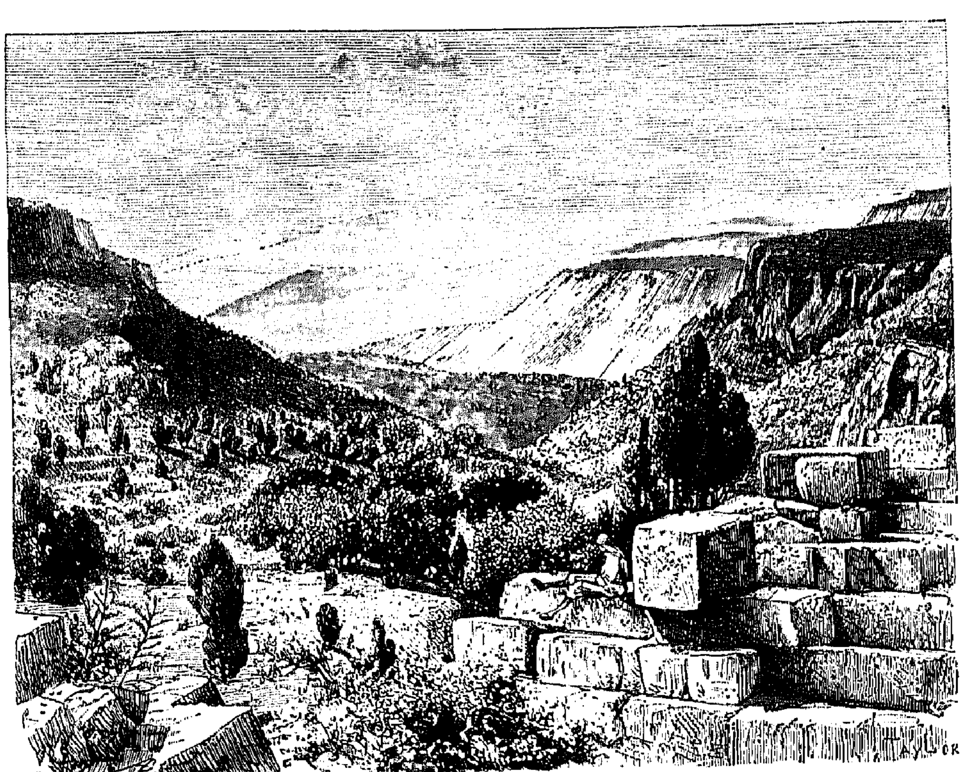


حجري غطس كان يستعملهما المسلمون والمسيحيون في بيروت
رسم لتيلور
عن صورة فوتوغرافية

الذي يتعرّض له الغطّاس لدى خروجه من الماء . انهم جميعاً سباحون مهرة ويرون انه من الأفضل لهم الغطس تحت الماء عراة ودون جهاز تنفسيّ .

من أطرف وسائلهم انهم ، وتفادياً لبذل الجهد الكبير لدى النزول في الماء ، يحمل الواحد منهم حجراً كبيراً أو بلاطة تزن عدّة كيلوغرامات ، وتكون مثقوبة عند أحد طرفيها حيث تربط بحبل يسمح بسحبها من الماء مع الغطاس حين يشعر بالتعب . فوق هذه البلاطة نجد أحياناً نقوشاً عربية جميلة ومختلفة . فإذا كان الغطاس مسلماً ينقش على بلاطته هلالاً ومعه كتابة تقول «إنّا لله وانّا اليه راجعون» . واذا كان مسيحياً وجدنا بلاطته تحمل صليباً وقد تكون معها عبارة مثل «توكلت على الله» أو غيرها .

بعد الانتهاء من أبحاثنا في بيروت ، نودّع الأصدقاء وتلك البلاد الجميلة ثم نتوجّه بحراً في سفينة تحمل الحجاج الروس الى يافا ، ومن هناك نستقل باخرة فرنسية نبحر معها الى مرسيليا بعد محطات في بورسعيد والاسكندرية .



أنقاض معبد أدونيس ووادي نهر ابراهيم في أفقا



مدرج أفقا وشلالات نهر ابراهيم

فهرس الصور والرسوم

الفصل الأول :

الفصل الثاني :

الفصل الثالث :

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :

الفصل السابع :

الفصل الخامس عشر:

الفصل السادس عشر :

الفصل التاسع عشر:

الفصل العشرون:

الفصل الحادي والعشرون:

الفصل الثاني والعشرون :